

الكون والفساد

أرسطو طاليس

- ♦ المؤلف: أرسطوطاليس
- ♦ العنوان: الكون والفساد
- ♦ المترجم: أحمد لطفي السيد
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ
- ♦ Author : Aristotle
- ♦ Title: On Generation and Corruption
- ♦ Title: Ahmed Lotfy Al-Sayed
- ♦ Afaq's First Edition: 2018
- ♦ Cover Design by: Amr AlKafrawy
- ♦ Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- ♦ General Manager: Mostafa Alsheikh



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ١٦٠٦٤

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 121 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

الكون والفساد

أرسطو طاليس

يتلوه كتاب «في ميليسوس وفي أكسينوفان وفي غرياس»

ترجمها من الإغريقية إلى الفرنسية وصدرها بمقدمة في تاريخ الفلسفة
الإغريقية وعلق عليهما تعليقات متتابعة

بارتلمي سانتهيلير

أستاذ الفلسفة الإغريقية في "كلليج دي فرنس" ثم وزير الخارجية الفرنسي

نقلهما إلى العربية

أحمد لطفي السيد

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أرسطو طاليس

الكون والفساد - أرسطو طاليس. ترجمه للعربية : أحمد لطفي السيد

ط1 القاهرة - آفاق للنشر والتوزيع - 2018

336 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 16064 / 2017

الترقيم الدولي 9 - 121 - 765 - 977 - 978

1 - الفلسفة

أ - العنوان

مقدمة المترجم

بارتلمي سانتهيلير

أصول الفلسفة الإغريقية

هذان الكتابان اللذان جُمع بينهما في هذا السَّفر هما حملة على مدرسة إيليا التي هي من أقدم مدارس الفلسفة اليونانية - مهد الفلسفة هو في مستعمرات شواطئ آسيا الصغرى: طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان..... إلخ وسابقوهم الحقيقيون بالإعجاب هوميروس وسافو.... إلخ - علم الفلك والرياضيات والتاريخ والطب.... إلخ - الانحادات الثلاثة: الأيوليون في الشمال، واليونان في الوسط، والدوريون في الجنوب - جملة الحوادث الكبرى التي تدخل في أمرها الفلاسفة من طاليس إلى ميليسوس من السنة ٦٢٠ إلى السنة ٤٣٠ قبل الميلاد - حرب يونيا مع ليديا ومع مملكة الفرس - الوسائل المادية التي كانت عند الأقدمين لكتابة المؤلفات - الكتب من طاليس إلى زمن أرسطو طاليس - شهادات هيرودوت وطوكوديدس وأكسينوفون وأفلاطون وأرسطو - الاستعمال العام لورق البردي المصري - صنع الورق على قول بلاين - رسائل شيشرون - إيضاح هذه الحوادث - ورق البردي المحفوظ في دور الآثار عندنا (فرنسا) - محاجر وأقلام الكتبة التي يرجع تاريخها على الأقل إلى نحو خمسة وعشرين قرناً - أولية الفلسفة اليونانية - كونها لا تدين بشيء للشرق - المقارنة بينها وبين الفلسفة الهندية - خلاصة القول على مدرسة "إيليا" - المعنى الحقيقي لنظرية الوحدة.

جمعت عمداً بين هذين الكتابين في هذا السَّفر؛ لأنهما - كما يظهر لي - يعبران كلاهما عن أفكار من قبيل واحد، ففي أولهما يعني أرسطو بإيضاح كيف تكون الأشياء

وكيف تنتهي، خلافاً لمذهب وحدة الوجود ولا تغيره، وفي ثانيهما المناقشة بعينها موجهة مباشرة إلى ممثلي مدرسة إيليا: إكسينوفان مؤسسها، وميليسوس حافظ مبادئها حتى العهد الذي قام فيه سقراط بيدل بالتردد القديم فلسفة جديدة حاسمة، والفكرة في الكتابين متماثلة، ولا فرق بين أحدهما وبين الآخر إلا في الشكل فقط، فهنا توضيح عام لمبدأ، وهناك نقض خاص للمبدأ المناقض، وسنعود بالاختصار في آخر هذه المقدمة إلى تقدير قيمة هذين الكتابين اللذين يستأهلان أن يُعرفا أكثر مما هما الآن، ولكني أرغب بداية في أن أبين بقدر ما أستطيع من البيان ماذا كانت الحركة الفلسفية التي شاطر فيها إكسينوفان وميليسوس، سواء في إحداثها أو في اتباعها.

إكسينوفان وميليسوس كلاهما من الأسماء البعيدة القدم، ومن الصعب لأول نظرة الاقتناع بأن درسهما يبعث اهتماماً جدياً هذه الأيام، هذان الفيلسوفان كانا يعيشان في القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد، وعلى هذا المدى فليس إلا التنقيب وحده، فيما يظهر، هو الذي ما زال يوليها العطف الذي انقضى زمانه، ويستقصي مذهبهما المنسية منذ زمان بعيد. لست أقصد في الحق إلى انتقاد التنقيب، ولكني أدرك ما يثير ثأره من التحامل البادر عندما يتوغل في درس تلك الأزمان البعيدة إذ تنعدم المراجع الوثيقة فلا يبقى لنا من أعيانها إلا آثار لا صور لها، على أنني في هذا الموطن أكثر مما في سواء أسأل أن يصغي إلى التنقيب لحظة، فإن الموضوع الذي يحاوله فيما يتعلق بإكسينوفان هو موضوع من أهم موضوعات تاريخ العقل البشري وأكثرها حيوية.

إنه ليس أقل من أن يكون ميلاد الفلسفة في هذا العالم الذي نحن منه.

أما من جهة الفلسفة الشرقية فإننا لا نعرف، بل ربما لن نعرف أبداً من أمرها شيئاً معيناً بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسة وانقلاباتها، فإن أزمته وأمكتتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء. إنها مستعصية دون إدراكنا، مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات. حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً. إن الفلسفة الشرقية لم

تؤثر في فلسفتنا، ومع التسليم بأنها تقدمتها في الهند وفي الصين وفي فارس وفي مصر فإننا لم نستعر منها كثيرًا ولا قليلًا، فليس علينا أن نصعد إليها لنعرف من نحن ومن أين جئنا، والأمر على الضد من ذلك مع الفلسفة الإغريقية، إننا بها نتصل بالماضي الذي منه خرجنا. وعلى الرغم من عماية الكبرياء التي هي في الغالب جانية الكفران يجب علينا ألا ننسى أبدًا أننا أبناء إغريقيا. إنها أُمنا في جميع أمور العقل تقريبًا. فلئن ساءلنا أوائلها فإنما نُسائل أصولنا. فمن طاليس ومن فيثاغورث ومن إكسينوفان ومن أنكساغوراس ومن سقراط ومن أفلاطون ومن أرسطوطاليس إلينا لا يوجد إلا فرق الدرجة. نحن جميعًا في طريق واحد مستمر من قرون عديدة، ومتصل بلا انقطاع لا يتغير اتجاهه، بل يصير على مرور الزمان أكثر طولًا وأبهي جمالًا، والظاهر أننا لا نخجل من الانتساب إلى أمثال هؤلاء الآباء، وكل ما علينا هو أن نبقى حقيقين ببنوتهم بأن ندرج على سنهم.

قد أمكن القول - لا من غير حق - بأن الفلسفة ولدت مع سقراط^(١). والواقع أن لهذا الرجل العجيب من المقام ما يسمح بأن يسند إليه هذا الشرف العالي، بأن يقرن اسمه بهذه الحادثة الكبرى، ولكن سقراط بتواضعه المعروف ما كان ليقبل هذا المجد، فإنه كان يعلم أكثر من كل إنسان أن الفلسفة قد كانت تنشأ من قبله بنحو قرنين إلى أن جاء فأفاض عليها قوة وجمالًا لم يفارقها بعده، لم يكن مولد الفلسفة في آتينا بل في آسيا الصغرى؛ لأنه يجب تأخير هذه الحادثة مائتي عام إلى الوراة تقريبًا، إلا أن تمحي من التاريخ تلك الأسماء العظام الأولى التي ذكرتها. إن التقدم الذي افتتح سقراط بابه لم يكن إلا استمرارًا لا ابتكارًا وإبداعًا.

كل الأصول غامضة بالضرورة. يجهل المرء نفسه دائمًا في أول الأمر. وإن تعرف سنة هذه القرون الأولى مقرون بالشك الذي يلحق أيضًا الحوادث ذاتها التي مرت كأنها غير محسوسة، ومع ذلك إذا لم يلتزم هنا الضبط غير الممكن فإن أوائل الفلسفة اليونانية يجب

(١) راجع مقدمة تاريخ الفلسفة، لفكتور كوزان، الدرس الثاني من دروس سنة ١٨٢٨، والتاريخ العام للفلسفة، الدرس الثالث، ص ١٠٢.

أن تظهر لنا أجلى من أن يدعو للشك في أمرها سبب محسوس.

كان طاليس من ملطية، وقد حقق التاريخ وجوده في جيش أحد ملوك ليديا نحو آخر القرن السادس قبل المسيح، وبعده بقليل جاء فيثاغورث الذي بعد أن عاد إلى وطنه سموس إثر سياحات طويلة فر منه اتقاء لظلم بوليقراطس الذي كان يضطهده، وذهب يحمل مذهب على الشطوط الشرقية لإغريقيا الكبرى إلى سيارس وقروطون، أما إكسينوفان فإنه لأسباب أشبه بالمتقدمة نزع عن كولوفون، وطنه الأول، ولما اجتمع ببعض المهاجرين من فوكاية، الذين هم بين أنياب الأخطار قد وجدوا آخر الأمر موثلاً على شواطئ البحر الترهيني في إيليا (هييلا أو فيليا) أسس في هذه المدينة الحديثة العهد وقتئذ مدرسة شهرت ذكرها.

أصرف القول الآن إلى هؤلاء الثلاثة العظماء الذين كانوا جميعاً رؤساء مدارس خاللات، وإن كنا لا نعرف منها إلا الشيء القليل: مدرسة يونيا، ومدرسة فيثاغورث، ومدرسة إيليا، وعما قريب أستطيع أن أضم إلى هذه الأسماء طائفة من أسماء آخر، لا يستطيع تاريخ الفلسفة أن يغفلها كما لا يستطيع إغفال الأولى.

ولكني، لا لشيء غير الفكرة في أمر طاليس وفيثاغورس وإكسينوفان، أشعر بأمر يسترعي نظري، إنهم ثلاثتهم من هذا الجزء من العالم الهليني الذي يسمى آسيا الصغرى وإنهم تقريباً متعاصرون. إن ملطية التي هي في القارة، وسموس في الجزيرة التي بهذا الاسم، وكولوفون في شمال إيفيزوس بقليل، تكاد لا تتجاوز الأبعاد بينها خمسة وعشرين فرسخاً.

على هذه المسافة الضيقة وفي وقت واحد تقريباً تجد الفلسفة مهدها المجيد، لكيلا نخرج من هذه الحدود في المكان والزمان والموضوع نضيف إلى هذه الثلاثة الأسماء: طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان، أسماء انكسيمندروس وأنكسمينس اللذين هما أيضاً من ملطية، وهيرقليطس الذي هو من إيفيزوس، وأنكساغوراس من كلازومين غربي أزمير قليلاً في خليج هيرموز، وأذكر اسم لوكيبس وديموقريطس اللذين ربما كانا من ملطية

أيضاً أو من أبدير مستعمرة طيوس، واسم ميلیوس الذي هو من سموس كفيثاغورث. فوق ذلك أضيف إلى هذه الأسماء أسماء بعض الحكماء الذين هم أقل استنارة من الفلاسفة ولكنهم ليسوا أقل منهم احتراماً، فمنهم بطاقس من ميتيلين في جزيرة لسبوس وهو رفيق سلاح للشاعر ألكايوس في محاربة الطغيان، وقد نادى به مواطنوه ديكتاتوراً عليهم فلبث فيهم عشرة أعوام يعمل صالحاً ثم نزل عن الدكتاتورية، ومنهم "بياس" من "بريينة" الذي لو اتبع الاتحاد اليوناني ما قدمه له من النصيح لنجا كما ذكر هيرودوت، ومنهم ايزوبس الذي أقام طويلاً في سموس ثم في سرديس عند كريسوس، ذلك المولى الفريجي الذي لا ينبغي للفلسفة أن تنسى ذكره في عداد ذويها، والذي لم يستنكف سقراط من أن ينظم حكاياته شعراً^(١).

وأذكر كذلك أسباسيا من ملطية التي حدث عنها أفلاطون في كتابه المينكسين، والتي كانت تتحدث إلى سقراط، والتي كانت تعطي لبيركليس دروساً في البلاغة كانت تؤلف منها أحياناً الخطب السياسية، والتي خصص لها رفايل محلاً في مدرسته الآتينية. من ذلك يرى أن تيديمان الأريب كان محققاً حين كنى آسيا الصغرى بـ "أم الفلسفة ووطن الحكمة"^(٢). هذه الأحداث القليلة التي جئت على ذكرها والتي يمكن أن يضاف إليها كثير من أمثالها كافية في إثبات هذه الحقيقة. منذ الآن متى عرض حديث منشأ الفلسفة في عالمنا الغربي - بالمقابلة للعالم الآسيوي - عرفنا لمن هو ذلك المجدد، وإلى من يجب أن يسند عدلاً.

يكفي قليل من النظر للعلم بأن من الممتنع أن تنمو الفلسفة بذاتها وحدها. من البديهي أن جميع عناصر العقل يجب أن تبلغ نماءها قبل التأمل؛ لأن التأمل المرتب على نمط معين لا يظهر إلا متأخراً وبعد سائر الملكات الأخرى. وليس بي حاجة إلى التبسط في بيان هذه الحقيقة المشاهدة في الأمم وفي الأفراد على السواء. وأقتصر على أن أقرر أن

(١) فيدون لأفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٩١ و ١٩٣.

(٢) تيديمان (روح الفلسفة النظرية) سنة ١٧٨١ ج ١ ص ١٣٩ النسخة الألمانية.

مجرى الأمور في آسيا الصغرى لم يكن مختلفاً عنه في غيرها، فإن الفلسفة على هذه الأرض المخصصة لم تكن نباتاً منفرداً ولا ثمرةً غير منتظرة. وقليل من الكلمات يكفي في التذكير بأنها كانت هي المنطقة المهيأة لهذا الإنتاج الشريف وما عليّ إلا أن أسرد أجمل الأسماء وأحقها باعتراف الناس.

في رأس هذه الطائفة اسم هوميروس الذي ولد وعاش يقينا على شواطئ آسيا الصغرى وفي جزرها قبل الميلاد بنحو ألف عام. وماذا عسى أن أقول في قصائده وكيف أوفي عبقريته مدحاً وثناء. كل ما أقرر أن هوميروس لا يقصر أمره على أنه أكبر الشعراء، بل هو أعمقهم فلسفة. وإن بلداً ينتج باكراً أمثال تلك البدائع لتحقيق بأن ينتج بعد ذلك عجائب العلم والتاريخ.

بعد هوميروس أقص نبأ قلينوس الايفيزوسي الذي هو حربي مثل طورطيس والذي شهد وقت إغارة القميريين وشدا بها في شعره. ثم الكمان السردى الذي حق له أن يعلم تقدمونيا وطن لوكورغس ويهرها على ما بها من جفاء. وأرخيلوخس الباروصي والقايسوس اللسبوسى ذي الربابة الذهبية كما قال هوراس. وسافو الميتيلينية أو الايريزية التي لا يكاد يستحق أحد الثناء أكثر منها إلا هوميروس^(١). ثم ميمنرس الأزميري شاعر انتصارات يونيا على الليديين. ثم فوكليديس الملطي الذي حمل الشعر قواعد الأخلاق. ثم أنا كريون الطوسي. وقريب من الشعراء تربندرس اللسبوسى مبدع الموسيقى وواضع طرائقها الثلاث الأصلية: الليدية والفريجية والدورية. ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء أريون الشاعر الذي هو من لسبوس مثل تربندرس.

ذلك في الشعر، وكم إلى جانب الشعر من الكنوز التي لا تقل عنه في نفاستها وإن قلت عنه في البهاء: علم الفلك والجغرافيا أبدعهما أنكسيمندروس وسكولاكس من كاروندا على خليج يسوس، والرياضيات التي أبدعها فيثاغورس وتلاميذه أسلاف أرسطارخس

(١) ر. كتاب فيلمين على عبقرية بندار ص ١٠١ وما يليها ٠، ٠ أيضاً تاريخ الآداب الإغريقية الذي ألفه اوتفريد موللر. ترجمة ايلبيراندج ١ ص ٢١٨ وما يليها.

السموسي معلم أرخميدس وهيبارخس الرودسي. والتاريخ أبدعه إكسنتس السردى وهيكاتيوس الملطي وهيلانيكوس الميثيليني، وعلى الأخص هيرودوت الهاليكارناسي الذي لُقّب منذ زمان طويل أبا التاريخ، وبودي لو أعطيه لقبًا آخر لو وفقت إلى لقب أجمل من هذا وأدخل منه في الحق. والطب انتقل من جزيرة سموس إلى كورينا وقروطن ورودس وكنيدس قبل أن يقر قراره في قوص بفضل بقراط الذي لا يقل عظمًا في فنه عن هوميروس في شعره. وفن عمارة المدن أبدعه هيو داموس الملطي الذي كان مع ذلك كاتبًا سياسيًا حلل مؤلفاته أرسطو في كتابه "السياسة" (ك ٢ ب ٥). وفن الحفر والصب أبدعهما تيودور السموسي ابن روكوس. وفن التعدين أبدعه الليديون إلخ.

أقف هنا لكيلا نجاوز بهذا التعدد الجاف أبعد مما ينبغي. ولكنه يجب التنبيه إلى أن هذا الخصب البالغ حد الإعجاز لم ينته بانقضاء تلك الأزمان التي ذكرناها، فإن تيوفراسط هو من إيريزا، وأبيقور رُبي في سموس وكولوفون، وزنون فخر الرواق ولد في كتيون من قبرص، وإيفورس من كومة، وتيوبومبس من شيرز، وبرهاسيوس وأبيلس من إيفيزوس وكولوفون، واسترابون من أماسية على الجسر (البحر الأسود) مستعمرة إحدى المدن اليونانية من الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى إلخ.

تلقاء هذا المجد السامي الذي لم يمحه ما ظهر بعده لا يسعني إلا أن أقف مأخوذًا أتساءل : هل عرف الناس أن يوفوا هذه العبقرية وهذا الكمال وذلك الإبداع حقوقها من الإعظام ؟ لا أظن ذلك، وتلك في رأينا داعية إلى تعديل تاريخ هذه المستعمرات الإغريقية من آسيا الصغرى في بعض أجزائه على الأقل. تلك المستعمرات التي ندين لها بكل شيء. ولكنني إذا قربت هذا العمل وحاولت هنا عجالة فذلك لا لأرفع ظلمًا مرت عليه القرون لضيق دائرة موضوعي، بل ليحسن فهم الناس لتلك الحركة الخارقة للعادة والتي هي فذة في تطور العقل الإنساني، ولأبين حق واضعي الفلسفة وآباء العلم.

لذلك أعرض، دون مجاوزة الحدود المشروعة، ماذا كانت هذه المستعمرات التي نزحت من أغريقا على شواطئ آسيا الغربية قبل المسيح بأحد عشر أو اثني عشر قرنًا،

وماذا كانت الحوادث السياسية الرئيسة التي اعتورت تلك الأصقاع مدة قرنين اثنين من عهد إكسينوفان إلى ميليسوس، ومن طاليس إلى حرب بيلوبونيز. وسنرى أن فلاسفتنا أخذوا بقسطٍ وافرٍ من هذه الحوادث بل صرفوها في بعض الأحيان مع أنهم في الغالب كانوا لحرها صالين.

وإني راجع في كل ما أقدم من القول إلى هيرودوت وطوكوديدس وإكسينوفون وما حُفر على رخام باروص أو رخام آرونديل^(١).

كانت المستعمرات الإغريقية على شواطئ آسيا الصغرى مقسمة إلى ثلاثة أجناس متميزة تؤلف اتحادات منفصلة: الأيوليون في الشمال، واليونان في الوسط، والدوريون في الجنوب. يقطن هؤلاء وهؤلاء أوطاناً متقاربة المساحة. فأما الأيوليون الذين هم أول من هاجر من الوطن الأصلي المشترك فإنهم حطوا رحالهم واستوطنوا آسيا بعد فتح طروادة بقرن تقريباً إذا طردوا من بيلوبونيز عند إغارة الهيرقليديين. وأما اليونان فقد جاءوا بعدهم بأربعين سنة تقريباً. وأما الدوريون فكانوا آخر المهاجرين.

كان الأيوليون الذين هم أقل الشعوب الثلاثة شهرة وأضعفها امتيازاً يقطنون اثنتي عشرة مدينة^(٢) وهي كومة فريكيون، ولاريسافريكيون، وليونتيكوس، وطموس، وكيلا، ونوسيون، وايغيروسيا، وبيطاني، وأيغاي، ومورينا، وغروناي وأزمير. ولكن هذه المدينة الأخيرة قد نزلت من أيديهم وأضيفت إلى الاتحاد اليوناني بفضل الذين نفوا من كولوفون والتجئوا إلى أزمير واستولوا عليها في غفلة من أهلها. وقد ضاع من أيدي الأيوليين أيضاً بعض المدن الأخرى التي أسسوها على جبال ايدا. وكان لهم خارج القارة خمس مدائن بجزيرة لسبوس، وواحدة بجزيرة طندوس، وأخرى في مجموع الجزر الصغيرة التي كان يطلق عليها اسم مائة الجزيرة منذ زمان هيرودوت. ولم يكن للمدائن الأيونية من الاسم

(١) من بين المؤرخين الحديثين استند على الخصوص في تاريخ إغريقيا إلى ج جروت الذي هو أتم وأحسن ما أعرف.
(٢) اتبع في ذكر هذه المدن الترتيب الذي وضعه هيرودوت. ولكن أخذنا من الجنوب إلى الشمال يجب أن ترتب هكذا: طمنوس، نيونتيكوس، لاريسا، كومة. إيفاي مورينا غروناي، بيطاني، كيلا، ولا يعرف مكان الأخيرتين.

إلا الخمول. وكانت أرض أيولس أحسن من أرض يونيا ولكن جوّها كان أقسى من جو الأخرى خصوصًا في سرعة القلب.

وأما اليونان فكان لهم اثنتا عشرة مدينة كلها على التقريب مشهورة. وهي: ملطية وميوس وبرينة في قاريا، وايفيزوس وكولوفون وليبيدوس وطيوس وكلازومين وفوكاية في ليديا وإيروطراي على اللسان الذي يكونه جبل ميماس. وكان لهم جزيرتان: سموس في الجنوب، وشيوز في الشمال. ومن الغريب أن اليونان كان لهم أربع لهجات متباينة جد التباين: لهجة سموس وكانت لا تشابه واحدة من الثلاث الأخرى، وملطية وميوس وبرينة كان لها ثلاثتها لهجة واحدة، وللمدن الست الأخرى لهجتها، وكان أهل شيوز وإيروطراي يتكلمون بلسان واحد.

أما الدوريون الذين جاءوا بعد الآخرين فكان قرارهم في الجزء الجنوبي، وليس مدق الديوريون لهم إلا ست مدن نزل عددهم إلى خمس بعد قليل، وهي: لندوس، وياليسوس، وكاميروس في جزيرة رودس، وقوص، وكنيدس، وهاليكارناس. على أن هذه المدينة الأخيرة قد عزلت عن الاتحاد الدوري عقابًا لها على أن أحد أهلها كان اتهم بانتهاك بعض الحرمات المقدسة.

كل واحد من هذه الاتحادات الصغيرة كان له معبد جامع مشترك يجتمعون فيه: فللدوريين معبد طريوبيون، وللليونان معبد نبتون هليليكوني على رأس موكالي في مواجهة سموس تقريبًا، وفي هذا المعبد كان يجتمع مجلس الاتحاد اليوناني المسمى بأنيونيون والذي كان يرأسه دائمًا شاب من شبان برينة، ولا يعرف بالضبط معبد الأيوليين. كانت هذه المعابد لإقامة الأعياد الدينية عادة، غير أنهم في الظروف الخطيرة كانوا يتداولون فيها في أمر أخطار الحلف وفيما يمس منافعهم الكبرى.

لم تك هذه المستعمرات لتشغل جغرافيا إلا مساحة ضيقة. فلو أن شهرة المدائن والممالك كانت تقاس بمقدار امتدادها لظلت هذه المستعمرات مجهولة في التاريخ، فإن مساحة المستعمرات الأيولية واليونانية والدورية لا يكاد يتجاوز مجموعها ٧٠

فرسخًا في الطول على ١٥ أو ٢٠ فرسخًا في العرض. ومساحة لسبوس خمسة عشرة طولًا على خمسة عرضًا. وسموس لا يبلغ محيطها ٣٠ فرسخًا. وشيوز أكبر منها قليلًا. ومن الطبيعي أن أهتم بأمر اليونان أكثر من الآخرين، فإنهم كانوا أكثر نشاطًا وحثًا في الملاحة والتجارة والسياسة والفنون والعلوم والآداب. ومن الأمم كثيرة العدد من كان أثرهم أقل ألف مرة من أثر اليونان.

لما ترك اليونان أشاية الواقعة شمال بيلوبونيز على خليج كرسا كان لهم فيها اثنتا عشرة مقاطعة أو مدينة، واستصحبًا لتذكّار وطنهم الأول لم يشاءوا أن يؤسسوا في آسيا من المستعمرات عددًا أكثر مما كان لهم في إغريقيا، ولما طردهم الدوريون الذي أغاروا على بيلوبونيز من الشمال اجتازوا برزخ كورنثه واحتموا إلى أجل ما على الأقل في أطيقا، وهي الملبأ العادي لجميع المنفيين كما نبّه إليه طوكوديدس في مقدمة تاريخه. وعما قليل ضاقت أطيقا القليلة الخصب ذرعًا بأهلها واضطر نازحو أشاية إلى البحث عن ملبأ آخر. وصادف وقتئذ أن قدروس مات ميتة الأبطال دفاعًا عن وطنه، ولما ألغي نظام الملكية لم يتيسر لأبنائه أن يقيموا في بلد انقطع فيه رجائهم من ميراث أبيهم، فرأسوا المهاجرين في هجرتهم. فأما نيلاوس فولّى وجهه شطر ملطية، وأما أندركلوس فاتجه إلى إيفيزوس. ولو صدقنا رخام باروص لقلنا إن نيلاوس هو الذي أسس المدائن الاثنتي عشرة اليونانية وأسس رابطة اتحاد تحت ظل الدين هي البانيونيون الذي لم يكن بعد من القوة على ما كان يرجو مؤسسه.

يظهر أن المهاجرين الذين اقتفوا آثار ابني قدروس كانوا خليطًا ولم يكونوا من صميم اليونان كما يمكن أن يظن، فإن الذين أتوا من أشاية إلى أطيقا اختلطوا فيها بأجناس مختلفة مختلطة جد الاختلاط ليس بينهم وبين اليونان جامعة مشتركة بل لا يشابه بعضهم بعضًا، إنما كانوا أبانطة من أوبويا، ومنجنيين من أرخومنوس، وقدميين ودريوبيين، وفوكيين ومولوس وأرقديين وبلاسجة ودوريين من أبيدورس وطائفة من أجناس آخر. وكان كل هؤلاء الرحل يعامل بعضهم بعضًا على حد المساواة، ومع ذلك كان اليونان الذين هم من

نسل شيوخ آتينا يعتبرون أشرف هذا الخليط وإن كان ذلك لم يستتبع أية مزية عملية، وإن تلقيبهم بلقب ”اليونان“ كان في ذلك الحين وفيما بعده أيضًا قليل الرفعة، فكان الآتينيون يخجلون منه، وكان الملطيون في أوج قوتهم يحبون أن ينفصلوا من بقية هذا الاتحاد الذي كان دائمًا قليل الاحترام. وأما اليونان فكانوا من جهتهم أيضًا يفخرون بأصلهم وقيمون مثابرين الابتوريا الآتينية، تلك الأعياد الخاصة بالعائلة وبرابطة الأخوة الشعبية التي كانت موجودة في آتينا، ما عدا أهل كولوفون وايفيزوس فإنهم حرموها على أثر قتلٍ حرام ارتكبه.

لم تكن المهاجرة هينة ولو أنه كان يرأسها أبناء ملك. فلم يحمل المهاجرون إلى ملطية معهم نساءهم واتخذوا زوجات بالإكراه، بل عمدوا إلى القاريين فذبحوا منهم الآباء والبعول والأولاد، واستحيوا النساء واتخذوهن زوجات لهم، ولكنهن انتقمن لأنفسهن فأقسمن الأيمان على ألا يطعمن مع غاصبيهن طعامًا ولا يدعونهم أزواجًا حتى لا يذقنهم حلاوة هذا الدعاء، واستنت بناتهن هذا السنة مع أزواجهن عدة أجيال.

والواقع أن البلد الذي احتله المهاجرون كان مُحتلًا قبلهم زمانًا طويلًا. فقد كان فيه، غير أهليه، خليط من البلاسجة والتوكريين والموصيين والبشونيين في الشمال، ومن الفريجيين والليديين والمايونيين في الوسط، ومن القاريين والليليج إلخ في الجنوب، وكان هؤلاء قبائل منقسمين على أنفسهم أكثر مما هو الشأن في الإغريق، ولو أنهم كانوا يقربون القرايين بالاشتراك، مثال ذلك قرايينهم إلى ”مولاسا“ في معبد ”المشتري“ القارئ. في أوائل الأمر لم تكن الممالك التي كمملكة ليديا قد اتخذت نظمها بعد. ولو أن الليديين لما رُحزحوا بعد ذلك إلى الوسط نشروا سيادتهم بادئ الأمر على تلك الجهات إلى الشواطئ، وبعثوا منهم طوائف المستعمرين إلى أغريقا الكبرى وإلى أمبريا وعلى شواطئ البحر الترهيني. وأما الموصيون الذين كانوا إلى شمال ليديا وغربها فكانوا أنزع هذه الأمم إلى الحرب. والفريجيون الذين هم أكثر توغلًا في الجهة الشمالية من هؤلاء كانوا يثرون من تربية القطعان، يبيعون من أصوافها وأجبانها ولحومها المُمْلحة بأثمان

غالية جدًا في أسواق ملطية. وكان الليديون مشغولين على الأخص بصناعة المعادن، لأن نصف أرضهم بركانية تخرج الذهب والفضة والحديد والنحاس..... إلخ. وكانت أخلاق الفريجيين والليديين أخلاق تهيب وحياء، ومن بلادهم يأتي أكثر العبيد.

ومع أن اليونان جاءوا إلى آسيا بالبحر فلم تكن تظهر عليهم المهارة في فن الملاحة. وعلى قول طوكوديدس لم يكن تفوق البحرية اليونانية حقيقة إلا تحت حكم قيروش وابنه قمبيز، ومع ذلك فقد كان شأنهم أن أقبلوا بجدة على أن يتلقوا دروسًا عن الكورنتيين الذين كانوا وقتئذ أعلم الناس بإنشاء العمارات البحرية واتفقوا بتلك الدروس. على أنهم قد ألجأتهم الحاجة منذ بداية أزمانهم إلى التزام الشواطئ في ملاحظتهم. كانت هذه المدائن التي تستجلب كل شيء من داخلية البلاد لا تستطيع أن تحصل على الثراء إلا بتجارة كبرى في الصادرات والواردات. فكانت كبنوك ومراكز معاوضات بين الأهالي والبلاد التي كان يأتي منها الأجانب. فلم يمض على هذه المدائن زمان حتى ظهرت ثروتها على صورة رائعة. ولما ازدحمت بالسكان وفاضت بالثراء استطاعت أن تنشئ أساطيل قوية، وعمّرت كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال أفريقية حيث كان لصور وسيدون من قبل منشآت في إغريقيا الكبرى وصقلية وفي بلاد الغالة وفي إسبانيا أمام عمد هيرقليس وفيما وراءها، وعلى الأخص في القسم الشمالي لبحر أيغاي وفي هليسيبتس، والبروبونتيد، بل في البحر الأسود الذي كان يسمى وقتئذ ”الجسر“، حتى لقد قيل إن ملطية وحدها كان لها خمسٌ وسبعون أو ثمانون مستعمرة.

هذا النماء الأول للمستعمرات الإغريقية بآسيا الصغرى، وعلى الخصوص المستعمرات اليونانية، غير معروف إلا قليلاً مع أنه استمر على الأقل ثلاثة قرون أو أربعة، فإن التاريخ لم يبتدئ -حقاً- إلا حين دخلت المدائن الهلينية الحرب مع المملكة الليدية أي حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، أعني من عهد حكم المرمناة.

روى هيرودوت على طوله تاريخ جوجيس الذي ارتقى عرش ليديا بقتله قندولس ملكها. وهذه الحكاية ليس عليها إلا مسحة الصدق وإن كانت ليست مطابقة لرواية

أفلاطون التي هي بالبداية أسطورة. فإن غضب الملكة زوجة قندولس وغدر جوجيس عشيقها ليس فيه شيء من المستحيلات، وأما حكاية الخاتم فليست إلا أسطورة عامة وجدت بعد ذلك بكثير على صورة أخرى في "ألف ليلة وليلة". ولقد حدث أرخيلوخس وهو معاصر لقندولس وجوجيس عن ذلك العسكري الذي صار ملكاً وعن إقدامه وظفـره في إحدى القطع الشعرية التي كان لا يزال يقرأها هيرودوت^(١)، وقد انتهت بموت قندولس العائلة الليدية الأولى التي تدعي أنها سلالة هيرقليس، والتي دام ملكها خمسمائة وخمسة أعوام مدة اثنين وعشرين جيلاً من عهد نصف الإله الذي وصلها بنسبة كبريائها. وكان جوجيس هو أول الدولة الثانية دولة المرمادة.

افتتح جوجيس في أول القرن السابع قبل الميلاد عهداً جديداً، إذ أخذ يغير على المدائن الإغريقية ملطية وأزمير وكولوفون، وربما كان الحامل له على ذلك أنه أراد أن يبرر اغتصابه للملك ومطاوعة لبعض الضرورات السياسية، في حين أن ليديا كانت وقتئذ بينها وبين الإغريق، خصوصاً إغريق القارة، علاقات أقرب ما تكون إلى السلام.

وقد كان جوجيس، كسائر الإغريق في آسيا وفي غيرها، يعتقد وحي دلفوس ويخضع له. ولما كان محاطاً بالمكايد من كل ناحية منذ تبوئه العرش، وخائفاً من سخط الليديين الذين كانوا شديدي التعلق بالملك الذي ذبحه، أراد أن يدخل الإله في قضيته، فاستشاره وقدم إليه الهدايا الغالية، وقد أقر الإله هذا الغاصب القاتل على عمله. ولكن بوثيا كاهنة دلفوس كانت قد أنبأت بأن عائلة هيرقليس سوف ينتقم لها من شخص الولد الخامس من ذرية جوجيس. وكان هذا الخليفة الخامس هو كريزوس السيئ البخت المشهور بمصائبه أكثر من شهرته بكنوزه التي تُضرب بها الأمثال. ولكن لم يكن جوجيس في أوج ملكه ولا الليديون في سخطهم ليعبثوا بإنذار الكاهنة، ومَلَك ذلك العسكري الزاني القاتل ثمانية وثلاثين عاماً آمناً مطمئناً ما عدا حروبه مع مدن الشاطئ. والظاهر أن ملطية وأزمير وكولوفون سلمت له وخضعت لسلطانه.

(١) ر. هيرودوت ك ١ ب ١٢، وأفلاطون، الجمهورية ك ٢ ب ٦٩ ترجمة فيكتور كوزان.

وقد حكم أردوس خلف جوجيس أكثر منه أيضًا، أي مدة تسعة وأربعين عامًا. فاستولى على بريينة وهاجم ملطية بلا جدوى؛ لأنها استطاعت رد هجماته. وخلفه ابنه سدواتيس، فلم يمكث على العرش إلا اثني عشر عامًا ومات، وكانت سنوه الست الأخيرة كلها مشغولة بمحاربة ملطية كما كان يفعل أبوه. ولكن هذه المدينة التي لم يكن يستطيع أن يأتيها من البحر نجحت في الدفاع عن نفسها، على رغم أن عدوها كان يهجمك حرثها كل سنة وكان دائمًا على قدم الاستعداد ليركر هجماته المخربة. وفي كل مرة حاول الملطيون الحرب في العراء كانت هزيمتهم أمرًا مقضيًا. وقد مزقهم العدو كل ممزق مرتين على أرضهم في ليمنيون وفي سهول مياندروس حيث صادف منهم غفلة وسوء احتياط.

وقد واصل أليات بن سدواتيس محاربة مدينة ملطية خمس سنين، وكان يظن وقوعها في يديه بالقحط وشيكًا لولا أنه استشار وحي دلفوس، كما كان يفعل أجداده، فجنح لعقد الصلح معها. وساعد على ذلك مهارة طراسوبولس طاغية ملطية وقتئذ. إذ أنبأه جلية الأمر صديقه برياندروس بن كوبسيلوس طاغية كورنتا، فأخفى عن سفير ليديا حقيقة الحال السيئة التي وقعت فيها المدينة من جراء الحصار، وأوهمه أن في باطن أسوارها من الأرزاق والذخائر ما لم يجتمع لها مثله من قبل. وبذلك انخدع أليات بما خبره به سفيره المخدوع وأمضى عهد ملطية في حين أنه لم يكن بينه وبين الاستيلاء عليها إلا القليل. وقد استمر هذا السلام الذي يرجع الفضل فيه إلى الوحي ودهاء طراسوبولس زمانًا طويلًا. ومات أليات بعد أن حكم سبعة وخمسين عامًا حكمًا مملوءًا بالاضطراب. وفي هذا الزمن لم يقطع صلته الحسنة بكاهنة دلفوس، وقد اعتراه مرض طالت مدته، فلما برئ باستشارة الوحي قدم إلى إله دلفوس كأسًا جميلة من الفضة قاعدتها من الحديد فنية الصنع صاغها جلوكوس الشيزوي المخترع ذلك النمط الحديث الذي بالغ الناس في الإعجاب به.

لم تكن حرب ملطية هي الوحيدة التي أجج نارها أليات، بل استولى على أزمير مستعمرة كولوفون، وهاجم مدينة كلازومين الواقعة على مسافة قليلة إلى الغرب في

الخليج بعينه، ولكن كلاً زومين رده عنها وحملته خسائر عظيمة. غير أن آليات ألهم التوفيق وخدم آسيا كلها خدمة حقيقية بأن حول قواه إلى محاربة القميريين الذين استولوا في عهد جده أردوس على تلك الولايات الآمنة المخصصة. فإنهم لما طردهم السيتيون الرُّحْل من مواطنهم اضطروا إلى النزوح جهة الجنوب ونفذوا من قوقازيا وولوا وجوههم جهة الغرب وجاوزوا هالوس وتقدموا إلى قلب آسيا الصغرى، وكانوا قد دخلوا سرديس عاصمة ليديا على حين غفلة من أهلها وأحرقوها إلا القلعة القائمة على صخرة شاهقة يجري من تحتها نهر بكتول فهي وحدها التي استعصت عليهم، ثم ردوا عن المدينة بعد ذلك، ولكنهم ظلوا يهددون الأمن: يخيفون السابلة وينهبون الأماكن المجاورة، حتى طردهم آليات من آسيا الصغرى ودحروهم إلى الشرق وقذف بهم بين الأجناس السامية التي كانت حدود أوطانها تنتهي إلى هالوس، ومن يومئذ يظهر أن علاقته بهم صارت من السهولة والعطف بمكان.

لكن هذه العلاقات التي كانت بين ليديا وبين السيتيين هي التي جرت على آسيا الصغرى جيوش الميديين ثم جيوش الفرس الذين هم أشد بأساً. فإن فصيلة من السيتيين لما طردوا من إقليمهم القاسي المناخ هبطوا إلى أرض ميديا في الشمال الغربي من نهر الفرات، فأحسن كواكزاريس ملك الميديين وفادتهم، ولم تقتصر حفاوته بهم على أن مكن لهم في وطنه، بل دفع إليهم صبياناً من الميديين ليعلموهم لغتهم وليتعلموا في مدرستهم فن الرماية. ولكن بعض هؤلاء المتوحشين المقربين من ملك ميديا غاظهم منه شدة في قول وجَّهه إليهم، فشنوا غليل صدورهم من هذه الإهانة بأن قتلوا الصبيان الذين هم في رعايتهم واحتموا بمعية آليات ليتقوا شر العقاب الذي كانوا يتوقعون. فطلب كواكزاريس تسليم الجناة وأبى ملك ليديا تسليمهم. ومن ذلك قامت بين الليديين والميديين حرب لم تخب نارها خمس سنين أو أكثر. وهذا السبب كان تافها جداً، بل يظهر أن الخلاف قام على سبب آخر، لأن المملكتين متجاورتان، والاحتكاك بين أمم ما زالت متوحشة مثار خلاف لا يتقى.

هنا أستوقف النظر لحادثة في غاية الخطر من حيث تاريخ تلك الأمم ومن حيث تاريخ الفلسفة جميعاً: كانت تلك الحرب في سنتها السادسة والتقى الجمعان وجنودهم على أشد ما يكون التحام بين المحاربين، وإذا بالشمس قد كسفت فغشيهم ليل مظلم اضطربهم إلى وقف القتال. ليس في هذه الحادثة ما يبعد احتمال وقوعها، وليس من الغريب أن تأخذ ظاهرة من هذا النوع بالعقول مأخذاً عميقاً. غير أن هيرودوت الذي حفظ لنا ذكرها زاد على حكايتها أن طاليس الملطي كان قد تنبأ بهذا الكسوف الشمسي ونبأ اليونان به وبالسنة التي يقع فيها^(١).

لا شبهة لديّ في رواية المؤرخ تلك التي قد أفسحت من البحث محلاً لنظريات كثيرة على غاية الخطورة. فقد بحث العلماء أخيراً في حساب هذا الكسوف بالآلات الفلكية التي بين أيدينا الآن والتي تكاد تكون معصومة من الخطأ رجاء تعيين تاريخ صحيح ثابت بين تلك الروايات المختلطة المشكوك فيها، ولكن لم يمكن الإجماع على أمر علمي محض ولا الاهتداء إلى الغرض المطلوب. فإن الأب بيتو قد حسب أن هذا الكسوف ينبغي أن يكون قد وقع في السنة الرابعة من الأولمبياد الخامسة والأربعين، يعني السنة ٥٩٢ قبل الميلاد. وأما سان مارتان الذي هو آخر من عني بهذه المسألة فإنه وجد أن كسوفاً كلياً يرى في هالوس حيث ملتقى الجيشين لا يمكن أن يكون إلا في ٣٠ سبتمبر سنة ٦١٠ ق م "ر". مذكرات مجمع الرسوم الخطية والفنون الجميلة - السلسلة الجديدة - الجزء ١٢ "وإذن يكون الفرق بين التقديرين ثمانية عشر عاماً. ويمكنني أن أسرد آراء آخرين من المؤلفين الحديثين ليسوا أقل اختلافاً من السابقين. أما بلاين عند القدماء فإنه عين هذا الكسوف بغاية الضبط في السنة الرابعة من الأولمبياد الثامنة والأربعين وفي السنة ١٧٠ من تأسيس روما^(٢). وهذا التوافق المشكوك في ضبطه بين التاريخين يجعل ذلك الكسوف في سنة ٥٨٠ تقريباً. ولست أريد الدخول في هذه التفاصيل لأنني لا أتطلع

(١) هيرودوت ك ١ ب ٧٤.

(٢) بلاين. التاريخ الطبيعي ك ٢ ب ٩ ص ١٠٦ طبعة وترجمة ليتري.

إلى إمكان الفصل فيها واستجلاء غوامضها، بل أقف عند حد الرجاء في أن علم الفلك يستطيع أن يضع رأياً قاطعاً في هذه المسألة التاريخية.

أما المسألة الأخرى التي أثارت هذه الحادثة ثائرتها فهي : أيكون من الممكن أن طاليس حسب حقيقة هذا الكسوف وتنبأ به كما سمع بذلك هيرودوت؟ شك المؤرخون الحديثون في ذلك. وفي هذه الأيام أنكر ج. جروت^(١) أن العلم كان وقتئذ من التقدم بحيث يسمح بنبوءات مثل هذه وحسابات علمية إلى هذا الحد. لا أبغي أن أعارض هذا المؤرخ وهو حجة. ولكني أنبه إلى أنه يؤخذ من رواية هيرودوت عينا، صادقة كانت أو كاذبة، أنه في زمانه أي بعد طاليس بقرن تقريباً كان الناس يعتقدون إمكان حساب الكسوف. هذا وحده يكفي في إثبات أن العلم كان متقدماً إلى قدر الكفاية، فإن مثل هذا الفرض يشهد بتقدم هو غاية في الجدل لأنه لأجل أن يقبل العامي إمكان حساب الكسوف ويصدق ويتحدث به لا بد من أن يكون العلماء قد وفوا الموضوع بحثاً. ومما لا جدال فيه أيضاً أن شهرة طاليس بين تلك الشعوب كانت من الرفعة بحيث إنهم نسبوا إليه من غير تردد هذه المعجزة العلمية. ولقد قرر بلاين أن هيبارخس الرودسي أمكنه أن يضع فهرساً لكسوف الشمس وخسوف القمر مدة ستمائة عام. وفي زمن هذا الكاتب الروماني لم تكن الحسابات الفلكية لتخطئ مرة واحدة. حتى قيل : ”إن هيبارخس كان يحضر مداورات الطبيعة“. وكان هيبارخس بعد طاليس بأربعمائة عام تقريباً. وربما كانت المسافة بين علم أحدهما وعلم الآخر متناسبة مع المسافة الزمنية بينهما، لأنه ليس في يوم واحد يمكن الوصول إلى نتائج علمية مضبوطة إلى هذا المقدار. فلست أرى من المستحيل في شيء أن طاليس في عهد أليات قد فتح باب علم بلغ به هيبارخس هذه الغاية البعيدة سنة ١٥٠ قبل الميلاد.

أعود إلى ما كنا فيه :

بعد قليل عقد الصلح بين الليديين والميديين بواسطة سونيزيس ملك كيليكيا

(١) ج. جروت . تاريخ اليونان ج ٣ ص ٣١١.

ولابينيوس ملك بابل. وزف أليات ابنته زوجة إلى أوسطياغ بن كواكزاريس، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة. واتباعا لعرف هذه الشعوب قد فصد سفراء الصلح من الجانبين أذرعههم ومص كل فريق من دم الفريق الآخر. ولكن هذه المحالفة التي عقدت على أكمل ما يمكن من الإخلاص كانت طائر نحس على ليديا، إذ جرتها إلى حرب جديدة انكسرت فيها وفقدت وجودها.

ذلك أنه لما مات الملك أليات خلفه ابنه كريزوس الذي قدر عليه أن يكون آخر ملك لجنسه وحقت بذلك نبوءة هاتف دلفوس. وكان كريزوس هذا الذي صار اسمه مرادفاً للغنى أميراً من خير الأمراء الممتازين. ومع أنه كان شديد الإعجاب بكنوزه الوراثية التي جمعها أجداده الهيرقليون والميرمناديون لم يكن رجلاً مترفاً ولا ضعيفاً كما يبدر للذهب عادة، فما كاد يلي الملك حتى فكر في أن يتم عمل أسلافه ويخضع نهائياً جميع المدائن الإغريقية على الشاطئ، فتجنى عليها بعلل مختلفة حقاً أو باطلاً بادئاً فتحه بايفيزوس، وعماً قريب أخضع إلى سلطانه كل المستعمرات، إذ قهر يونيا وأيولس جميعاً، ولكن كريزوس أحس أنه لم يصنع شيئاً ما دامت الجزر خارجة عن قبضة يده، فجهز أسطولاً ليجاوز عليه بجيشه البحر، ثم عدل عن هذه الغزوة التي هي قليلة الجدوى عند أمة كالليديين بنصيحة بياس البريني، وفي رواية أخرى بنصيحة بطاقس الميتيليني إذ جاء الحكيم إلى سرديس فسأله الملك عن ماجريات الحال في الجزائر، فأجاب بياس: "إن أهل الجزائر يتأهبون لمهاجمة سرديس في عشرة آلاف فارس" فأجاب كريزوس: لتشأ السماء أن يركبوا هذا الشطط. فقال الحكيم: "أيها الملك لك الحق أن ترغب في أن أهل الجزر يرتكبون خطأ كهذا، ولكن ما ظنك بما سيقولون من جانبهم عندما تأتيهم الأنباء أنك تفكر في غزوهم من طريق البحر؟". ففهم كريزوس الدرس على مرارته، وقنع بأن عقد عهد محالفة ومودة بينه وبين يونان الجزر.

لما ارتاح كريزوس واطمأن من هذه الجهة بحث في بسط سلطانه إلى جهة الشرق وفي آسيا الصغرى، وعماً قليل وضع يده على جميع الشعوب النازلة إلى هنا من نهر هالوس

دون ما وراءه، وهم الفريجيون والميزيون والماردياندينيون والخالوبس والبفلاغونيون وتراقيونيا وبشينا والقاريون والبمفيليون حتى الدوريون واليونان والأوليون. ولم يفلت من قبضته إلا كلييكيا وليكيا في الجنوب. وكان نهر هالوس هو أحد الثلاثة أو الأربعة الأنهر التي تحدد هذه البقاع المسماة آسيا الصغرى وترويه، فهو ينبع من جبال أرمينية ويسير من الشرق إلى الجنوب الغربي وينفجر على نحو زاوية قائمة لیتجه من الجنوب إلى الشمال فيصب في البحر الأسود شرقي سينوب وطن ديوجين وبعد نهر هالوس ثلاثة أنهر آخر عظمة النفع لتلك الجهات تتقاسم بينها شبه الجزيرة، جارية كلها إلى الغرب وصابة في البحر الأبيض المتوسط يوازي بعضها بعضاً تقريباً، وهي المياندرس الذي يصب في خليج ملطية، والقواصترس في خليج ايفيزوس، والهرموز في خليج أزمير إلى الشمال الغربي قليلاً. وكان لكريزوس أن يفخر بأنه تفرد بالملك في آسيا الصغرى وأنه وصل بالمملكة الليدية إلى حد من رفاهة العيش وقوة البأس لم يكن لها مثله من قبل. ولكن ذلك هو في الواقع كان السبب في خرابها.

في هذه الأثناء حصلت تغيرات وانقلابات عظيمة في الشرق وفي البلاد المجاورة للمملكة الليدية المترامية الأطراف. فإن قيروش خرب ملكية أصطياغ صهر كريزوس، وقهر ملوك آشور، وعاهد ملك هرقانيا، وفكر في مهاجمة ليديا التي كان يظهر عليها أنها كانت متحدة مع أعدائه. وبعد أن بسط سلطانه على جميع البلاد شرقي نهر هالوس لم يكن هناك محل للتأخر عن عبور ذلك النهر، كذلك لم يكن لقوة الفرس الهائلة مدفع عن أن تمتد إلى البحر وأن تفتح شبه الجزيرة وكل ما تحويه من الشعوب سواء في ذلك البرابرة والإغريق. ولقد أدرك كريزوس للحين خطر الموقف الذي يتهدهده، فلما علم بهزيمة أصطياغ استكمل عدته للحرب بقدر ما يستطيع.

فما كاد يتعزى عن موت ابنه الذي قُتل في حادثة في الصيد، حتى عزم على أن يوقف تقدم الفرس بأن يحالف إغريق الشواطئ وجميع إغريق بيلوبونيز والغرب. ولهذه الغاية أرسل بادئ الأمر يستشير الوحي ليحصل على تأييد الآلهة والاعتقاد العام. وذهبت وفوده

فعلاً إلى دلفوس ودودون، وإلى أباس في فوكيد، وإلى غار طروفونيوس ومعبد انفياروس ومعبد البرنثيد على مقربة من ملطية، بل إلى معبد المشتري آمون نفسه. وكان كريزوس يريد أن يضع لهم بادئ الأمر أسئلة يختبر بها صدقهم ثم يستفتيهم بعد ذلك بصورة منظمة في المسألة الكبرى، مسألة الحرب مع الفرس التي كانت تقلق باله. فوجد أن هاتفي دلفوس وانفياروس أكثر إخلاصاً، فحمل إليهما الهدايا الباهرة التي يمكن قراءة وصفها التفصيلي في هيرودوت الذي رأى بعض هذه النفائس الغالية في المحارب. وعندما قدم ملك ليديا تلك الهدايا الثمينة استشار الهاتفين في أمر الحرب فكان جوابهما مبهما كله تورية، إذ قال : ”إذا اشتبك كريزوس في الحرب مع الفرس خربت مملكة عظمى“ ... أيهما؟ أدولة الفرس أم دولة ليديا؟ لم يقل الإلهيان بالتعيين ولكنهما نصحا لكريزوس أن خير وسيلة أن يتخذ حلفاء ونصراء من أقوى الشعوب الإغريقية. فعاود كريزوس هاتف دلفوس في هذه النقطة فعين له الهاتف اللقدمونيين من الجنس الدوري والآتينيين من الجنس اليوناني، يعني الهيلينيين والبلاسجة، فأوفد سفراءه إلى الأجزاء المختلفة لبلاد الإغريق يخطب ودهم فلم يجب دعاءه إلا اللقدمونيون الذين هم ماثلون إليه لخدم أداها لهم قبل ذلك. أما بقية الإغريق، وعلى الخصوص الآتينيين، فلم يدركوا حقيقة الخطر المقبل ولم يجيبوا داعي ملك ليديا. واستنجد كريزوس، على ما يقول سيروبيديا، حتى بأهل مصر، ولكن من المشكوك فيه أن مصر وجهت لمساعدته مائة وعشرين ألف مقاتل كما يروي الرجل الطيب إكسينوفون.

ولقد أول كريزوس جواب الهاتف لمصلحته خطأ وأغار على كابادوس من أرض ميديا التي افتتحها قيروش قبل ذلك بقليل، وكان من الضروري له أن يعبر نهر الهالوس وهو في هذا المحل واسع المجرى، ووقع بذلك في صعوبة كبرى لم يتغلب عليها إلا بحذق طاليس الذي كان قد تبع الجيش الليدي في عدد غير قليل من مواطنيه، فإنه اصطنع جسراً عريضاً فصل النهر إلى عدة فروع سهل اجتيازها. تلك هي الرواية التي وصلت إلى هيرودوت في حادثة عهدها. ولكن هيرودوت يظهر عليه أنه يعتقد أن الجيش عبر النهر

بالبساطة على قناطر لم تنشأ في رواية العامة إلا بعد هذه الواقعة بزمان. ولما عبر كريزوس النهر استولى على المنطقة التي كانت تسمى بطيريا وخربها.

سارع قيروش إلى لقاء الغائرين بجميع جيوشه ومن انضم إليهم من أهل البلاد، ولكن قبل أن ينازل الليديين أرسل إلى اليونان يستميلهم إلى التخلي عن جيش كريزوس، ولكن اليونان بقوا على عهدهم مع كريزوس لاعتقادهم أن خيانة مخجلة لا تأتي إلا بالعار المجرد من كل منفعة، لأن الإغريق لا يستطيعون أن يقفوا وحدهم في وجه الفرس إذا سقطت ليديا في يده كما كانوا يتوقعون. وإن هزيمة عامة لكل أجناس الإغريق خير من العار ما داموا مصرين على ألا يسلموا بلادهم إلى الفرس لأول وهلة. ولما التقى الجمعان في سهول بطيريا شرقي هالوس جرت بينهم حرب طاحنة استمرت ناراها طول اليوم إلى المساء لم يظهر فيها نصر نهائي لأحد الفريقين على الآخر.

ولكن أضرارها كانت على كريزوس أكبر، لأن جيشه مع بسالة قواده كان قليل العدد جداً بالنسبة إلى الجيش الآخر. ولما رأى قيروش ما مس جيشه من القرع لم يشأ أن يبدأ بالقتال في اليوم التالي، فانتهاز كريزوس تلك الفرصة للتقهقر إلى سرديس وعزم على أن يبلغ من الدفاع عنها غايته.

ثم استنجد حلفاءه وأمازيس ملك مصر ولابنطوس ملك بابل واستنفر لقدمونيا لنصرتة، واعتمد على أنه متى اجتمعت له هذه القوى كلها يجدد الكرة على جيوش قيروش في الربيع القادم، وجعل ميعاد حلفائه ونصرائه على تمام خمسة أشهر من يوم الدعوة في عاصمة ملكه. ولقد أصاب كريزوس الحكمة في هذه التدابير، ولكنه ارتكب خطأ جما في صرف جنوده ظناً منه أن قيروش لا يستطيع أن يطلع على سرديس بجنده الذي نال منه القرع ما نال. وقد خاب ظنه لأن قيروش احتفظ بجنوده وسار بهم بعد أن أخذوا قسطاً من الراحة إلى ليديا، فلم يلبث أن نزل السهل الفسيح القائمة فيه مدينة سرديس.

أما كريزوس وإن كان قد أخذ على غرة فإنه لم تنحل عزيمته بل اعتمد على ما هو

مشهور عن أهل ليديا من الإقدام خصوصًا كتائب فرسانهم، فإنهم كانوا مقطوعي النظير لمهارتهم في سوس الخيل وفي حسن استعمالهم الرماح الطوال التي كانوا يعتقلونها. ولكن قيروش من جهته قد فكر في تقليل قيمة تفوق فرسان العدو، فسير في مقدمة جيشه جماله كلها التي لم تعتد خيل ليديا رؤيتها ولا رائحتها فجفلت وصعبت رياضتها، فترجل الليديون وأبلوا على الرغم من ذلك بلاء حسنًا، لكنهم بعد التحام هائل انهزموا فلم يجدوا لهم موئلًا إلا أسوار مدينتهم.

لما رأى كريزوس أنه محصور بجنود منصوره عجل إلى حلفائه وعلى الأخص اللقدمونيين، لكن هؤلاء بعد أن تأهبوا لنصرته حسب نص المعاهدة جاءهم نبأ سقوط سرديس عنوة في يد قيروش بعد حصار دام أربعة عشر يوما ووقوع كريزوس في الأسر. لما وقع ملك ليديا التعس في أيدي أعدائه مثقلا بالسلاسل وحكم عليه بأن يحرق حيًّا هو وبعض أبناء العائلات الكبرى الذين كانوا معه وسعرت له النار وكادت تصل إلى جسمه، رق له قلب قيروش وأخذته الرحمة على هذا الملك البائس الذي كان يحتمل تصاريق القدر بالرضا والتسليم، والذي كان في هذه اللحظة الرهيبة يذكر نصيحة سولون له حينما وفد عليه وأقام في معيته. وكانت سن كريزوس وقت وقوعه في الأسر تسعة وأربعين عامًا حكم منها أربعة عشر عامًا منذ وفاة أبيه، وبقي بعد ذلك زمنا طويلاً في معية قيروش مرافقا ومعينا له في غزواته.

إن تاريخ سقوط سرديس ليس أقل اضطرابًا من تاريخ كسوف طاليس. وأخذًا بما على رخام باروص تكون سرديس سقطت في السنة الثالثة من الأولمبياد التاسعة والخمسين، أي سنة ٥٣٧ قبل الميلاد. أما فريريت فإنه يقول إنه وقع في سنة ٥٤٥ أخذًا بشهادة سوسيقراط الذي استشهد به ديوجين اللايرتي في كتابه "حياة بيرياندر". وأما فولني فإنه أخره إلى سنة ٥٥٧ في كتابه "أخبار هيرودوت". وعلى كل حال فإن هذا التاريخ على خطره محوط بالشكوك، ولا يزال محلًا للتحقيق.

لما غلب الليديون على أمرهم أحست المدائن الإغريقية خطر مركزها، فعرض

الأيوليون واليونان الطاعة على الشروط التي كانت بينهم وبين كيرزوس، فرفضها قيروش مزدريًا إياهم، وذكر اليونان إعراضهم عنه حيث خطب ودهم قبل ذلك ببضعة أشهر، فلم يبق لهذه المدائن إلا خوض غمار الحرب بعد ذلك الرفض المهين، فدعيت ندوتهم (البانيونيون) وحضرها أهل المدائن كلها إلا الملطيين الذين كانوا اتخذوا للحرب عدتها من قبل، ولكن حظ الجميع منها لم يكن أحسن من حظ مملكة ليديا.

من المحتمل أن يكون هذا الحين هو تاريخ النصيحة التي قدمها طاليس للاتحاد اليوناني، فإنه لبصره بالعواقب ارتأى ألا يكون للمدن اليونانية إلا جمعية واحدة تعقد في طيوس، لتوسط مركزها، على أن تحتفظ كل مدينة بنظمها الخاصة، لأنهم متى اجتمعت قواهم كانوا بالضرورة أقدر على مقاومة عدوهم المشترك، فإن الاتحاد وحده هو الذي ينجيهم ما دامت المنازعات الداخلية هي التي أضعفتهم، ولكن هذا الرأي السديد لم يكن ليطاع فيهم مع أنه لم يجرى بعد الأوان، فإن حال اليونان لم يكن بعد من سوء بحيث لا يمكن إصلاحه. ولقد نصح لهم طاليس بعد ذلك نصيحة في وقت أشد حرجًا فلم تقابل إلا بما قوبلت به سابقتها من الإعراض. ثم نصح لهم بعد ذلك بياس البريني أحد أعضاء الندوة (البانيونيون) أن يترك اليونان جميعًا آسيا ويتخذوا أسطولًا كبيرًا يركبونه إلى "سردينيا" حيث يؤسسون جمهورية قوية. وأبان لهم بياس أنهم إن بقوا في آسيا لا يستطيعون أن يحموا حريتهم. يرى هيرودوت أن اليونان لو كانوا قرروا هذا القرار الباسل لصاروا أسعد الشعوب الإغريقية كلها، ولكنهم قنعوا بمفاوضة الأيوليين ليرسلوا سفراء إلى إسبرطة يطلبون باسمهم وباسم اليونان إعانة الجمهورية إياهم.

لم تشأ جمهورية إسبرطة أن تمدهم بقوة حقيقية، بل أرسلت رجالًا ثقة من رجالها يقال له "لقرين" إلى سريديس يطلب إلى الفاتح ألا يسيء إلى أي مدينة إغريقية ويهدده بسخطه لقدمونيا. غير أن قيروش الذي ما كان يعرف إلى ذلك الوقت ما هي إسبرطة، أخذ يسأل بها وأعلن - وهو هازئ بهذه الشعوب التي يخالها متأنية في أمورها - إنه أولى بها أن يشغلها الخطر المحقق ببلادها عن الخطر الذي يتهدد يونيا. في هذا الوقت دعا

قيروش اختلاف الأحوال في بابل وبكتريان والساسيين بل وفي مصر أيضاً إلى التعجل بالسفر من سرديس إلى اقبطانا، وخلف على المدينة فارسياً يدعى طابالوس، وجعل على نقل الكنوز التي جمعها ملوك ليديا منذ عدة قرون ليدياً يقال له بكتياس.

انتهب بكتياس غيبة قيروش في حصار بابل، ووضح يده على الكنوز التي أوّتمن على نقلها، وانتبذ بها مكاناً بعيداً على الشاطئ، ودعا الليديين إلى الثورة والانتفاض على قيروش، وألّف بالمال جنداً سار به إلى حصر مدينة سرديس التي كان يحميها طابالوس. ولكن هذه الثورة لم تلبث حيناً حتى جاء مزاريس أحد قواد قيروش بالمدد، واضطر بكتياس إلى الهرب والاحتماء في "كومة". فلما طلبه مزاريس همّ الكوميون بتسليمه إليه بنصيحة هائف البرنشيد، لولا رجل شجاع منهم يقال له ارسطوديقوس حمى النزول ونجاه من الهلك واستحب عصيان الإله على انتهاك حرمت الضيافة في حق مستجير. ونجا بكتياس إلى ميتيلين حيث عادت لأهل كومة نخوتهم وأرادوا هم أيضاً حمايته. غير أن هذا السيئ الحظ قد أخذه الشيزيون بالقوة من معبد مينرفا وسلموه إلى الفرس، لأن قيروش أمر بأن يحضر لديه حياً، وقبض الشيزيون ثمناً لهذا العار مقاطعة أطرنة الواقعة في ميزيا تجاه لسبوس، ولكنهم لم يسعدوا في هذه الأرض التي امتلكوها بذلك الثمن المخجل، فقد أكد هيرودوت أنه مر زمن طويل على أهل شيزو لا يستطيعون أن يقربوا للآلهة قرباناً ولا أن يضحوا بشيء مما كان يأتيهم من غلة ذلك البلد الملعون.

قسا مزاريس في التنكيل بالذين خرجوا على الملك في ثورة بكتياس وكتب الرق على سكان بريئة وباعهم بالمزاد، وخرب بلا رحمة سهول مياندرس جميعها وأباحها لنهب عسكره، ولكن منيته صادفته أثناء هذا الانتقام. ولقد أراد الفرس بهذه الفظائع أن يغلوا أيدي المغلوبين عن الثورة، ولكن إغريق الشاطئ ومستعمرات أيولس ويونيا ودريدا لم يخفهم ذلك بل أخذوا عدتهم واستجمعوا بأسهم إلى حرب غير متعادلة القوى ولا ملحوظ في نتائجها إلا الفشل والخذلان.

بذلك يتبدى العهد الثالث والأخير لتاريخ الإغريق في آسيا الصغرى. فإن العهد الأول

لبث من وقت نزوحهم إليها إلى حكم جوجيس غاصب ملك ميديا، وهو أطولها، لأنه لا يقل عن ٥٠٠ سنة . والثاني الذي كان مملوءًا بالتنازع بين مدائن الإغريق ومملكة ليديا، ويمتد إلى هزيمة كريزوس وسقوط سرديس . ولم تكن قوة ملوك الليديين تلقاء قوة الفرس شيئًا مذكورًا، لأن الفرس كانوا أمة حرب ملكت جزءًا عظيمًا من آسيا، وتقدموا تقدمًا كبيرًا في فنون الحرب بفضل قيادة قيروش .

أما الذي خلف مزاريس على التنكيل بالثائرين واستمرار الفتح فهو رجل خليق بكل أنواع الفطائع واقتراف الدنيا يقال له هربغوس اشتهر بعمل مقطوع النظر في الخسة حتى في معرض دنيا البلاط الفارسي، ذلك أن ”اصطياغ“ ملك الميديين، كان قد أزعجته رؤيا، فكلف هربغوس أمينه أن يحتال لقتل الولد الذي ولدته حديثًا ابنته مندان من قمبيز، وكان هذا الحفيد المقصود بالوقية هو قيروش، فقبل هربغوس هذا الأمر، ولكنه لم يشأ أن يقتل الصبي بيده فوكل ذلك إلى راع أخذته الرحمة من توصيلات زوجته فاستبدل صبيه الذي وُلد ميتًا بالذي دُفع إليه ليقتله، ودخلت هذه الحيلة على هربغوس فلما استكشف ”اصطياغ“ خفية الأمر وعلم بكل ما جرى كظم غيظه، ولكنه انتقم من هربغوس شر انتقام، فأمر بقتل ابن هربغوس سرًا، ودعاه إلى طعام قدم إليه فيه لحم ابنه فأكله ثم أمر فأحضر رأس الغلام ويده وقدمت أثناء المأدبة تحت غطاء إلى هربغوس، فلما كشف عنها الغطاء رأى هذا المنظر الفظيع فلزم السكينة، فسأله ”اصطياغ“ في ذلك فقال : إنه تعرّف اللحم الذي أكله ولا يسعه إلا الثناء على الملك على ما تفضل به .

ومع ذلك فإن هربغوس قد أصر على الانتقام من ”اصطياغ“ بأن يثل عرشه من تحته، فحرض قيروش سرًا على العصيان . ولم يصادف هذا الأمير الشاب عناء في حمل الفرس على نبذ نير الميديين الثقيل . ولقد بلغت العماية ”باصطياغ“ أنه لما جاء حفيده على رأس الجيش الفارسي أمر على الجند هربغوس الذي كان قد نكل به ذلك التنكيل، فلم يلبث هذا الأخير أن خانه وانخدل بالجيش، وقهر قيروش ”اصطياغ“ ولم يقتله بل تركه يعيش في الخزي . وسقطت مملكة الميديين بعد أن أقامت ٣٢٨ سنة من ديجوسيزين

فراورط. وبقي هذا القسم من آسيا من يومئذ تابعاً للفرس الذين لم يحتفظوا به إلا أقل من تلك المدة حتى سقطت مملكتهم بإغارة إسكندر.

ذلك هو هربغوس الذي رمى به قيروش مدائن الإغريق ليخضعها. ولقد عنيت بذكر هذه التفاصيل على شهرتها لأبين أي الأمم وأي الأخلاق سيكون ليونان الشاطئ علاقة بها.

أخذ هربغوس يبتكر طرائق لفتح المدائن، فكان كلما وصل مدينة أحاط بها ثم حفر حولها خندقاً يحصر أهلها فيضطرهم إلى التسليم. فبدأ بمدينة فوكاية، تلك المدينة التي كان لها اسم كبير في ذلك العهد والتي تهمنا بوجه خاص جد الأهمية، لأن أحد فلاسفتنا إكسينوفان كان بها منذ نفي من كولوفون وهرب مع مواطنيه على الشواطئ البعيدة لبحر طرهينيا ولقد كان أهل فوكاية أول من أزمع السياحات الكبرى المقرونة بالأخطار من جميع الجنس الهليني، فإنهم أول من علم الناس ما هو البحر الأدرياتيكي وبحر طرهينيا وايبيريا وطورطائس، تلك الأصقاع السحيقة في حدود الأرض وراء عمد هيرقليس، وهم الذين حوروا طريقة صنع السفن فرغبوا عن السفن الغليظة المستديرة إلى سفن ذات خمسين صفاً من المجاذيف وهي المسماة "البانيكونتور". ولما كان لأهل فوكاية صلات مودة ومعاملة ببلاد طورطائس عرض عليهم ارغانتونيوس ملك هذه الجهة أن يهاجروا إليه إذا شاءوا أن يتركوا يونيا عندما هدد الفرس مدينتهم. ونظرا إلى أنهم لم يكونوا قد عزموا على الهجرة بعد، أعطاهم حليفهم الملك مبلغاً عظيماً من النقود ليساعدهم على إقامة سور منيع حول مدينتهم، فأقاموا هذا السور الواسع الامتداد من أحجار كبيرة محكمة الرصف جداً.

وقف هربغوس أمام هذا الحصن العظيم الذي لم يستطع النفوذ منه إلى داخل المدينة، وبقي محاصراً لها حتى أرهاق أهلها إرهاقاً، ثم عرض عليهم عرضاً يوافقهم وهو أن يهدموا جزءاً من الحصن الأمامي تحتله الفرس إشارة إلى أن أهل المدينة أطاعوا فطلب إليهم الفوكيون الذين أعياهم الحصار جواباً على هذا العرض هدنة يوم واحد، وأن يبتعد

الجيش الفارسي عن مراكزه، فأجابهم هربغوس إلى ذلك مع توقعه ما سيحصل فاغتنم الفوكيون هذه الهدنة، وحملوا على السفن نساءهم وأولادهم وجميع ما يستطيعون حمله خصوصاً الأمتعة المقدسة التي جمعوها من المعابد، وسافروا إلى شيوز، فلما جاء الفرس في اليوم التالي وجدوا المدينة خلوا ليس فيها أحد من أهلها.

كان الفوكيون قد رغبوا بادئ ذي بدء في أن يشتروا من أهل شيوز الجزر التي تسمى اينوزوس، لكن هؤلاء قد رفضوا الصفقة حتى لا يخلقوا لأنفسهم مزاحمين لا يُستهان بأمرهم على مرافق التجارة، فاضطر الفوكيون إلى أن يوجهوا سفنهم نحو جزيرة قورسقة (المسماه وقتئذ سيرني) حيث أسسوا فيها قبل ذلك منذ عشرين عاماً مدينة «علالية» بإشارة الهاتف، ولكنهم قبل أن يذهبوا إلى هذا المنفى النهائي رجعوا إلى فوكاية على غرة من حرسها الفارسي وذبحوهم، ومع ذلك فإن هذا العمل الجريء لم يمكنهم من البقاء في وطنهم القديم بل ارتدوا إلى أسطولهم. وليثبتوا أنهم لن يتركوه ألقوا في البحر كتلة من الحديد وأقسموا ألا يعودوا قبل أن تطفو هذه الكتلة الثقيلة على سطح الماء. وعلى رغم هذا القسم زين لنصف النازحين أن ينزلوا إلى البر ويدخلوا فوكاية، وأما النصف الآخر الذي بر بقسمه فقد اعتمد على ألا يبقى تحت نير المتوحشين الذي لا يطاق، فأبحروا إلى قورسقة، فدخلوها آمنين وأقاموا كما يشتهون في سكينه مدة خمسة أعوام مع مواطنيهم الذين سبقوهم إليها قبل ذلك بسنين طوال. ولكن أهل طرهينيا وقرطجنة هاجموا الفوكيين، إما حسداً من عند أنفسهم، وإما اضطراراً للكسب وجباً في السلب والنهب. ولم يكن لدى الفوكيين إلا ستون سفينة ضد مائة وعشرين لخصومهم، ولم يبرر لهم ذلك التردد في منازلهم، بل ذهبوا يبحثون عن عمارات خصومهم في بحر سردينيا، وتحرشوا بهم وطلبوهم للقتال، ولكنهم خسروا في هذا الظفر ثلثي سفنهم فرجعوا عجلين إلى «علالية»، واحتملوا عائلاتهم وأموالهم ليلجأوا إلى موئل آخر آمن من هذا. والظاهر أن جزءاً من هؤلاء المهاجرين قد وقع في يد الطرهينيين والقرطجنين فقبضوا عليهم وذبحوهم، وذهب الجزء الآخر إلى رغبوم في صقلية، ومن هناك اتجهوا إلى الشمال

وأسسوا على أرض أونترى مدينة كانت تسمى في زمن هيرودوت «مدينة هيللا» وهي المعروفة بمدينة إيليا الشهيرة بمدرستها الفلسفية التي شيدت فيها بعد تأسيسها بقليل.

فى نحو هذا الحين لجأ إكسينوفان إلى إيليا هاربا من كولوفون التي وقعت في قبضة الفرس، وانضم إلى الفوكيين الشجعان الذين كانوا مثله يكرهون العبودية. من الواضح أن ما ورد في شعر إكسينوفان خاصاً بإغارة الفرس الذين ما زال يسميهم الميديين، إنما يراد به واقعة هربغوس تلك لا حرب الميديين^(١)، كما ظن ذلك أحياناً. وقد يظهر أن تأسيس إيليا الذي شدا به إكسينوفان كما شدا بتأسيس كولوفون كان في سنة خمسمائة وست وثلاثين أو خمسمائة واثنتين وثلاثين قبل الميلاد، بل قد يكون أدنى من ذلك. على كل حال فإنه قبل إغارة مردونيوس وداتيس على بلاد الإغريق بثلاثين سنة على الأقل، وليس عندنا ما يفيد أن إكسينوفان عاش إلى ذلك الوقت.

ولسنا نرى فيما حفظ لنا التاريخ من التفاصيل ماذا جرى على كولوفون بخصوصها، وهي من ليديا كمدينة فوكاية، ولكن المفهوم ضمناً هو أنها وقعت فيما وقعت فيه فوكاية، وأن أهلها الذين لم يقبلوا حكم المتوحشين ركبوا البحر ليلجأوا إلى جهات أكثر طمأنينة. حق أن هيرودوت لم يذكر بعد أخبار الفوكيين إلا أخبار أهل طيوس الذين فعلوا مثل ما فعل أولئك، فحملوا ما قدروا عليه في سفنهم وقصدوا تراقيا حيث أسسوا مدينة أبدير، وقد كان سبقتهم في الهجرة إلى تلك البلاد أحد مواطنيهم المدعو كلازومين. أضاف هيرودوت إلى هذا أن بقية مدن يونيا خضعت لحكم الفرس بعد مقاومة عنيفة، ولا مانع من افتراض أن إكسينوفان كان أحد هؤلاء الأبطال الذين أثنى عليهم المؤرخ، والذين لم يلقوا قيادهم إلى الفرس إلا بحكم الضرورة. إلا الملطيين وحدهم فإنهم اتفقوا مع قيروش كما ذكر آنفاً وبذلك احترم هربغوس حيادهم اكتفاء بما شئت وأذل من سائر يونان القارة. وأما أهل الجزائر فإنهم بوضعهم كانوا في مأمن من الغارة، لأن الفرس لم يكن لديهم بعد أسطول يطولون به الجزائر ويلقون على أهلها نير العبودية. وأما يونيا

(١) ولقد جلا الشك في هذه النقطة فكتور كوزان. راجع القطع الفلسفية والفلسفة القديمة طبعة سنة ١٨٦٥ ص ٣ و ٤.

وأبولس فإنهما أطاعتا غاية الطاعة حتى جند منهم هربغوس حين مشى إلى قاريا التي وقعت في قبضته بعد قليل. وأما الكنيدون فإنهم حاولوا الدفاع بالإسراع في قطع البرزخ الذي يصلهم بالقارة، ثم بدا لهم أن يستسلموا إلى الفرس أخذاً بنصيحة كاهنة دلفوس. وأما البيدازيون من ضواحي هاليكارناس فإنهم قاوموا حتى حين، ولكنهم قُهِروا كما قُهِر اللقيون الذين أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن وطنهم. وبذلك تم النصر لقيروش، وكان يستطيع أن يغتبط وهو سائرٌ إلى إخضاع بابل بأن كل آسيا الدنيا ملك له إلى البحر.

كانت جزيرة سموس وقتئذ أقوى الجزر ذات مركز سام بما لها من الروابط بإغريقيا وبمصر، وبينما كان قمبيز المفتون ابن قيروش يغزو مصر ليقضي على نفسه فيها كان بوليقراطس يحكم سموس، وقد مكن له فيها بحسن إدارته وقلة تحرجه ومبالاته، حتى جعل الجزيرة من الرخاء محسودة الوفر من كل نظائرها. وكان من أمره أنه أقام فيها ثورة انتهت باستيلائه فيها على السلطان هو وأخويه ينتنيوت وسيلوسون، إذ اقتسم الإخوة الثلاثة حكم المدينة لكل منهم قسم معلوم. ولكن يوليقراطس لم يلبث أن تخلص من أخويه إذ قتل أحدهما وشرد الثاني وخلص له الحكم وأطاعه أهل المدينة. وقد أراد أن يثبت لنفسه الملك المغمصوب فارتبط بأمازيس ملك مصر، وتبادل وإياه الهداية النفيسة، ولم يمض عليه حين حتى نبه ذكره، وعمت شهرته بلاد الإغريق، وكان سعيد الطالع موفقاً في مشروعاته إلى غاية المنى، وكان أسطوله مؤلفاً من مائة سفينة من ذوات الخمسين صفّاً من المجاذيف، وكان يبلغ عدد رماته وحدهم ألفاً.

ولم يكن مع ذلك ليرعى لجيرانه حُرمة بل كان يضرب عليهم الإتاوة بغاية الجرأة، وكان من مبادئه السياسية ألا يبقى حتى على أصدقائه متى قضى الظرف إلا أنه كان يعوض عنهم بعد ذلك. وكان قد غزا عدة جزر حوالي سموس، بل عدة مدن في القارة. ولما ساعد اللسبوسيون الملطيين عليه حاربهم وقهرهم في واقعة بحرية، وسخر جميع الأسرى مصفدين بالأغلال في حفر الخندق العميق الذي كان يحيط بأسوار المدينة. وكان من نتائج ظلمه أن بعض أهل سموس هجروها من هول ما يلقون من الجور واستجاروا

بإسبرطة، فأبحر إليه اللقدمونيون في أسطول قوي. وحاصروا المدينة أربعين يوماً، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بفضل بأس بوليقراطس أو بفضل ماله. وبقي هذا الطاغية مستبداً بالحكم مهيب الجانب لا يُغلب على أمره، حتى إن من لم يريدوا من السموسيين الاستسلام لمظالمه لم يكن لهم وسيلة إلا الهجرة بعيداً عن ملكه إلى حيث ينزلون منزلاً يرضونه. ولم يكن ليأمن على نفسه الطواريء بذلك الخندق العميق الواسع بل اتخذ نفقاً تحت الجبل سلك فيه إلى المدينة ماءً غدقاً، وبنى رصيفاً شاهقاً متقدماً في البحر، جعل به المرفأ أكثر ملائمة لرسو السفن، ثم بنى معبداً اشتهر بأنه أكبر المعابد المعروفة. وقد ذكر أرسطوطاليس أيضاً هذه الأعمال العظيمة التي عملها بوليقراطس.

وكان هذا الطاغية محباً للآداب والفنون، ويقال إنه أول من أنشأ مكتبة. وكان مثل ذلك في تلك القرون زخرفاً نادراً، كانت مصر وحدها هي صاحبة الإبداع فيه. وكان يؤوي إليه الشعراء، وكان أنقريون الطيوسي بعض جلسائه ومادحيه.

في صدد الكلام على عهد طغيان بوليقراطس هذا، ينبغي أن نورد خبر الصلات التي كانت لفيثاغورث به والتي لدينا عنها معلومات مضبوطة فإن يمبليك وفرفيوس وديوجين لايرث يلتقون في هذه النقطة، وليسوا بالضرورة إلا صدى كثير من المؤلفين الذين هم أقرب عهداً بزمان فيثاغورث وكتبوا ترجمته مثل أرسطوكسين الموسيقي تلميذ أرسطو وابللنيوس الصوري وهرميب وديوجين وانتيغون إلخ. كان فيثاغورث بن منيزارخس يدلي بأمه إلى أكبر عائلات سموس، ويمكن أن يتصل نسبه بأنصي مؤسس المستعمرة، ويظهر أن أباه قد جمع مالاً وفيراً من تجارة القمح وكان صورياً على رأي بعض المؤرخين، وطرهينيا على قول البعض الآخر، وكان يستصحب ابنه معه في سياحاته منذ حدثته، فطاف الصبي مع أبيه تلك البلاد التي عني بدرسها بعد ذلك، فلما صار في سن التعليم، ورأى أبوه فيه مخايل وعليه سيما النجابة، وصله بأعلى الرجال امتيازاً في زمنه : طاليس - على ما يقال - وانكسيمندر وانكسيمين الملطي وفرقليد السيروسي. وقد عرف فيثاغورث فينيقيا وهو شاب إذ صحب أباه إليها. ولما أراد السفر إلى مصر زوده

بوليقراطس بكتاب توصية إلى أمازيس، وذلك يثبت أن رأي فيثاغورث في بوليقراطس وقتئذٍ على الأقل لم يكن كراهه فيه بعد ذلك.

لم تكن مدة إقامة فيثاغورث بمصر محل اتفاق في التاريخ، فمن مترجميه، مثل يمبليك، من حددها باثنين وعشرين عامًا وإن كان ذلك قليل الاحتمال لما أسر عسكر قمبيز فيثاغورث سيق إلى بابل، وهناك اتصل بالمجوس كما اتصل بكهنة مصر مدة إقامته بها، إذ كان محل إعجاب بذكائه ورجاحة عقله وحسن روائه. ولما رجع إلى وطنه وهو متقدم في السن، أي كانت سنه ستًا وخمسين سنة على قول يمبليك، فتح فيه مدرسة. وظل السموسيون الفخوريون بمواطنهم يعقدون مداولاتهم السياسية قرونًا عدة بعد ذلك في مجلس نصف حلقي مسمى باسم فيثاغورث، وقد قال أرسطوكسين: إن فيثاغورث لما ترك سموس فرارًا من ظلم بوليقراطس لم يكن يتجاوز من العمر أربعين سنة، وربما كان قوله أوجه، لأنه أقرب عهدًا إلى هذه الأحداث من يمبليك، ومن المحتمل أن يكون أعلم بها منه ما دام أنه تلميذ أرسطو الذي كان يشتغل كثيرًا بفلسفة فيثاغورث. وأما شيشيرون فإنه ذكر في كتابه "الجمهورية": أن فيثاغورث وصل إلى إيطاليا في الأولمبية الثانية والستين أعني في سنة ٥٢٨ قبل الميلاد، أي في السنة التي جلس فيها طرخان العظيم على العرش. ولما كان شيشرون (على لسان سيبون) يقصد إلى تصحيح خطأ تاريخي شائع، فمن المراجع أنه يعرف حق المعرفة صحة ما ذكر وأنه غير مخطئ:

ومهما تكن حياة فيثاغورث محجوبة عنا مع ما كان من اشتغال كثير من الكتاب الأقدمين بها، فالظاهر أن من المحقق أنه هاجر من سموس المحرومة الحرية ليجد بلدًا في إغريقيا الكبرى لا تشمئز فيه نفسه من مشاهد الظلم ويستطيع أن يتمتع فيه بالاستقلال الذاتي الذي كان في حاجة إليه. وكذلك فعل إكسينوفان في نحو هذا الزمن، إذ كان يفر من اضطهاد الفرس الذين كانوا أشد ظلمًا من طغاة الإغريق. كان ذلك هو الحظ المشترك لأمثال هؤلاء، فليس من السهل أن يبقى المرء وطنيًا أو فيلسوفًا ينوء بحمل الضغط الذي يأتيه أمثال أولئك الأسياد. وعلى ذلك حمل فيثاغورث إلى قروطون وإلى

سيباريس مذاهب عجيبة فيها بلا شك من الديانات الشرقية التي اتصل بأهلها، ولكنها حقيقة باحترام كل من يحبون الحكمة والإنسانية.

ولم تصل إلينا مذاهب فيثاغورث إلا عن طريق الوسطاء، إذ لم يجتمع لنا شيء من مؤلفاته الكثيرة التي وضعها^(١) فيما يظهر على ما يقول هيلير قليطس، والتي مع كون فيلولافوس أذاعها لأول مرة بعد ثلاثة أو أربعة قرون من وضعها كان يطلبها أفلاطون بأعلى ثمن.

أما بوليقراطس الذي شاطر في أسباب تعليم فيثاغورث فإنه لقي حتفه على أسوأ ما يكون بعد سنين قلائل من اعتزال الحكيم سموس التي صارت أخط من أن تكون وطنًا له، ذلك بأن أورطيس الذي رسمه قيروش مرزبانًا على سرديس حاول أن يوسع سلطان الفرس ويدخل الجزائر تحته، فعزم على أن يوقع بالطاغية الذي أتى سموس الواقعة أمام حكومته قوة ومنعه، فأرسل إلى بوليقراطس سرًا رسولًا يخبره عنه بأنه مهتد شخصيًا بغضب قمبيز البالغ حد الصرع، وأنه يريد أن يودع ماله مكانًا أمينًا ويرجو السيد أن يقبل إيداعها عنده، ولكيلا يتظن في قوله طلب إليه أن يرسل ثقة له ليريه خزائنه المملوءة بالذهب المضروب على شريطة أن يبقى نصف المال للمرزبان والنصف الثاني يكون لبوليقراطس ينفقه على مشروعاته الواسعة المدى إلى حد فتح إغريقيا كلها.

لم يطق شره بوليقراطس صبرًا، فأرسل أمين أسرار مندريوس إلى ”سرديس ليحقق خبر كنوز أورطيس الذي خدع الرسول وأراه صناديق مملوءة حجرًا مغطاة سطوحها بالذهب، فرجع الرسول إلى سيده وقرر له ما رأى، ففرح بوليقراطس وعول على أن يذهب بنفسه لإحضار الذهب، وعبثًا حاول أصحابه وعائلته منعه، حتى لقد كان منه أن هدد ابنته بالألا يزوجها إلا بعد زمن طويل حين تشبث بمنعه وقت ركوبه الفلك. ومضى وفي صحبته عرافه المدعو هيلي الذي لم يصل علمه إلى كشف هذه الأجبولة. فلما وصل

(١) ديوجين اللايرثي. حياة فيثاغورث ف ٦ ك ٨ ب ١. وان الرسائل بين أنكسيمين وفيثاغورث ربما لا تكون متحلة. ديوجين اللايرثي فيما كتبه عن حياة دينكم الفيلسوفين.

إلى حيث ينتظره أورطيس أمر الغادر بالقبض عليه وصلبه. ومع أن هيرودوت لم يكن به مظنة ضعف للطغاة فإنه رثى لحال بوليقراطس الذي كان من العبقرية والسؤدد بحيث لا يستحق هذه الميته الشنعاء. وكان في معية بوليقراطس في هذه السفرة المشؤومة، غير ذلك العراف المغفل، ديموكيد الطبيب الشهير من قروطن الذي وقع هو أيضًا بهذه الأحبولة في الرق، ثم دُعي بعد ذلك بقليل إلى بلاط دارا ليعالجه من التواء مفصل أصابه، وذلك حين أمر دارا مهلك المجوس بقتل أورطيس لارتكابه فظائع لا مصلحة في ارتكابها^(١).

لما خلت سموس من بوليقراطس لم تستأخر عن الوقوع في قبضة الفرس، لأن الطاغية لما ذهب إلى حيث لقي حتفه كان قد خلف على الجزيرة أخاه مندريوس الذي هو أقل كفاية من أن يلي الحكم، وجاءت جنود أوطانيس المرزبان الجديد تحت قيادة سيلوسون أخي بوليقراطس الذي نال حظوة عند دارا بسبب أنه عرفه في مصر حيث منفاه، فهرب مندريوس وترك الجزيرة، فتولى أخوه شاريلالوس قيادة الحامية، وبعد مقاومة عنيفة سقطت الجزيرة في أيدي الفاتحين، ودخلها سيلوسون فوجدها خلواً من سكانها.

ولما انتصر دارا على بابل بفضل إخلاص زوبير وجه قواه إلى محاربة السيتين، فصنع له مندروكليس المهندس السموسي القنطرة المشهورة التي عبر عليها جيشه بوغاز البسفور، وهي قنطرة من المراكب لم يكن طولها أقل من أربع غلوات أي نحو ٨٠٠ متر. ولا بد أن يكون اتخاذ مثل هذه القنطرة من أصعب ما يكون وكانت واقعة، على رأى هيرودوت، بين بيزنطة وبين معبد قائم على مصب البسفور. ولكي يخلد هذا الملك العظيم ذكرى هذا العمل أغدق على المهندس السموسي نعمه، وأقام عمودين على جانبي الشاطئ كتب عليهما باللغتين اليونانية والآشورية. وقد رسم مندروكليس في معبد جونون لوحة تمثل القنطرة وجيوش الفرس تعبر فوقها تحت نظر دارا جالساً على عرشه. وقد شفع دارا جيشه البري بأسطول عظيم يقوده اليونان والأيوليون وفريق من أهل هلسبون وأمر الأسطول أن يدخل البحر الأسود، ثم يدخل مجرى الدانوب ونهر

(١) السنة ٢٣٠ من تأسيس روما أو ٥٢٣ قبل الميلاد على رأي بلاين ك ٣٣ ب ٦ ص ٤٠٣ طبعة ليتري.

الاستر و يقيم قنطرة على النهر في محل تفرعه الأول إلى عدة فروع. واتجه دارا بجنوده في البر من تراقيا إلى تلك النقطة. وكانت عدة جنوده البرية سبعمائة ألف مقاتل وعدة سفن أسطوله ستمائة سفينة وكانت هذه الجيوش البرية والبحرية مؤلفة من جميع الأمم التي تشملها مملكة الفرس المترامية الأطراف من شواطئ آسيا الصغرى إلى الهندوس.

وتقدم الملك العظيم، على بعد الشقة وصعوبة المسالك، في طريقه بين تلك الأمم الجافلة التي كانت تولي الأدبار أمامه وتستدرجه شيئاً فشيئاً إلى مفازاتها الواسعة وتلك المهامة التي لا تجاز، كما وقع في أيامنا هذه لفاتح آخر ليس أكثر منه بصراً بالعواقب ولا أقل منه نحساً في الطالع. وقد عني دارا في انتصاراته الموهومة بأن يقيم في طريقه أعلاماً وأعمدة نقش عليها بالعبارات الفخمة: ”إخضاع الجيتيين“. وكان يبني آثاراً سهلة البناء، فإنه أمر بأن يلقي كل جندي من جيشه العرمرم وهو سائر حجراً في مكان معين، فيجتمع من هذه الحجارة أكمة عظيمة يخيل أنها هرم. ولقد وجد جيش دارا حتى في هذه المجاهل بعض آثار النفوذ الإغريقي، فإن أولئك الرحل الذين كانوا يعبدون ”دالمكسيس“ الذي كان، كما يقال، عبداً لفيثاغورث بن منيزارخس في سموس، والذي بعد أن صار حراً وغنياً عاد إلى مواطنه يشتات من المدينة الهلينية إذ نقل إليهم شيئاً من عقائد سيده العالم. غير أن هيرودوت لم يقبل هذه الرواية وردها بأن ”المكسيس أو غيليزيس“ كان أقدم من فيثاغورث بكثير، وأن فيثاغورث أعجب بحكمته العالية^(١) ولكن تلك الرواية المشهورة مهما كانت كاذبة تدل على الأقل على ما لاسم الفيلسوف من الاحترام منذ تلك الأزمان، فإليه تنسب الثقافة الأخلاقية والإصلاح الموفق الذي وإن لم يتم كان سبباً في التهذيب من حال أهل تراقيا المتوحشين.

على أن دارا لما وصل إلى المحل المعين على نهر الدانوب، وجد اليونان نفذوا أمره باقامة قنطرة المراكب، كما أقاموا قنطرة البسفور. ولما عبر الجنود النهر أراد دارا رفع القنطرة حتى يتبعه الإغريق في غزوته، ولكن قويس رئيس المتالنة كان لحسن الحظ

(١) هيرودوت ك ٤ ب ٩٥.

أسدَّ رأيًا من الملك فإنه وصل إلى إقناعه ببقاء القنطرة لأنها طريقه الوحيد عند التقهقر، وعلى ذلك أمر دارا اليونان أن ينتظروه ستين يوما فإن لم يعد في هذه المدة هدموا القنطرة وسافروا.

حدث ما كان سهلاً توقعه، فإن جيش دارا بعد أسفار نحو الشمال متعبة عديمة الفائدة اضطر إلى أن يعود خاسراً تاركاً مرضاه وجرحاه، وكانت حاله حال ذلك الجيش العظيم سنة ١٨١٢ الذي كان في تلك البلاد تقريباً يقاتل أولئك الأعداء أنفسهم الذين خدعوه الخديعة عينها. ولما انتصر السيتيون على دارا من غير حرب تقدموه إلى قنطرة الدانوب، وكان دارا سيلاقى ما لاقى نابليون في عبور نهير بير يزيينا لولا أمانة الإغريق الذين وكل إليهم حراسة القنطرة، فإن السيتيين حرضوهم على كسرهما قائلين : إن ميعاد الستين يوماً قد مضى، وإنهم قد أوفوا بعهدهم. وقد نصح لهم ملتياذ الآتيني الذي كان قائد أهل شرسنيز وهلسبون وطاغية عليهما والذي صار بعد ذلك فاتح مرطون، أن يهدموا القنطرة وينسحبوا إلى بلادهم وبذلك يهلك الجيش الفارسي ويسترد اليونان حريتهم، وكانت نصيحته ستجد آذانا مصغية، ويكون لها من الأثر ما لم يكن لإغراء السيتيين، لولا أن اجتمع رؤساء اليونان وقرروا بناء على رأي هستيا الملطي أن ينتظروا دارا ويخلصوه. وكان مع هستيا من رؤوس اليونان سطرابطيس الشبوزي وأوسيز السموسي ولوداماس الفوكي. وكان أرسطاغوراس الكومي وحده رئيساً للأيوولين. ولم يكن الوفاء بالعهد هو الذي حمل أولئك الرؤساء على هذا القرار الغريب، بل هي المصلحة الشخصية، فإن هستيا لم يصادف عناء في إقناع زملائه الذين مصالحتهم كمصلحته بأنهم إذا فقدوا تأييد الفرس لهم لم يلبث واحد منهم سيداً على مدينته التي يحكمها، بل إن الأمة متى تخلصت من حكم الأجنبي تسارع إلى حكم الديموقراطية، وتحرم رؤساءها الحاليين كل سلطان عقاباً لهم على قبولهم المزاي التي خصهم بها الملك الكبير. وقد رجح لدى الرؤساء هذا الرأي وأمكن لدارا، وقد اقتفى السيتيون أثره، أن يفر منهم بعبور النهر.

ماذا كان عساه أن يقع لو أن اليونان كسروا القنطرة وهلك بذلك دارا وجنوده؟ تكون

داهية دهياء على مملكة الفرس من غير شك، ولكن هذه الضربة مهما كانت خطورتها لا تكون هي القاضية، لأن هزائم مرطون وسلامين وبلاته لم تكن لتكفي لهذا الغرض. حقاً ربما كانت يوتيا تستطيع أن تتنفس من ضيق الخناق بعض الزمن وتسترد استقلالها، ولكن إغارة جديدة أكثر حدة بالضرورة من سابقتها ترجعها إلى الخضوع فلم يكن حان الوقت لسقوط الفرس الذين كانت أمتهم وقتئذ في قوة الشباب وطور النمو الأول، ولكن هذا لا ينفي الإجرام عن أنانية الرؤساء اليونان فإنهم كانوا يستطيعون البقاء على عهد دارا بأسباب أشرف من الأسباب التي اتخذوها.

لما وصل دارا إلى سستوس ركب البحر إلى آسيا وخلف مغباز على الجنود في أوروبا، وليفتح تراقيا ومقدونيا. وبعد قليل دُعي مغباز إلى صوص، وكذلك هستيا الذي ظهر أن من عدم التبصر تركه وحده في تراقيا، حيث أقطعه دارا إقطاعات واسعة في مرسينة جزاء له على خدمته.

ولقد منيت بلاد اليونان بجهد جديد ومصائب جدد تتخمر في باطنها، فإن هستيا لما ترك ملطية نزل عن السلطة إلى أرسطاغوراس صهره وابن عمه، فجاء إلى هذا الأخير بعض المنفيين من نكسوس يستجدونه، وأحس من نفسه قلة الحول في أن يقوم بمشروع فتح تكسوس وحده، فرجع في الأمر إلى أرتافرن أخي دارا ومرزبانه على سرديس وجميع تلك الجهات التي هي أول مرزبانية في المملكة، فطمع أرتافون في الاستيلاء على نكسوس وما يليها من مدن السكلاد وحصل من دارا على الإذن بتسيير مائتي سفينة تحت تصرف أرسطاغوراس، ولكن الشقاق قد دبّت عقاربه بين الأحلاف فاستطاعت نكسوس أن تدافع عن نفسها وأن تصد هجمات محاصريها وتردهم بالخيبة بعد حصار أربعة أشهر، وعلى ذلك لم يوفق أرسطاغوراس إلى تحقيق شيء مما وعد به مرزبان سرديس فخاف من ذلك على سلطانه الخاص، وعقد العزم على ألا يكون نصف مذنب فغلظ ذنبه، وأوقد نار ثورة صريحة دفعه إليها أيضاً سلفه هستيا الذي كان لا يزال في صوص عند الملك الكبير، ولكي يجذب قلوب الملطيين إليه نزل عن حكومة الطغيان،

ورتب بدلها حكومة الشعب، ودعا المدائن اليونانية الأخرى إلى العصيان، فاستجابت لدعائه وطردت جميع الطغاة الذين نصبوا عليها تنصيباً.

إن ما أتاه أرسطاغوراس من الإقدام الكبير كان بعد استشارة أصحابه. فأما هيقات الملطي المؤرخ فكان رأيهِ ألا يوقدوا نار الحرب في الحال وليس لديهم المال الضروري، فلما لم يستطع الإقناع برأيه ألح في وجوب توجيه كل قواهم نحو البحر، بفكرة أنهم فيه أقدر على الهجوم منهم في البر، ولهذه الغاية نصح بأن يأخذوا جميع أموال كريسوس التي جمعها في معبد البرنشيد، ولكنهم أصموا آذانهم عن الاستماع لهذا الرأي السديد، وأصرّوا على الثورة على أي حال، وكان أرسطاغوراس يشعر تماًماً بضعف يونيا فذهب إلى إسبرطة ليتخذها حليفة له.

ولقد عني أرسطاغوراس ليزيد كليومين ملك إسبرطة علماً بحقيقة مشروعاته بأن يبين له في أثناء المفاوضة مواقع البلاد التي كانت موضوع الحديث وهي ليديا وفريجة وقبادوس وفارس إلخ. بينها له مرسومة على صحيفة من النحاس حملها معه، وكان وقتئذ من أحدث ما يكون رسم خريطة جغرافية. ويظهر أن انكسيمندروس هو صاحب هذا الاختراع البديع، ولكن كليومين لم يفهم إلا بسؤال واحد: "ما هي المسافة بين بحر يونيا وبين المحل الذي يقيم فيه الملك؟" فأجابه ببساطة: "مسير ثلاثة أشهر" وكان ينبغي لأرسطاغوراس أن يحسب وقع هذا الجواب في نفس رجل أسبرطي، لأن كليومين بعد أن سمع هذا الجواب أمر نزيله أن يبرح لقدمونيا قبل غروب الشمس، ورفض مع الازدراء المال الذي حمله إليه ليحاول إغواءه به. وكان ما قاله أرسطاغوراس عن المسافة حقيقة واقعية، فإن هيرودوت قد عدد بالضبط والعناية المائة والإحدى عشرة محطة الواقعة على الطريق الجميل الذي أنشأه دارا من سرديس إلى صوص على نهر كواسب أو كراسو البعيد جداً من مدينة بابل نحو الشرق. فكان ١٣٥٠٠ غلوة أو ٤٥٠ برزنجا والبرزنج هو في المتوسط ٣٠ غلوة أو بعبارة أخرى ٦٠٠ فرسخ، فكان لا بد للقيام بمشروع ضخم كهذا عبقرية إسكندر ومائتا عام حرب على مملكة الفرس الضخمة، ولم يكن لكليومين

من خلقه ولا من زمانه ما يجرئه على معاناة أمثال هذه المشروعات.

لما فشل أرسطاغوراس في إسبرطة قصد آتينا لأنها صارت شيئاً فشيئاً أقوى مما كانت عليه منذ قلبت طغيان البيزاستراتيين، وأخذت ترسل السفراء إلى ارتافرن مرزبان سرديس حتى لا يصغي إلى مزاعم هيبياس الذي التجأ إليه. ولما لم ينجح أرسطاغوراس في استمالة كليومين، ونجح في استمالة سكان آتينا، وعدتهم ثلاثون ألفاً - كما ذكره هيرودوت بعبارة ملؤها التهكم، إذ ذكرهم بأن ملطية كانت مستعمرة لاجدادهم - فتقرر أن يرسلوا إلى يونيا عشرين سفينة لنصرتها. وكان ذلك - كما رواه أيضاً هيرودوت، بداية الحرب التي فيها لبست الجمهورية حُلل الفخر بتخليص الإغريق والتي فيها لاقت دولة الفرس هزائم قاسية كانت طلائع لخرابها العاجل. وقد حمل أرسطاغوراس البيون أيضاً على الثورة، وهم أولئك الذين أخرجوا من ضفاف استريمون إلى فريجة بأمر دارا، وهربوا منها إلى شيوز وسافروا من شيوز إلى لسبوس ومنها إلى دوريسكوس ومنها عادوا إلى بلدهم الأصلي.

لما وصلت السفن العشرون إلى ايفيزوس وانضم إليها خمس سفن أخرى من أريتريا لاقوا إخوة أرسطاغوراس يقودون جند ملطية لأن أخاهم أقام بالمدينة يباشر بنفسه حركة التعبئة وقد ترك الجيش البري الأسطول في مياة ايفيزوس وتقدم هو على ساحل "قايستر" يجوس خلال طمولوس حتى وصل إلى سرديس، فأخذها من غير حرب تذكر وحرقها بغاية السهولة، لأن سطوح منازلها مغطاة بالقصب اليابس. ولم يتمكن أرتافرن إلا من الاستعصام هو وجنوده بالقلعة، وقد انزعج الفرس والليديون لما رأوا المدينة غنيمة النار، ولكنهم استجمعوا شجاعتهم وخرجوا إلى المحاربين وثبتوا أمامهم حتى اضطروهم إلى التقهقر نحو الشاطئ، ونهض الفرس المرابطون على الهالوس إلى المعركة فلم يجدوا اليونان في سرديس فاقتفوا آثارهم إلى ايفيزوس حيث نالوا منهم نيلا في واقعة كبرى.

ولقد أخذ اليأس من الآتينيين كل مأخذ من جراء هذه الهزيمة فانسحبوا على رغم رجاء أرسطاغوراس وإلحاحه، ولكنه هو لم ييأس، بل اعتمد على جنوده الخاصة وعلى

مساعدة مدن هلسبون وقاريا وجزيرة قبرص العظيمة وإذ ذاك كان أونيزيلوس طاعية
سلامين منتقضا على الفرس.

لما علم دارا بما أتاه الآتينيون من المشاطرة في إحراق سرديس أقسم أن ينتقم منهم
ويجزئهم على هذه الإساءة شر الجزاء، وأرسل هستيا بديا ليعيد اليونان إلى الطاعة
بفضل دسائسه، ولم تكن مع ذلك أحوال اليونان بخير. بل إن قبرص سلمت بعد مقاومة
شديدة. وقاريا التي كانت ثائرة ردت إلى الطاعة وكلازومين سقطت في قبضة أرتافرن
وأوطانيس. وكذلك سلمت كومة أوليد، فلم يستطع أرسطاغوراس احتمال هذه الخيبة
فانزوى في مرسين بلد حميه هستيا. وكان هيكاط الملطي يرى أن الأوفق لهم الالتجاء
إلى جزيرة ليروس حيث يمكنهم البقاء حتى يعودوا إلى ملطية في الوقت المناسب. ولما
سافر أرسطاغوراس إلى تراقيا قتل أمام قلعة وهلك جيشه.

ولم يكن حظ هستيا بأحسن حالا من ذلك، فإن أرتافرن تظن في أمره، واطلع على
دسائسه ففر بعد عناء من سرديس إلى جزيرة شيوز فانتبذوه بفكرة أنه صنيعه الفرس،
ولكنه بعد ذلك كسب جاذبيتهم بأن أظهرهم على ما فعل لإقامة ثورة اليونان فحملوه إلى
ملطية حيث قابله أهلها بفتور، لأنهم بعد أن نالوا حريتهم كانوا يخشون أن يعيد إليهم
أيام طغيانه، ولما نفى من وطنه حصل من أهل لسبوس على بعض السفن يطوف بها جهة
بيزنطة ينهب أموال الذين لا يريدون أن ينضموا إليه.

أخذت العاصفة التي أثارتها ثورة أرسطاغوراس تهمي على رأس يونيا التي لم
تتقهقر أمام هذا الخطر المزعج. انعقد البانيونيون وقرر الحرب ولم تكن هناك فكرة في
حرب برية فلم يؤلف جيش ما وعولت ملطية على أن تتفرد بحماية أسوارها التي يهددها
العدو ولكنهم رتبوا أسطولا عظيما تجتمع سفنه في لادي وهي جزيرة صغيرة قبالة
ملطية، فاجتمعت إليه السفن من كل ناحية حتى إن الأبوليين أرسلوا سبعين سفينة فكان
الملطيون ومعهم ثمانون سفينة في الجناح الأيمن جهة الشرق، وكان مع البريينيين اثنتا
عشرة سفينة، ومع الميونيين ثلاثة، ومع أهل طية سبع عشرة، ومع الشيوزيين مائة سفينة،

ومع الأريتريين ثمان، والفوكيين ثلاث فقط كالميونتين، وكان مع أهل سموس في آخر الجناح الأيسر إلى جهة الغرب سبعون سفينة، فكان هذا الأسطول الكبير العدد في طاقته أن يقاوم حلفاء الفرس الذين هم الفينيقيون والقبارصة والصقليون والمصريون، ولكن تسلل الشقاق بين اليونان، وحقد بعضهم على بعض حتى يوم الواقعة فلم يتناصروا كما ينبغي. وكان السموسيون واللسبوسيون أول من فر من حومة القتال. ويكاد الشيوزيون أن يكونوا وحدهم هم الذين صلوا سعي الحرب وقاموا بواجبهم ولكنهم كانوا أضعف من ألا يهزموا. وختمت الحرب بهزيمة تامة. وكان دينيس رئيس الفوكيين بطلا مغواراً، وكانت عزيمته بحيث يضمن الظفر لو أطاعوا أمره، فلما انهزم لم يجد مناصاً من الهرب على شواطئ فينيقيا، ومن هناك إلى صقلية حتى يشن الغارة على القرطاجنيين والطرهينيين. بعد هزيمة لادي حوصرت ملطية براً وبحراً فأحسن الدفاع عن نفسها، ولكنها أخذت عنوة بعد حصار مهلك، فذبحت رجالها وسبيت نساؤها وأطفالها، وسبق بهم أرقاء بأمر دارا إلى مصب نهر دجلة، واحتل الفرس المدينة والسهل الذي يحيط بها وأعطوا بقية ما كان يتبعها من الأرض إلى بيدازي قاريا. أما آتينا التي تخاذلت عن ملطية وتركتها، فإنها ألمت لمصائبها التي هي نذير بمصائب أدهي وأمر. ولقد صاغ هذه الواقعة المحزنة الشاعر المأسائي فرينشوس في رواية تمثيلية أبكت جميع شهود تمثيلها، فحكم على الشاعر بتغريمه ألف درهم ومنعت الرواية منعاً باتاً.

ثم قصد الفرس جزيرة سموس فلما رأهم أهلها ومعهم أقيس ابن سيلوزون طاغيتهم القديم الذي كان نفاه أرسطاغوراس تفرسوا ما سينزل بهم القدر فاستحبوا الرحيل من أوطانهم على أن يحتملوا ظلمه مرة أخرى، فهاجروا من جزيرتهم إلى قلقطة حيث كان يدعوهم إلى صقلية أهل زنكل. وكان السموسيون هم وحدهم اليونان الذين هاجروا هذه المرة هم والملطيون الذين استطاعوا أن يفروا من المذبحة. ودخل أقيس سموس تحت حماية الفرس الذين استثنوا معابد هذه المدينة وحدها من الإحراق اعتدافاً بجيل السموسيين الذين تخاذلوا عن إخوانهم يوم لادي.

وقد حاول هستيا أن يقاوم من جديد بعد أن انضم إليه بعض اليونان والأبوليين، ولكنه قبض عليه قرب أطرنة في ميزيا وسبق إلى ارتافرن في سرديس فقتله صلباً وأرسل رأسه مصبرة بالملح إلى دارا في صوص.

ولما قضى الأسطول الفارسي فصل الشتاء في ملطية فتح جميع الجزر شيوز ولسبوس وتندوس... إلخ، في حين أن الجيش البري يستكمل فتح جميع المدائن الإغريقية.

ولقد كان لانتصار الفرس نتائج فظيعة، كما أنذر الفرس بذلك قبله بست سنين حيث بدأت ثورة أرسطاغوراس، فإنهم كانوا يذبحون الرجال ويخصون أجمل الفتيان ويرسلون أجمل الفتيات إلى صوص، ويحرقون المدائن وما فيها من المعابد لينتقموا لحرق معبد سيبيل آلهة سرديس. وفي أثناء ذلك كان ارتافرن عامل أخيه دارا يدخل في إصلاح الشقاق بين اليونانيين، وكان يضرب عليهم الجزية التي بقي مقدارها ثابتاً لم يتغير إلى زمن هيرودوت أي بعد ستين سنة، ثم أخذ مردنيوس صهر دارا قيادة جيش جرار في البر والبحر وسار به في يونيا يقيم حكومة شعبية متجهاً إلى أوروبا ليعاقب آتينا وأريتريا على مساعدتهما في عصيان مستعمرات آسيا الصغرى. فأما أريتريا فقد أسلمها بعض الخونة فقهرها داتيس، وحُرقت معابدها وصُفد رجالها في الأغلال يُساق بهم أرقاء إلى صوص. وأما آتينا التي هدهدا الخطر بعد أريتريا بأيام فإنها اقتحمت الحرب وحدها هي والبلاتيون اقتحام الأبطال، وصدت الغازين في مرطون. وعلى ذكر مرطون أمسك عن القول لأنني لا أقصد رواية عجائب الشجاعة والوطنية، وماذا أنا قائل في الوطنية! آتينا التي سيكون من أمرها ان تنير العالم بذكائها قد خلصته وقتئذ بعزيمتها التي لا تتزعزع، فإذا كان قُدِّر للفرس أن ينتصروا ما كان عسى أن تصير إليه المدينة الغربية؟ وماذا يكون مصير أوروبا؟ الله وحده يعلم ذلك ولكن آتينا تستحق اعترافاً أبدياً بجميلها. وقد صيرت مرطون بلوغ الطرموفيل وأرتيميزيون وسلامين وبلاته وميكال تجاه سوس من الممكنات. وكان أول شرط لقهر المتوحشين هو عدم الخوف منهم، ذلك هو السنة الحسنة التي استنتها يونيا والتي أخذت بها آتينا في هذا الظرف أمام خطر مزعج. لقد افتدتنا مدينة مينرفا (آتينا)

من الاستعباد الآسيوي منذ اثنين وعشرين قرناً. نحن الذين نعرف اليوم آسيا بعلاقة أننا نمدينها نستطيع أن نرى أكثر من إغريق ملتياد وطمستوكل من أي هاوية انتشلونا. ونستطيع أن نحلف كما فعل ديمستين بأسماء الأبطال شهداء مرطون.

فى كتاب هيرودوت ينبغي أن تقرأ هذه الحكاية الخطيرة على بساطة فى سردها كتبها بعد الواقعة بأقل من ثلاثين سنة، وإنه ليخاطب فى أولمبيا رجالاً أخذوا بخط من ذلك الانتصار ومن الحوادث التي كان يمكن أن يكون هو لها شاهد عيان. فلا أريد أن أكرر ما حدث به ذلك المؤرخ الشريف من سيرة المجد، ولكن لي بعض كلمات على يونيا لا تمشي بالحوادث إلى العهد الذي كان فيه ميليسوس آخر من علم من فلاسفتنا فى سموس مذهب مدرسة ايلي.

لما قهر اليونان اضطروا إلى أن يخدموا سادتهم ويتبعوهم فى حروبهم ضد إغريقا، ففى سلامين كان من سموس اثنان من قواد الأسطول الفارسى، طيومستور بن اندروداماس وفيلاقس بن هستيا وقد أبليا بلاءً حسناً ضد سفن لقدمونيا حين كان الفينيقيون يحاربون سفن آتينا، ولكنه مهما كان لإغريق آسيا الصغرى من العمل فى تأليف جزء عظيم من أسطول دارا واكرار كسيس، فإنهم لم يكونوا إلا ليربصوا الفرصة المناسبة للعصيان.

بعد هزيمة سلامين جاء أسطول الفرس يقضى الشتاء فى كومة وفى سموس بعد أن وصلت الملك المغلوب ومعيته. فلما جاءت السنة التالية حضر الأسطول الإغريقى تحت قيادة ليوتيخيدس ملك إسبرطة يبحث عن أسطول الفرس فى مياه آسيا الصغرى أظهرت له جميع مدائن الشاطئ والجزر استعدادها لمظاهرتة والعصيان على الفرس، وعلى الأخص جزيرة سموس، فإنها كانت تلتهب شوقاً إلى خلع طيومستور الذي رماهم به المتوحشون طاغية عليهم. فأرسلت لهذا الغرض رسلاً إلى ليوتيخيدس سواء فى إسبرطة أو ديلوس، ليؤكدوا له استعدادها، وربما كانت هذه المخابرات هي التي قوت رئيس الإغريق على الحضور لمهاجمة الفرس فى موضعهم، ولكن المتوحشين منذ الدرس القاسى الذي تلقوه فى سلامين لم يكونوا ليجروا على اقتحام حرب بحرية. وقد أذنوا

للأسطول الفينيقي أن ينسحب، ولم يكذب يبقى معهم إلا يونان وإغريق من الشاطئ، فغيروا مركزهم من سوس إلى ميكال حيث جروا سفنهم إلى البر وأحاطوها بسور يصح أن يكون خط دفاع، وإلى جانبها جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة تجران الذي عهد إليه أكرار كسيس في المحافظة على يونيا. وكان الفرس يظنون أنهم من موضعهم هذا في حصن حصين. ولزيادة الحيلة قد نزعوا السلاح من أهل سموس الذين كانوا يتهمونهم بأن لهم ضلعاً مع ليوترخيدس والذين كان منهم أن افتدوا بمالهم أسرى آتينا وردوهم إلى وطنهم، وفوق ذلك فقد كلف الفرس الملطيين بحماية الطرق المؤدية إلى قمم ميكال، وعلى ذلك لم يكن لديهم أدنى ريب في أن يصدوا من حصنهم كل هجمة عليهم من العدو، ولكنهم مع ذلك قد أهلكهم الآتيون والقورنتيون بفضل شجاعتهم وبانتفاض أهل سموس وأهل ملطية، فدمر جيشهم تدميراً، وقتل قائده تجران وحرقت أسطولهم ورجع الإغريق ظافرين من هذه الموقعة مثقلين بالغنائم.

كانت يونيا قد تخلصت من حكم الأجنبي بعد واقعة ميكال، ولكن هل تستطيع أن تقوم قائمتها بنفسها وتدفع عنها حمق المتوحشين متى تركت إلى قواها وحدها؟ . كان من المشكوك فيه أن لها طاقة على المقاومة، فاجتمع القواد في سموس وتداولوا فيما إذا كان الواجب على اليونان أن يهجروا نهائياً سواحل آسيا الصغرى ويلتجئوا إلى قسم من إغريقا يعين لهم، فعارض الآتيون جد المعارضة في هذا القرار مع أنه كان من الميسور تعويض اليونانيين على حساب الخونة الذين كانوا قد تخاذلوا عن الدفاع في القضية العامة عند الغارة الميديدية. وأما البلوبونزيون فإنهم انضموا إلى هذا الرأي من غير مشقة، ووقف الأمر عند عقد معاهدة محالفة مع السموسيين والشيزيين واللسبوسيين وجميع الذين شاطروا في الظفر. وقد كان الجيش الفارسي قد التجأ إلى سرديس حيث كان أكرار كسيس باقياً منذ رجوعه المخجل ثم تركها تَوّاً إلى صوص ليستر عاره ويكظم غيظه. ولما أصبح الأسطول الإغريقي سيّداً على بحر إيجه كله لا يهاب فيه عدوّاً رجع إلى جهة بيلوبونيز سائراً على امتداد كل الشواطئ حاملاً من أبيدوس بعض بقايا قنطرة

أكرار كسيس المشهورة لجعلها في المعابد تذكارةً لذلك الانتصار.

لما أمنت يونيا شر غارات الفرس أخذت تعمر ما تخرب ووضعت نفسها تحت حماية آتينا التي تربطها بها تذكارات الماضي ومنافع الحال وضعًا تأمًا بقدر الإمكان، وبهذه المثابة تحزبت يونيا مع آتينا ضد إسبرطة التي كان ملكاها ليوتيخيدس وبزانياس موضعًا للتظنن فيما يتعلق بعلاقاتهما مع المتوحشين. لقد كانت آتينا قوية جدًا في البحر بحيث تستطيع أن تقدم ليونيا مساعدة عاجلة مفيدة في حين أن إسبرطة لا تستطيع أن تقدم المساعدة ولو أرادتها. من أجل ذلك أخذ اليونان بحظ عظيم في اتحاد ديلوس وشاطروا بمقدار وافر في النفقات العامة التي أنفقها الحلفاء للتحصن من هجوم المتوحشين كرة أخرى، وكان ذلك على أثر حوادث بلاتة وميكال، أي في نشوة الاستقلال المسترد بجوحة الثقة المتبادلة (نحو سنة ٤٧٧ قبل الميلاد).

ولكن آتينا كان من شأنها أن جاوزت في استعمال السلطان الذي أوتيته عفواً فجرت على نفسها الغيرة والأحقاد التي سببت بعد ذلك حرب بيلوبونيز في وقت كان عدوهم المشترك لا يزال فيه بقية. وأخذ سلطان آتينا، كما نبه إليه أرسطو، يثقل على نفوس حلفائها الذين هم مساوون لها لا رعاياها، وبخاصة أهل نكسوس وطاشوز الذين عوملوا معاملة قاسية ظالمة (٤٦٧-٤٦٥) ولم يكونوا ليستسلموا إلى غطرسة الآتينييين في أوامرهم. غير أن الأسطول الآتيني وهو مؤلف من مائتي شراع كان يمتخر دائماً على شواطئ آسيا عزيز الجانب مهيباً من الأسطول الفينيقي الفارسي الذي هرب أمامه حتى بلغ مياه النيل. كانت تلك خدمة حيوية ليونيا. من أجل ذلك كانت يونيا من جانبها تتسامح في كثير من الامتهان الذي كانت تجنيه عليها حليفها القوية في مقابل هذه الحماية المستمرة التي تنالها. والظاهر أن اعترافها بجميلها كان إلى الغاية القصوى حيث رأت أن استقلالها مضمون بمعاهدة استكرهت آتينا على عقدها الملك الكبير بعد عدة انتصارات داوت الهزيمة التي وقعت في مصر (٤٥٥ قبل الميلاد) وهذه المعاهدة التي يرجع الفضل في نصوصها إلى دهاء سيمون وأعماله في قبرص، كانت تنص على أن فارس تترك

شواطئ آسيا الصغرى التي يقطنها الإغريق حرة تمام الحرية فلا تضع عليهم جزية ولا تدنو بجنودها إلى خط على مسافة معلومة من الشاطئ، وفي مقابل ذلك يتعهد الآتيون وحلفاؤهم إلا يغزوا بعد الآن قبرص ولا صقلية ولا فينيقيا ولا مصر. وقد أرسل الإغريق سفراء إلى صوص حيث صدق على المعاهدة وكان قلياس هو الممثل لآتينا (نحو ٤٤٩ قبل الميلاد)^(١).

صارت جمهورية آتينا وقتئذ في أوج قوتها، فإنها كانت على رأس اتحاد بحري تكاد تتصرف فيه على هواها، مؤيدة بطائفة من الأحزاب في القارة، سيدة على مستعمرات عديدة على جميع سواحل بحر إيجه وعلى الهلسبون وبحار الإغريق، يضطلع بأعبائها رجل مثل بيريكليس. فهي لذلك كانت تتطلع إلى بسط سلطانها المطلق على جميع الجنس الإغريقي. وهذا الطمع هو الذي أعماها وذهب بها. من بين حلفائها كانت سموس وهي أشدهم بطشا وكانت تحتفظ هذه الجزيرة الكبرى تلقاء آتينا بنوع من المساواة في المعاملة قد لا يأتلف وما تضره الجمهورية من مشروعات بسط سلطانها، فحدث شجار قليل الخطورة بين سموس وبين ملطية بشأن أرض بريين الصغير جر إلى المداخلة الآتينية فإن الجمهورية قد دعت الفريقين إلى التقاضي أمامها. وكانت سموس تخشى تحيز بيريكليس لملطية التي هي وطن أسباسيا فرضت قبول هذا التحكيم المريب فأرسلت آتينا لفورها أربعين سفينة لإرغام سموس على الطاعة، فقلبت حكومتهم من الأوليجارشية إلى الديموقراطية، وأخذ خمسون من أعيان الأهالي وعدد مثله من أبناء العائلة الرفيعة رهائن وضعوا في جزيرة لمنوس. وبقية حامية في سموس لتحقيق نظام الحكومة الجديدة (نحو ٤٣٩ قبل الميلاد).

كان هذا التصرف من جانب آتينا فظيماً فقبول بمثله لأن منفيي سموس ذهبوا إلى بيسوتنيس مرزبان سرديس يستجدونه فأمدتهم ببعض مقاتلين فقصدوا سموس وعدتهم سبعمائة رجل، وانقضوا على حرس الجزيرة الآتيني بيئاً وأسلموهم إلى بيسوتنيس.

(١) ألح ج جروت إلحاحاً شديداً في بيان الأهمية الكبرى لهذه المعاهدة. (تاريخ الإغريق ج ٥ ص ٤٥١ وما بعده).

وفي الوقت عينه كرة رابحة مثل الأولى على جزيرة لمنوس ردت إليهم رهائنهم، وفوق ذلك تحالفوا مع بيزنطة التي تكاد تكون مثلهم في التبرم بحكومة آتينا، وكان ذلك مفيداً لهم. كل هذا إنما هو خطر جدي يتهدد الجمهورية، فلو احتملت عصيان سموس لذهب ذلك برئاستها وبسلطانها التي كانت تؤيده هدنة الثلاثين عاماً التي عقدت قبل ذلك ببعض سنين مع إسبرطة عدوها الوحيد المريب، لذلك عقدت آتينا العزيمة على التنكيل بسموس تنكيلاً يمنع سواها من أن يهجم بتقليدها. ستون سفينة أرسلت سرعاً إلى الثائرين انفصل منها ست عشرة إما لمراقبة الأسطول الفينيقي على شطوط آسيا، لأن بيسوتيس لا يفوته أن يضعه تحت تصرف الثائرين، وإما ليأتي بالمدد من جزيرتي شيوز ولسبوس اللتين بقيتا تحت الطاعة، ولكن من الجائز عليهما أن تلقيا ظهر المجن. وبقي الأربع والأربعون سفينة أمام سموس تحت قيادة بيريكليس أحد القواد العشرة السنويين الذين من بينهم سوفكل الشاعر الذي نشر "انتيجون" السنة الماضية. ومع أن السموسيين كانوا يتوقعون هذا الهجوم، فإنهم كانوا ذهبوا لمحاصرة ملطية، وكانوا عائدين إذ التقوا مع بيريكليس بالقرب من جزيرة تراجيا، ومع أنه كان لديهم سبعون سفينة من بينها عشرون تحمل رجال حرب فإن بيريكليس لم يتأخر عن منازلهم وانتصر عليهم، وعوضت خسارة سفنه بالمدد الذي جاءه وقدره أربعون سفينة جاءت من آتينا وخمس وعشرون من لسبوس وشيوز اللتين قدمتاها بإخلاص.

وقد تلت الواقعة البحرية واقعة برية، إذ نزل الآتينيون إلى الأرض، وانتصروا على الثائرين وأسرعوا في إقامة أسوار عالية تحصر المدينة من ثلاث جهات في حين أنها مضيق عليها من جهة البحر أيما تضيق، وفي هذا المركز الحرج ثنى للسموسيين أن يرسلوا خمس سفن تحت إمرة استيزاغوراس يستعجل الأسطول الفينيقي الذي كانوا أحوج ما يكونون إليه. وليتدارك بيريكليس خطر تجمع هذا الأسطول أسرع بستين سفينة مما معه أمام سموس متجهاً إلى قونوس في قاريا حيث كانت هي موطن الاجتماع كما كان يقال. فلما بعد بيريكليس خرج السموسيون مستقتلين، ولم يكن خط دفاع الآتنيين

قد تم بعد فانهزموا وخربت بعض سفنهم ودارت عليهم الدائرة في البر والبحر، ولكن نجاح السموسيين لم يكن ليلبث مدة فإن بيريكليس لما رجع بعد غيبة أربعة عشر يومًا غير مجرى الحال، ولكن في تلك المدة كانت المدينة قد استطاعت أن تدخر الزاد وفيرًا واستعدت لمقاومة حصار جديد. عاد الحصار كما كان وقوي الحصار البحري بستين سفينة جاءت من آتينا وثلاثين من لسبوس وشيوز فكادت تكون عدة مجموع السفن مائتي شراع تحيط بسموس.

في هذه الحادثة نال ميليسوس القدح المعلى في الوطنية وسعد الطالع، إذ كان على رأس الأسطول والجيش فانهزم غيبة بيريكليس وحرك حمية مواطنيه بغاية الإقدام وكسب الظفر الذي تكلمنا عنه آنفًا. ويظهر على قول بلوتارخس في ترجمة بيريكليس مستندًا إلى أرسطو: إن ميليسوس هزم بيريكليس نفسه في واقعة بحرية أولى، غير أن طوكوديدس الذي شهد هذه الوقائع لم يقل شيئًا من ذلك فتكون هذه الرواية محلًا للشك، ومع ذلك فإن النجاح الأول لميليسوس لم يكن من شأنه أن يخلص وطنه، فإن بيريكليس لما جاءه نبأ هزيمة جيشه عجل إلى سموس فخرج ميليسوس للقائه، ولكنه انهزم في حرب برية، ويمكن أن يكون هزم أيضًا في واقعة بحرية. وقد استمر الحصار على أضيق مما كان. وبقيت سموس وفيها ميليسوس تقاوم تسعة أشهر، لأن بيريكليس كان أحب إليه أن يأخذها بالأناة حتى مع آنفاق المال والزمان من أن يسفك الدماء الآتينية.

فلما جاء السموسيون على آخر زادهم سلموا ودك بيريكليس أسوارهم وأخذ سفنهم واضطروهم إلى دفع نفقات الحرب التي قدرت كما قيل بألف طالنتن، أي خمسة ملايين من الفرنكات في زمننا، فدفعت سموس على الفور جزءًا من هذا المبلغ الطائل وقتئذ، وتعهدت بدفع الباقي مؤمنًا عليه برهائن قدموها. ويقال إن بيريكليس أبدى في هذا الظرف ما تقشعر له الأبدان من الفظاعة في معاملة بعض الأسرى الذين ماتوا تحت العصا بعد تعذيب عشرة أيام، ولكن الذي روى هذه الفظائع مؤرخ متأخر من سموس وهو دوريس في عهد بطليموس فيلادلفوس. ولا شك في أن روايته تشف عن الحقد الوطني، فإن

بلوتارخس زيف هذه الرواية التي لم يجد لها أصلاً في طوكوديدس ولا في أرسطو ولا في ايفورس وهم الذين استرشد بمؤلفاتهم في ترجمة بيريكليس.

يظهر أن آتينا كانت تعلق أكبر أهمية بقمع ثورة سموس، لأن مثلها من شأنه أن يحتذى. فإذا قلد سموس غيرها تداعت مشاريع الجمهورية الآتينية رأساً على عقب. من أجل ذلك قوبل هذا الظافر في آتينا عند عودته إليها بأجل مظاهر التحمس، وأقيمت حفلات المآتم الفاخرة لشهداء هذه التجريدة ووكلت المحكمة المقدسة أمر تأبينهم إلى بيريكليس. ليس لدينا نص هذا التأبين، ولكننا يمكن أن نأخذ عنه فكرة من التأبين الذي نقله لنا طوكوديدس من حيث المعاني على الأقل، ذلك التأبين الذي أقيم لشهداء حرب البيلوبونيز، فإن بين الحريين علاقة متشابهة. لأن كليهما فتنة داخلية تمزق وحدة الإغريق. وقد قوبل مدح شهداء حرب سموس بغاية الحفاوة، فإن بيريكليس لما نزل عن منصة الخطابة قامت إليه النساء جميعهن متأثرات بالاعتراف بفضلته يعانقنه ويتوجنه بالأزهار والعصائب، كما كان يصنع بالمصارع المنتصر في حفلة الألعاب العمومية، إلا امرأة واحدة لم تشرك الجماعة في ذلك الإعجاب المجمع عليه، تلك هي ايليبنس أخت سيمون الذي كان زمناً طويلاً منافس بيريكليس وأقبلت عليه تقول له: "حق إنها أعمال مجد حقيقية بهذه الأكاليل! ولقد أضعنا رجالنا لا في حرب الفينيقيين أو الميديين، كما فعل أخي سيمون، ولكن في تخريب مدينة محالفة تدلي بأصلها إلينا وجعل عاليها سافلها".

لم يكن هذا الانتقاد إلا مصداق الحقيقة، ولكن الظافرين قد كانوا سكارى بخمرة الظفر. ولم يكن حظ سموس إلا نذيراً بما غيبه القدر لكثير من المدائن الإغريقية الأخرى في الحرب الكبرى التي كان يتوقعها بيريكليس. والظاهر أنه هو أيضاً كان متأثراً بنجاحه إلى حد لا يأتلف مع اعتدال أخلاقه المعروف. فإذا صدقنا فيه الشاعر يون الشيوزي لحسبنا بيريكليس يفخر بأنه فاق أنمامنون الشهير الذي قضى عشر سنين في فتح مدينة أجنبية، مع أنه لم يقض إلا تسعة أشهر للاستيلاء على أكثر المدائن اليونانية مالا وأعزها نفراً،

ولكن كلمة بيريكليس هذه إنما نقلها صديق لسيمون خصمه فهي بذلك بعيدة الاحتمال، لأن كلمة كهذه تخرج من فم رجل سياسة لا تعد إلا غشماً، إنها فخر شخصي سيئ الذوق ومعاجزة في غير موضعها موجهة للحلفاء، ولكن مهما كان انتقاص هذا الشاعر له حقاً أو باطلاً، فإنه كاف في الدلالة على ما علقته آتينا من الأهمية على هذه الحرب قصيرة العمر غزيرة الدماء. وعلى رأي طوكوديدس الذي هو مؤرخ شاهد عيان أن السموسيين لو كانوا انتصروا في هذه الحرب لأخذوا من آتينا سيادة البحر، فكانت هذه الحرب على ما هي محل للأسف حرب موت وحياة بالنسبة للجمهوريتين. فلما خضعت سموس رغم مقاومة ميليسوس العنيفة لم يبق لآتينا شيء تخشاه إلا شر نفسها، وذلك نوع من الخطر تلهو عن الشعور به المدائن كما تلهو عنه كبرياء الأفراد.

لا أريد أن أجاوز بهذه الاعتبارات التاريخية إلى أبعد من ذلك بل يظهر لي أنها على إيجازها كافية لأن تكشف بوضوح عن حالة الوسط الحقيقي الذي نشأت فيه الفلسفة والذي عاش فيه الأعيان الذين نشغل بأمرهم وعملوا أعمالهم. وإني ملخص أبرز رسوم هذه اللوحة التي وسمتها لإنعاش حياة تلك الأزمان أو بعض أجزائها على الأقل.

أجل ظهرت الفلسفة لأول مرة في آسيا الصغرى قبل الميلاد بستة أو سبعة قرون، إنها المستعمرات الإغريقية التي خرجت من يونيا بيلوبونيز، وهي التي أشعلت هذا المصباح في أقطار نصف متوحشة ونقلته إلى آتينا حيث كان الاستعداد للانتفاع به تاماً، فإن أنكساغوراس الكلازوميني عاش مع سقراط، وسقراط هو أب لأفلاطون، ويمكن أن يقال إنه أب لارسطو أيضاً، ولكن قبل أرسطو وقبل أفلاطون وقبل سقراط كانت بذور الفلسفة مبدورة على أرض أخرى، وكان من اللازم أن تنقل إلى أطيحا حيث تؤتي ثمراتها. نعم إن الفلسفة كانت مسبقة هناك كما هو شأنها في كل ناحية بالشعر، فإن هوميروس أنشد من قبل أن يفكر فيثاغورث بأربعمائة أو خمسمائة عام، ولكن العلم بجميع صورته: الفلك والرياضيات والطبيعة والتاريخ والطب، كل ذلك تبع الفلسفة وناصرها، لأن الفلسفة هي التي نفخت روح الحياة في كل هذه الفروع واكتسبت بها قوى جديدة.

فى وسط المنازعات المدنية والحروب الأجنبية والتجارة والصناعة والملاحة إلى الجهات السحيقة والوقائع والأخطار المتنوعة، فى وسط حروب الأبطال التى كان يذكى نارها فئة قليلة من الرجال الأذكىاء الأحرار على دولة فخمة، فى وسط كل ذلك يجب أن يوضع مهد الفلسفة الخاشع المجيد. لم يكن هاجر فيثاغورث وإكسينوفان إلى شواطئ إيطاليا وإلى إغريقيا الكبرى إلا سخطاً على الطغيان أو الاضطهاد. وما لقت إيطاليا إلا بهذين الأستاذين اللذين جاءاها من الشاطئ الآخر للبحر، ولكنها لم تثمر لأن النبات الغربى لم يجد فيها الأغذية الضرورية لنضجه. فكان أن ترجع الفلسفة إلى منزلها الأول الذى منه درج أوائل المهاجرين لتكسب فيه صورتها الحقيقية وتكتسى ثوب جمالها وتستوفى قسطها من العظمة وحققها من الاستقلال الذى كللها به استشهاد أهلها. غير أن هذه الفلسفة ذاتها مهما دعا الظاهر إلى أنها ابتدعت فى إغريقيا أفلا يكون من المحتمل أن تكون اقتبست الشرارة من قبس الاختلاط مع جيران إغريقيا؟ فإن طاليس قد عاش مع الليديين، وأصل أجداده من فينيقيا. وفيثاغورث الذى يمكن أن يكون هو أيضاً من أصل فينيقي زار حقيقةً سوريا ومصر وكلدّة ماذا تعلم هناك؟ وماذا جلب منها؟ أو بعبارة أخرى بماذا تدين الفلسفة الإغريقية جدة فلسفتنا وأم غربنا للعلم الشرقى؟ هل من عليم يحل هاتين المسألتين؟ هل العقل اليونانى بل العقل الغربى اقترض شيئاً ما من العقل الشرقى العتيق؟ هذه أيضاً مسألة مظلمة على ما لدينا من النور الحديث، وسأحاول الجواب عليها بعد، غير أنى بادئ ذي بدء أبغى تكملة لما سبق أن أثير مسألة أقل بسطاً ولو أن لها أهميتها وفائدتها فإنها مع قلة تسديدها جوهرية.

نحن نعرف فلاسفتنا ونعرف بعض الحوادث الرئيسة فى حياتهم. نعرف بعض مؤلفاتهم إن لم تكن لدينا كلها. وإذا كان هوميروس هو وحده الذى وصل إلينا كاملاً تقريباً بفضل أفلاطون فقد كان يمكن أن يصل إلينا الآخرون إذا لم تكن المصادفة أعدمّت تأليفهم التى هي مستودعات أفكارهم. إذا فقد كتب الأقدمون ومن ذا الذى يجعل ذلك موضعاً للشك! هذه النظرية التى أقر بها هنا ليست قاصرة على ما يتعلق بطاليس

وفيثاغورث وإكسينوفان ومعاصريهم ولكنها تنسحب أيضًا على من قبلهم وعلى من بعدهم إلى مسافات طويلة، كيف خرجت من أيدي مؤلفيها تلك المؤلفات التي هي الآن تحت أيدينا كاملة أو آثارا ناقصة ومخرومة. وعلى أي مادة كتبت بادئ الأمر وماذا كانت وسائط الكتابة في عهد إكسينوفان بل في عهد ليكورغورس أو هوميروس. ولأجل أن يكون بحثنا في حدود وضعية ضيقة نتساءل كيف كانوا يكتبون في المستعمرات الإغريقية بآسيا الصغرى في حاجات تجارتهم النشطة ومقتضيات سياستهم المعقدة الحازمة وشعرهم الحاد وعلمهم العجيب، وبالجملة في سائر حاجات عيشة اجتماعية راقية مليئة بالأعمال.

أظن أننا الآن بحيث نجيب على هذه المسألة بطريقة قاطعة واضحة تمام الوضوح. ولكن قبل أن نقول كلمتنا في هذا اللغز نرى من الحسن تقديم حوادث مسلم بها لنبين أن استعمال الكتابة قبل الميلاد المسيحي بسبعة قرون في آسيا الصغرى بل في فارس نصف المتوحشة كان من الانتشار والسهولة على ما هو عليه عندنا الآن. كانت موادها أشياء أخرى ولكنها تكاد تساوي المواد التي نستعملها اليوم إلا أعجوبة المطبعة. لم يكن للناس في تلك الأزمان البعيدة ورق كالأوراق التي عندنا، ولكنهم كان لديهم ما يساويه وما يؤدي له المطلوب من الورق.

أفتح بالمصادفة هيرودوت وطوكوديدس وإكسينوفان وأفلاطون وأرسطو وأخذ الأشياء كما رووها بل كما رأوها وكما استعملوها.

أضمر هربغوس وهو في معية أصطياغ ملك الميديين أن ينتقم من سيده القاسي انتقامًا ويتتصف لنفسه، وأراد أن يتفق مع قيروش الذي على حداثة سنه كان له بين الفرس من النفوذ ما سيخرج منه مملكة فسيحة الأرجاء. لما لم يسع هربغوس أن يتصل مباشرة بالأمير الشاب الذي يحمل هو أيضًا ما يدعوه للانتقام، أرسل خادمًا أمينًا يحمل إليه بعض الصيد، وجعل في بطن أرنب كتابًا أخفاه فيه يحرض به قيروش على الثورة، ويؤكد له مساعدته إياه. ماذا فعل قيروش؟ لما فتح بطن الأرنب بيده، كما أوصى المهدي خادمه

به، وقرأ الكتاب بمعزل ووضع كتابًا مزورًا يفيد أن أصطياغ قد عينه رئيسًا على الفرس التابعين وقتئذ للميديين. وقرأ ذلك الكتاب المزور على أعضاء عائلة الاشيمينيين فصدوه، وبهذه المثابة قادهم قيروش على غير علم منهم وحارب بهم أصطياغ وخلعه^(١). ولم يكن هربغوس وقيروش مع ذلك إلا متوحشين. ولكن ها نحن أولاء بصدد أناس متعلمين في آسيا الصغرى وفي مصر.

وهذا بوليقراطس طاغية سموس وهو على سرير ملكه متمتعًا بالرفاهية إلى غايتها والناس الذين يعجبون به أو يخافون بطشه يكبرون منه حذقه وسعاداته. وكان له بأمازيس الحكيم ملك مصر رابطة اتفاق بل صلة صداقة فخاف أمازيس على صاحبه ذلك الموفق المهيب مما اجتمع له من التوفيق المستمر أن يتغير له الدهر، وهو يعلم أنه لا ثبات للحظوظ الإنسانية فنصح له أن يحذر الغير في قلب القدر، كتب له بذلك خطاب عطف ونبوة أو صاه فيه أن يضرب على نفسه قربانًا يتقي به سخط الحظ الخادع الخائن إن استطاع. فأجابه بوليقراطس الذي يخشى على نفسه ما يخشاه صاحبه بخطاب أرسله إليه في مصر، ذكر له فيه الوسيلة التي اتخذها ليصيب نفسه بمحض اختياره بمصيبة موجهة. والمصادفة الخارقة المعادة هي التي صيرت قربانه عبثًا. فكان أمازيس وبوليقراطس يتبادلان الرسائل بين سموس ومنفيس على نحو السهولة التي يتخاطب بها التجار في وقتنا الحاضر بين أزمير والإسكندرية^(٢). لست أدعي أن الخطاب الذي نسبته هيرودوت إلى أمازيس صورة رسمية من خطابه الأصلي لا يتطرق إليها الشك ولكنه لا محل لأدنى شك في أن الملكين كانا يتبادلان الرسائل الكتابية.

كذلك كان بوليقراطس نفسه قد مع مكتبة كثيرة الكتب كما ذكرنا آنفًا، وقد كانت في العالم الإغريقي إحدى الباكورات التي استمتع بها بوليقراطس وأنفق في جمعها مالا طائلاً. ويقولون نحو ذلك بالنسبة إلى بيزيسطراط المتقدم بالزمان على بوليقراطس.

(١) هيرودوت ك ١ ب ١٢٣ وما بعده.

(٢) هيرودوت ك ٣ ب ٤٠ وما بعده.

يقولون إنه أنشأ مكتبة في آتينا وجعلها مكتبة عمومية ليلطف من حال الشعب بهذه المزية وبغيرها، ولكن ناقلي هذا الخبر إلينا هم من المتأخرين، لأن أحدهما أطيني والآخر أولوجل، غير أنني لا أجد أسباباً تحمل على الشك في روايتهما. فأما بوليقراطس فإن مصر كانت له قدوة ما كان أسهل عليه تقليدها كما سنبينه بعد، وكان في استطاعته أن يجمع آثار المؤلفين الذين يعجبون سكان الشواطئ الذين يطربون للشعر ويتذوقون طعوم العلم منذ عهد هوميروس. وأما بيزيسطراط فمن المؤكد أنه إذا لم يكن فتح مكتبة للجمهور فهو على الأقل قد اقتنى الكتب واشتغل بنفسه فيها لغرض سياسي محض. وروى بلوتارخس في كتابه "حياة طيسي" بأن بيزيسطراط سلخ من "هيزيود" بيت شعر كان يمكن أن يجرح صلف الآتنيين، وأنه زاد على قصيدة هوميروس بيتاً من شأنه أن يسرهم، فذلك الحذف وهذه الإضافة كيف يمكن إثباتهما إلا أن يكون لديه نسخ من تلك القصائد يمكن فيها التغيير والتبديل.

نرجع إلى استعمال الرسائل في العهد الذي نحن بصدد.

إن أوريطيس مرزبان سرديس الذي عامل بوليقراطس بتلك القسوة الفظيعة استوجب بسلوكة الوحشي سخط كل من حوله، فإن أحد زملائه عاب عليه أحبولته التي نصبها لطاغية سموس، فقتله هو وابنه. وكان دارا الذي ارتقى عرش الملك حديثاً ساخطاً على أوريطيس الذي فوق ما قارف من الآثام تلكاً في حرب المجوس والفرس بعد موت قمبيز، وكان ذلك أكثر مما يلزم للملك الجديد من الأسباب التي تحمله على التخلص من مرزبان قوي يسوس فريجة وليديا ويونيا جميعاً ويقود جيشاً عرمرم. ولأن يقبض عليه جهراً بالقوة فيه ما فيه من عدم التبصر خصوصاً في ابتداء حكم جديد. ومع ذلك فإن أوريطيس دس على سفراء دارا الذين جاءوا يدعونه إلى مقابلة الملك من قتلهم سرّاً، فصار بجملته ما فعل مستحقاً للعقوبة، ولكن كان يلزم مداراته بعض الشيء وتجنب ثورة أصبح حدوثها قريب الوقوع، فدعا دارا أكابر الفرس وطلب إليهم أن يخلصوه من ذلك العاصي إما بقتله وإما بالقبض عليه وإحضاره، وفي كلتا الحالتين لا ينبغي اتباع غير طريق

الحيلة، فتقدم إليه منهم ثلاثون دفعة واحدة كلهم يعرض قيامه بهذا العمل وحده، فلم يشأ دارا أن يختار من هذه العروض الصادرة عن الإخلاص واقترع بين أصحابه فصادفت القرعة باجي بن أرطوطيس.

ماذا فعل باجي؟ كتب كثيرًا من الأوامر تتعلق بمسائل شتى، وختم كل واحد منها بختم دارا، فلما وصل إلى سرديس سلم هذه الأوامر إلى سكرتير الملك بحضرة أوريطيس، لأن كل مرزبان كان لديه ممثل للملك، ففرض السكرتير الخاتم عن تلك الأوامر وقرأها على الضباط العظام الذين كانوا حول أوريطيس. وكانت تلك الأوامر موجهة إليهم بنوع أخص، فتلقوا جميعًا أوامر الملك بغاية الطاعة والاحترام. فسر باجي بهذه المحنة الأولى ورأى أن في استطاعته الاعتماد على طاعتهم، فأفضى إليهم سرًا ببعض الأوامر التي يأمرهم فيها دارا بالانفضاض عن أوريطيس والانقطاع عن خدمته، فأطاعه الضباط أيضًا وألقوا رماحهم دلالة على أنهم تركوا المرزبان، فلما تحقق باجي من تأثيره فيهم جعل سكرتير الملك يقرأ عليهم أمره إياهم بقتل المرزبان، فهجموا عليه فخر صريعًا تحت طعنات سيوفهم، وبذلك أخذ منه القود لبوليقراطس، ونال دارا بغيبته من الانتقام^(١).

على ذلك كان الفرس أنفسهم في زمن دارا يستعملون الكتب بالسهولة التي يستعملها بها الإغريق الذين هم أرقى منهم تعلمًا وأكثر مدنية، فإن الملك الكبير كان يرسل أوامره إلى جميع أجزاء مملكته الفسيحة الأرجاء. وكانت هذه الأوامر مكتوبة بالأوضاع وبالمواد التي ربما لا تزال تستعملها إلى الآن تلك البلاد القليلة المدنية.

لما اتهم الإغريق بوزانياس بأن له ضلعًا مع الفرس وكرهوه عزم فعلاً على خيانة قضيتهم الشريفة التي طالما خدمها في بلاتة، فراسل اكزاركسيس بكتاب يعرض عليه فيه أن يخضع له إسبرطة وبقية بلاد الإغريق، فقبل ملك الفرس عرض ذلك الخائن، وكتب إليه بخط يده كتابًا أرسله إليه مع أرطباز مرزبان دسكيلينس. فلما أحس أهل إيفورس خيانة ملكهم، كتبوا إليه ينذرونه بأن يغادر طروادة ويعود إلى إسبرطة حيث يستطيعون

(١) هيرودوت ك ٣ ب ١٢٦ وما بعده.

مراقبة سلوكه. فلم يجروا بوزانياس على مخالفتهم، وعاد إلى مقر ملكه، ولكنه لم يكف مع ذلك عن مراسلته الجنائية، ولكن الرجل الذي سلم إليه آخر الرسائل خاف على نفسه لأنه لم يعد ولا واحد من الرسل الذين حملوا أمثال هذا الكتاب إلى دارا، ففض غلاف الكتب بعد أن قلد الختم الموضوع عليها ليقفلها كما كانت، فتحها ليرى ما إذا كان لخوفه محل، وإذا به يقرأ توصية على قتله، فحمل الكتب إلى أهل ايفورس وبلغهم أمر الملك الذي كان يسلم إغريقا للمتوحشين.

إن تاريخ طيمستوكل أشبه ما يكون بتاريخ بوزانياس وإن كان أقل منه جناية، لأن الآتنيين كانوا حرضوه على الخيانة بأن عاقبه بالنفي ظلما فكتب أرتقزاركسيس. ولما هرب من أرغوص إلى قرقيز ومنها إلى الملك أدميت ملك الملوص، ومن عنده إلى إسكندر ملك مقدونيا جاء آخر الأمر إلى إيفيزوس حيث كتب إلى الملك الكبير يطلب إليه ملجأ أباه عليه الإغريق. وقد روى طوكوديدس صورة ذلك الكتاب ولا محل للتظنن في صحته^(١).

من غير النافع أن نعدد الأمثلة لأنها مستفيضة في جميع المؤرخين الذين لم أذكرهم وليس من الضروري أن نذهب بالتمثيل بعيداً، فقد وضع أن الناس في إغريقيا وفي آسيا الصغرى كانوا يستعملون الكتب في الأعمال العمومية والخصوصية على نحو ما نستعملها نحن تقريباً، وبوسائل أشبه ما تكون بوسائلنا من حيث المادة التي كان سهل الحصول عليها من غير عناء، وأنهم يختمون الأوراق على نحو ما نختم أوراقنا بالطوابع الرسمية، وبالأختام التي يمكن تقليدها من غير أن تكسر..... إلخ.

وماذا كانت تلك المواد؟

تجيبنا على ذلك عبارة هيرودوت الصريحة، فإن ذلك المؤرخ العظيم للأزمان الأولى للعالم الإغريقي قال في عرض حديثه عن كيفية نقل "قدموس" الحروف الهجائية من فينيقيا إلى القارة عند اليونان ما يأتي :

(١) طوكوديدس ك ١ ب ١٢٨ وما بعده.

«يطلق اليونان على الكتب من قديم الزمان اسم الدفاتر أو الجلود لأنهم» لما لم يكن عندهم ورق في تلك الأزمان كانوا يستعملون للكتابة جلود المعزى والغنم، بل في أيامنا ما يزال كثير من المتوحشين يكتبون على الدفاتر أو جلود من هذا النوع»^(١).

وقد أتى هيرودوت بما لا يقل عن ذلك عجباً، فإنه ذكر أنه رأى بنفسه عند زيارته طيبة في بيوسيا في معبد أبولون الاسميني ثلاثة نصائب منقوشة عليها بالحروف التي كانت تستعمل في يونيا. وهذا النقوش باللغة في القدم إلى لا يوس أبي أوديب أي بعد قدومه بأربعة أجيال.

إن الكلمة التي يستعملها هيرودوت عبارة عن الكتب هي كلمة «بيلوس» ودلالاتها معروفة بصورة مضبوطة، فإن هذه الكلمة تدل على جزء معين من بردي مصر. ولم يترك تيوفراست محلاً لأقل شك في هذا الصدد، فإنه في كتابه «تاريخ النباتات»^(٢) قد وصف النباتات المائية، وتبسط في وصف البردي الذي ينمو في ماء النيل، وعدد الاستعمالات المهمة المتنوعة التي يصلح لها البردي، وبعد أن قال: إن من الخشب تصنع المراكب، قال: «ومن البيلوس تصنع الشرع والحصر والملابس أحياناً والنعال والحبال وأشياء أخرى كثيرة أهمها الكتب «بيليا» المعروفة عند الأجانب حق المعرفة. وعلى ذلك يكون معنى بيلوس الذي ذكره تيوفراست هو ذلك الجزء من ساق البردي الذي لمرونته ومقاومته يقبل هذه الاستعمالات المختلفة بالنسج واللي.

وخلاف مكتبي بيزيسطراط وبوليقراطس، فالثابت من الأدلة التفصيلية التي أتى بها أفلاطون أن الكتب في زمنه على المعنى الذي نفهمه نحن من هذا اللفظ كانت منتشرة جد الانتشار بآتينيا. وقد روى سقراط نفسه في كتاب «فيدون» أنه سمع ذات يوم إنساناً يقرأ كتاب أنكساغوراس وفيه أن العقل هو نظام كل الأشياء ومبدؤها. ولما قرعته هذه الحكمة البالغة رجا أن يجد في أنكساغوراس حل كثير من النظريات بعد ما سمع من

(١) هيرودوت ك ٥ ب ٥٩ وما بعده.

(٢) تيوفراست وتاريخ النباتات ك ٤ ب ٩.

براعة الابتداء، فجدد في طلب مؤلفاته وهو يظن أنه سيتعلم منها علم الخير والشر، فقرأها على شوق الفهم، ولكنه كلما تقدم في القراءة خاب من رجائه فألقى بها إلى جانب ليعود إلى تفكره الذاتي، إذا كان لسقراط كتب يراجعها ويتركها، كما يفعل بيننا عشاق العلم والحكمة سواء بسواء، يرجعون إلى كنوز دور الكتب فلا يجدوا فيها شفاء الغلة الذي يطلبونه.

وروى أنتيفون في أول كتابه "برمينيد" نقلًا عن رواية فيتودور أحد أصحاب زنون الايلي قال : "لما أتى برمينيد وكان قد تقدم في السن إلى آتينا مع تلميذه أقام في حي السيراميك خارج الأسوار فانتقل إليه سقراط في رفقة لسمع قراءة كتب زنون" وكانت تلك هي أول مرة حمل فيها زنون وبرمينيد هذه الكتب إلى آتينا. وكان سقراط وقتها صغير السن. وكان زنون نفسه هو الذي يقرأ كتابه لأن برمينيد كان غائبًا في تلك اللحظة وكان على وشك أن يفرغ من القراءة إذ عاد فيتودور ومعه برمينيد ومستمع آخر هو أرسطوطاليس الذي صار بعد ذلك أحد الثلاثين، ولم يسمع فيتودور إلا قليلًا مما كان باقياً، ولكنه أقام إلى آخر التلاوة التي كان قد سمعها قبل ذلك في جلسة أخرى.

لما أصغى سقراط إلى النهاية طلب إلى زنون أن يتفضل بإعادة القضية الأولى من الكتاب الأول فأجاب طلبه مع الارتياح، وأخذ الكتاب وأعاد الجملة التي وقف فيها سقراط والتي أراد سقراط استحضار ألفاظها حتى يدخل في مناقشة المعاني : "إذا كانت الموجودات متعددة لزم عليه أن تكون متشابهة وغير متشابهة في آن واحد فيما بينها، وهذا مستحيل لأن غير المتشابه لا يمكن أن يكون متشابهًا، وما هو متشابه لا يمكن أن يكون غير متشابه أيضًا" وابتدأ الجدل وقتئذ فكرر سقراط قضية زنون، وسأله إذا كان هذا حقًا هو ما يريده؟ فأكد زنون أن ذلك هو غرض كتابه، فالتفت سقراط إلى برمينيد وقال له : "أرى واضحًا أن زنون متصل بك لا بصلات الصداقة فقط بل بكتاباته. فالواقع انكما تقولان جميعًا معنى واحدًا، وإن اختلفت العبارة، فإن أحدكما يثبت أن الكل هو واحد، ويثبت الآخر أن التعدد ممتنع" فاعترف زنون بأن الحق في جانب سقراط، وأنه ما

كتب كتابه إلا انتصاراً لمذهب برمينيد ضد أولئك الذين ييغون جعله سخرية، وأن كتابه جواب على نصراء التعدد، وأن الغرض منه أن يبين لهم أن مذهبهم نفسه له نتائج أسخف من المذهب المضاد. وزاد على ذلك زنون بقوله : ”إني ألفت هذا الكتاب مدفوعاً بدافع المجادلة، فسرق مني قبل أن أسائل نفسي عما إذا كان ينبغي نشره أو لا ينبغي، على هذا كنت يا سقراط تخذع نفسك إذ اعتقدت أن هذا الكتاب إنما أملتة علي رغبة رجل ناضج بدلاً من أن تنسبه إلى شاب يميل به ما لطبع الشباب من حب المغالبة“ .

واستمر حديثهم دائراً على موضوع الوحدة والتعدد بما هو معروف لديهم من المواربة والمغالطة مما أكف عن الاسترسال فيه، فبحسبنا هذه التفاصيل دلالة على أن زنون وبرمينيد لما جاء من إيليا إلى غرب إغريقيا الكبرى كان في بلدهما كتب كما في آتينا، وأن هؤلاء المتناظرين كانوا يتخذون الكتب لما نتخذه نحن من الأغراض يقرءونها ويعيدونها ويقفون ببعض جملها للتحقق منها. ونحن في شأننا لا نقبل إلا على مثالهم صفحات ما لدينا من الكتب التي في حجم الثمن أو الاثني عشري التي ليست بأكثر مطاوعة للتقليب من كتبهم .

وفي مقدمة فدر الرشيقه قابل سقراط ذلك الشاب الذي خرج يتنزه في الخلاء بعد أن مضى صباحه قاعداً. فيم قضى فدر صبحه إذن؟ في استماع قطعة كان يقرأها له ليزياس ابن سيفال، وما زال مأخوذاً بما قرئ عليه. وقد كان ليزياس أتى خصيصاً لهذا الغرض من بيره إلى مونيشيا، فطلب سقراط من صديقه الشاب أن يفسر له ذلك الكلام العجيب، فامتنع فدر بفكرة أنه أقل علماً من أن يكرر مثل تلك العبارات الجميلة، ولكن سقراط الذي كان عليماً بشغف صاحبه رقيق الحاشية أكد له أنه لا بد أن يكون قد حفظ تلك القطعة عن ظهر قلب، لأنه لا بد أن يكون استعاد من مؤلفها أن يقرأها عدة مرات وأنه لم يقنع بذلك بل لا بد أن يكون أخذ الكراسة المكتوبة فيها حتى يقرأها على خلاء، وأن ذلك كان شغله الشاغل الذي ألهاه عن الخروج صبيحة يومه، فأخذ فدر يتنصل بحجج ضعيفة، ولكن سقراط ألحف في المسألة فأظهره فدر على الرسالة المخطوطة التي كانت بيده

مخبأة تحت طرف رداءه، وأخذ الصاحبان يبحثان وهما سائران على شاطئ الالصوص حيث كان يغمر فيه سقراط قدميه ليبتد، عن مكان يناسب القراءة بالراحة حتى وصلا إلى مجلس تحت شجرة ساج عالية ظليلة بجانب شجرة كف مريم يعطر نورها الهواء على مسمع من خريز عين صافية بين التماثيل والأصنام القائمة للحدور ولنهر اخلاوس، فجلس فدر وسقراط في الظل على الحشيش الغض وقرأ الشاب كتاب ليزياس في النسخة التي معه.

فأثنى سقراط على بلاغة ليزياس، ولكنه لم يصل إلى حد إعجاب صاحبه الشاب وقال له: إن هذا الموضوع قد كتب عليه الحكماء في الأزمان القديمة بما لا يقل إجابة عن هذا، وحسبك منهم الحسناء سافو الشاعرة أو الحكيم انقريون، بل حسبك أي كاتب من الكتاب. فلم يصدق فدر من ذلك شيئاً وسأله أن يأتي بأحسن مما أتى به ليزياس، وأن يفعل على الفور فلن يقرأ له شيئاً بعدها، فأخذ سقراط لفوره في مسابقة ما ظنها مستحيلة عليه. وأعاد كلام ليزياس في نفس الموضوع على ما فيه من الشطط والإشكال، ولكنه ارتقى كثيراً عن هذه المنافسة التافهة في موضوع مطروق، وانتهز هذه الفرصة ليعطي الشاب درساً في الخطابة والذوق. إن ليزياس يكتب أكثر مما ينبغي فيجب تعلم الحكم على مؤلفاته حتى لا تعطى من القيمة أكثر مما تساويه في الحقيقة، وأن رجال السياسة البصرياء يربأون بنفوسهم عن تأليف مؤلفات تكون بعدهم موضوعاً لانتقاد الخلف انتقاداً قاسياً، فإذا كتبوا بالمصادفة شيئاً كتبوه بكل عناية حتى لا يُعاب عليهم. وهذا بيريكليس أخطب الخطباء وتلميذ أنكساغوراس العظيم لم يترك شيئاً مكتوباً.

وبينا سقراط يرسم قواعد الخطابة الحقيقية إذا به يصل إلى اختراع الكتابة والكتب. على حسب أسطورة محفوظة في نقراطس، إحدى مدائن الدلتا، ربما كان سولون قد رعاها من هناك، أن الكتابة من اختراع الإله توت وهو أفضى بها إلى الملك طاموس الذي كان يحكم في طيبة. ولم يعجب طاموس بهذا الاختراع كما أعجب به مبدعه، وخشى على المصريين من الكتابة التي يبعد عليها أن تصيرهم أكثر حكمة بل تضرهم متى

جعلتهم يعتقدون أنهم يعلمون ما يقرأونه قراءة سطحية في كتبهم. قال سقراط معضداً رأي طاموس : ”يكون الإنسان“ من البساطة بمكان إذا تصور أنه يمكن إبداع أي فن من الفنون في الكتب. وأنه ”يمكن تعلمه منها، كما لو كان قد خرج يوماً من الكتب شيء بين متين، إلا ما يكون“ من تنشيط الذاكرة عند الذي كان يعلم من قبل ما تحويه الكتب. وإن محصلات ”الكتابة أشبه بمحصلات الرسم. سل لوحات الرسم تجبك بسكوت جليل وسل“ ”الكتب تجبك دائماً بهذا الجواب. وقد تعتقد عند استماع ما فيها أنها عليمه،“ ”ولكن مقالاً متى كتب دار في كل ناحية، فيقع في أيدي من يفهمونه كما يقع“ ”في أيدي الذين لم يكتب لأجلهم، وأنه لا يعرف لمن يتكلم وأمام من يلزم الصمت“ فإذا احتقره أو عابه أحد بغير حق التجأ إلى أبيه ليساعده، لأنه لا يستطيع أن“ ”يقاوم ولا أن يساعد نفسه“.

فسقراط يحط من شأن هذه المقالات الميته في طي الكتابة التي يحويها ويرفع فوقها قدر المقال الذي ينقشه العلم في نفس الذي يتعلم، ذلك المقال الحي المليء بالحياة هو الذي يبقى في الذهن، وما منزلة المقال المكتوب منه إلا الشبح الباهت. هذا هو ما ينصح لفدر أن يكثر العناية بمزاويلته. إن الشاعر والناثر يصححان ويحرران ألف مرة ما قد كتبا، يزيدان عليه أو ينقصان منه، ولكن يلزمهما قبل كل شيء أن يهتما بما في نفسيهما ويرعيانه حق رعايته، تلك هي الوسيلة لاستحقاق ذلك اللقب الجميل لقب الفيلسوف. ذلك هو الرأي الذي يمكن أن يعطيه فدر إلى ليزياس، وذلك هو الرأي الذي يعرف سقراط كيف يجعل أصحابه الشبان يتذوقونه، وعلى الأخص ايزقراط الجميل الذي عليه مخايل النبوغ.

أنا لا أناقش رأي الحكيم الآتيني مهما ظهر لي منه عدم ائتلافه مع ذوقه السليم المعروف، ولكن أيّاً كانت قيمته فإنه ينتج منه أن سقراط وفدر وجميع أصحابهما يستعملون الكتب كما نستعملها نحن، يكتبون مقالاتهم ومؤلفاتهم كما نفعل نحن، ويدرسونها ويصححونها ويهذبونها كما نفعل نحن، وينتج من هذا فوق ما تقدم أنه منذ

زمن أفلاطون كان ينسب اكتشاف الكتابة واختراع الكتب إلى مصر. ولا شك في أن أفلاطون وهو من ذرية سولون يجب أن يعلم أكثر من غيره شأن تلك الأسطورة التي جاء بها جده الأمجد من البلد الأجنبي.

وعلى هذه الوقائع القاطعة نزيد وقائع من العصر ذاته. لما وصل أكسينوفون رئيس تقهقر عشرة الآلاف من بيزنطة إلى سلميدس آخر نقطة وصل إليها في الشمال، حُكي أنه عند دخوله في البحر الأسود وجد سفنا كثيرة جانحة في الرمل تحت جرف الشاطئ وأن أهل تراقيا سكان تلك المنطقة يسارعون إلى نهب أولئك الغرقى التعساء ويتقاتلون على أيهم يسرق من السلب أكثر من غيره. ولذلك توجد منقولات كثيرة على هذا الشاطئ الخبيث ينقلها الملاحون في صناديق من الخشب، ومن بينهما كتب لا شك في أن أولئك المتوحشين ما كانوا يفهمونها، ولكنهم يحفظونها لبيعوها^(١). ونظرًا إلى أنه كان يوجد عدد عظيم من الجاليات الإغريقية في تلك الجهات بيزنطة وغيرها، فليس مستحيلًا أن فكر أولئك الملاحون في الإتجار بالكتب، وربما كانوا ينقلونها من الشواطئ الآسيوية ومن آتينا والمدائن الأخرى لليونان النازلين والمهاجرين الذين مع بُعدهم عن وطنهم تتوق أنفسهم إلى الاقتباس من نوره الذي هم أحوج ما يكونون إليه في غربتهم.

لا أقول بأنه في زمن أفلاطون بل فيما قبله لم يكن يوجد في آتينا أصلًا كتب يبيعون الكتب ويشترونها فذلك محتمل جدًا، ولكنه ليس عندنا على ذلك شهادات تقارن في قدمها ذلك الزمن. فإن أول شهادة من هذا النوع تنسب إلى زنون الستيومي، فإن زنون قبل أن يترك مدينة ستيوم وهي مستعمرة فينيقية في قبرص اشترى حمولة من الأرجوان ليربح فيها في آتينا وذهب يستفتي الهاتف عن أحسن طريقة للعيشة فنصح له الهاتف أن يصير في لون الموتى، وفسر زنون هذه النصيحة بأنه يجب عليه أن يعكف على قراءة كتب الأقدمين حتى يشحب لونه. فلما وصل إلى آتينا بعد غرق محزن دخل عند كتيبي وأخذ يقرأ بلذة شديدة الكتاب الثاني من مذكرات إكسينوفون على سقراط، فسأل الكتيبي وهو

(١) أكسينوفون. أناباز. ك ٧ ب ٥ ف ٤ ص ٣١٣ طبعة فرمان ديدو.

مسحور بلذة ما قرأ : أين يمكنه أن يقابل المؤلفين الذين يكتبون مثل هذه الملح ؟ فأشار له الكتبي بإصبعه إلى ”قراطيس“ الذي كان ماراً وقتها في الشارع فعجل زنون إلى الأستاذ يتعقب خطاه حتى وصل إليه وتلمذ عليه، ولكن لما لم يستطع ذلك الجفاء الغليظ اعتزل قراطيس إذ أصبح في قدرته أن يضع مؤلفات لا تقل عن مؤلفات أستاذه وأخصها كتابه على فيثاغورث^(١). وكان عمر زنون وقتئذ ثلاثين عامًا وعلى الاحتمال الغالب أن أرسطو وقتها كان لا يزال حيًا فإن ذلك كان في آخر ملك إسكندر.

أقص حادثة أخيرة أستعيرها من نظريات أرسطو في الفصل السادس عشر الباب السادس (ص ٩١٤ ف ٢٥ طبعة برلين) يتساءل المؤلف : لماذا قطع الكتب يعطي هيئات مختلفة على حسب ما إذا كان هذا القطع مستقيمًا أو بانحراف ؟ أترك التفسير إلى ناحية لأنه لا يهمنا هنا، ولكن ذلك يبين أن أرسطو كان لديه كتب من جنس كتبنا وعلى الأقل من جهة كونها مقصودة على صورة منتظمة قليلًا أو كثيرًا. بعد ذلك في الفصل الثامن عشر يبحث أرسطو : لماذا تنيم القراءة بعض الناس ؟ ولماذا بعضهم على الضد من ذلك يتناول الكتاب حيث يريد أن يبقى ساهراً ؟ كل ذلك يعين استعمالات للكتب أشبه ما تكون بما نفعل نحن. كان في آتينا بعضهم يقرأ في سريره وليس معدومًا فيها هذا الصنف من الناس الذين يأتون هذه البدعة عندنا.

من أين جاءت هذه الكتب ؟ وعلى أي مادة كاتب مكتوبة ؟ لا أتأخر في الجواب : كانت مكتوبة على ورق البردي، وكان البردي يجيء من مصر. منذ أقدم الأزمان كان بين مصر وبين إغريقيا روابط مستمرة، ومن باب أولى كان بين مصر وآسيا الصغرى. وإن أقدم الهجرات التي اتبع فيها سبيل اناخوس وسكروفس وكثير غيرهم إنما عادت من شواطئ النيل جالبة معها إلى الهلين في عداد ما جلبته لهم أسماء جميع آلهتهم المتنوعة إلى اللانهاية، وبعد ذلك ضاعفت العلاقات دواعى التجارة والحروب. وفي تلك القرون التي نحن بصدددها كانت مصر متدخلة دائماً لمصالح شتى في سياسة جميع الأمم المجاورة

(١) ديوجين اللايرثي ك ٧ حياة زنون الستيومي.

لها، وعلى الأخص سياسة المدائن الإغريقية التي على الشاطئ ولما أن فتح الفرس مصر صارت هذه العلاقات أكثر توثقًا واستمرارًا فإن أسطول المصريين وجيوشهم كانت تشهد كل حين وقائع البر والبحر ومن البديهي أن الأمم المختلطة في هذا النحو تتبادل كثيرًا من الأشياء بحكم الضرورة. وكانت مصر وقتئذ الوحيدة تقريبًا في إنتاج البردي فكانت تصدر منه كميات وفيرة إلى بقية العالم.

قد كان من السهل على مصر وهي التي اكتشفت الكتابة وهي التي تخرج البردي وتستعمله تلك الاستعمالات الصادرة عن المهارة والذكاء أن تتصور أيضًا إنشاء المكاتب، فإن الكتب متى كتبت وجب جمعها وحفظها لحفظ الذكر لكل ما اشتملت عليه. وعلى الرغم من قول طاموس وأفلاطون وسقراط فقد ظهر أن تلك المحفوظات مفيدة ونفيسة جدًا. ذلك ما كان هو الواقع. فإن اوزيريمندياس أحد ملوك مصر يعتبر أنه أول من اقتنى مكتبة أو من أوائل من اقتنوا مكتبات. وتذكر هذا الحادث العجيب نقله إلينا ديودور الصقلي الذي زار مصر في الأولمبية ١٨٠ كما كان زارها هيرودوت من قبله بأربعمائة وخمسين عامًا ورأى بعينه كل ما يتكلم عنه تقريبًا. بعد أن قال كلمة عن قبور الملوك التي كان عددها سبعة وأربعين على رواية الكهنة والتي لم تكن إلا سبعة عشر حين زارها ديودور^(١). وصف بغاية التفصيل الأثر الشهير لأوزيريمندياس، ومن بين العمائر التي تنسب إلى هذا الملك دار الكتب المقدسة المنقوش على وجهتها: "دواء النفس". ولا يُستنتج من كلام ديودور نفسه أن هذه المكتبة كانت لا تزال قائمة في زمنه. فأما أنها وجدت فذلك ما لا يكاد الشك يتطرق إليه. ولقد كان لدى الكهنة المصريين كتب بالغة في القدم مسجل فيها تاريخ البلاد سنة فسنة تسجيلًا منتظمًا والورثة غير المنقطعة على عرش مصر لأربعمائة وسبعين فرعونيًا وخمس ملكات، ولم يشأ ديودور أن يكرر بالنسبة لعهد كل فرعون ما كانت تحويه هذه الكتب التي يظهر أنه اطلع عليها، ولكنه وضع

(١) نزلت إليها بنفسه في السنة ١٨٥٤ عند سياحته في مصر ووجدت أن إعجاب ديودور كان أقل من حقيقة الواقع بكثير. (ر. رسائل على مصر طيبة وقبلي ص ٢٧٤ وما بعدها) (بارتلمي سانتهيلير).

خلاصتها وعلى تلك الوثائق بنى عمله. فإذا لم تكن هذه المكتبة موجودة قبل المسيح بخمسين عامًا فلا أقل من أن يكون ذكرها وارداً في تلك السنويات الرسمية التي كان لا يزال يمكن الاطلاع عليها مهما كان مبلغها من الضبط قلة أو كثرة^(١).

وعلى رأى علمائنا المشتغلين بالآثار فإن أوزيمدوس الذي كان يسميه الإغريق أوزيمندياس هو فرعون من العائلة السادسة عشرة. وهذه العائلة يقترب عهدها تقريباً بعهد أناحوس، أي بتاريخ نحو ألفي سنة قبل الميلاد. فإن الهكسوس أو عرب الرعاة تكون العائلة السابعة عشرة.

مثل هذه الأحاديث ربما كانت تظهر لنا حديث خرافة، إذ لا يمكن التصديق بوجود كتب في زمن بلغ من القدم حد الغاية، إذ لم تكن حاصلين الآن في متاحفنا على الأدلة، التي لا تقبل التهم، المثبتة لهذه الحوادث، ففي باريس وفي طورينو وفي ليدن وفي برلين..... إلخ أوراق البردي والمخطوطات التي يصل تاريخها إلى ثلاثة عشر وأربعة عشر قرناً قبل الميلاد المسيحي بل إلى أبعد من ذلك، ولكل أن يراها ولمعرفة تاريخها ليس عليه إلا أن يستفتي شموليون ودي روجي وماريت وأميدي بيرون وليمانس ولبسيوس..... إلخ. إن بردية طورينو الشهيرة التي تكلم عنها شموليون في خطابه إلى دي بلاكاس (ص ٤٢) هي على الأقل من القرن الثالث عشر قبل المسيح كما بينه لبيوس "تودتنبوخ ص ١٧" وفي كتاب الملوك نقل لبيوس (لوحة ٦) مخطوطة يصل تاريخها إلى العائلة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وذلك ما يبلغ بنا إلى أقصى مما ذكرنا. ووصف ماريت في مذكرته عن دار الآثار ببولاق (ص ١٤٨) بردياً وجد في طيبة في نحو المترين طولاً يتعلق بإحدى الثلاث العائلات الأولى للإمبراطورية الجديدة، وهذه المخطوطة لا يقل عمرها عن ١٢٨٨ سنة قبل الميلاد بل يمكن أن تكون من سنة ١٧٠٠ ومخطوطة أخرى (ص ١٥٣) طولها أربعة أمتار ونصف على ٥٣، ارتفاعاً وهي من متعلقات العائلة الثامنة عشرة فتكون من سبعة

(١) يتكلم ديودور على الأقل مرتين أو ثلاثة على سياحته في مصر. ر. المجموعة التاريخية ك ١ ب ٤٤ ف ١. ب ٤٦ ف ٧. وفيما يتعلق بمكتبة أوزيمندياس راجع الكتاب عينه ب ٤٩ ف ٣. وإذا ما حدث سولون كهنة سايس ذكروا له كتبهم المقدسة وفيها سنويات البلد منذ ثمانية آلاف عام (رطيماس ترجمة فكتور كوزان ص ١٠٩).

عشر قرنًا قبل الميلاد. ويمكن إيراد أمثلة من هذا النوع إلى ما يشاء. ولكن حسبنا ما أوردناه وما أظن بنا حاجة إلى المجاوزة بالإيضاح إلى أبعد من ذلك فقد كمل.

أكثر من ذلك. قد وجد بجانب المخطوطات الأدوات التي تصلح لكتابتها فنجين تحوي المادة الملونة وقصب الأقلام، وذلك ما يعدل عندنا المحابر والريش، والمصاقل التي تصقل البردي قبل الكتابة عليه، والمقالم التي توضع فيها الأقلام. وفي دار الآثار بليدن توجد ألواح الكتابة ومعها دوى فيها يميز المرء بغاية الوضوح الحبر الأسود أو الأحمر وقد جف في باطنها ودوى من البرونز... إلخ. وكل هذه الآثار إنما هي سابقة على العائلة السادسة عشرة على رأى ليمانس (ص ١٠٨ ف ٢٤٥) وفي دار الآثار ببولاق توجد ألواح الكتاب، ومعها كل لوازمها وهي كما قرر مارييت سابقة لعهد ابراهيم (ص ٢٠٩) وعلى ذلك يكون عمرها من ٣٥ إلى ٤٥ قرنًا. وفي باريس في متحفنا المصرى أيضًا جميع الأدوات اللازمة للكتاب (القاعدة المعدنية - دولا ب P درج X) وكذلك في قاعة الموتى (درج LM) ترى المخطوطات إما على ورق البردي أو على القماش، كل ذلك غير أوراق البردي الكبيرة المنشورة المحبوكة بالأطر المغطاة بالزجاج والتي تبلغ أطوالها عدة أمتار. وفي ليدن مخطوطات تبلغ أطوالها إلى اثني عشر مترًا. والواقع أنه كان يمكن صنع ورق البردي إلى طول غير متناهٍ لأن العرض وحده هو المحدود ولا يكاد يزيد على ٣٠ سنتيمترًا.

من التفاصيل التي تقدمت والتي يمكننا أن نزيد في إيضاحها عند الحاجة أظن أننا نستطيع استنتاج النتائج الآتية التي هي كذلك، كما يظهر لي، حوادث ثابتة:

إن فلاسفتنا للقرن الخامس والسادس قبل الميلاد كتبوا مؤلفاتهم سواء في آسيا الصغرى أو في إغريقيا الكبرى، وقد وصل إلينا بعض أجزاء هذه المؤلفات من خلال الصعوبات التي كانت تقترن بنقل الكتب قبل اكتشاف المطبعة واختراع الورق من القطن ومن الكتان أو استعمال الرق. وإن كتب إكسينوفان وميليسوس بل ربما كتب طاليس وفيثاغورث أيضًا كلها كتبت كما يكتب كل الناس وقتئذ على ورق البردي المصري.

ولا بد أن تكون صورها على شكل ورق البردي المحفوظ في دور الآثار. ومن الممكن أن تكون أوراق البردي رتب، منذ عهد قديم وبالتحقيق منذ عهد أرسطو، بحيث يكون شكلها كشكل كتبها الحاضرة. ومن ثم تيسر جمع الكتب في المكاتب، فأما المكاتب التي ينسبونها إلى بوليقراطس وبيزيسطراط لم تكن بلا شك إلا تقليدًا للمكاتب المصرية التي كان أشهرها دار الكتب التي أنشأها أوزيمندياس.

ما الذي بقي علينا تعرّفه؟ ربما كان شيئًا واحدًا هو الذي تقتضيه نفوسنا الطلعة بحكم عاداتنا الجديدة في دقة التحري وهو صنع البردي المخصص للخطابات ولمؤلفات الكتاب. ومن محاسن المصادفات أن بلاين الذي ليس أقل منا حبًا للاطلاع قد نقل إلينا هذه المعلومات إذ يقول لنا كيف كان يُصنع ورق البردي في زمنه. ومن المفهوم ضمناً أن هذه الصناعة قد نالها بعض التحسين بمرور الزمن الطويل الذي يتدّى من عهد أوزيمندياس إلى القرن الأول للميلاد، ولكن الأصول الرئيسة لهذه الصناعة لا بد أن تكون قديمة جدًا بل الظاهر أنه لم يكد يدخل عليها أقل تغيير^(١).

وقد عني بلاين عناية كبرى بوصف هذا القصب المسمى برديا نظرا إلى ”أن المدنية وتذكّار الأشياء مرتبطان باستعمال الورق، وبهما يتعلق تخليد ذكرى الرجال“. أما فرون فإنه لم يبلغ بتاريخ استعمال الورق إلى أبعد من عهد إسكندر الأكبر وتأسيس مدينة الإسكندرية. وقد يكون ذلك صحيحًا فيما يتعلق باستعمال الورق في روما، ولكننا قد رأينا آنفًا أنه لا يمكن أن يكون صحيحًا بالنسبة إلى مصر ولا إلى إفريقيا، وبلاين لا يشاطر رأي فرون مهما كان معتبرًا. وهاك ما يقوله في ذلك النبات النفيس الذي يريد درسه:

ينبت البردي في المستنقعات أو مياه النيل الراكدة على عمق لا يزيد على ذراعين، جذره المعوج في ثخن الذراع تقريبًا، وساقه مثلث الأضلاع ويندر أن يعلو أكثر من عشرة أذرع يتناقص سمكه من تحت إلى فوق، فأما جذره فيستعمل وقودًا وقد تتخذ منه بعض

(١) بلاين. التاريخ الطبيعي ك ١٣ ب ٢١ وما بعده ترجمة وطبع لبتري.

الآنية، وأما ساقه الحطبي فتتخذ منه القوارب، ومن قشرته تنسج الشرع^(١) والحصر والملابس والأغطية والحبال. وذلك ما قرأناه آنفاً عن تيوفراسط ونقله عنه بلاين بلا شك. وإن بردي مصر في كل الاستعمالات التي ذكرناها خير من كل بردي آخر، فإن البردي الذي ينبت في سوريا أو على شواطئ نهر الفرات بقرب بابل بعيد عليه أن يساوي البردي المصري خصوصاً في صنع الورق.

ولصنع الورق يقسم البردي إلى أشرطة رقيقة جداً وعريضة بقدر الممكن. وأحسن شريط منها هو شريط قلب النبات ثم الذي يليه على هذا الترتيب. وبهذه الطبقات الداخلية وحدها كان يصنع ورق الكتب المقدسة وسُمي الورق من ثم باسم هييراتي. وبعد حين أعطي لأعلى درجة من الورق المنقّى بالغسل اسم أغسطس، كما سميت الدرجة الثانية من الورق باسم ليفي امرأة أغسطس، وكان الهييراتي إذن في الدرجة الثالثة وورق الدرجة الرابعة سمي انفتياتري نسبة إلى المكان الذي كان يصنع فيه. ومن أنواعه المتدركة إلى أسفل ورق سايس الذي يصنع من قراطه البردي ثم ورق الطينوطيقي من مدينة قريبة من سايس ويباع بالوزن، ثم ورق الأنبوريتيك أو ورق المتجر، ولا يصلح إلا للظروف أو لف البضائع. وبعد هذه الأشرطة تأتي قشرة البردي وهي أشبه ما تكون بقشرة الخيزران لا تصلح إلا لصنع الأحبال التي لها خاصة البقاء في الماء.

كل أنواع الورق كانت تُصنع بطريقة واحدة ولا يكون الاختلاف إلا في مادة الورقة، ومتى أخذت الأشرطة بعناية تنشر على نحو خوان مندى بماء النيل، فإن هذا السائل الحامل للطمي يصلح كلزاق لتقوية الأشرطة وضمها بعضها إلى بعض. وعلى هذا الخوان الممال نوعاً تلزق الأشرطة على طولها وتقرض من نهايتها حتى تصير منتظمة ومتساوية في الطول ثم يؤتى بأشرطة أخرى توضع بالعرض على شكل تعريش، ولوقاية الورق من التمزق كانوا يضعونه تحت المكبس فيحصلون منه على الورق الذي يعرضونه بعد ذلك للشمس ليجف. ثم يضعون هذه الأوراق بعضها فوق بعض لتكون منها فرائد الورق

(١) وهذا ما كان يبصره هيرودوت حينما كان يسبح في مصر ك ٢ ب ٩٦ وعندنا في متحف اللوفر نعال من البردي.

التي لا تتجاوز عدة الواحدة منها عشرين ورقة. وكان الورق مختلف العروض وأحسن ما كان في عرض ثلاثة عشر إصبغاً، والهييراتي لم يكد يتجاوز عرضه الأحد عشر، وقال فانيوس إن هذا الورق الهييراتي الذي اشتق اسمه من اسم ذلك الصانع الماهر الذي أبدعه لا يتجاوز العشرة. والورق المتجري كان في عرض ستة أصابع. وكان يمكنهم أيضاً أن يصلوا الأوراق أطراف بعضها ببعض ليحصلوا على ورق لا نهاية لطوله كما عندنا.

وكانوا يقدرّون الورق كما نقدره نحن برقته ومتانته وبياضه وصقله، وقد اهتم الإمبراطور كلود بتحسين ورق أغسطس الذي كان يجده أرق مما يلزم وأكثر شفافية فجعل منه ورقاً جديداً بأن جعل السدى من أشرطة الدرجة الثانية واللحمة من أشرطة الدرجة الأولى، وبهذه الطريقة زيد في عرض الورق إذ بلغ عرضه ذراعاً في الفرخ الكبير. وكانوا يفضلون ورق كلود في الكتب ويستعملون ورق أغسطس في المخاطبات.

وكانوا يصقلون الورق بقطعة من العاج أو بمحارة ناعمة، ولكنه كان من اللازم الوقوف بهذه العملية عند حد معين، وإلا زلق الحبر فلا يأخذ في الورق وتكون الحروف المكتوبة معرضة لأن تتمحي عما قريب، وذلك هو الذي يحصل في ورقنا حين يجاد صقله أكثر مما يلزم. ربما يكون حسناً في مرأى العين، ولكنه لا يطيب الانتفاع به. وقد كان يحدث في ماء النيل الحميء ضرراً من هذا النوع متى صب من غير احتراس في ابتداء العملية إذ يجعل الورق غير قابل للكتابة بل يترك فيه رائحة يعرفونها له وبقعاً كان يلزم لإزالتها أن يخرقوها من مواقع البقع ويرقعوها بغاية الدقة حتى لا يفتن لها المشتري، لحسن سبك الغش فيها، إلا بالاستعمال إذ يشرب الورق الحبر في مواضع الرق ويجعل الحروف سائحة لا تقرأ إلا قليلاً.

لذلك قال بلاين إنه لتوقي تلك العيوب المختلفة كان يلزق الورق بكيفية تجعله أطرى من قماش الكتان نفسه، ووجد أن هذه الطرائق فعالة جداً. قال : إنه رأى عند أحد أصحابه وكان مغرمًا بخطوط المؤلفين مخطوطات لشيشيرون ولأغسطس ولفرجيل على ورق من هذا النوع، بل رأى عنده مخطوطات لطيريوس وقايوس غراكوس مضى عليها مائتا

عام مما يدل على أن لصق الورق كان من الجودة بحيث يقاوم كر الزمان.

وبعد أن أورد بلاين هذه التفاصيل عاد ينقض رأى فرون في أن استعمال الورق حديث في إيطاليا وحاول أن يثبت، ضد مذهب ذلك العالم، أن الكتب كانت معروفة منذ زمن "نوما يومبليوس" فقد عثر في تابوت هذا الملك الذي وجد في زمن قنصلية سيتيجوس وببسيوس طنفيلوس، بعد موته بخمسمائة وخمس وثلاثين سنة، على كتب من الورق. كذلك ثلاثة كتب جاءت بها العرافة إلى طرخان الأجل كانت مكتوبة على ورق حرق منها اثنين والثالث الذي قبله هذا الملك البصير قد حفظ إلى عهد سيلا ثم باد في حريقة روما. وإذا أريد برهان دامغ غير منقطع الأثر على استعمال الورق في الزمن القديم فما على المرید إلا أن يتصفح رسائل شيشيرون فيجد فيها المعلومات المضبوطة القوية في هذا الموضوع. فإن الناس ما زالوا يستعملون الأوراق مع السهولة القصوى، ويسرفون في استعمالها إلى الغاية. كتب شيشيرون إلى أطيقيوس كل يوم بل مرات عديدة في كل يوم تارة رسائل طويلة، وتارة أخرى تذاكر بسيطة يرسل إليه مع رسوله بعض أسطر أو صحيفة إذا لم يكن لديه ما يقوله أكثر من ذلك أو سلسلة من الصحائف لا آخر لها إذا انطلق قلمه يتدفق أو إذا حضرته مناقشة مسائل مهمة. ومتى كان موضوع الكتاب يهم عدة أشخاص عمل منه نسخ بعددهم أو صرح للمرسل إليه بإتيان هذا العمل، أما إذا كان موضوع الكتاب دقيقاً يشطب الكاتب غير مرة العبارات الناقصة عن تأدية المعنى المراد تماماً، ويرجع مرات على ما كتب ويهذهبه ويحرره. وإذا كان الكاتب قد أخذ منه التأثير مأخذاً يبكيه ترك دموعه أحياناً تمحو الكتابة ومتى فرغ من الكتاب طواه وختمه. فإذا نسي الكاتب شيئاً أو أهمل تفصيل معنى من المعاني فتح الكتاب من جديد فإن كانت الورقة لا محل فيها كتبت الزيادة بالعرض. ومتى قرأ الكتاب المرسل إليه وكان لا يتضمن شيئاً يراد حفظه مزقه. ولا يتساهل في ذلك إذا كان المرسل قد أوصى بحفظ سره. فإذا طرح الكتاب مطرَحاً من غير أن يمزقه فيمكن رده إلى مرسله إذا طلب رده إليه. فإذا لم يجد أحدهم ورقاً مسح الكتابة من على ورقة أخرى وكتب عليها بعد غسلها أو كشطها

متى فرغ الكاتب من كتبه جمعها وسلمها إلى البريد يوصل كل كتاب إلى المرسل إليه بغاية الأمانة. وقد تنتهز الفرصة فيكتب إلى أصحاب متعددين في جهة واحدة، فإذا فك المرسل إليه الصرة وزع الكتب على المرسل إليهم، وعند الحاجة قد ترسل الرسل إلى الأشخاص البعيدين.

ويمكن أن يحمل الإنسان بنفسه كل هذا التعب، يكتب كتبه بيده ويختتمها ويرسلها، وقد يتخذ له سكرتيراً يكل إليه كل ذلك، يملي عليه الكتاب ويوقع عليه بتوقيعه. فإذا كان المرء متعباً، وعلى الأخص إذا كان به رمد اضطر إلى تكليف غيره، وفي هذه الحالة يعتذر لصاحبه بعجزه عن أن يمسك القلم، كما نقول نحن في هذا المقام. وهؤلاء السكاترة هم محل أمانة بالضرورة متى كانوا يطلعون على أسرار العائلة والأعمال الخصوصية والسياسية. وفي الغالب يستحقون هذه الكرامة التي يؤتون إياها، ولكنهم أحياناً يخونون ساداتهم ويفرون بما معهم من الأوراق. ولما أنهم عادة من الأرقاء يقتنى أثرهم ويقبض عليهم إلا إذا أبعادوا في فرارهم بحيث لا يمكن الوصول إليهم. ويخلف الخادم غير الأمين أو العاجز خادم أكثر أمانة وأوفر كفاءة، كل ذلك على عجل بحيث لا ينقطع سير المراسلة زمناً طويلاً.

وإذا كان استعمال الكتابة في الشؤون الخصوصية من السرعة والسهولة على ما وصفنا فقد كان استعمالها في الشؤون العامة لا يقل عن ذلك الوصف، فإن تحرير جميع العقود الرسمية يحصل بغاية السهولة. ومتى استكملت هذه العقود الشرائط المطلوبة عمل منها نسخ بقدر عدد المتفاعلين بها. كذلك الأوامر تصدر إلى الموظفين القائمين بالأعمال التنفيذية من كل الطبقات والمخاطبات الإدارية تحصل بوسائل سريعة مأمونة يظهر أنها تشبه على الأقل ما هو عندنا الآن. فإلى أقاصي حدود الجمهورية تصل الأوامر العالية التي يصدرها مجلس الشيوخ ويتخذ من هذه الأوامر صورة رسمية تحفظ بمحافظ السجلات، ولولا المحن المتنوعة التي قلبت حال العاصمة الرومانية الخالدة من فتن داخلية ونهب وحرائق وحروب خارجية وهجوم وغارات إلخ. لولا ذلك كله لكان المرجح أن

تكون بين أيدينا تلك الوثائق التي هي أنفُس للتاريخ منها لإرضاء حبنا الاطلاع على ذخائر الفن. فإن المادة التي كتب عليها كل ذلك يمكن حفظها بدون أن تتغير مدة ثلاثين قرناً، كما تشهد به أوراق البردي المحفوظة في دور الآثار عندنا. فإذا أصابنا ما أصابنا من فقد معالم من ذلك القدم المحترم المخصب فإنما كان ذلك من خطايا الناس لا من خطيئة الزمان.

كذلك كان استعمال الكتب منتشرًا عامًا في عهد شيشرون كاستعمال الخطابات كما هو الحال في أيامنا، فلم يكن أحد من الأهالي ذو ميسرة وعلى شيء من العلم إلا له مكتبة على شكل المكاتب التي كانت لأهالي الإسكندرية وفي سائر مدائن الإغريق من قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون^(١). كان لكل امرئ في روما مجموعة من الكتب يختارها لنفسه بنفسه أو بواسطة صديق له عوضاً عنه إذا كان لهذا الصديق من مركزه مكنه من ذلك أو كان معترفاً له بحسن الذوق في هذا النوع. وقد كان من شيشرون أن كلف أطيقيوس إذا كان في آتينا أن يرسل إليه تماثيل وزخارف ليزين بها مكتبته التي كان يسميها الأكاديمي. ولما كان أطيقيوس يريد أن يتخلص من بعض كتب نسخها ويريد بيعها رجاء شيشرون في ألا يبيعها من غيره لأنه كان معجباً بمكتبته أطيقيوس، وكانت مؤلفة بعناية خصوصية، فطلب إليه تلك النسخ لجعلها أساساً لمكتبته. ولا يكون عليه بعد ذلك ألا أن يكملها على حسب ما تقتضيه حاجته ودراسته وهواه، كان ذلك في سنة ٦٨٦ ولم تكن سن شيشرون تجاوز الأربعين، ومع ذلك يفكر في أن ينزوي من ميدان العمل إلى مسكن جميل هادئ يعيش فيه مع كتبه "تلكم الصحب القدماء" التي يحب مخالطتها حباً جماً، كما كان يقول ذلك لفرون الذي هو أيضاً يفوق شيشرون في الشغف بالعلم والأبحاث المتنوعة في قديميات وطنه وقديميات الأمم الأجنبية، حين تمكن شيشرون من بعض ساعات الراحة والعزلة حبس نفسه في مكتبته التي زخرفها وزينها، واختفى وسط كتبه حتى كان

(١) نقل سويترون أن قيصر كلف فرون بإنشاء مكتبات عامة فيها الكتب الإغريقية «اللاتينية». وقد وضع فرون مؤلفاً خاصاً بالمكتبات ولكنه مفقود مع الأسف. راجع كتاب جستون بوازيير ص ٢٢، ٤٧ على فرون.

يحمل منها ركامًا عظيمًا يحيط به من كل ناحية. ومتى لم يكن لديه ما يرغب في مراجعته استنسخه عند أحد أصحابه، فإذا كان لبعض الأصحاب مثل هذه الحاجة قضاها لهم على خير وجه فيكلف كتيبه ومقريه وسكاترته بنسخ الكتاب المطلوب، ويجد لذة في إهدائه كما كان يسره أن يتقبل كتابًا يرسل إليه. وكان من الجاري في عرفهم أن الرجل يهدي إلى صاحبه الكتاب الذي يعرف أن له فيه رغبة مستترة أو كان له به حاجة من غير أن يطلبه. وإذا زار أحدهم آخر فوجد كتابًا يوافقه أعير إياه فيرده بعد أن يقضي منه حاجته... إلخ.

يمكنني أن أضعاف هذه التفاصيل إلى غير نهاية، ولكن ما الفائدة في ذلك والناس يعلمون أن الرومان في آخر الجمهورية وقبل بلاين الذي أجاد لنا في كيفية صنع الورق بمائة وخمسين عامًا كانوا قد اتخذوا من البردي كل ما نتخذه الآن من الكتان ومن القطن، فكان الناس يكتبون في روما بمقدار ما نكتب نحن في الأغراض الاجتماعية عينها وبنفس السهولة والحدة، بل مع تشابه تام في الشهوات والمباراة. كانت المادة مختلفة ولكن الموضوع واحد. ولا أحج بين الحاليين خلافاً إلا الخلاف الكبير الذي هو المطبعة التي لم تكن لتستكشف إلا بعد ذلك بخمسة عشر أو ستة عشر قرنًا. كان نسخ الكتب والأوامر الإدارية والخطابات أمراً غالبًا وبطيئًا، وذلك يستتبع أن تكون تلك النسخ قليلة العدد وفي غاية التعرض للضياع. جاءت المطبعة فجعلت النشر والنقل والحفظ ألف مرة أكثر أمانًا وألف مرة أكثر سرعة وألف مرة أرخص ثمنًا. بيد النساخ استبدل ضبط المكيمة المعصوم وقوتها التي لا تعرف حدًا ورخصها الذي لا ينافس، ولكن ذلك لم يكن مهما قيل فيه إلا تغيرًا ماديًا صرفًا، فإن المقصود متوفر في الأزمان الغابرة. على ذلك يكون المخترع الحقيقي الكبير لا يزال هو الشيخ توت أو أي ساحر آخر من السحرة المصريين الذي أنطق البردي والحروف التي رسمها عليه قلم الكاتب مغمورًا في مادة ملونة. وعلى الرغم مما كان يفكر فيه البصير طاموس فإن المقالة المكتوبة في الذهن لم تكن لتكفي إلا الذي يحملها في طيات نفسه لأنها منعزلة وشبه صماء. وما كانت المقالة لتعيش إلا بالكتابة، ويمكنها أن ترجو من العمر ما لا ينبغي للفرد الفاني أن يرجوه أبدًا، فإن أوراق البردي

لا تزال تكلمنا، وسوف تكلم أحفادنا أزماناً طويلاً مع أن طاموس قد حبس عن الكلام منذ أربعين قرناً. من ذا الذي كان يعرف ما افكره لو لم يكن أحد الكتبة الأقل حذراً منه قد سجل لنا أقواله التهكمية على صفحات البردي التي شد ما كان يستهين بشأنها ذلك الفرعون الحكيم المسرف في الحكمة .

بعد أن ثبتنا فلاسفتنا في نصابهم من حقيقة الحوادث التي كانت تعتور حياتهم في حال الدراسة أو في حال الحرب، في حال الإقامة أو في حال التشريد. وبعد أن بيننا الظروف الحسية التي ألفوا فيها مؤلفاتهم صار جائزاً لنا عن بينة وشيء من الاطمئنان أن نتساءل إلى أي حد كانت أصلية هذه الفلسفة؟ إنها كما يظهر لنا نبتت نحو القرن السابع قبل الميلاد في آسيا الصغرى المرتبطة بروابط وثيقة مع جميع البلدان المحيطة بها فبأي شيء هي مدينة لها؟ وهل استعارت منها شيئاً؟ أم هل هي مستقلة تمام الاستقلال لم تتبع سواها؟ وهل لم تنهل شيئاً من غير مناهلها الذاتية؟ أكانت مذاهب طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان محض إبداع لها من الأصلية ما لشعر هوميروس وسافو وأرخيلوكس والكاينوس؟ وبعبارة أخرى هل الغرب الذي فتح صدره للحياة العلمية يدين بشيء للشرق الذي هو مخالف له والذي هو معتبر أنه متقدم عليه بكثير في الطريق الوعر الذي حده النهائي هو الفلسفة؟

أجيب من غير تردد بالسلب وإن إغريقيا لم تدن لأحد غيرها، وإن المساعدات التي وردتها تكاد تكون من خفة الوزن بحيث يمكن الجزم بأن إغريقيا في العلم أيضاً كانت ذات إحداث وإبداع، شأنها في بقية الأشياء الأخرى، وإذا كانت تلقت شيئاً عن جيرانها فما هو إلا أصول عديمة الصور فصورتها هي وبلغت من تصويرها حد التمام بحيث يمكن القول بحق إنها هي التي أوجدتها في الواقع.

وعليّ أن أقرر بادئ ذي بدء ماذا يعنى بالفلسفة؟ وحسبي حدها وهو: ” اتجاه العقل اتجاءً نزيهاً إلى العلم “. المشاهدة لأجل العلم من غير غرض آخر إلا فهم العالم الذي نعيش فيه وظواهره وأصله ونهايته. هذا هو المعنى الذي تولد وقتئذ لأول مرة في العقل

الإنساني والذي، من طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان إلى عهدنا، لا يزال ينمو من قرن إلى قرن، والذي ينمو في المستقبل بلا انقطاع ما دامت القرون وما دام الزمن الذي يقاس بها على بقاء النوع الإنساني. ذلك هو ما أجادت الفلسفة في بداية أمرها عمله أن اعتنقت جميع العلوم بلا استثناء. وما هو إلا بسبب ضعف عقولنا وضرورات البحث العام أن انفردت العلوم الخصوصية شيئاً فشيئاً وانعزلت أمها الفلسفة عن أولادها ولكنها ما زالت تغذيها وتتوكأ عليها. ولم تلبث الفلسفة أن حددت دائرتها الخاصة المتوزعة أجزاؤها في العلوم المختلفة التي الفلسفة أصلها وتماها، ولكنها في تلك الأيام الأولى كانت مختلطة بجميع العلوم، لأن العلوم لم تكن بعد قد خرجت منها. من هذا سمت نفسها بذلك الاسم الجميل المتواضع، فإن فيثاغورث لما سأل ليوز طاغية الفلياز (سيقونيا) أجاب بأنه فيلسوف وهو اسم لم يسمع من قبل. الفيلسوف ليس إلا صاحب الحكمة أي صاحب العقل ذلك العقل الذي يدرس الأشياء ويدرس نفسه أيضاً. وقد كان فيثاغورث يقول: ”حال الناس في الحياة يسعون فيها يشبه حال الجمهور يتقاطرون إلى الأعياد الرسمية. ففي جمعيات الجمهور الفسيحة لكل واحد من الساعين إليها أغراض مختلفة، أحدهم يقصدها لبيع فيها بضائعه مدفوعاً بحب الكسب وآخر لا يقوده إليها إلا حب المجد والرغبة في أن ينال قصب السبق في القوة أو في المهارة. وطائفة أشرف من هؤلاء لا يظهرون فيها إلا لمشاهدة جمال محال تلك الاجتماعات وعجائب الصناعة المعروضة لأنظار الجميع. كذلك في الحياة، للناس الذين تضمهم الجمعية الإنسانية مشاغل متباينة. فمنهم المجرورون بجواذب الثروة والتمتع التي لا تقاوم. وآخرون مملوك عليهم أمرهم بالطمع في السلطان والشرف وهما لا ينالان إلا بالحروب الحادة والمنافسات التي تسفك الدماء، ولكن الغرض الأسمى للرجل هو إمعان النظر فيما في هذا الكون من الجمال المتنوع الذي يقدمه لأنظارنا وبذلك يستحق عنوان فيلسوف، فمن الحسن أن ينظر المرء إلى أقطار السموات الفسيحة يتتبع سير الأفلاك التي تتحرك فيها على قدر غاية في النظام، ولكنه لا يستطيع فهمه جيداً إلا بالمبدأ المعقول المجرد الذي يسير الكون ويحصي كل شيء عدداً ومقياساً، فالحكمة تنحصر في التعرف بقدر الممكن لهذه الظواهر الإلهية

الأبدية الأولية التي لا تتغير. والفلسفة ليست إلا التتبع المستمر لهذه الدراسة الشريفة التي تنير الناس وتصلحهم^(١).

منذ البداية قد علمت الفلسفة ما كانت تفعل، منذ خمسة وعشرين قرناً لم تبحث الفلسفة إلا في تحقيق الفكرة التي قامت بها عند خطواتها الأولى بالتدرج تحقيقاً كاملاً. وما زالت حكمة فيثاغورث هي حكمتنا وإن كانت العلوم قد رقت رقيّاً كبيراً جداً، ولكن الفيلسوف لم يتغير فإنه سيبقى دائماً هو الذي يتأمل في الأشياء ويلاحظها ليفهمها وليفهم نفسه، هذا هو معنى العلم والفلسفة الذي أنسب شرفه إلى أغريقا دون سواها. فمن إغريقا تلقيناه من غير أن يكون افكره أحد من قبلها في هذا الشرق الذي كانت تعتقده ويعتقده غالب أهل زماننا ينبوع كل نور وحكمة.

ممن كانت تستطيع إغريقا أن تستعير هذا المعنى وقتئذ؟ أم من مصر أم من فينيقيا أم من الفرس أم من الهند؟ لا أرى غير هذه الأمم أحداً كان يستطيع أن يعلم الإغريق شيئاً وأقول: إن هذه الأمم ولو أنها علمتهم أشياء كثيرة فلم تعلمهم الفلسفة أصلاً. لا شك في أن كثيراً من فلاسفتنا وفيثاغورث على الأخص ساحوا سياحات طويلة في تلك البلاد وأنهم ذهبوا إليها ليتعلموا، فإن فيثاغورث الذي ربما كان يدلي إلى فينيقيا بعائلته ذهب إلى مصر كما فعل طاليس من قبل وكما فعل هيرودوت بعده بقرن وأقام فيها ويقال: "إنه لقن الأسرار الخفية. وقد يمكن تصديق ذلك بسهولة، لأن سولون ذهب إليها أيضاً. والظاهر يدل على أنه لم يقف عند محادثة كهنة سايس^(٢) في أمر الأطلانديد، ومن المحتمل أيضاً أن فيثاغورث جاوز مصر إلى كلدة وتحادث مع المجوس كما كان قد تحادث مع الكهنة المصريين. والفضل في ذلك يرجع إلى الطريق الملكي الذي أنشأه دارا يصل به المسافرين من سرديس إلى صوص في أعماق فارس وراء دجلة والفرات من غير مشقة إلا طول السياحة التي تقطع في ثلاثة أشهر. وليس يرى لماذا لا يدفع حب العلم إلى إزماع مثل

(١) بمبليك، حياة فيثاغورث ب ٧ ف ٥٨، ٥٩ طبعة فرمان ديدو على أثر ديوجين اللايرثي. فبكل هذه الوثائق وثائق بمبليك وفرفيوس يمكن جمع حياة فيثاغورث المهمة ونبذة تامة عن مذاهبه الأصلية.

(٢) راجع طيماوس: أفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٠٧ وما بعدها.

هذه السياحات في حين أن السياسة، حتى قبل فتح ذلك الطريق، كانت تقتضي كل وقت علاقات من هذا النوع. وقد كان حكماء الإغريق مشوقين دائماً إلى زيارة مصر وفينيقيًا وكلدّة وهي البلاد الشقيقة التي كانوا يؤمنونها ليجدوا فيها كنوز العلم. والواقع أنهم جابوا تلك الأقطار الشاسعة مع ما عليه الوصول إليها من المشقة.

ماذا جلبوا منها؟ الآن وعلى أثر الاكتشافات اللغوية والأثرية التي جاء بها قرننا الحاضر والمعلومات الهيروغليفية والكتابات وأوراق البردي المصرية وكتب زورواستر وكتب الهند المقدسة ودين البراهمة والبوذيين، نقول إن طريق الجواب مفتوح أمامنا، ونستطيع أن نرى فيه أحسن مما رأى الإغريق، نرى ماذا كانت حكمة الشرق المزعومة. تلقاء الآثار المفسرة بالضبط الكافي إن لم يكن بالكل فعلى الأقل بالجزء نعلم ماذا تساويه وماذا يمكنها أن تؤتية، يبحث فيها عبثاً عن الفلسفة وهي عنها غائبة فكيف يكون الإغريق حتى مع تناول الأسرار الخفية قد وجدوا الحكمة فيها ما دامت لم تكن فيها.

نطرح إلى جانب فينيقيًا ويهودة جميعاً، فإن التوراة أثر ذو قيمة لا تقدر إن بما تشتمل عليه وإن بما خرج منها، ولكني لا أرى أن إغريقاً استعارت منها شيئاً أياً كان، وإذا كانت كتب اليهود المقدسة قد وصلت إليها بأي طريقة كانت فلماذا تخفى ذلك وهي قد أعلنت إعلاناً عالياً بل عالياً فوق ما يلزم حكمة مصر وحكمة المجوس؟ أي عقبة اعترضتها في إطراء الحكمة العبرانية إذا كانت عرفت؟ يمكن أن يؤسف على أنها جهلتها، وأنا أظن أيضاً أن إغريقاً التي كانت مستعدة للرقى بنفسها كانت تجد من دراسة كتب موسى مساعدة قوية، ولكنها ما علمت منها شيئاً. والقول بضد ذلك يمكن أن يكون دليلاً على إيمان حاد، ولكنه ضلال مبين لا ينهض واقفاً أمام أدلة الحوادث. فلما ترجم التوراة السبعون بعد ذلك أي في عهد بطليموس الثاني فيلادلفي (٢٧٥ قبل الميلاد) أمكن الإغريق أن يقرأوها وليس يرى أنهم تحركوا لها ولا استناروا بها، ولو قرئت عليهم في زمن طاليس وفيثاغورث لكان أثرها أقل من ذلك أيضاً، ولو فسرت لهم لما كادوا يفهمونها ولا يصغون إليها. والواقع أنها لم تفدهم شيئاً.

أقول عن مصر ما قلته عن فينيقيا ويهوذة تقريباً، فمن عهد الاكتشاف العظيم الذي أتاه شمبرليون ومن كل الأعمال التي تبعته وأيدته يعلم ماذا كان أرض الفراعنة القديمة، فقد يكون الإنسان واثقاً من أنه لن يصادف فيها ما يدل على الفلسفة إلا بيانات غير منتظرة من نوع جديد. كانت الاعتقادات الدينية مستفيضة فيها، وكانت عريقة في أصليتها جميلة على ما فيها من شذوذ، ولكن العلم بالمعنى الخاص لم يكن بها، وكل شيء يساعد على إثبات أنه لم يكن فيها أصلاً بل لم يكن ممكن الوجود بها على رغم ما عاناه أهلها من الذكاء الحقيقي، إن ذلك لا يقلل من أهمية دراسة مصر، ولكنه لا ينبغي أن نتظر منها ما ليس فيها. لها سنوات وليس لها تاريخ. يمكن أن يكون لها مشاهدات مضبوطة لبعض الحوادث الطبيعية والفلكية على الأخص ولكنها ليس لها علم. لها مذاهب دينية وليس لها فلسفة. حالها كحال فينيقيا جارتها وحال يهوذة التي كانت خاضعة لها وتخلصت منها منذ عهد موسى. يمكن أن يكون لها معلومات كبرى ولكنها لم تمذهبها ولم تركزها على مبادئ معينة .

وللحكم على مجوس كلدة لدينا ما ذكره هيرودوت وما كتبه الكتاب المعاصرون وما تعلمنا إياه الكتب الدينية المجوسية التي فتح لنا مغالقتها حديثاً علماء اللغات وفي مقدمتهم ايجين بورنوف.

أما عن قول هيرودوت الذي يظهر أنه رأى المجوس عن كثب فإنهم لا يكادون يكونون إلا عرافين. عندما أراد أصطياغ ملك الميديين أن يفسر الحلم الغريب الذي رآته ابنته مندان قصد إلى المجوس المحترفين بتعبير الرؤيا واتبع نصيحتهم مع الترحج، إذا أمر بقتل حفيده قيروش. وعندما يريد قمبيز أن يزعم حملته الجنونية على مصر يعهد إلى مجوسي القيام بأعباء الدولة مدة غيابه فيسيء المجوسي في ثقة الملك به ويجلس على العرش أخاه سمرديس الكاذب، ولكن الفرس غاظهم هذا الاغتصاب الذي يفضى إلى خضوعهم للمجوس، فاتفق سبعة منهم تحت إمرة الفارسي دارا بن هستاسب وذبحوا الأخوين الذين تبوء الملك غصباً، وهم هم المجوس الذين يفسرون حلم اكزاركسيس،

إذ يهيم بمحاربة إغريقيا وعلى رأيهم يمشي، وبينما هو في الطريق على ضفاف الستريمون، إذا بالمجوس يذبحون الخيل البيض يستفتحون بها باب النصر. فلما شتت الأسطول (٤٨٠ قبل الميلاد) بريح عاصف على شاطئ تراقيا في رأس سيباس، غير بعيد من أطوس حيث هلك أسطول آخر قبل ذلك بعشر سنين، إذا بالمجوس يقربون قرايين للريح ليهدئوا ثأثرته في اليوم الرابع. وبالجملة لا يقرب قربان إلا بحضرة مجوسي لينشد ما يسميه هيرودوت تيوجوني (أنشودة الآلهة) ليتم بذلك الاحتفال الديني.

من أجل ذلك كانت في إغريق القديمة وعلى الخصوص في روما شهرة للمجوس وكراهة لهم في آن واحد، ومن اسمهم اشتق اسم ذلك الفن الخفي الذي هو "السحر" وهو مخوف عند العامة وطالما غرر بهم. وقد أنحى عليه بلاين بالسخط فوق ما قد يستحق^(١). ومنذ عهد أرسطو كانت تلصق هذه التهم بمجوس الفرس والكلدان، فإن هذا الفيلسوف قد أفرد مؤلفاً خصيصاً بذلك وسماه "الماجيك"^(٢) ليدفع عنهم التهم التي ظهر له فسادها. وفي كتابه المسمى "في الفلسفة" ظن أن من الواجب عليه أن يشتغل بأمر المجوس الذين يعتبرهم أقدم عهداً من كهنة مصر، ولما وصل إلى لاهوتهم تكلم عن الأصليين اللذين يعترفون بهما: الحسن والقبيح "أوروماز - وأريمان". ومن الكتاب المتأخرين عن أرسطو من جعل المجوس آباء الجمنوزوفست (فلاسفة الهند المتريزيين) بل آباء اليهود أيضاً. وفي كتاب دانيال الذي كتب في عهد دارا أن مجوس بابل ليسوا إلا منجمين وسحرة ومفسري أحلام، ومع ذلك كانوا يلقبونهم بالحكماء، ولكن الخدم التي تطلب منهم لا تكاد تدل على أنهم ارفع درجة من المحتالين والسحرة الدجالين، فهل هم أنفسهم أولئك الذين كان لهم أرصاد فلكية في بابل قدرها أرسطو خير تقدير^(٣).

ولكن المجوس إذا كانوا فلكيين مهرة فليسوا فلاسفة، وكتبهم الدينية (زند) التي

(١) بلاين التاريخ الطبيعي ك ٣٠ المخصص كله لهذه المسألة.

(٢) ديوجين اللايرثي في مقدمته ف ٨.

(٣) أرسطو كتاب السماء ك ٢ ب ١٢ ف ١ ص ١٧٨ من ترجمتي.

نعرفها الآن بطريقة أكيدة تبين لنا ذلك بغاية الوضوح. فإن الفنديداد واليسنا واليشت وجميع القطع المنسوبة إلى زورواستر (زاراتسترا) تشتمل على آثار من ديانة ظاهر عليها الجلال والقوة في خلال تلك الظلمات، ولكنها لا تشتمل على مذهب فلسفي. وهذه الكتب هي كل ما يمكن إسناده إلى مجوس كلدة. فإذا كان فيثاغورث قد اطلع عليها بالمصادفة فإنه لم يدخل منها شيئاً في مذهبه الخاص: صلوات وأدعية وأناشيد وعقائد مبهمة وغير مستقرة وآثار من سير مقدسة وخرافات ليست هي خرافات الفيداس وليست كذلك خرافات الإغريق، ذلك على الأخص هو كل ما يمكن أن يقرأ في كتبهم. وهذا في الحقيقة لا ينقص من أهميتها الكبرى، فإن تاريخ الديانات يمكن أن يكشف فيها الأصول النفيسة للغاية، ولكن تاريخ الفلسفة لا يجد فيها شيئاً يجنيه، وعلى ذلك لم يكن المجوس ولا المصريون قد أوحوا إلى إغريق يونيا شيئاً.

أفتكون الهند؟ ولا هي أيضاً.

ليل حالك لا يزال يغشى الأصول الهندية وأخبارها، ولأن هذه البلاد ما كتبت قط تاريخها نصادف أكبر العناء في ترتيب الحوادث والوقائع المتنوعة التي تتعلق بها. كذلك الحوادث الخاصة بالعلوم والآداب لا تخرج عن هذا الخفاء العام. ومع ذلك يبين لنا، وسط هذا الاختباط الذي يكاد لا يخلص أبداً، بعض الأصول الرئيسة الحقة على ما فيهما من شدة الابهام، فيمكن الجزم بأن آثاراً بعينها من آثار العقل الهندي أقدم أو أحدث عهداً من بعض آثاره الأخرى. من ذلك أن أنواع الفيدا وعلى الأخص الفيدا التاريخي الذي لقب مع التسامح بلقب "الريك" هي متقدمة على سائر البقية وجماعة الفيدا أو على الأقل تلك المتقدمة لا يكاد يقل عمرها عن خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، غير أن هذه الأناشيد الشعرية ليس فيها شيء من الفلسفة. أما الخرافات الفياضة النامية فيها فإنها تشبه الخرافات اليونانية، كما أن بين لغتي اليونان والهند البرهمانية متشابهة أخوة، ولكن الطابع الفلسفي معدوم منها بالمرة. وأما الأوبانيشاد التي يمكن أن يوجد فيها هذا الطابع بعد البرهمانيات فمن المؤكد أنها متأخرة عن الأزمان التي نحن بصدددها، فمع أن طاليس

وفيثاغورث وإكسينوفان هم من القرن السادس قبل المسيح فإن الأوبانيشاد لا يمكن إبلاغ أقدمها إلا إلى القرن الرابع.

وعلى ذلك لم يكن الإغريق ليستعبروا شيئاً من الهند مع افتراض أنه كان من الممكن في ذلك الزمان أن يكون لهم مخالطة مستمرة بحكماء شواطئ الهندوس، بله حكماء أواسط شبه جزيرة الهند أو شرقيها. وما عرف العالم الإغريقي بجماعة الجمنوزوفست إلا بتجريدة الإسكندر وسفارة ميغاستين، ولكن الإسكندر وميغاستين هما متأخران بمائتي عام عن حكماء سموس وملطية وكولوفون.

حق أن الهند خلافاً لمصر ويهوذة وفارس لها فلسفة حقيقية نعرفها في مجموعها ونعرف منها آثاراً تفصيلية. وريثما ندرسها دراسة تامة نقرر منذ الآن أننا نعلم أن هذه الفلسفة مستوفية كل الشرائط اللازمة للعمل على النحو الذي نعينه نحن اليوم، والذي كان يعنيه الإغريق دائماً. انها لمستقلة تمام الاستقلال، وغرضها كغرض حكمة الإغريق تفهم العالم والإنسان. ولا شك في أنها درست كليهما على غير الوجه المفيد، ولكنها جعلتهما شغلها الوحيد، فينبغي أن يكون لها بمذاهبها الستة التي تتقاسمها وتؤلفها مركز عظيم في التاريخ العام للعقل البشري.

ما هو تاريخ هذه الفلسفة؟ وإلى أي زمن تنسب؟ ذلك هو كل ما يهمنا في هذا المقام. قد كان يظن أن أحد هذه المذاهب الذي هو مذهب سعنخيا الملحد من كبلا كان سابقاً على البوذية. ولما أن بوذا مات سنة ٥٤٣ قبل الميلاد يكون سعنخيا معاصراً للطاليس ومعاصريه الآخرين. وكانوا يقفون مذهب سعنخيا بالمذاهب الأخرى على ترتيب معين لا يخلو من التحكم كثيراً أو قليلاً باعتبار أن كل هذه المذاهب متأخرة عنه وبالتبع تكون متأخرة عن فلسفة آسيا الصغرى، ولكن يظهر أن هذا الترتيب أصبح الآن معدوم النصير، لأن أغزر البراهمة علماً متفقون على ترتيب سعنخيا بعد البوذية بزمان طويل. إن الفلسفة لم تظهر في الدين القديم إلا لاستئصال شأفة الإلحاد أو على الأقل لتفل من غربه. وإن مذهب سعنخيا الذي هو ملحد وروحاني معاً ما يكون إلا طليعة التوفيق بين اعتقادات

الدين الجديد وبين الاعتقادات الجائية من فيدا، ويكون ”النيايا“ أو المنطق جاء نفسه قبل
سعنخيا لحاجات المناظرة وتكون الفيدانتا متأخرة عن الاثنين^(١).

ليس بي من حاجة إلى الدخول في مناقشات من هذا النوع، ولا أريد أن أجاوز بالبحث
حدود ما قدمته من القول، وإلا كانت إفاضة في العبث؛ فإن من البين أننا حتى إذا وضعنا
سعنخيا في الترتيب الوجودي قبل ظهور البوذية وجدنا أن الإغريق لم يكن في وسعهم أن
يعرفوا من مذهبه شيئاً عندما أخذوا يفلسفون لأول مرة. ومع افتراض أن سياحة فيثاغورث
بلغت به بابل وصوص، فإنها لم تعلمه مذاهب لم تكن خلقت في بنجاب أو على شطوط
نهر الجنج.

ينبغي أن يزداد على هذا أن ”داراسانا“ الفلسفة الهندية على ماهي معروفة عندنا منذ
كولبروك وما تلا مذكراته المشهورة من المعلومات ليس بينها وبين الفلسفة الإغريقية في
تلك الأزمان الأولى علاقة مشاركة. فلا في طاليس ولا في فيثاغورث ولا في إكسينوفان
يمكن العثور على أثر للمشابهة أو التقليد. وهذا مفهوم بالدهاء ما دام الظاهر كله يدل
على أن الفلسفة البرهمانية لم تتم إلا بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة.

ومتى خرجنا بالهند من الموضوع صار من العبث أن نبلغ بالبحث الصين، فإن لاوسو
معتبر أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد، ولكن الفلاسفة الإغريق الأول لو كانوا
قرأوا الثاوتي كنج وهو كتاب الطريق والفضيلة لما استطاعوا أن يجدوا فيه ما يصلح
لهم^(٢).

على ذلك لا الصين ولا الهند ولا فارس ولا مصر نفسها لم تلهم الإغريق شيئاً
من فلسفتهم. وسأبين فيما يلي أي حظ من التأثير كان للمذاهب المصرية في مذهب
فيثاغورث، ولكنه يمكن الجزم بصورة عامة أن الفلسفة الإغريقية باعتبار أنها في مهدها

(١) ر. مؤلف بترجا «حوار على الفلسفة الهندوسية» لندن ١٨٦١ في قطع الشيء ص ٥٠ وما بعدها. وكان الأستاذ بترجا
أستاذاً في مدرسة بيشوب بكلكتا أهدى مؤلفه إلى جون موير.

(٢) راجع مؤلف استانيسلاس جوليان «لاو- تسين - اتى - كنج» المطبعة الملكية سنة ١٨٤٢.

فلسفة بالغة في الأصلية غايتها. وبأن معنى العلم على الصورة التي صورتها بها هذه الفلسفة وقتئذ كان باكورة فهم العقل البشري للعلم، تلك هي نتيجة كبرى أعترف بغاية الارتياح أنها ليست أمراً جديداً، كما قد يبين من الاعتبارات التي تقدمت بل قد تقدمني بزمان رجال ارتأوا هذا الرأي من غير أن يكون قد توافر لديهم كل ما لدينا من الأدلة.

فان العالم المحقق بروخر كان يكتب منذ قرن كامل في هذا الموضوع وقبل أن يصل إلى الفلسفة الإغريقية بحث عن بدايات الفلسفة في الأرض جميعها. فراح يستجوب على التعاقب العبرانيين والكلدانيين والفرس والهنود العرب والفينيقيين والمصريين وطائفة من أمم أخرى، فلم يعثر فيها على الفلسفة التي ينشدهم إياها عبثاً، حتى بلغ الإغريق فقال: "الآن لنبلغ الإغريق عن هذه الأمة المشهورة منذ كانت صبية في المهد بدرس الحكمة والفنون، والتي عندها وجدت الفلسفة مقرها الذي بغته زمنا طويلاً بعد أن تلقت هذه الأمة عن المتوحشين بعض الجرائم من المعارف الإلهية والبشرية".

ثم بعد أن درس النظريات القديمة لأنساب الآلهة التمثيلية والفلسفة السياسية للحكماء أضاف هذا العالم الرصين مؤرخ الفلسفة إلى ما تقدم ما يلي محدثاً عن مدرسة يونيا:

« إلى هنا لم تقدر فلسفة الإغريق إلا وهي صبية ترث في مهدها، ولكننا قد بلغنا الآن منها الطور الذي فيه بدأ العقل البشري يزاول الفلسفة الحقة. ويظهر بالأفكار المرتبة مظهر المشغوف بالنفوذ في حقيقة الأشياء، فالى العبقريّة الإغريقية ينبغي أن ننسب هذا المجد كما بينته آنفاً وفي أول هذا التاريخ عند البحث في الأصول الصحيحة للفلسفة»^(١).

وأما أنا من جانبي فلا أزيد على ترديد عبارة بروخر، وأعدني سعيداً باستنادي إلى هذا الحجة المحترم المتين الذي تقدم بمائة عام ما لدينا في هذا العصر من المعلومات البينة. نتيجتي كنتيجته. نعم إغريقاً أصيلة على الإطلاق. أعطت كل العالم ولم يعطها العالم شيئاً إلا ما ربما يكون من بذور كانت عقيمة في غيرها فعرفت هي وحدها أن تنبتها.

(١) بروخر تاريخ الفلسفة سفر (١) ص ٣٦٤، ٤٥٧.

لن أتوسع في الكلام على مذاهب طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان بل أفترض أنها معروفة بمقدار ما يمكن أن تعرف من القطع النادرة التي نجت من البلى وأقف عند بعض الملاحظات العامة إلى غاية العموم، من البين أن أكمل هذه المذاهب الثلاثة على نسبة كبيرة هو مذهب فيثاغورث. ونحن لا نستطيع أن نتعرفه إلا من خلال الشروح التي وضعتها عقول قليلة التفوق جاءت بعد المصنف بستة أو سبعة قرون، ولكنها مع ذلك كافية في بيان أن الدراسة التي كان يزاولها حكيم سموس شد ما كانت أفسح ميداناً وأكثر ضبطاً من دراسات معاصريه، فيها الفلسفة بتمامها تقريباً مع أجزائها الأصلية التي تتألف هي منها. وفوق ذلك فإن دراسة العلوم وعلى الأخص العلوم الرياضية بلغت فيها شأواً بعيداً. ومن البلية أن شخص فيثاغورث كمذهبه لا يزال يحيط به من الظلام حجاب لا شيء يمزقه، ولا شك في أن هذا الحجاب العظيم إنما جاء كبره من السكوت الذي التزمه فيثاغورث وألزم إياه تلاميذه الذين بقوا محتفظين بتنفيذ أمره مدة عدة أجيال. وكان ميلولوس السابق لأفلاطون بقليل هو أول من علم القاعدة - على ما يؤكدون - ونشر المذهب بل ربما نشر كتب الأستاذ أيضاً.

ومما لا يقل عن هذا مطابقة للواقع هو أن فيثاغورث على فلسفته كان يحتفظ في نظرنا بشيء من النحو الديني إن لم يكن في أفكاره فعلى الأقل في الجمعية التي ألفها والتي لا يدخل إليها إلا بعد امتحان قاس يجوزه المريد، فليست الفيثاغورية مفتوحة للكافة كالمذهب الطبيعي لطاليس، ولا كمذهب ما وراء الطبيعة لإكسينوفان. لفيثاغورث تلاميذ، ولكنهم بعض أعضاء لجمعية منتظمة خاضعة لملاحظة شديدة ومحصورة في حدود لا تجتاز، إنها نوع من مدينة فلسفية دينية سياسية قاسية وضيقة الحدود. فلم تلبث أن ارتاب في أمرها جيرانها فخربوها بالحديد وبالنار وما كان أسهل عليهم ذلك نظراً إلى أن هذه الجمعية من الوداعة بمكان. ومن البديهي أن نظام المدرسة الفيثاغورية كان على مثال مدارس الكهنة المصريين، وربما كانت على مثال مدارس المجوس أيضاً وأن تناسخ الارواح هو عقيدة شرقية صرفة لم تتأقلم في العالم الهليني مع أن أفلاطون وضعها

تحت إشرافه. كان فيثاغورث مؤسس مدرسة ورئيس جمعية معا ومبدع مذهب لا يتلقاه إلا أشياعه، وبهذه المثابة كان بين فلاسفة الإغريق وحيداً في هذا الباب. وينبغي أن يرجح أن سياحاته في مصر وكلمة هي التي أوجدت في نفسه مقاصد من هذا النوع فنقلها إلى بلاد قلما توافقها وتنجح فيها، ولكنها مع ذلك جعلت لفيثاغورث مركزاً قدسياً علمياً معاً فبقي به علماً فرداً متميزاً عمن قبله ومن بعده. مذهبه العلمي غير تام، ولكنه عظيم جليل. ومذهبه الأخلاقي طاهر لا غبار عليه حتى إن مذهب أفلاطون مع كونه أشد منه تعمقاً لم يرجع عليه في طهره.

ولندع إلى جانب شخصيات الفلاسفة وننبه إلى أن الفلسفة الإغريقية بتمامها كانت موضوعاً في وضع استثنائي أفادها جداً وهو أنها لم يكن أمامها أبداً ديانة مبنية على كتب مقدسة، وقد كان الأمر على ضد ذلك في مصر ويهودة وفارس وفي الهند حيث لم تكن الحال قاصرة على أن الدين قد سبق الفلسفة في تلك البلاد، كما هو الحال عادة في كل زمان. بل إنها اعتمدت فوق ذلك على أسس معتبرة أنها إلهية، ومع ذلك أقامت قروناً طوالاً كافلة لسد الحاجات الأدبية والأخلاقية في تلك الأمم، وبعد ذلك خرجت الفلسفة من المحاريب، فمثلاً في بلاد الهند البرهمانية أو البوذية استطاعت الفلسفة أن تنمو نمواً كبيراً متحللة من القيود الأولى وإن كان نجاحها لم يكن عظيماً. أما في بلاد الإغريق فلم يكن ما يشبه ذلك، لأن الإغريق لم يكن لهم كتب إلهية ولا موحى بها. وقد كان أرفي ولينوس وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى كلهم ما كان يتكلم إلا باسمه هو دون أن يسند ما يقول إلى الإله. ولما كان الإشراف بالله متغير الصور منشوراً في البلاد لا ينتظمها على حال واحد لم يستطع الوصول إلى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص، فلم يكن للكهنة نقابة قوية ذات سلطان وكان الناس يحترمونهم ولكن لا يطيعونهم، ولم تكن الروابط بين الهيئتين إلا مفككة العرى، لأنها إنما تبحث عن معتقدات عامة يغير من عمومها في كل جهة أساطير محلية لا نهاية لها، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية، وهواتف يستشيرها الناس

وقتما يريدون، وألعاب عمومية. والكتاب الوحيد الذي أخذ بمجامع قلوب الإغريق إنما هو قصيدة حماسية. إن قصيدة من شعر الحماسة تسحر العقول ولكنها لا تهديها، تأخذ بالقلوب ولكنها لا توجب الإيمان، إنها تنمي الإحساسات الشريفة بما تقدم من التذكارات الوطنية، ولكنها لا تسوي سبل السلوك. فما قصيدة حماسية بالتوراة ولا هي بالزاندافستا ولا بمتراس البراهمة ولا بالقربان المثلث عند البوذيين. فالواقع أن الفلسفة كانت هي وحدها دين الهلين.

وما تنسب عظمة الفلسفة الإغريقية التي لا تزال تدهشنا ونتعلم منها بعد خمسة وعشرين قرناً إلا إلى استقلالها المطلق. ولو أنها كانت تحت وصاية ديانة حسنة النظام أفكانت تظهر قواعدها بهذه السهولة التي ظهرت بها؟ أو كانت تحيا تلك الحياة الطيبة القوية؟ أو كانت تلد للعالم تلك الملح من التأليف وتؤتي ذلك الثمر اللذيذ؟ من ذا الذي يعرف ذلك؟ لا شك في أن الجنس الهليني كان عجيب الاستعداد، فقد نجح في ميدان الفلسفة، كما نجح في ميادين الأعمال الأخرى، ولكن أما كانت تدبل هذه الخواص العجيبة لو أن العصاراة التي تغذيها جرت في قنوات أخرى من قبل وخصوصاً في قنوات الديانة! ولم يكن تاريخهم الخرافي إلا لعباً تلعب به الملكات، فكانت الخواص العليا للنفس في سعة من أن تتخذ لها نحواً جدياً آخر وتبحث عن غذاء لها أغزر مادة وأدخل في باب الحق، بعيد عليّ أن أنكر نعم الديانات على الناس، وأرى أن من الخير أن تكون قد سبقت الفلسفة دائماً، وعند جميع الشعوب، ولكني لا أستطيع أن أحجم عن القول بأنه إذا كانت ديانة الهلين أكثر جدية مما كانت عليه لأوشكت فلسفتهم وعلومهم أن تكون أقل في الجدم مما كانت عليه بكثير، وتلك خسارة لا تعوض على الإغريق وعلينا أيضاً لأننا نحن أبناءهم ومظهر استمرار حياتهم.

ولئن أنسب إلى آسيا الصغرى وتلك الجمهوريات الإغريقية الصغيرة التي كانت مقيمة على شواطئها كل المجد الطارف في اختراع الفلسفة والعلم والشعر والموسيقى وكثير من الفنون الأخرى، فإني لا أقصد إلى أن أغمط آتينا حقاً من المجد المقطوع النظر،

ذلك لأنه من آتينا خرج في زمن قدروس أهل بعض هذه المستعمرات التي جمعت بين النشاط والذكاء والشاعرية والحربية، وفي آتينا اجتمع اليونان. بل يمكن القول بأن آتينا أعطت من دمها ومن روحها تلك الجاليات التي لم تستطع أن تظلمها تحت سمائها بعد أن أقاموا بها زمنا طويلاً. ثم إن تلك المستعمرات لم تستطع أن تحفظ في أوطانها جرائم للفلسفة التي تمخضت هي عنها ، فإنه إذا كان طاليس بقي في ملطية فإن فيثاغورث قد هاجر من سموس إلى سيباريس وقروطون، وإكسينوفان ترك كولوفون إلى إيليا. فلما نفيت الفلسفة مؤقتاً من إغريقيا الكبرى بما فيها صقلية وجدت سلطانها الحقيقي في آتينا آخر مطافها، وجدته بسقراط وأفلاطون في عهد أنكساغوراس وبيريكليلس وفيدياس وسوفكل، على ذلك تكون آتينا قد حوت أسمى مظهر للذكاء الإغريقي، وتكون الأم المخصصة التي ولدت الملح من كل نوع، فإن الفلسفة لما اقتلعت مرتين رجعت إلى الأرض الأولى التي منها خرجت المستعمرات اليونانية لتؤتي فيها أجمل زهرها وأنضج ثمارها. ولم تكن الفلسفة في آسيا الصغرى إلا عارضا جاءت به المصائب السياسية، فأقامت فيها قليلاً ولكن بعد ان انبعث نورها الساطع. فلما استقرت بآتينا مكثت بها أكثر من ألف سنة من عهد بيريكليلس إلى عهد جستنيان، فهي معلمة روما وجدة الإسكندرية ومنافستها الجديرة دائماً بالاحترام.

من أجل ذلك يظهر لنا أن آتينا ويونيا أو بلفظ واحد إغريقيا كان لها على من عداها فضل وسؤدد لا يطاقول، ومن أجل ذلك نضع منزلتها من سماء المجد في أوجها، لا يقاربها فيه ولا على مسافة كبرى تلك الأمم التي حاربتها ومزقتها ولكنها لم تقهرها مع أنها تربو عليها في العدد ألف مرة. فمن ذا الذي يقام له وزن بجانب الإغريق في باب الشعر والفنون والعلم والفلسفة؟ لست أعني السيتيين ولا سائر تلك الشعوب الرحل في شماليها، ولكنما أعني الفرس والهنود بل المصريين أيضاً. ماذا عسى أن تكون القرون الأولى لولا الهلين؟ ما هي تلك المعارف الإنسانية التي ليس لهم فضل في أمرها؟ ولقد أراد مؤرخو الإنسانية ومنهم هرذر أن يتلمسوا أسباب هذا التفوق الخارق للعادة من ظروف وأوضاع

كلها مادية كشكل أرضهم وحال جوهم وحاجات تجارتهم..... إلخ. ولكن مع أن تأثير هذه الظروف لا ينكر إلا أنها لا تستطيع أن تحل لنا مشاكل هذه النظرية الدقيقة ولا أن تفسر لنا سر هذا التفوق تفسيراً مقنعاً، فإن شواطئ آسيا الصغرى وضفاف بحر إيجه وأطيقا، وبيلوبونيز وإغريقيا الكبرى لم تتغير عن أصلها، ومع ذلك أين هي تلك الروح التي كانت تنعش الهلين في تلك العصور الخصيبة؟ ماذا صارت روح تلك الشعوب التي لم تتغير أوطانها المخصبة الجميلة منذ ذلك العهد إلى اليوم فإن أخلافهم لا يعدون الآن شيئاً فيما يتعلق بارتقاء المدارك الإنسانية.

لا نكاد نجد لهذا السؤال جواباً ممكناً إلا الواقع نفسه، فإننا لنرى كيف كانت إغريقيا فوق كل الأمم حتى بالبقايا القليلة التي وصلت إلينا من أعمالها، ولكن لماذا أصطفي هذا الشعب الصغير في زمن معين خلال قرون عديدة ليكون عنوان النور الأبدي الهادي لجميع الأمم فيما يتعلق بالمعقولات؟ ذلك سر من أسرار العناية الإلهية ليس لنا بالنفوذ في كهنة يدان، بل هو كسائر أسرار الله تنال إعجابنا ولا ينالها فهمنا. إن الإغريق، الذين لم يكن لهم على النوع الإنساني سعة النظر التي تقدمها لنا اليوم فلسفة التاريخ مدعمة بشتى الملاحظات، قد حاولوا مع ذلك أن يفسروا لأنفسهم أعجوبة عبقرتهم. وإني أؤثر أيضاً في هذا المقام أن أستجوبهم بدل أن أجيب عنهم في هذه المسألة، أولئك هم ثلاثة شهود عدول من عصر واحد تقريباً وهم بقراط وأفلاطون وأرسطو، يشهد أحدهم باسم علم وظائف الأعضاء، والثاني باسم الفلسفة والوطنية، والثالث باسم السياسة، ولا بأس من أن نتخذ بجانب هؤلاء شاهداً على الشعر إيشيل الذي كان يقاتل في مرطون.

فمن كتاب بقراط على الأهوية والمياه والأماكن، ذلك الكتاب الذي يتخيل قارئه كأنما مدده فيما أتى به من النظريات هو العلم الحديث، استطرد فيه المؤلف بحكم ضرورة استيفاء موضوعه إلى المقارنة بين الجنسين والوطنين الذين يعرفهما حق المعرفة، لأنه عاش فيهما فقال:

« أريد بالمقارنة بين آسيا وأوروبا أن أبين كيف أن كليهما تخالف الأخرى » في

كل شيء، وأنه ليس بين الأمم التي تقطن كليهما أي مشابهة في البنية. وقد « يكون من التزام ما لا يلزم تعديد جميع الفروق، بل أكتفي بأكثرها أهمية، وأشدّها » «بروزا للعيان، لأعرض رأيي الذي ارتأيت في ذلك، فأقول : إن آسيا تختلف عن أوروبا اختلافًا عظيمًا بطبيعة حاصلاتها جميعًا، سواء فيها ما تخرج الأرض وما يخرج » « من ظهور الناس الذين يزرعونها. فكل ما يتولد في آسيا يفضل ما يتولد في أوروبا » « فضلًا كبيرًا في الجمال وفي بسطة الجسم. جوها أكثر اعتدالًا، وأممها أدمث » « أخلاقًا وأسهل قيادًا، والعلة في ذلك هي التوازن التام بين الفصول فإن الماشية » « التي ترعى في أرض آسيا حسنة المنظر خصبة التكاثر إلى حد مدهش، وتربيتها » « ناجحة إلى الغاية. وأما الناس فيها فنموهم عظيم يمتازون عن الأجناس الأخرى » « بجمال صورهم وفضل قاتمهم، ولا يختلف بعضهم عن بعض في الرواء ولا في الصورة ». « ويمكن أن يقال : إن مثل هذه الجهة بينها وبين الربيع نسب يكاد يكون متصلًا » « بالنظر لتأليف فصول السنة ولطف آثارها، ولكن لا شجاعة الرجولة ومصابرة » « المشاق ولا إجهاد النفس في العمل ولا شدة البأس كل هذه الصفات لا تنمو » « في مثل هذه الطبيعة، سواء فيه الوطنيون والمستوطنون، بل إن حب الملاهي » « عندهم يتغلب على ما عداه من الميول الأخرى ».

« أما من جهة ضعة النفس وعدم الشجاعة فإن الآسيويين إذا كانوا أقل ميلًا » « للحرب وأكثر سلامًا في الطبع من الأوروبيين فعلة ذلك إنما هي على الخصوص » « في حال إقليمهم حيث لا توجد تقلبات شديدة لا في الحر ولا في البرد بل » « قليلًا ما يشعر بتغير الجو، وحيث لا يعتري العقل صدمات ولا يعرف الجسم » « تغيرات. وتلك انفعالات من شأنها أن تكسب الخلق وحشة وتمزج به ميلًا » « للجماح والعصيان أكثر مما تفعل الحال الجوية دائمة التماثل. إلا أنها التغيرات » « من النقيض إلى النقيض هي التي تنبه العقل الإنساني وتمنعه من أن ينام » « في ظلال السكون. تلك هي الأسباب التي تتعلق بها على ما يظهر لي ضعة » « نفوس الآسيويين ».

« ينبغي أن يضاف إلى ذلك حال النظمات، فإن جزء آسيا الأكبر خاضع للملوك. »

«وحيثما كان الناس لا يملكون حرية أشخاصهم لا يعينهم المرون باستعمال السلاح، بل»
«يصرفون كل عنايتهم في أن يظهروا بمظهر العجزة غير الصالحين للخدمة العسكرية».
«ذلك بأن الخطر ليس مقسومًا بينهم قسمة عادلة، إذ يسعى الرعايا إلى خوض غمار»
«الحرب يذوقون فيها من المتاعب ألوانًا يموتون فيها من أجل أسيادهم بعيدين عن»
«أبنائهم وعن نسائهم وعن كل ما هو عزيز عليهم. وفي حين أن كل ما يأتونه من»
«ضروب النشاط والبسالة إنما يجني أسيادهم ثمرته يكبر به قدرهم وتشد به عصيتهم»
«فإن أولئك المحاربين لا يجنون من وراء كل ذلك إلا الأخطار والهلاك. وفوق ذلك»
«فإن هؤلاء الرعايا لا بد لهم من أن يروا في الغالب دخول الأعداء وانقطاع الأشغال»
«سببًا لجعل غيظانهم حصيدًا جرزًا. وبهذه المثابة ترى الذين آتتهم الطبيعة في هذه»
«الأمم قوة في القلب وميولًا حسنة قد تمنعهم تلك النظمات السياسية من الانتفاع بها.»
«وإن أكبر برهان على ما أقدم هو أن في آسيا جميع الأمم الإغريقية والمتوحشة»
«المتحللة من نير السيادة والتي تضع قوانينها بنفسها لنفسها وتشتغل لحسابها هي»
«أكثر» «الأمم الآسيوية ميلًا إلى الحرب. «لما أنها كانت تتعرض لأخطار الحروب»
«لحسابها» «الخاص فكانت تتمتع بثمرة شجاعتها أو تحتل سوء نتائج جبنها ليسوا»
«كالآسيويين» «المحكومين بالملوك، فإن الشجاعة تفقد وجودها بالضرورة في قلوب»
«الرجال الخاضعين» «لحكم الملوكية، نفوسهم مستعبدة فلا يكادون يهتمون بمعاونة»
«الأخطار بمحض إرادتهم من أجل توسيع سلطان غيرهم. ولكن الأمر على ضد ذلك»
«إذا كان الإنسان غير خاضع إلا إلى قوانينه الذاتية وإذا كان يعرض نفسه للخطر من أجل»
«منفعته» «الخاصة لا من أجل منفعة غيره. «من هذا شأنه يقتحم المخاوف طائعًا مختارًا»
«ويلقي بنفسه بكل قلبه في جميع مهاوي المصادفات، لأنه سيحني لنفسه ثمرة انتصاره.»
«من أجل ذلك كانت القوانين مساعدة عن سعة على تكوين الشجاعة».

«تلك هي المقارنة العامة التي يمكن تقريرها بين أوروبا وآسيا في كل الأشياء»^(١).

(١) بقرات كتاب الأهوية والمياه والأماكن ب ١٢، ١٦، ٢٣، ص ٥٣، ٦٣، ٨٧ طبعة ليشرى ج ٢.

«ذكر أفلاطون في كتابه المينكسين حيث لا يريد سقراط على أن يكرر مقالات أسباسيا الشاعرة الملطية تمجيداً للإغريق الذين قهروا قبائل آسيا ما نصه:

«لما جاء الفرس الذين هم سادة آسيا وحكامها يسعون لإذلال أوروبا قابلهم آباؤنا أبناء هذه الأرض فقهرهم ودحروهم» «ولتقديره قيمة هذا العمل العظيم ينبغي أن تنتقل بالفكرة إلى العصر التي كانت فيها آسيا كلها خاضعة إلى ملكها الثالث»^(١) «فأولهم قيروش لما مكنته عبقريته من تحرير مواطنيه الفرس أخضع إليه سادتهم الميديين وحكم بقيو آسيا إلى حدود مصر». «ثم فتح ابنه مصر وسائر الأقطار الأفريقية التي استطاع أن يصل إليها وثالثهم دارا قد بسط حدود مملكته» «ومدها إلى سبتيا بفتوحات جيشه البري، وأما أساطيله فجعلته سيد البحر والجزر» «وإذ كان لا يجرؤ أحد على مقاومته قد ذلت له هامات الأمم، فكم من أمة قوية حربية ألقت عنانها إلى الفرس ودخلت تحت نير سلطانهم....!» «إذا استحضر الإنسان هذه الظروف في ذهنه أمكنه أن يقدر حقاً المسألة التي آتاها يوم مرطون» «أولئك المقاتلون الذين صبروا على مهاجمة المتوحشين، وعاقبوا تبجح آسيا وكبرياءها» «والذين أثبتوا للإغريق بما جاءوا به من الأنفال والغنائم أن قوة الفرس لا تستعصي على المقاومة» «وأنه لا شيء من كثرة العدد ولا من سعة الثروة يقف أمام الشجاعة.....» «لذلك ينبغي أن يسند ثناء هذا النصر الأول إلى أولئك المقاتلين. وأما الثاني فثناؤه مسند إلى الظافرين في الوقائع البحرية بسلامين وأرطيميس». «وقد ضرب أبطال مرطون مثلاً للغريق عامة أن فئة قليلة حرة تكفي لرد غارة جيوش المتوحشين البرية»، «مهما كانت لا تحصي عدداً، ولكنه لم يكن ليثبت أن ذلك ممكن أيضاً في البحر كما أمكن في البر حتى وقعت الوقائع البحرية فاستحق بها أولئك البحارة المهرة ما أحرزوا من المجد لتخليصهم الإغريق من الخوف الأكبر»، «ولأنهم صيروا الأساطيل الفارسية لا تزيد مهابة على الجنود الفارسية. أما الواقعة الثالثة

(١) إيشيل . (الفرس، البيت ٧٦٥ وما يليه) يذكر عدد آخر يرى أن أسيا في عرف إيشيل و أفلاطون كان حدها الشرقي أرض فارس.

من وقائع الاستقلال الإغريقي من حيث الترتيب التاريخي ومن حيث شدة الإقدام “فهى واقعة بلاتة، وهى أول واقعة اشترك فيها اللقدمونيون والآتينيون وباءوا بمجدها جميعاً، وقد كان اللقاء فيها حرجاً والخطر محيقاً فتغلبوا على كل شيء.... ويا له من فضل يستأهل مدائحننا ومدائح قرون المستقبل”.

إلى أى شيء فى الإغريق نسبت أسباسبيا هذه الشجاعة وهذا المجد؟ إلى علة واحدة، إلى الحرية التى كانت تتمتع بها آتينا، قالت: ”ها أنتم هؤلاء ترون كيف أن أجداد هؤلاء المقاتلين وأجدادنا وهؤلاء المقاتلين أنفسهم الذين ولدوا بالطابع المسعود وربوا فى مهد الحرية قد أتوا هذه الفعال الجميلة العمومية والخصوصية لغرض واحد هو خدمة الإنسانية“^(١).

وما كان هذا التشيد إلا ألقى ما يكون بالأعمال التى يشدو بها، وحقيق بأسباسبيا أن تمتدح آتينا وأبناءها. ولما قام مينكسين يشكر سقراط عند انصرافه لم يتمالك نفسه من أن يجهر بهذا القول: ”وحق المشتري أن أسباسبيا لسعيدة بأنها وهى امرأة تقدر على كتابة مثل هذه المقالات“.

ولا شك فى أن هذا الشاب قد أصاب فيما قال، إلا أنه فاته أن هذه المرأة كانت من ملطية وأن أجدادها، مع أنهم كانوا لا يزالون أضعف من الآتينيين، قد حاربوا الفرس غير مرة من قبل أن تتولى آتينا أمر قهرهم.

وأخيراً فإن أرسطو يشرك أفلاطون وبقرات فى رأيهما، فإنه لما تكلم على الصفات المطلوبة فى سكان المدينة فى حكومة منظمة قال:

«لكى يلم المرء بهذه الصفات ما عليه إلا أن يطرح نظره إلى أشهر المدائن» «الإغريقية وإلى بقية الأمم المختلفة التى تتقاسم سطح الأرض ليرى أن الأمم التى» «تسكن الأقاليم

(١) مينكسين أفلاطون ترجمة فكتور كوزان ص ١٩٦ وما بعدها. ذلك هو الذى ذكره أيضاً إيشيل على لسان جماعة المنشدون يجيبون أتوسيا أم اكزار كسيس: ”لا يستطيع مخلوق أن يقول إن الآتينيين عبيده أو رعاياه“ الفرس البيت ٢٤٣.

الباردة حتى في أوروبا هي على العموم مملوءة بالشجاعة ولكنهم» «على التحقيق أقل ذكاء في العقل ومهارة في الصناعة، وبهذه المثابة يحتفظون» «بحريتهم خير احتفاظ» ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام، ولم يستطيعوا» «مطلقاً أن يقهروا جيرانهم. أما في آسيا فالأمر على ضد ذلك، فإن أممها أكثر» «ذكاء وقابلية للفنون، ولكنهم تنقصهم قوة القلب ويصبرون على البقاء تحت نير العبودية المؤبدة». أما الجنس الإغريقي الذي هو بموقعه الجغرافي وسط بين هؤلاء» «وهؤلاء فإنه يجمع صفات الطرفين ويجمع بين الذكاء والشجاعة، يعرف كيف يجمع بين حفظ الحرية وبين تأليف حكومات غاية في النظام» فهو جدير إذا توحدت كلمته في حكومة واحدة أن يفتح العالم»^(١).

هذا رأي ثلاثة رجال، أولئك هم أرسطو وأفلاطون وبقراط في عبقرية اليونان، إنهم لم ينفوا عن الإغريق المؤثرات الخارجية التي آثارها أظهر من أن تخفى، ولكنهم اهتموا على الخصوص بالأسباب الأخلاقية. وما ضلوا فيما ذهبوا إليه، لأننا نحن الآن مع أننا أكثر تنوراً، بما أصبنا من التجربة الطويلة، لا نستطيع أن نزيد شيئاً على هذه الاعتبارات الصادقة المستمدة وجودها بنوع ما من الحس، فلتبق إغريقيا إذا ما كانت في العصور الأولى مدفونة في طيات مجدها، ولكن خالدة ما خلدت أعمال الإنسان التي تقع في يوم من الأيام ثم تتلقفها أيدي البلى مهما كان موضعها من الجمال والكمال.

كنت أريد أن أفرغ من هذه المقدمة التي طالت أكثر مما ينبغي، ولكنها من هنا لا تكون كاملة إذا لم أرجع بها إلى الكلام على الكتابين اللذين تتقدمهما وإذا لم أبسط القول على المسألة الكبرى التي تشبث بها مدرسة إيليا، تلك المدرسة التي يمثلها إكسينوفان وميليسوس أعني بها وحدة الوجود وعدم تغيره. وما أدراك ما هي تلك المناقشة التي ثار نائرها في بداية الفلسفة وقام بها رجال تقلبوا في الأعمال الحيوية من حرب وسياسة وسياحة واستعمار؟ وإذ نراهم فلاسفة ونظرين نراهم جميعاً يزاولون المقاصد العملية بهمة مدهشة، وأننى لنا إدراك التوفيق بين الحالين إذا لم نلم بالأخلاق والعادات

(١) أرسطو. السياسة ك ٤ ب ٦ ف ١ من ترجمتي ص ٢١٧ من الطبعة الثانية.

والضرورات التي كانت في تلك الأزمان المضطربة! كان طاليس في جيش الياط وكان أحد المؤتمرين في البانيونيوم، وفيثاغورث يحوب البلاد الأجنبية زمنا طويلاً على كثرة الأخطار وبُعد الشقة، وإكسينوفان الذي نفى نفسه طوعاً من وطنه المقهور بالفرس يذهب للانضمام إلى الفوكيين فيما وراء البحار، وميليسوس يدافع عن سموس ضد الآتنيين بعزيمة لم يتغلب عليها بيريكليس إلا بعد طول العناء، أولئك قواد وساسة يشتغلون بما وراء الطبيعة! أمر شديد الندرة دائماً! وفوق ذلك فإنهم يظهر عليهم أنهم فنوا في دقة التدليل، تلك الخاصة التي كانت تتهم بها عن بيته مدرسة إيليا. إذا سلمنا بما ذكره أفلاطون في كتابه المسمى ”برمينيد“ فإن ذلك الانتقاد والتهمة كانا من الصحة بمكان ولا شك أن من الغريب أن تملك التدقيقات المنطقية على مثل هؤلاء الرجال عقولهم، غير أنه يجب التنبيه إلى أن برمينيد مع كونه تلميذ إكسينوفان وخليفته قد شرع لنفسه طريقة غير طريقه فمسح من أفكاره وغلا فيها، وربما كان ذلك أثراً من آثار الروح العامة المنتشرة وقتئذ في إغريقيا الكبرى، تلك الروح التي كانت وقتئذ تبذع في صقلية فن الخطابة والتي غلت في نظريات فيثاغورث على العدد إلى حد الإفراط.

ليست تلك روح إكسينوفان التي تتجلى في المقطوعات التي بقيت لنا من آثاره وفي الكتاب الذي أترجمه الآن في هذا المجلد، وعلى رأيي أن هذه النقطة هي التي ينبغي أن نوجه النظر إلى الإمعان فيها للإصابة في تقدير قيمة هذه المذاهب الناشئة وقتئذ، والتي لم تكن لتأخذ بعد مركزاً ثابتاً في العقل الإنساني في بداية هبوه من سباته.

أول نظرة في الطبيعة التي تحيط بنا تظهر لنا بادئ الأمر وحدة الوجود، وما يكون إلا بعد ذلك بالزمان أن نميز بالجهد والتحليل أجزاء مختلفة في هذا المجموع العام الذي يسحر جلاله أبصارنا ويعيي إدراكنا. ولم تستطع الهند لا قبل الفلسفة الإغريقية ولا بعدها أن تخرج من تأثير فكرة الوحدة بل فنت فيها بكليتها وبقي العلم على المعنى الخاص غريباً عنها على الإطلاق طول حياتها، كان لها نظريات للتهجم فيها نصيب قليل أو كثير، وتصورات للعقل فيها حظ وفير أو ضئيل، كلها قائمة على الأصل العام للأشياء، ولكن

لم يكن فيها دراسة خاصة وضعية للظواهر الطبيعية، ذلك هو أساس العبقرية الهندية وعظمتها. لا يوجد شيء أكثر من ذلك في الفيدا والبرهمانا والأوبانيشاد. والأناشيد الحماسية والقوانين في الدراسات الفلسفية. أما العبقرية الإغريقية فإنها اتقت أن تسحرها ظواهر النظرة الأولى في الوجود، ودفعت بذلك الخطر عن نفسها، ولئن كانت قد اتجهت وقتنا ما إلى فكرة الوحدة فإنها قد عرفت لحسن الحظ كيف تتخلص منها لتدرس عن قرب دراسة منتجة بعض الأجزاء الأصلية لهذه الوحدة التي ليست في الواقع إلا صورة اللانهاية عينها.

ذلك هو الواقع حتى إن طاليس حين بحثه في التعبير عن ماهية العالم كان يدرس الأصل المادي الذي تكون منه، ومع أنه قد أخطأ هذا الأصل الذي ظنه الماء فإنه على كل حال كان يعتمد على ما يشاهد بالحس في الطبيعة ليتعرف أسرار الأشياء. يشتغل بالهندسة ويتتبع جريان الكواكب في أفلاكها مادام أنه كان على وشك أن يتنبأ بكسوف الشمس، وعلى رأي أرسطو، وشهادته قاطعة في هذا المعنى، أن طاليس كان يسلم بأن العالم مملوء بالآلهة القائمة بأمر النفس وبالحركة، وليس فيثاغورث بأقل استمساكاً بفكرة الوحدة مع أنه كان يجزئها، ولم تلهمه استكشافاته الرياضية والفلكية لحظة واحدة عن النظر في توافق النظام العالمي، فكان يعترف بوجود طوائف متخالفة في هذا النظام، ولكنه مع ذلك يعترف على وجه الخصوص بوحدة عجيبة، وعلى رأيه أن الأضداد اثنين اثنين تكون كلاً واحداً يكون أرقى منها. وأن الوحدة هي الأصل الحقيقي في العالم المادي كما هي في العدد، وبذلك ارتقى فيثاغورث إلى تعريف الله دون أن يميزه تمييزاً تاماً عن العالم الذي ينظمه ويسيره.

أما عند إكسينوفان فإن فكرة وحدانية الله وقدرته هي ظاهرة بغاية الوضوح دون أن يتعمق فيها كما تعمق فيها أفلاطون من بعده وكما هو الحال على الخصوص في اللاهوت المسيحي، وأظن أن هذه النظرة الأولى في الوحدة الإلهية هي التي ألقت جلالها الباهر وخفاءها في نظريات مدرسة إيليا. وعندني أن ذلك هو الذي يفسر أغلاط هذا المذهب

الشريف. إن نظر إكسينوفان لم يكن بعيد المدى، إن شئتم، ولكنه على الأقل لا يضل. أما برمينيد فإن به ميلًا إلى السفسطة التي حملت تلميذه زنون على أن ينكر الحركة وحملت غريغاس على تأييد أبعد مذاهب العدمية ضللاً وأقلها تنزهاً. وأما ميليسوس فإنه لزم الحد الوسط بين الأستاذ صاحب المذهب وبين الذين غلوا به حتى وقعوا في المحال. وإني مقارب بين إكسينوفان وميليسوس وذاكر الفروق الأساسية بينهما على ما يظهر لي: لقد كان إكسينوفان مليئاً باحترام هذا المذهب الذي لم يدركه أحد من قبله بمثل ما أدركه هو من الوضوح والجلال، لذلك نفى عنه خيالات الشعراء اللطيفة التي تحط من مقامه كما نفى عنه الانتروبومورفيزم الجافي الذي هو مذهب العوام (تصور ذات الله تعالى على صورة الإنسان). تعالى الله عما يصفون من النقائص وعن صور الكائنات الفانية وعن صور الكائنات الفانية وعن صور هؤلاء التعساء الذين يجعلونه على صورتهم. ليس كمثل شيء في الوجود لأنه لماذا يكون المثل خالقاً بدلاً من أن يكون مخلوقاً؟ وأن الله الذي لا يمكن أن يأتي من موجود يشابهه لا يمكن من باب أولى أن يأتي من شيء يكون دون مقاومة. إذا هو لم يخلق من شيء فيكون بالضرورة أزلياً. وأخذاً بنتيجة ليست أقل ضرورة من الأولى يكون قديراً على كل شيء. لو كان آلهة متعددون لكانوا أقوى أو أضعف بعضهم من بعض، وعلى ذلك لا يكون إله، لأن خاصة الإله أن يملك كل شيء ولا يملكه شيء أيّاً كان. ولما كان الله أزلياً قديراً على كل شيء لزم على ذلك أن يكون واحداً، لأنه لو كان له منافسون لما أمكنه أن ينفذ أحكامه ويحقق إرادته العليا.

من ذلك ترى أن في إكسينوفان بعض مبادئ جلييلة لم يرفضها اللاهوت المسيحي بل قبلها بالعناية قبولاً حسناً، ولكن نظر إكسينوفان قد اضطرب في هذه النقطة، وليس في ذلك ما يوجب الاستغراب. ولقد أراد أن ينفذ نظره في حقيقة الذات الإلهية فأخذه العثار في هذا الطريق الوعر الذي ضل فيه كثير غيره، فإنه يقول: الله الذي لا يشابهه شيء من الحوادث هو في كل جزء منها. قد يكون ذلك مقبولاً ولكن إكسينوفان لما وقع في الاستعارات التي لا تساوي قيمتها إلا ما تساويه الانتروبومورفيزم التي انتقدها

بحق أخذ يشبه الله بفلک، وكانت النتيجة عنده أن الله لا يمكن أن يكون لا لا متناهيًا ولا متناهيًا، وأنه لا يمكن أن يكون له حركة ولا سكون، كما أنه لا أول له ولا وسط ولا آخر. ومع ذلك فإن إكسينوفان لم يخدع نفسه في أمر الصعوبات غير المتناهية التي تقف في حل هذه المسألة، ودليل ذلك ما قاله في هذه الأبيات الجميلة التي نقلها إلينا سكستوس أمبيريكوس:

«لا أحد من الكائنات الهالكة يستطيع أن يرى جليًا في هذه الأعماق ولن» «يستطيع أحد أن يعرف حقيقة ماهية الآلهة والعالم، تلك الماهية التي أحاول الكلام عليها. فإذا لقي أحد يومًا بالمصادفة الحقيقية التامة لما عرف هو نفسه أن يقدر ما وصل إليه منها، وليس في كل ما يقال في هذا الشأن إلا محض تشبيه وتقريب».

والظاهر أن برمينيد لم يتمش بالبحث في هذا الموضوع الكبير إلى الحد الذي وصل إليه أستاذه. وأما زانون تلميذ برمينيد وواضح في الجدل فإنه، على ما قال ديوجين اللايرثي نقلًا عن أرسطو، قد وصل في هذا الموضوع إلى لا أدريّة غلا فيها غرياس إلى أقصى حد، ولكنني أكرر أنني لا أشتغل بزنون ولا ببرمينيد بل أتخطاهما إلى ميليسوس فهو الذي أقصد درسه بعد إكسينوفان.

مع أن ميليسوس يفصله عن رئيس المذهب ثلاثة أو أربعة قرون فإنه أحرص الناس على أن يحذو حذوه ويلتزم تعاليمه، إلا أنه، عوضًا عن أن يبقى متمسكًا بإله إكسينوفان الواحد الأزلي القادر على كل شيء بل والمدرك لكل شيء أيضًا، زاغ عن الطريق ووضع الموجود موضع الإله فاشتغل بالموجود آخذًا إياه في كل تجرده وفي كل عقمه. غير أن التأملات الميتافيزيقية مهما قل فيها الضبط فإن ذلك لا يقلل من جمالها ولا من تعمقها الاستثنائي.

الموجود لا يأتي من الموجود وإلا لزم عليه أن يتقدم نفسه وهذا تناقض. ومثل ذلك في التناقض أن يتولد الموجود من المعدوم. على ذلك لم يكن الموجود قد وجد في زمن ما، وعليه يكون الموجود أزليًا وفوق ذلك لا يعتريه الفساد ولا الانتهاء، لأنه إما أن يتغير

إلى معدوم وهذا محال، وإما أن يتغير إلى موجود آخر وإذن فلا يكون منعدمًا، فالموجود على ذلك كان دائمًا ويكون دائمًا، وما دام أنه لم يوجد من العدم فهو لا أول له، وما دام لا يمكن فناؤه فهو لا آخر له، وما دام لا أول له ولا آخر له فهو حتماً لا متناهٍ، وما دام لا متناهياً فهو واحد، لأن اللانهاية منافية للتعدد، إذ لا يمكن تصور اثنين أو عدة لا متناهية. ومتى كان الموجود أبدياً واحداً لا متناهياً كان بالنتيجة غير متحرك ولا قابل للتغير، لأنه في أي مكان غير ذاته يمكنه أن يتحرك؟ ولما كان موصوفاً بالوحدانية المطلقة فأى تحول أو تبدل أو تغير يمكن أن يلحقه؟ ولو أمكن أن يتبدل بغيره أيًا كان لانتفى أن يكون شبيه نفسه ولانعدمت صورته الأولى وجاءته صورة أخرى. ومع تقدم الزمن ينعدم هذا الموجود الأبدي واللانهاضي ويتحول إلى لا شيء. ولما كان الموجود أبدياً لا متناهياً واحداً كان لا يمكن أن يكون له جسم، فلا يمكن أن يكون مادياً. لأنه إذا كان ذلك لزم عليه أن يكون ذا أجزاء متميزة بعضها عن بعض، وهذا ينافي وحدانيته ولا نهايته وأبديته. لا شيء كائن حقيقة إلا الموجود. وجميع الأشياء التي تؤكد لنا حواسنا وجودها ليست إلا مظاهر خداعة متحولة كثيراً أو قليلاً، فهي غير موجودة بالمعنى الخاص ما دامت متغيرة وما دام أنها تهلك بعد أن تولد. أما الموجود الحقيقي فإنه لا يتحول ولا يتغير أبداً ولو أن الأشياء التي تظهر أمام حواسنا كانت موجودة كما نظنها للزم على ذلك أن تكون غير قابلة للتغير وأبدية كالموجود نفسه، فلا شيء بموجود إلا الوحدة، وأما التعدد فلا وجود له أصلاً. أما أنا فإنني أجدر أفكار ميليسوس هذه خليفة به، وبالمدرسة التي هو أحد أعضائها. لا شك في أنها متناقضة من بعض الوجوه، ولكننا من خلال هذه الرسوم البالية والمقطوعات القليلة نشعر لها بعظمة وقوة لم يفهما تاريخ الفلسفة حقهما من حسن التقدير، وربما كان هذا الغمط منذ أرسطو.

وإنني أعترف بأن أنكساغوراس مفهوم خير فهم بعد إكسينوفان وميليسوس، فإن أنكساغوراس الذي هو معاصر لقائد سموس (ميليسوس) هو الذي جلا الغوامض عن علم الطبيعة وقواعد نظام الكون في عصره بأن أدخل عليها تلك الفكرة الصالحة : إن

العالم يديره العقل المدبر .

ولقد أعجب سقراط بهذا المذهب مع أنه يرى أن أنكساغوراس لم يكن ليستقصي كل نتائجه، كما أننا نعلم ما صرح به أرسطو من الثناء الجميل على أنكساغوراس إذ يقول: لقد جاء أنكساغوراس بعد كثير من الضلالات، أشبه ما يكون برجل سليم العقل يتكلم وسط المجانين^(١). فمن البغي أن ينتقص فضل أنكساغوراس أو أن ينازع فيه بعد ما كان من شهادة سقراط وأرسطو، فإن له الفضل الأوفى في هذا المذهب، وليس شاذاً عن المؤلف أن كلمة من عبقرى تكشف القناع عن المغيبات العلمية. قد يقال إن إكسينوفان وميليسوس هما اللذان وطأ لهذا المذهب بنظريتهما التي هي أقرب ما يكون منه. ولا مشاحة في ذلك فإن لهما نصيبهما الوافر من ذلك الفضل.

ذلك هو المعنى الحقيقي لمذهب الوحدة في مدرسة إيليا التي طالما حجب من نورها وصغر من قدرها على نسب غير مضبوطة، وما الوحدة الإيلية إلا الله طلبوا معرفته يتلمسونها بين حجب الجهالة الأولى ويدرسونها، كما يمكن أن تدرس في تلك الأزمان إذ العلم والمشاهدة العلمية لا يزالان في بدايتهما. فلم تكن تلك الوحدة قد وصلت بعد إلى ما قرره أنكساغوراس من الإدراك الإلهي ولا ما قرره سقراط وأفلاطون من العناية الربانية. غير أن تقرير تلك الوحدة مع ذلك كان الجرثومة الأولى لكل هذه المذاهب. ومهما يكن من صدق الانتقادات التي يمكن توجيهها إلى المذهب الذي يرأسه إكسينوفان، فلا شك في أن تلك التوجيهات السليمة هي التي آتته عظمته وخطره في تاريخ الفلسفة.

أقف عند هذا الحد وألخص بيان أوفى تلك المعاني التي جئت على إيضاحها بشيء من الضبط ربما كان أقل مما كنت أريد.

قد ظهر لي أن مجيء الفلسفة إلى عالمنا الغربي حادثة من الخطر بحيث أردت أن أحيطها بكل ما يجلو خفاءها معتمداً في ذلك على استجواب التاريخ عن الأمم وعن الظروف التي اعتورت هذه الحادثة. ومما ينبغي التنبيه إليه أن هذه الحادثة إنما كانت من

(١) أرسطو الميتافيزيقا ك ١ ب ٣ ترجمة فكتور كوزان. وقطع فلسفية الطبعة الخامسة ص ٢٠٤.

احتكاك أوروبا بآسيا، وإن كان ذلك قد حصل من قبل في حرب طروادة إلا أن ظروف هذه الحرب مطروحة جانباً لأنها خرافية أو لقلة العلم بها. ذلك الاختلاط حصل في بقعة من الأرض ليس فيها من السعة إلا بمقدار ما يلزم لتحرك الجاليات الإغريقية وفي عصر يعتبر نسبياً عصر توحش ولكنه كان مملوءاً بالخصب الذي لم يتجدد بعد من وقتئذ إلى الآن. على ذلك كانت آسيا الصغرى هي السابقة على آتينا التي فاقتها من بعض الوجوه، كما يشهد بذلك هوميروس، ولكن آسيا التي حملت بهذا الأصل العجيب تحت تأثير أمم غريبة عنه لم تستطع تعهده وإنماءه، فعاد منها يستكمل قوته وكماله إلى الأرض العتيقة التي كان قد خرج منها منذ خمسة أو ستة قرون.

ولقد تصدّيت فوق ذلك لتبيين أن العبقريّة الإغريقية هي التي دانت العالم بهذا النفع العلمي الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها. فإذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية في الإبهام. لا مرأى في أن المصريين والكلدان والهنود لهم في ماضي الإنسانية مقام كبير، ولكنهم مع ذلك في الفلسفة أو في العلم بعبارة أعم ليسوا شيئاً مذكوراً في جانب الإغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم. ولقد أثبتت مقارنة اللغات في أيامنا هذه أن لغة الإلياذة ولغة الفيدا كانت في الأصل لغة واحدة، ولكنه إذا كان الأصل الذي اطرح في أزمان ما قبل التاريخ واحداً، فإن ما قدر على الأخوين كان مختلفاً جد الاختلاف، لأن العالم الإغريقي قد أنتج الآداب والعلوم والفنون التي ننسج الآن على منوالها، وشاطر بحظ عظيم في تقدم المدنية المسيحية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، في حين أن العالم الهندي ما أنتج إلا البرهمانية والبوذية، فهو نازل عنا بمراحل على الرغم من المزايا المتعددة التي يكون من الظلم عدم الاعتراف له بها. بين العالم الإغريقي وبين العالم الهندي تأتي بلاد فارس التي توسّطت بين العالمين في المكان كما هي في الزمان، ولكنهما لم تشغل مركزاً يذكر لها ولم تستفد منها الإغريق إلا المجد الخالد الذي أحرزه أمثال ملتياد وليونيداس وطيمستوكل والإسكندر.

ومع ذلك فإن الهند وفارس وإغريقيا ومصر ويهودة نفسها. مهما كانت الفروق بينها في

المعقولات، كلها هي الخمسة فروع متفرعة عن جنس واحد. فإن علم أنساب الشعوب ووصفها الذي لا ينبغي أن يكون له أهمية عظمى في هذه الأبحاث، لكنه مع ذلك لا ينبغي أن يغفل أمره فيها قطعاً، هذا العلم قد كشف الغطاء عن مشابهة تامة بين هذه الشعوب منطقية تحت فروق في الأخلاق وفي العقل وفي اللغة، وهذا الجنس الرفيع الذي يجمع الخمسة الشعوب المذكورة هو ما يسمونه بالجنس الهندي القوقازي. وإن الأمم السامية نفسها متفرعة منه أيضاً كالأخرى وإن كانت قابلياتها تخالف قابليات الأخرى على الإطلاق فهي قوية فيما يتعلق بالدين عقيمة فيما عداه تقريباً، ولكن في هذه العائلة الكبرى الجميلة التي كأنها احتكرت لنفسها الذكاء الحقيقي يقف الإغريق بجملتهم في صفها الأول، وحينما كانوا يسمون من عداهم بالمتوحشين لم تكن كبرياؤهم بالغة من سوء الحد الذي كان يظن بهم. ومع أنه كان خيراً أن يكونوا أكثر تواضعاً فإن الهلين المدفوعين إلى هذه الكبرياء بدواعي غرائزهم الصادقة لم يكونوا مخدوعين على شرف مقامهم أكثر مما ينبغي. والآن ونحن في وسعنا أن نحكم حكماً خلواً من الغرض نقول إنهم أحق من سواهم بقصب السبق. ومهما يكن من حال المستقبل فليس من الهين عليه أن ينزعهم من هذا المقام. أما أنا فلست أتردد في إسناد هذا المجد إليهم، مع أنني لا أنكر ما كان لمنافسيهم من العظمة بل من التفوق في بعض الوجوه، ولكن من الذي يمكننا أن نضعه في حلبة المجد في مستوى فوق مستوى الهلين وقد جاءونا يقدمون بين يدي دعواهم الشعر والآداب والفنون والعلوم والفلسفة والتاريخ؟

ولقد بينت على مهد الفلسفة الناشئة، مقام مدرسة إيليا وما لإكسينوفان وميليسوس من الأهلية الخاصة بين طاليس وفيثاغورث.

ينبغي أن نكرر أن كل ما نسرده من هذه الحوادث التاريخية إنما هو تاريخنا ولو كان منذ خمسة وعشرين أو منذ ثلاثين قرناً، ذلك بأننا أبناء الإغريق، ولولاهم لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، فإن إغريقيا هي التي علمت روما، وبواسطة روما وإغريقيا فتحت المسيحية بلادنا ومدنتنا بعد أن انتفعت بكل ما تقدمها ومهد لها السبيل. وإن العلم على جميع

صوره كان معدومًا في الشرق، فاخترعه الإغريق ونقلوه إلينا^(١). وما كان من روما والعالم الحالي بتمامه منذ إغارة المتوحشين إلا أن اقتفوا هذا الأثر الذي عفا رسمه أحيانًا ولكنه لم ينعدم أبدًا.

وإني إذا عنيت بإيضاح هذه الآثار الأولى أردت أن أوفي أجدادنا حقهم وأن أذكر بما علينا من الواجب نحوهم بأن بينت مراكزهم وخدماتهم للإنسانية. إن العقل الإنساني بطيء في سيره فيحسن به وهو سائر في طريقه غير المتناهي أن يلقي نظره الوقت بعد الوقت إلى الوراء ليرى من أين ابتداء سيره وليسدد خطاه في المستقبل غير المحدود الذي ينتظر قدومه!.

(١) راجع مقدمتي لكتاب السماء لأرسطو ص ٧٩.

الكون والفساد

الكتاب الأول

الباب الأول

الموضوع العام لهذا الكتاب - تمحيص المذاهب السابقة - آراء مختلفة - تمحيص نظريات أنكساغوراس ولوكيسس وديمقريطس - نقض خاص لمذهب أمبيدقل - الاستشهاد ببعض آياته - المعاني المختلفة التي يحمل عليها كون الأشياء تبعاً لما يسلم به من الوحدة أو التعدد للعناصر الأولية.

١ - لأجل أن ندرك الكون والفساد في الأشياء التي تتولد وتهلك بالطبع يلزمنا، كما

ك ١ ب ١ - أخذ فيلوبون يثبت أن هذا الكتاب متصل جد الاتصال بكتاب السماء ودليله الأصلي في ذلك أن كتاب السماء ينتهي بجملة فيها أداة استدراك لا يوجد معادلها إلا في هذا الكتاب. وهذا الدليل ليس قاطعاً جداً. ولكن من المحقق أن مواد الكتابين مرتبط بعضها ببعض فضل ارتباط. وأن أرسطو بعد ما درس السماء و الخواص العامة للأجرام اللامتغيرة التي تؤلفها أكنه أن يفكر في إتمام هذه الدراسة بدراسة الأجسام التي من شأنها في الطبيعة أن تتولد وتهلك تابعة في ذلك قوانين منتظمة. الصلة اللغوية بين الكتابين موجودة كما نبه إليه فيلوبون ولكن الصلة المنطقية بينهما هي أيضاً أحق.

١ - بالطبع - أراد أرسطو، وهو لا يشتغل إلا بالأجسام المكونة أو الهالكة بفعل الطبيعة أن يخرج جميع الأجسام التي تكونها أو تهلكها الصناعة الانسانية. فإن هذه الاجسام يمكن أن تكون موضوع دراسة خاصة. - عللها ونسبها - اللفظ اليوناني الذي عبرت عنه بالنسب هو أيضاً مبهم جداً. وقد حاول فيلوبون أن يوضحه فلم يوفق إلى ذلك. وربما كمان لفظ "تحولات" صالحاً أيضاً. - النمو والاستحالة - ينبغي الرجوع إلى تعريف هذين اللفظين في كتاب الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٣ ف ٧ و ك ٥ ب ٣ ف ١١ وما بعدها. فإن النمو هو حركة في الكم وأما الاستحالة فإنها حركة في الكيف.

- الكون و الاستحالة أما الكون بالمعنى الخاص فهو الانتقال من اللاوجود إلى الوجود. وأما الاستحالة فهي ليست إلا مجرد تغير في الكائن الموجود من قبل. - بالحقيقة - زدت هذا اللفظ لإتمام الفكرة. لأجل تبين الفرق بين الكون وبين الاستحالة استشهد فيلوبون بيت شعر لهوميروس ولكن هوميروس لا يكاد يصلح حجة ذات وزن في هذا الفروق اللفظية والميتافيزيقية.

هو الحال في البقية، أن نقدر على حدة عللها ونسبهما، وسننظر أيضًا عند معالجة النمو والاستحالة ما هي كل واحدة من هاتين الظاهرتين ونبحث ما إذا كان طبع الكون وطبع الاستحالة هما واحدًا بعينه أو هما متميزان بالحقيقة كما هما متميزان بالاسم الدال على كليهما؟.

٢- من القدماء من رأوا أن ما يسمى كونًا مطلقًا ليس إلا استحالة. والآخرون منهم رأوا أن كون الأشياء واستحالتها ظاهرتان مختلفتان. فالذين يزعمون أن العالم كل ذو صورة واحدة ويجعلون الأشياء كلها تخرج من مبدأ واحد بعينه هؤلاء يلزمهم بالضرورة أن يروا الكون مجرد استحالة وأن يفترضوا أن ما يولد بالمعنى الخاص إنما هو يستحيل.

وعلى ضد ذلك الذين يسلمون بأن المادة تتألف من أكثر من عنصر واحد كأبيدقل ٢- من القدماء - سيري أن أرسطو يعني بهم أمبيدقل وأنكساغوراس ولوكيبس وديمقريطس إلخ. - كونًا مطلقًا - يعني الانتقال من العدم إلى الوجود - ليس إلا استحالة - يعني إدماج ظاهرتي الكون والاستحالة. - ظاهرتان مختلفتان، هذا الرأي هو وحده الصحيح فإن الكون والاستحالة معنيان لا يمكن إدماجهما أحدهما في الآخر. - إن العالم كل ذو صورة واحدة - أو إنه لا يوجد إلا عنصر واحد بعينه هو الذي يكون كل شيء بلا استثناء. وهؤلاء الفلاسفة هم على العموم اليونان وأصحاب مدرسة إيليا التي كانت تؤيد مذهب وحدة الجوهر وبعده الموجود - مجرد استحالة قد زدت على المتن كلمة مجرد. - ما يولد بالمعنى الخاص - هو الذي سماه التولد المطلق كما نبه إليه فيلوبون - المادة تتألف من أكثر من عنصر واحد - أو أنه "يوجد أكثر من مادة واحدة" ولقد سمي هنا أنصار تعدد العناصر وأما أنصار الوحدة فلم يسمهم. أقام فيلوبون نفسه مقام أرسطوطاليس وذكر بأن طاليس لم يكن يقبل إلا الماء عنصرًا واحدًا، وأنكسيمين وديوجين الأبلوني يقول كلاهما بأنه الهواء. وأنكسيمندروس يقول بأنه عنصر وسط بين الهواء وبين الماء. وكان هيرقليطس يقول بأنه النار. أما فلاسفة التعدد فإن أمبيدقل كان يقبل القول بالعناصر الأربعة، كما قال به أرسطو، النار والهواء والماء والأرض. وأما أنكساغوراس فإنه كان يفترضها تلك الأجسام المتجانسة المتشابهة الأجزاء واللامتناهية. وديمقريطس ولوكيبس كانا يفترضان هذا الفرض بالنسبة لذراتها اللامتناهية في العدد وفي اختلاف أشكالها (ر). الفقرات الآتية).

٣- نكر انكساغوراس التعبير الخاص - في عهد انكساغوراس لم تكن لغة الفلسفة قد تكونت كما حصل ذلك بعد - كما يفعل فلاسفة آخرون - يعني المذكورين بعد ذلك. - العنصرين المحركين - هذان العنصران المحركان اللذان يقول بهما أمبيدقل هما التنافر والعشق أولهما يفرق الأشياء والثاني يجمعها - ستة عناصر - يعني عنصري الحركة مضافة إليهما العناصر الأربعة العادية الأرض والماء والهواء والنار. وعلى رأي أمبيدقل أن هذه الأربعة الأخيرة منفصلة فقط وأما الآخران فإنهما فاعلان ومحركان. من أجزاء متماثلة المتشابهة الأجزاء (هوميريس) - أحد هذين التعبيرين ليس إلا ترجمة للآخر - كل جزء منها مرادف للكل - فإن جزء العظم يسمى عظمًا وجزء من اللحم يسمى لحمًا في حين أن جزء اليد لا يسمى يدًا..... إلخ. وعلى ذلك يوجد من العناصر الأولية المتشابهة بمقدار ما يوجد من الجواهر المختلفة ولذلك كانت عناصر انكساغوراس غير متناهية في العدد.

وأنكساغوراس ولوكيسس. هؤلاء يجب أن يكون لهم رأي مضاد للأول تمامًا.

٣- ومع ذلك فإن أنكساغوراس في هذا قد نكر التعبير الخاص وغلب في لغته الخلط بين ولد وهلك وبين تغير. على أنه يعترف بتعدد العناصر كما يفعل فلاسفة آخرون. كذلك قال أمبيدقل إن عناصر الأجسام كانت أربعة وإنه بإضافة العنصرين المحركين يكون المجموع ستة عناصر. اما أنكساغوراس فإنه ارتأى أنها غير متناهية في العدد كما كان يرى لوكيسس وديمقريطس. والواقع أن أنكساغوراس كان يعتبر عناصر الأجسام المركبة من أجزاء متماثلة: المتشابهة الأجزاء، مثل العظم واللحم والنخاع وجميع المواد الأخرى التي كل جزء منها مرادف للكل.

٤- ويزعم ديمقريطس ولوكيسس أن جميع الأجسام مركبة في البداية من أجزاء لا تتجزأ أو ذرات وهي غير متناهية لا في عددها ولا في أشكالها. وأن الأجسام لا تختلف في أصلها بعضها عن بعض إلا بالعناصر التي تتركب منها وبوضع هذه العناصر وترتيبها.

٥- ويظهر هنا أن أنكساغوراس من رأي معارض لرأي أمبيدقل لأن هذا الأخير يقول بأن النار والماء والهواء والأرض هي الأربعة العناصر وأنها أبسط من اللحم أو العظم أو أي عنصر آخر من العناصر المتشابهة فيما بينها أو الأجسام المتشابهة الأجزاء. ولكن أنكساغوراس على الضد من ذلك يزعم أن الأجسام المتشابهة الأجزاء هي بسيطة وأنها هي العناصر الحقيقية بينما أن الأرض والنار والهواء مركبة وأن جراثيم العناصر منتشرة في كل مكان.

٤- أجزاء لا تتجزأ أو ذرات- كلا الاسمين مرادف للآخر تمامًا. واسم الذرات أكثر استعمالاً وقد بين فيلوبون هنا وجه الخلاف بين مذهب أبيقور في الذرات وبين مذهب ديمقريطس فإن أبيقور يقول بعدم تناهي الذرات في العدد ولكنه لا يسلم بأنها غير متناهية في الأشكال. - ألا بالعناصر التي تتركب منها- أو بعبارة أخرى "التي هي منها" مذ من أجل التخالف غير المتناهي في طبيعة الذرات. - بوضع هذه العناصر وترتيبها- هذا لعدم التناهي في الأشكال.

٥- من رأي معارض- لا يجد فيلوبون بين رأي أنكساغوراس ورأي أمبيدقل من مسافة التعارض ما تدل عليه عبارة أرسطو. - النار والماء والهواء والأرض- ذكرتها بهذا الترتيب لأن أرسطو ذكرها كذلك.. إنها أبسط من اللحم- قد يؤخذ من صوغ هذه الجملة أن أمبيدقل كان يعلم مذهب انكساغوراس ويتقده. ولكن التاريخ الزمني لا يسمح بذلك. ولعل المراد هنا هم أتباع أمبيدقل كما يدل عليه تعبير النسخة الإغريقية لا أمبيدقل نفسه. - جراثيم العناصر- هذه الجراثيم شد ما تقارب إذا الذرات التي هي منتشرة في كل مكان على حسب مذهب ديمقريطس.

٦- على ذلك متى ادعى أن جميع الأشياء تخرج من عنصر واحد لا غير لزم ضرورة اعتبار كون الأشياء وفسادها كمجرد استحالة. فيكون إذن الموضوع للظواهر دائماً واحداً ودائماً هو بعينه. فإنما على موضوع من هذا القبيل يمكن أن يقال إنه يعاني استحالة ولكن متى سلم بأنواع متعددة للجواهر وجب التسليم أيضاً بأن الاستحالة تخالف الـكون. لأن كون الأشياء وفسادها حينئذ يحصلان باتحاد العناصر أو بافتراقها.

وفى هذا المعنى أمكن لأمبيدقل أن يقول:

ليس لشيء من طبع ثابت، وما الكل إلا اختلاط وافتراق.

٧- هذا تعبير، كما يرى، يلائم تماماً فرض هؤلاء الفلاسفة وتلك هي أيضاً طريقة تعبيرهم. وإذن فإن هؤلاء الفلاسفة أنفسهم مضطرون إلى الاعتراف بأن الاستحالة أمر مخالف للكون. ومع ذلك فإن من المحال أن توجد استحالة حقيقية على حسب المبادئ التي يقررونها. على أنه من السهل الاقتناع بصحة الرأي الذي نقرره هنا. فالواقع أنه كما أن الجوهر في حال السكون نجده يعتريه في ذاته تغير في العظم يسمى النمو والنقص كذلك أيضاً يمكننا أن نشاهد فيه الاستحالة.

٦- ادعى أن جميع الأشياء تخرج من عنصر واحد لا غير - هذا مذهب لم يقبله أرسطو أبداً. - لمجرد الاستحالة - (١) أنفاً. - الموضوع للظواهر - زدت على النص اللفظ الأخير. - يعاني استحالة - يلزم في الواقع وجود موضوع دائم حتى يمكن أن يكون على التعاقب محلاً للاستحالة التي تنتابه إذا يمر من البارد إلى الحار ومن الأبيض إلى الأسود.... إلخ. أو على التبادل. - بأنواع متعددة للجواهر - عبارة النص بالضبط "أجناس متعددة". - باتحاد العناصر أو بافتراقها - تحت تأثير العشق والتنافر كما يريد أمبيدقل.

٧- فرض هؤلاء الفلاسفة - الذين يقولون بتعدد العناصر - وتلك هي أيضاً طريقة تعبيرهم - أو بعبارة أخرى «أن الفرض الذي نسند إليه هو الذي يسلمون به» - مضطرون إلى الاعتراف - لا يظهر أن أمبيدقل أنكره بالضبط، ومن حق هذا القول أن يوجه إلى ديمقريطس وأنصار الوحدة. - أن توجد استحالة حقيقية - النص أقل من هذا ضبطاً في التعبير - نجده يعتريه - إنما يستشهد أرسطو إلى المشاهدة الحسية وعلى رأيه أن الاستحالة ليست ظاهرة أقل وضوحاً من النمو أو الذبول اللذين تدركهما حواسنا بغاية السهولة. إن الفكرة في هذه الفقرة لا تزال مضطربة خافية ولم أستطع جلاءها كما أردت على الرغم من تفسير فيلوبون وتفسير إسكندر الأفروديزي الذي نقله بجانب تفسيره - نشاهد فيه الاستحالة - أو تغير الكيف.

٨- ولكن من جهة أخرى ليس أقل من ذلك في باب المحال إيضاح الاستحالة على حسب ما يقوله الذين يسلمون بأكثر من عنصر واحد. لأن التأثيرات التي تجعلنا نقول بوجود الاستحالة هي فصول للعناصر، أريد أن أقول، الحار والبارد، والأبيض والأسود، والجاف والرطب، واللين والصلب، وجميع الخواص الأخرى المتشابهة كما يقوله أيضًا أمبيدقل: الشمس في كل مكان بيضاء مملوءة بالحرارة وفي كل مكان المطر ينشر غشاه وبرده.

إنه يقرر المميزات عينها لسائر الأشياء، وينتج من ذلك أنه إذا كان الماء لا يخرج من النار، ولا الأرض من الماء. فإن الأسود لا يمكن أن يخرج من الأبيض. ولا الصلب من اللين. وهذا التدليل بعينه قد ينطبق على جميع التغيرات الأخرى. وهذا بالضبط إذا ما كان يعني بالاستحالة.

٩- ولكن أليس من البين أنه يلزم دائمًا افتراض وجود مادة واحدة لا غير لأجل الأضداد، سواء أ تغيرت بالنقلة في الأين أم تغيرت بالنمو أو النقص أم تغيرت بالاستحالة؟ يلزم ألا يكون إلا عنصر واحد ومادة واحدة بعينها لأجل جميع الكيوف التي تبدل بعضها ببعض. وإذا كان العنصر واحدًا فهناك أيضًا استحالة.

١٠- وعلى ذلك يظهر لنا أن أمبيدقل يناقض الحوادث الأكثر واقعية ويناقض نفسه معًا. لأنه يزعم مما أن العناصر لا يمكن أن يجيء بعضها من البعض الآخر بل على الضد

٨- الذين يسلمون بأكثر من عنصر واحد قد يظهر من هذا أن الفقرة السابقة موجهة إلى الفلاسفة الذين يقولون بوحدة الجوهر ولكن النص لا يساعد على هذا التفسير. التأثيرات- أو التغيرات- فصول للعناصر- أو عبارة أوسع «الفروق التي توجد بين العناصر»- الحار والبارد- بطريقة عامة كل المتقابلات بالتضاد التي تتوارد وتتعاقد على موضوع واحد بعينه- ينتج من ذلك- ليست هذه نتيجة تنتج بالضرورة من مذهب أمبيدقل- وهذا بالضبط إذا ما كان يعني بالاستحالة- ولا يظهر أن أمبيدقل ينكره.

٩- ولكن أليس من البين على هذه النظرية راجع كتاب الطبيعة ك ١ ب ٧ ف ٩ وكتاب المقولات ب ١١- بالنقلة في الابن... بالنمو... بالاستحالة- تلك هي أنواع الحركة الثلاثة. التي يقول بها أرسطو وقد شرحها في كتاب الطبيعة- مادة واحدة بعينها- عبارة النص ليست من البيان على هذا القدر- التي تبدل بعضها ببعض- والتي هي بدا على ذلك أضداد، فإن الجسم بعينه هو الذي يكون بالتناوب حارًا أو باردًا أو أبيض أو أسود.... إلخ.

١٠- يناقض الحوادث الأكثر واقعية- بإنكاره وجود الاستحالة وهي ظاهرة مشاهدة بغاية السهولة- رد إلى الوحدة- ذلك هو (سفروس) إله المادة المظروف فيه المال على رأى أمبيدقل بفعل العشق إلى أن يأتي التنافر فيكشفه عنه من =

يأتي منها سائر الأشياء، وفي الوقت عينه بعد أن رد إلى الوحدة الطبيعة كلها كاملة ما عدا التنافر. قد استخرج بعد ذلك كل شيء من الوحدة التي تخيلها. فعلى رأيه الأشياء بانفصالها عن هذه الوحدة العنصرية بواسطة بعض فصول وبعض تغيير فهذا الشيء بعينه صار ماءً وآخر صار ناراً. وبهذه المثابة يسمى الشمس بيضاء حارة والأرض كثيفة صلبة. ولكن متى محيت هذه الفصول ويمكن أن تمحى ما دامت متولدة في وقت بعينه، أمكن للأرض بالبدهاءة أن تلاقي إذن من الماء كما يمكن أيضاً للماء أن يأتي من الأرض. كذلك الحال بالنسبة لجميع الأشياء الأخرى التي جرى عليها التحول والتغير لا في الزمن الذي يتكلم عنه فقط بل التي تتغير أيضاً في هذا اليوم.

١١ - زد على ذلك أن في مذهب أمبيدقل توجد مبادئ منها يمكن أن تتولد الأشياء وتنفصل من جديد، وعلى الخصوص متى سلمنا بالتنازع الأبدي المتبادل بين التنافر والعشق. فانظر كيف أن الأشياء فيما يظهر تتولد إذن من مبدأ واحد. لأن النار والماء والأرض وهي لا تزال مجتمعة لم تكن لتكون كل العالم. ولكنه بهذه النظرية لا يعرف إن كان يلزم الاعتراف بأن لهن مبدأً واحداً أو مبادئ متعددة وأعني بهن الأرض والنار والعناصر التي من هذا القبيل. ذلك بأنه في الواقع من جهة ما يفترض كمادة مبدأً منه تأتي الأرض والنار متغيرتين بالحركة المتحصلة فإنه لا يوجد إذن إلا عنصر واحد لا غير.

= جديد بأن يفصل العناصر - ما عدا التنافر - ما دام هو الذي يجب أن يقطع من جديد الوحدة التي أوجدها العشق - فعلى رأيه - يظهر أن ما يلي هو نقل حري لعبارة أمبيدقل ولكنه البيان غير جلي وفيه الغموض العادي الذي يوجد في نقوض أرسطو - فهذا الشيء بعينه صار ماء - لا يظهر أن هذا هو مذهب أمبيدقل الحقيقي فإن رأيه هو أن العناصر كلها مكونة ولا تتغير، بل هي فقط تجتمع أو تفرق تحت التأثير القدير للعشق والتنافر - ويمكن أن تمحى - قد لا تكون هذه هي فكرة أمبيدقل الحقيقية - ما دامت متولدة في وقت بعينه - يظهر أن أمبيدقل على الضد من ذلك يعتقد أن هذه الفروق أبدية - بل التي تتغير أيضاً في هذا اليوم في مذهب أرسطو ولكن لا في مذهب أمبيدقل.

١١ - زد على ذلك أن في مذهب أمبيدقل - ليس النص بهذا الضبط من البيان. فإن المعارضة الجديدة تنحصر في أنه في مذهب أمبيدقل توجد مبادئ سابقة على العناصر وعلى ذلك تكون هذه العناصر ليست عناصر حقيقية.

- التنافر والعشق - هما مبدأان سابقان للعناصر يجمعانها ويفرقانها - من مبدأ واحد - حينما يتكشف (سفيروس) إله المادة من جديد بفعل التنافر - مبدأ واحد أو مبادئ متعددة - يكون على الأقل الاثنان التنافر والعشق - كمادة - يمكن ألا تكون هذه أيضاً فكرة أمبيدقل، فإن التنافر والعشق لا يكونان بالضبط العناصر وإنما يفعلان بها فقط - أشد عنصرية - هذه هي عبارة النص نفسها.

ولكن من جهة أن هذا العنصر عينه هو متحصل من اجتماع هذه الجواهر التي تتحد ينتج أن هذه الجواهر قبل اجتماعها هي ذواتها أشد عنصرية وسابقة بطبيعتها.

١٢- ولكن يلزمنا في دورنا أن نتكلم بطريقة عامة على كون الأشياء وفسادها على معنهما المطلق، وسنعيد البحث فيما إذا كان هذا الكون أو لم يكن وسنقول كيف يكون هو. ثم نتكلم أيضاً على الحركات البسيطة كالنمو والاستحالة.

١٢- في دورنا- زدت هاتين الكلمتين للدلالة على الانتقال الذي لم يذكر بالنص هنا، فإنه بعد أن استعرض أرسطو على التوالي مذاهب الآخرين سيبين مذاهبه وسيتكلم أولاً على الكون مرجئاً الكلام على نمو الأشياء واستحالتها إلى ما بعد.

الباب الثاني

عدم كفاية نظرية أفلاطون - عود على نظرية ديمقريطس ولوكيس - نظرية جديدة على كون الأشياء وفسادها - النمط المتبع - أهمية مسألة الذرات - رأى ديمقريطس ولوكيس - رأى أفلاطون في كتابة طيماوس - خطأ هؤلاء وهؤلاء - وجوب الأخذ بملاحظة الأحداث على الأخص - فضل ديمقريطس من هذه الجهة - أفكار في قابلية الأشياء المقسمة - يمكن افتراض القسمة لا متناهية - صعوبات هذه النظرية - صعوبات ليست أقل خطراً من نظرية الذرات - نقض هذه النظرية - المعنى العام الذي يحمل عليه كون الأشياء.

١ - لم يدرس إذن أفلاطون الكون والفساد إلا من حيث طريقة وجودهما بالأشياء، بل لم يكن ليدرس الكون في كل عمومته بل اقتصر على كون العناصر. ولم يقل شيئاً على تكون جميع الأجسام التي هي من جنس اللحم والعظم وسائر الأجسام المتشابهة لها ولم يتكلم على الاستحالة ولا على النمو ولم يبين كيفية إدراكه إياهما في الموجودات.

٢ - على أنه يمكن الجزم بأنه لم يتكلم أحد على هذه الموضوعات إلا بطريقة سطحية

١ - لم يدرس إذن أفلاطون - رجع أرسطو إلى فحص مذاهب أسلافه - إذن - هذه الكلمة موجودة في النص دون أن يكون لها وجه يبررها - طريقة وجودهما بالأشياء - يحتمل أن أرسطو يريد أن يقول إن أفلاطون لم يدرس الكون إلا في الحال الراهنة للأشياء من غير أن يحاول الصعود إلى الأصل، فإذا كانت هذه هي فكرته فقد لا تكون صادقة تماماً إذ قد يوجد في طيماوس ما يناقضها - على كون العناصر - دون كون الكيف التي تتاب العناصر - على الاستحالة ولا على النمو - يعني النوعين الآخرين للحركة.

٢ - ما عدا ديمقريطس - مدح ديمقريطس هذا يمكن أن يظهر عظيمًا جدًا بعد ذلك الانتقاد السابق الموجه إلى أفلاطون - كل المسائل - ليست عبارة النص في هذا القدر من الضبط - التي بها تحدث الأشياء - هذا ليس تام الوضوح - ولكن عبارة النصر أدق من ترجمتنا، ولا شك في أن أرسطو يريد أن يقول إن ديمقريطس موافق له فيما يتعلق بكون الأشياء ولكنه يخالفه في كيفية حدوث هذه الظاهرة. في إيضاح النمو - لا يرى أن أرسطو نفسه قد سد هذا النقص (ر. الطبيعة ك ٦ ب ١٦ ف ٥ من ترجمتنا).

جدًّا ما عدا ديمقريطس فإنه يظهر أنه فكر في كل المسائل ولكنه يخالفنا في إيضاح الطريقة التي بها تحدث الأشياء. ولم يفكر احد كما قلنا آنفًا في إيضاح النمو إلا ما ربما يكون على المعنى الذي تفهمه كافة به هذه الظاهرة. أعني بأن يقال إن الأجسام تنمو لأن الشبيه يأتي فينضاف إلى الشبيه. أما كيف تحصل هذه الظاهرة فذلك ما لم يوضحه أحد ألبته حتى الآن.

٣- ومع ذلك فلم تدرس أيضًا بعد مسألة الاختلاط ولا أي واحدة من المسائل التي من هذا القبيل ولا مثلاً مسألة معرفة كيف تفعل الأشياء وتتفعل وكيف أن شيئاً بعينه يفعل الأحداث الطبيعية وآخر بعينه يفعل بها.

٤- لما لم يهتم ديمقريطس ولوكيبس إلا بصور العناصر استخرجنا منها استحالة الأشياء وكونها. وعلى هذا فمن انقسام الذرات ومن اتحادها يأتي الكون والفساد ومن ترتيب الذرات ووضعها تأتي الاستحالة. ولكن لما كان هؤلاء الفلاسفة يحسبون الحقيقة في مجرد الظاهر وكانت الظواهر متضادة ولا متناهية بالعدد مما اضطروا أن يجعلوا أشكال الذرات لامتناهياً أيضاً بحيث إن الشيء الواحد يمكن أن يظهر ضد ما هو لنظر هذا الرائي أو ذلك تبعاً لتغيرات وضعه ويظهر متغير الصورة بمجرد أن تختلط به أو تزداد عليه أصغر جزئية أجنبية. ويظهر أنه صار غير ذاته جملة بتغير موضع جزء واحد من أجزائه. ذلك كما أنه يمكن أن تستخدم الحروف بعينها لتأليف مأساة أو فكاهة حسبما يختار.

٣- ومع ذلك فلم تدرس أيضاً- بعض هذه المسائل قد درس إما في كتاب الطبيعة وإما في الكتاب الرابع من الميتولوجيا (الآثار العلوية) ولكني لا أعرف إذا كان أرسطو قد تعمق في البحث فيها إلى أبعد مما فعل أسلافه.

٤- لما لم يهتم ديمقريطس ولوكيبس إلا بصور العناصر- ليست عناصر النص على هذا القدر من الضبط. وهذا المعنى هو معنى فيلوبون وقد يمكن ترجمته هكذا: «بعد أن تخيل ديمقريطس ولوكيبس صور العناصر». الذرات- أضفت هذه الكلمة لأن مذهب ديمقريطس معلوم تماماً ومذهب الذرات لا يقبل في الحقيقة إلا القسمة والاتحاد والترتيب والوضع عللاً لجميع الظواهر.- يحسبون الحقيقة في مجرد الظاهر- هذا هو المذهب الذي اعتنقه بعد ذلك السفسطائيون وطالما حاربه سقراط (ر. فروطاغوراس لأفلاطون) - أشكال الذرات- أضفت أيضاً هاتين الكلمتين- تبعاً لتغيرات وضعه- مثل فيلوبون لذلك بطوق الحمامة فإنه تبعاً لمسقط الضوء وموضع الرائي يتلون بالألوان المختلفة -جزء واحد من أجزائه- ليست عبارة النص على هذا القدر من الضبط- تستخدم الحروف بعينها- أو عبارة أصرح «حروف الهجاء».

٥- ولكن لما كان كل الناس من غير استثناء تقريبًا يعتقد بوجه العموم أن كون الأشياء واستحالتها هما ظاهرتان مختلفتان جدًّا، وأن الأشياء لتكون أو لتفسد يجب أن تتحد أو تنفصل في حين أنها تستحيل بتغيرات في خواصها، وجب علينا من أجل ذلك أن نقف على هذه المسائل التي يعرض منها في الواقع صعوبات حقيقية متعددة. إذ لم يجعل كون الأشياء، مثلاً، إلا اتحاداً فإن لهذه النظرية طائفة من النتائج غير القابلة للتأييد. ولكن هناك براهين أخرى قاطعة على صحة المعنى المضاد، ومن الصعب جدًّا نقضها، تثبت أن كون الأشياء لا يمكن أن يكون شيئاً آخر إلا مجرد اتحاد وأنه إذا كان الكون ليس اتحاداً فمن ثم لا يوجد كون أصلاً وأنه ليس إلا استحالة. لذلك يجب أن نعالج حل هذه الصعوبات مهما كانت خطورتها.

٦- النقطة الأصلية في ابتداء هذه المناقشة هي معرفة ما إذا كانت الأشياء تكون وتستحيل وتنمو أو تعاني الظواهر المضادة لهذه الظواهر بسبب وجود ذرات أعني أعظماً أولية غير قابلة للقسمة أو ما إذا كان لا يوجد أصلاً أعظام غير قابلة للقسمة. هذه النظرية هي من الخطورة بالمكان الأعلى. ومن جهة أخرى بفرض وجود الذرات يمكن أن يتساءل أيضاً عما إذا كانت - كما يريد ديمقريطس ولوكيسس - هذه الأعظام غير المنقسمة هي أجساماً أو ما إذا كانت مجرد سطوح كما ذكر في طيماوس.

٧- ولكن من غير المعقول، كما بينا في غير هذا الموضع، أن نجاوز بتحليل الأجسام

٥- كل الناس - يشمل أنكساغوراس وأمبيدقل - كون الأشياء واستحالتها - من الصعب في الواقع خلط الظاهرتين وجعل إحداها الأخرى. وأن عبارة النص في التمييز جلية غاية الجلاء. - وجب علينا أن نقف - سيكون ذلك موضوع هذا الباب والأبواب التالية - طائفة من النتائج غير القابلة للتأييد - هذا مبهم.

٦- هي معرفة - ما إذا كان يوجد ذرات أو لا يوجد - تكون وتستحيل وتنمو - تلك هي الأنواع الثلاثة للحركات التي الأشياء قابلة لها - الظواهر المضادة لهذه - يعني الفساد والاستحالة إلى كيف مضاد والنقص - أعني - أضفت هذه الكلمة. - هذه النظرية هي من الخطورة بالمكان الأعلى - لذلك عاد أرسطو إلى الكلام عليها مرات عدة - كما ذكر في طيماوس - وكتاب السماء ك ٣ ب ٧ ف ١٤.

٧- في غير هذا الموضع - في كتاب السماء ك ٣ كما يقول أيضاً فيلوبون - إلى حد تصييرها سطوحاً - هذا الرأي ليس هو رأي أفلاطون في طيماوس إلى حد ما يظهر على أرسطو أنه يذهب إليه هنا - على أنني لأعترف - عبارة النص =

إلى حد تصييرها سطوحًا. وعلى ذلك يكون أقرب إلى المعقول القول بأن الذرات هي أجسام. على أنني لأعترف أن هذا الرأي هو أيضًا قليل الشبه بالمعقول. ومع ذلك يمكن في هذا المذهب كما قد قيل أن تفسر استحالة الأشياء وكونها بتبدل الجسم الواحد تبعًا لدورانه أو لتماسه أو تبعًا لاختلاف أشكاله. ذلك ما يفعل ديموقريطس وهذا هو الذي أدى به إلى إنكار حقيقة اللون ما دام اللون في عرفه إنما يكون من حركة الأجسام حول مركزها. ولكن الذين يقبلون قسمة الأجسام إلى سطوح أولئك لا يمكنهم بعد ذلك أن يدركوا اللون؛ لأنه بجمع السطوح ذرات السعة بعضها مع بعض يمكن الوصول فقط إلى تكوين جوامد ولكن لا يمكن الوصول إلى إيجاد أي كيف جسماني.

٨- والسبب الذي جعل هؤلاء الفلاسفة يرون، أقل من الآخرين، الظواهر التي هي محل وفاق بين الناس جميعًا هو عدم المشاهدة. وعلى ضد ذلك الذين استرادوا من فحص الطبيعة، أولئك أحسن حالًا في استكشاف هذه المبادئ التي يمكن أن تنسحب بعد على حوادث ما أكثر عددًا. ولكن هؤلاء الذين هم تائهون في نظريات معقدة لا يلاحظون الأحداث الواقعة وليست أعينهم موجهة إلا إلى عدد قليل من الظواهر وهم يحكمون بسهولة كبرى.

٩- ها هنا أيضًا يمكن أن يرى كل الفرق الذي يفرق بين الدراسة الحقة للطبيعة وبين

= أقل وضوحًا من هذه. - كما قد قيل - يرى فيلوبون أن الألفاظ التي يستعملها أرسطو في هذا الموضوع على قول ديمقريطس هي ألفاظ مأخوذة على الأخص من لهجة ابدير. - ودورانه..... تماسه - هذان التعبيران ليسا بالفرنسية أكثر ضبطًا في أداء المعنى من نظيريهما باليوناني، الذين يقبلون قسمة الأجسام إلى سطوح - مثل أفلاطون أو فلاسفة آخرين - أن يدركوا اللون - أو أي كيف آخر للأجسام. عبارة النص أقل ضبطًا من هذه.

٨- محل وفاق بين الناس جميعًا - عبارة النص مبهمة قليلًا فلست واثقًا من أنني حصلت المعنى جيدًا. عدم المشاهدة - يوصي أرسطو هنا بمشاهدة الأحداث كما يوصي به دائمًا ولكنه لم يكن في موضع آخر مبينًا وجازمًا كما هو في هذا الموضوع. ر. مقدمة ترجمتي للميتروولوجيا ص ٤٢ وما يليها. - التي يمكن أن تنسحب بعد - أو بعبارة فيلوبون وهي: «التي يمكن أن تشمل عددًا من الحوادث ما أكثره». والفرق بين العبارتين عديم القيمة. - تائهون في نظريات معقدة - عبارة النص تفيد أيضًا لكن هؤلاء الذين هم بعيدون عن الأفكار العامة..... إلخ. - بسهولة كبرى - وبخفة أكثر.

٩- الدراسة الحقة - أضفت هذه الكلمة الأخيرة. - هؤلاء الفلاسفة - يعني أفلاطون ومدرسته. - إذا لم تكن تلك الذرات - أضفت هذه الكلمات التي يظهر أنها ضرورية. - المثلث نفسه المثل الأعلى للمثلث - هذه الكلمات الأخيرة ليست إلا تفسيرًا لما سبقها. فإن المثلث نفسه في لغة مذهب أفلاطون هو المثل الأعلى للمثلث. - مؤلفًا - أي قابلاً للقسمة =

دراسة منطقية محضة. لأن هؤلاء الفلاسفة من أجل أن يبينوا مثلاً أنه يوجد ذرات أو أعظام غير قابلة للقسم يدعون أنه إذا لم تكن تلك الذرات فإن المثلث نفسه، المثل الأعلى للمثلث، يكون مؤلفاً مع أن ديمقريطس في هذه المسألة يظهر أنه لم يعول في حلها إلا على دراسات خصوصية وطبيعية محضة، ومع ذلك فإن ما سيلي من هذه المناقشة سيبين لنا ما نريد أن نقول بأوضح من ذلك.

١٠- من الصعوبة الكبرى افتراض أن الجسم يوجد وأنه عظم قابل للقسم إلى ما لا نهاية، وأنه من الممكن تحقيق هذه القسم. فماذا يبقى في الواقع في الجسم الذي يمكن أن يخلص من قسمه كهذه؟ فإذا افترض أن شيئاً قابلاً للقسم مطلقاً وأنه يمكن حقيقة قسمته هكذا فلا يكون من المحال في شيء أنه أمكن قسمته مطلقاً مع أنه لم يقسم في الواقع ولا أنه قد قسم فعلاً. والأمر كذلك إذن فيما إذا يقسم الشيء بالنصف. وعلى العموم لو أن شيئاً قابلاً بالطبع للقسم إلى اللانهاية قد قسم لما كان ذلك محالاً البتة. كما لا يكون محالاً أن يفترض إمكان قسمته عشرة آلاف مرة مضروبة في عشرة آلاف مع أنه لا أحد يستطيع المجاوزة بالقسم إلى هذا الحد.

١١- ما دام الجسم معتبراً أنه حائز لهذه الخاصة فلنسلم أنه يمكن قسمته مطلقاً على هذا النحو. ولكن إذا ماذا يبقى بعد هذه التقاسيم؟ هل سيكون عظمًا؟ لكن ذلك غير

= وهذا يناقض تمامًا نظرية المثل - ما يلي من هذه المناقشة سيبين لنا.... بأوضح من ذلك - يشعر أرسطو نفسه بأنه لم يقل هنا قدر الكفاية ليكون شيئاً تمامًا. يدافع فيلوبون عن أفلاطون ضد أرسطو الذي لم يحصل جيداً فكرة أستاذه. ويظن فيلوبون أن هذه النظرية قد يمكن أنها موجودة على الأكثر في مذاهب أفلاطون غير المكتوبة.

١٠- من الصعوبة الكبرى - كل المعنى في هذه الفقرة غامض. وإليكها بأبسط عبارة: «من الصعب أن يفهم أن الجسم يمكن أن يقبل القسم إلى ما لا نهاية وأن لا توجد فيه الأجزاء التي لا تتجزأ. لأن هذه القسم تفني الجسم عن آخره ولا يبقى منه شيء - وبذلك يوصل إلى أن الجسم مؤلف من مجرد نقط ليس لها أبعاد أصلاً» - وإنه من الممكن تحقيق هذه القسم - عبارة النص أقل من ذلك ضبطاً. - الذي يمكن أن يخلص من قسمه كهذه - لأنها ستعدم نهائيًا كل ما تتركب منه الجسم. - فلا يكون من المحال - هذا فرض يمكن دائماً فرضه ولا يلزم عليه شيء من المحال. - إذ يقسم الشيء بالنصف - يعني إذا قسم دائماً إلى اثنين كل ما يبقى من الشيء في التقسيم المتتابع أو إذا قسم إلى أجزاء غير متساوية، بكلتا الطريقتين يوصل إلى إعدامه كله بهذا التقسيم غير المتناهي. - المجاوزة بالقسم إلى هذا الحد - لعدم كفاية الآلات التي يستعملها الإنسان.

١١- معتبراً أنه حائز لهذه الخاصة - عبارة النص أقل ضبطاً من هذا التعبير - ماذا يبقى - تكرار للمسألة الموضوعة في الفقرة =

ممكّن لأنه إذن يوجد شيء آخر من عملية التقسيم وكان الفرض، على الضد، أن الجسم قابل للقسمّة من غير أي حد ومطلقًا. ولكنه إذا لم يبق جسم ولا عظم وظلت القسمّة مستمرة فإما أن القسمّة لا تقع إلا على نقط وإذن تصير العناصر التي تركب الجسم عديمة العظم وإما ألا يبقى هناك شيء أصلًا.

١٢ - ينتج من ذلك أنه سواء أكان الجسم يأتي من لا شيء أم يؤلف من أجزاء فالأمر على الحالين تصوير الكل إلى ألا يكون إلا ظاهرًا. حتى مع التسليم بأن الجسم يمكن أن يأتي من نقط فلا يكون هناك أيضًا كم. وفي الواقع لو أن هذه النقط كانت تتماس لتؤلف عظمًا واحدًا وأن العظم كان واحدًا وأنها كلها فيه فإن جميع هذه النقط المجتمعة ما كانت لتجعل الكل أكبر لأن الكل بانقسامه إلى نقطتين أو عدة لا يكون لا أكبر ولا أصغر من ذي قبل، بحيث إنه مهما جمع من تلك النقط فلا يمكن الوصول أبدًا إلى تأليف عظم حقيقي منها.

١٣ - إذا قيل إنه يوصل بالقسمّة إلى ألا يحصل منها إلا كنشارة الجسم فحتى على هذا

= الماضية. - بعد هذه التقاسيم - زدت هذه الكلمات لبيان الفكرة قليلا. عظمًا - يكون أيضًا قابلاً للقسمّة. - من غير أي حد ومطلقًا - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - عدمية العظم لأن النقط الرياضية مفروض أنها لا عظم لها البتة.

١٢ - يأتي من لا شيء - أعني من نقط ليس لها أي امتداد - ألا يكون إلا ظاهرًا - تلك هي النتيجة التي استنتجها السفسطائيون من مذهب ديمقريطس. - بأن الجسم يمكن أن يأتي من نقط - النص ليس بهذه الصراحة. - كم - لأن النقط لا تمثل كمية ما. - لا أكبر ولا أصغر من ذي قبل - مهما كان عدد نقط القسمّة - عظم حقيقي - أضفت لفظ حقيقي.

١٣ - كنشارة الجسم - عبارة الأصل دقيقة ويظهر أن الفكرة غامضة ولو أنها في الحقيقة واضحة. فإن أرسطو يفرض أنه يراد إثبات وجود الذرات وأن قسمّة الجسم لا يمكن أن تتمشى إلى اللانهاية. فإذا وصل بالتقسيم الممكن غاية الإمكان إلى تصوير الجسم مسحوقًا كنشارة الخشب عند قطعه ولكن قطع النشارة مهما دق حجمها فإن لها امتدادًا وترجع المسألة بالنسبة لهذه الأجسام الصغيرة إلى ما كانت عليه بالنسبة للجسم الذي كانت تؤلفه باجتماعها من قبل. - عظم أيا كان - فإن قطع النشارة مهما صغر حجمها لها دائمًا عظم قابل للتقدير. - في دوره - زدت هاتين الكلمتين. - إن ما انفصل - أي بالقسمّة البالغة أقصى حد لها. - قابلة للانفصال - قال فيلوبون إن في هذا رواية أخرى وإن في بعض النسخ المخطوطة عبارة "غير قابلة للانفصال" بدل عبارة "قابلة للانفصال" والسياق يقتضي على الظاهر أوفالية العبارة الأخيرة. ومع ذلك فإن فيلوبون يفضل معنى عبارة "غير قابلة للانفصال" لأن الصورة في الواقع غير قابلة للانفصال عن الجسم بمعنى أنها تنعدم بانعدامه ولا يمكن أن تكون شيئًا بدونه. ولقد أثبت في ترجمتي عبارة الرواية المشهورة ولكن الأخرى هي مناسبة أيضًا. - إلى نقط وإلى تماسات - نظريات أبطلت آنفًا. - أشياء ليست أعظمًا - ما دام أن النقط والتماسات لا يمكن أن يكون لها على ما هو المفروض أي امتداد إلى أي جهة ما.

الفرض لا بد من أن الجسم يأتي من عظم أيًا كان وتبقى المسألة كما كانت وهي كيف أن هذا الجسم الأخير قابل للقسمة في دوره. فإذا قيل إن ما انفصل ليس جسمًا بل هو صورة ما قابلة للانفصال أو خاصة ما فينتج من ذلك أن العظم يتحول إلى نقط وإلى تماسات محولة بهذه الطريقة. وإذن يكون من غير المعقول الاعتقاد بأن العظم يمكن أبدًا أن يأتي من أشياء ليست أعظامًا.

١٤ - ولكن فوق ذلك في أي مكان تكون هذه النقط سواء افترضت عديمة الحركة أم افترضت متحركة؟ أنه لا يوجد أبدًا إلا تماس واحد بين شيئين فلا بد أيضًا من افتراض أنه يوجد شيء ليس هو التماس ولا القسمة ولا النقطة.

لو قيل إذن إن كل جسم أيًا كان مهما كان امتداده يمكن دائمًا أن يقبل القسمة مطلقًا لكانت تلك هي النتائج التي يوصل إليها.

١٥ - من جهة أخرى إذا أمكنني بعد القسمة أن أركب الخشب الذي نشرته أو أي مادة أخرى بأن أعيد إليها وحدتها الأولى وأن أجعلها مثل ما كانت تمامًا فمن الواضح أنني أستطيع أن أفعل ذلك في أي نقطة بلغتها في كسري الخشب. إذن فبالقوة الجسم قابل دائمًا للقسمة مطلقًا وبدون حد. ماذا يوجد إذن هنا خارجًا عن القسمة وبمعزل عنها إذا قيل إنها خاصة للجسم؟ يمكن دائمًا أن يسأل كيف أن الجسم يتحلل إلى خواص من هذا القبيل وكيف يمكن أن يتألف منها وكيف أن هذه الخواص يمكن أن تنفصل عن الجسم.

١٤ - في أي مكان - يعني: "في أي جزء من الجسم؟" - افترضت متحركة - كما يفعل الرياضيون إذ يسلمون بأن النقطة متى تحركت أحدثت خطأ كما أن الخط يحدث السطح والسطح الجسم. وقد نبه فيلوبون إلى أنه يمكن إعطاء هذه الجملة صورة الاستفهام أو صورة الإيجاب على السواء. - أنه يوجد شيء - يعني الجزأين الماديين اللذين يتماسان أو أنهما متقاسمان في نقطة تفصلهما. - لو قيل إذا - ر. ما سبق في ١٠ هذا هو ملخص القسم الأول من كل هذه المناقشة. فإنه إذا لم تقبل الذرات وقبل القول بأن كل جسم قابل للقسمة مطلقًا فتلك هي النتائج غير المعقولة التي تؤدي إليها هذه النظرية. فيستنتج من هذا مع ديمقريطس حقيقة نظرية الذرات. ومع ذلك فإن هذا المخلص يمكن أن يظهر أنه سابق لوقته.

١٥ - من جهة أخرى - برهان جديد لإيضاح وجود الذرات. - مثل ما كانت تمامًا يظهر أن هذا مناقض لما قيل سابقًا في ١٣ - في أي نقطة بلغتها في كسري الخشب - وعدد النقط يمكن ألا يتناهي ما دامت النقط مفروضة أنها عديمة الامتداد - فبالقوة - إن لم يكن بالفعل لعل واحدة هي عدم كفاية الآلات التي يستخدمها الإنسان. - خارجًا عن القسمة وبمعزل عنها - لا يوجد في النص إلا كلمة واحدة لهذا المعنى. - إلى خواص من هذا القبيل - تكرير لما قيل آنفًا في ١٣.

١٦- إذا كان إذن محالاً أن العظام تتكون من مجرد تماسات أو نقط فإنه يلزم ضرورة أن يوجد أجسام وأعظام لا تتجزأ. ولكن هذا الافتراض عينه للذرات يخلق محالاً لا يمكن تخطيه، ولو أن هذه المسألة قد فحصت في غير هذا الموضع، إلا أنه يلزم أن يحاول حلها هنا أيضاً. وللوصول إلى ذلك يلزم أخذها من جديد بتمامها من البداية.

١٧- نقول إذن بادئ بدء إنه ليس من غير المعقول في شيء تقرير أن كل جسم محسوس هو معاً قابل للقسمة وغير قابل للقسمة في نقطة ما دام أنه يمكن أن يكون قابلاً للقسمة بالقوة المجردة وغير قابل للقسمة بالفعل. ولكن الذي يظهر أنه محال تماماً هو أن جسمًا يكون قابلاً للقسمة وغير قابل لها معاً بالقوة لأنه إذا كان ذلك ممكنًا فلا يكون أبدًا بهذا الوجه أن الجسم يجمع بين الخاصيتين بأن يكون غير قابل للقسمة وقابلًا لها معاً بالفعل. بل إنه يكون فقط قابلاً للقسمة بالفعل في نقطة ما. وإذن لا يبقى منه شيء مطلقاً ويتحول الجسم إلى شيء غير جسماني. ومع التسليم بأنه يمكنه أن يكون ثانيةً أما بأن يأتي من النقط أو أن لا يأتي من شيء أبدًا على الإطلاق فكيف يصير كون الجسم من جديد ممكنًا.

١٦- إذا كان إذن- تلخيص لتأييد نظرية ديمقريطس.- أجسام وأعظام لا تتجزأ- أو بعبارة أخرى ذرات كما كان يقرره ديمقريطس. للذرات- أضفت هذه الكلمة لزيادة البيان.- غير هذا الموضوع- ر. كتاب السماء ٣ ب؛ ٤ ف ه وراجع كتاب الطبيعة في مواطن عدة حيث نظرية الذرات ملمع إليها لمعاً لا مبنية بياناً وضعياً. ويستشهد فيلوبون على الأخص بالكتاب السابع من الطبيعة حيث لا أجد فيه أنا شيئاً من هذا القبيل. ويستشهد أيضاً برسالة الخطوط غير المنقسمة التي ينسبها إلى تيوفراست بدلاً من أرسطو اتباعاً لرأى بعض المؤلفين.

١٧- معاً قابل للقسمة وغير قابل لها- بالفعل هذا محال ولكن يمكن أن أحدهما إمكان مجرد والأخرى قسمة بالفعل. وإذن فالجسم في الذهن قابل للقسمة إلى اللانهاية. ولكن في الخارج تقف القسمة عند حد بسرعة- قابل للقسمة بالقوة المجردة وغير قابل لها بالفعل- عبارة النص أقل ضبطاً.- يكون قابلاً للقسمة وغير قابل لها معاً بالقوة- يعنى منقسمًا وغير منقسم في آن واحد بالقوة. وعلى رغم تفسير فيلوبون ومجهوداتي فإن هذه النقطة فيها من الغموض ما لم أستطع أن أزيله بالمرّة. وإليك البيان الذي يمكن فهمها به: « إن جسمًا لا يمكن أن يكون معاً قابلاً وغير قابل للقسمة حتى بمجرد القوة لأنه إذا كان كذلك بالقوة كان كذلك أيضاً بالفعل. وهاتان القابليتان في الخارج لا يجتمعان مطلقاً. فكل الذي يمكن حقيقة هو أن الجسم يكون قابلاً للقسمة في نقطة ما. وهذا لا يفيد أنه قابل للقسمة مطلقاً لأنه حينئذ لا يبقى بعد القسمة شيء أصلاً ويتحول الجسم إذن إلى شيء غير جسماني.- الجسم غير جسماني- هذا التقابل موجود بلفظه في النص.- من النقط- التي هي ليست محسوسة ما دامت مفروضة عديمة الامتداد.- من شيء أبدًا على الإطلاق- أو ربما كان "من العدم. من لا شيء." - كون الجسم من جديد- عبارة النص ليست بهذا الضبط.

١٨- أما ما هو بين فهو أن الجسم ينقسم بالفعل إلى أجزاء متميزة ومنفصلة وإلى أعظام أصغر فأصغر دائماً تتباعد بعضها عن بعض وتنعزل. ولكن من المحقق أيضاً أن هذه التجزئة البعضية لا يمكن أن يجاوز بها إلى اللانهاية وأنه ليس من الممكن أيضاً قسمة الجسم في أي نقطة ما لأن هذه القسمة غير المحدودة ليست ممكنة الإجراء ولا يمكن أن تتمشى إلى حد معين.

١٩- يلزم إذن أن توجد ذرات أو أعظام لا تتجزأ خصوصاً إذا سلم أن كون الأشياء وفسادها يحصلان أحدهما بالتفرق والآخر بالاجتماع، ذلك هو الاستدلال الذي يظهر أنه يبين ضرورة وجود الأعظام غير القابلة للقسمة أو الذرات. ونحن نتكفل بإثبات أن هذا الاستدلال يرتكز من حيث لا يشعر على سفسطة مستورة بستار سنكشفه عنها.

٢٠- كما أن النقطة لا تتصل بالنقطة فقابلية القسمة المطلقة تكون من جهة متعلقة بالأعظام ومن جهة أخرى غير متعلقة بها. ومن يسلم بهذه النظرية يظهر أن يسلم أيضاً بأنه لا يوجد بعد إلا النقطة التي هي في كل مكان وفي كل اتجاه. وبنتيجة ضرورية فإن العظم بالتجزئة يصير لا شيء لأن النقطة ما دامت في كل مكان فالجسم لا يمكن أن يتركها إلا من التماسات أو من النقط.

١٨- ينقسم بالفعل - أضفت هذه الكلمة الأخيرة لبيان المعنى تماماً. - أصغر فأصغر دائماً - على حسب المادة التي هو موضوع القسمة والآلات التي تستخدم لذلك. - تتباعد - هذه عبارة النص وربما كانت غير مناسبة. - وتنعزل بعد عملية القسمة. - التجزئة - أو التصغير أي تصيير الشيء إلى أجزاء دقيقة ثم إلى أدق منها وهكذا. - إلا إلى حد معين - في الخارج مع أنها في الذهن ممكنة إلى ما لا نهاية.

١٩- يلزم إذن - حيثما لا يؤخذ إلا بالظواهر المحسوسة القابلة للملاحظة يكون مذهب الذرات مذهباً حقاً جداً. لأن التجزئة في الواقع يجب أن تقف عاجلاً ثم تصادف على ما يظهر عقبة كؤوداً في الجزئيات التي لا تستطيع أن تنالها التجزئة - بالتفرق لعناصر لا تقبل النقص أو الزوال. وبالاجتماع - بين هذه العناصر بعينها. - بالذرات - أضفت هذه الكلمة لأن الذرات غير قابلة للقسمة كما يدل عليه اسمها وفوق ذلك فإنها غير قابلة للقسمة بالنسبة لنا بسبب دقتها - ونحن نتكفل - عبارة النص أقل ضبطاً من هذا ولكني أردت بهذا التعبير تأدية معنى الحدة التي استعملها المؤلف في عبارته. - سنكشفه عنها - إن البيان الآتي قد يبين عليه عدم مطابقته تمام المطابقة لهذا الوعد.

٢٠- لا تتصل بالنقطة - ما دامت النقط معتبراً أن ليس لها أقل امتداد. - ومن يسلم بهذه النظرية - التي هي أن الجسم قابل للقسمة مطلقاً. بالتجزئة - في النقط التي يقال إنه مركب منها. - إلا من التماسات أو النقط - وما سبق ف ١٦.

٢١- وحينئذ فمعنى هذا هو الرجوع إلى القول بأن الجسم قابل للقسمة مطلقاً ما دام يوجد في كل محل نقطة ما وأن كل النقط مجتمعة هي ككل واحدة منها على حدة وأنه في الواقع لا يوجد أكثر من واحدة لأن النقط ليست متتابعة بعضها لبعض. والنتيجة أيضاً أن الجسم ليس قابلاً للقسمة مطلقاً. لأنه إذا كان الجسم قابلاً للقسمة في وسطه فإنه يكون قابلاً لها في النقطة التي تتصل بهذا الوسط. ولكن الآن غير متصل بالآن كما أن النقطة لا تتصل بالنقطة. على أنه في هذا تنحصر قسمة الأجسام وتركيبها بحيث إنه يوجد أيضاً اجتماع وافتراق للأجزاء. ولكن الجسم مع ذلك لا يتحول إلى ذرات وأنه لا يأتي من ذرات. تلك النظرية التي تشمل صعوبات عديدة لا يمكن حلها. كذلك لا يمكن أن يتركب الجسم بطريقة بها تكون التجزئة ممكنة لا إلى حد ما. فإذا كانت النقطة تتبع في الواقع النقطة كان الأمر كذلك ولكن الجسم ينحل إلى أجزاء متدرجة في الصغر وأن الاتحاد حصل بين أصغر الأجزاء.

٢٢- الكون المطلق الكامل للأشياء لا يقصر كما زعموا على اجتماع العناصر وتفرقها، كما أن الاستحالة ليست مجرد تغير في الكتلة. بل ذلك خطأ تام يقع فيه كل الناس. ونكرر مرة أخرى أنه لا يوجد كون وفساد مطلقان للأشياء باجتماع العناصر وافتراقها، إنما يوجدان فقط متى يتغير شيء بأكمله عند ما يأتي من شيء آخر بعينه.

٢١- بأن الجسم قابل للقسمة مطلقاً- هذا هو المعنى الذي اتخذته فيلوبون وهو مع ذلك يجد أن المعنى ليس واضحاً على قدر الكفاية. وأن هذه المناقشة كلها هي في غاية الاضطراب ومن الصعب الوقوف فيها على الفكرة الحقيقية للمؤلف. - يوجد في كل محل نقطة ما- يعني أن التجزئة يمكن أن تحصل في أي نقطة كيفما اتفق. - لا يوجد أكثر من واحدة- في الواقع إنه يوجد من النقطة بقدر ما يراود ولكنها كلها متشابهة فلا يمكن أبداً أن يؤخذ منها في الدفعة الواحدة إلا نقطة واحدة. والنتيجة أيضاً- النص ليس كذلك من حيث ضبط العبارة ولكنني اضطررت إلى زيادة الضبط لأوفق بينه وبين الترديد المذكور في الفقرة السابقة- الآن..... النقطة- الكلمتان المقابلتان لهما في النص اليوناني أكثر تقارباً بينهما من الكلمتين اللتين اضطررت لاستعمالهما في الترجمة. - للأجزاء- ممكنة لا إلى حد ما- وذلك يهدم مذهب الذرات. على هذا يكون أرسطو يرفض الكل ويقل هذا المذهب لأنه يجد من كل ناحية صعوبات لا يمكن التغلب عليها. - فإذا كانت النقطة تتبع في الواقع النقطة- هذا يظهر عليه أنه تذييل دسه في النص بعض المفسرين.

٢٢- الكون- كل آخر هذا الباب هو استطراد يبعد المؤلف به شيئاً فشيئاً عن الفكرة التي كان يظهر عليه أول الأمر متابعة القول فيها. - اجتماع العناصر وتفرقها- لأن العناصر حينئذ هي أسبق من المركب الذي يتركب منها. - عندما يأتي من شيء آخر بعينه. - عبارة النص ليست محكمة فإن هناك أيضاً لا يوجد كون بالمعنى الخاص.

٢٣- وقد يظن أيضًا أن الاستحالة هي تغير ما من هذا القبيل ولكن ها هنا فرقًا عظيمًا. فإن في الموضوع جزءًا يرجع إلى الكنه وجزءًا يرجع إلى المادة، فمتى فقط حصل التغير في هذين الأمرين فهناك حقًا كون وفساد. ولا يكون إلا مجرد استحالة متى حصل التغير في الخواص والكيوف العارضة للشيء.

٢٤- فما هو إلا بافتراق الأشياء وباجتماعها أنها تصير قابلة للفساد بسهولة. مثال ذلك متى تجزأ الماء إلى نقيطات صغيرات تتحول بأسرع ما يكون إلى هواء، في حين أنها إذا بقيت كتلة تصير هواء بأبطأ من ذلك.

٢٥- على أن هذا سيتضح فيما يلي. ولكن ها هنا أردنا فقط إثبات أن من المحال أن يكون كون الأشياء مجرد تأليف كما زعم بعض الفلاسفة.

٢٣- الاستحالة- الاستطراد مستمر. عظيمًا- أضفت هذه الكلمة.- في الموضوع أو في الشيء.- إلى الكنه- الحد والماهية.- هذين الشئين- أضفت علامة التثنية وصيغة النص صيغة جمع.- حقًا- أضفت هذه الكلمة.

٢٤- فما هو إلا بافتراق الأشياء وباجتماعها. ر ما سبق في آخر الفقرة ٢٢- متى تجزأ الماء- المشاهدة صحيحة وقد حصلت من زمان بعيد لأن هذه الظاهرة تقع تحت النظر في غالب الأحيان (الميتروولوجيا ك ٢ ب ٢ ف ١٨ من ترجمتي).- تتحول بأسرع ما يكون إلى هواء- أو بعبارة أخرى تتبخّر.

٢٥- على أن هذا سيتضح فيما يلي- ذلك بأن المؤلف نفسه أحس أنه لم يكن دائمًا مبيّنًا بقدر ما يطلب منه.- مجرد تأليف- سواء أكان اجتماعًا أم افتراقًا. راجع ما سبق ف ١٩.

الباب الثالث

فى الكون المطلق وفى فساد الأشياء - صعوبة هذه المسألة - الكون والفساد الإضافيان - النمط الذى يتخذ فى هذا البحث - شواهد من كتاب الحركة - أبدية الكائنات وتعاقبها المستمر - تبادل الكون والفساد - تمييز لفظي مهم - استشهاد برمينيد - الفرق بين الكون المطلق والكون الإضافي - فروق الفساد باعتبار هذين الوصفين - الرأي العامي فى هذا الموضوع فى أن شهاد الحواس تعطى أكثر مما تستحق - توضيحات مختلفة - طريقة فهم أبدية الظواهر .

١ - متى تقرر هذا يلزم البحث أولاً فيما إذا كان يوجد فى الواقع شيء يولد ويموت بطريقة مطلقة أو ما إذا كان لا يوجد شيء يولد ويموت بالمعنى الخاص . وفى هذه الحالة يلزم فحص ما إذا كان أي شيء ما لا يأتي دائماً من شيء آخر هو يخرج منه : مثال ذلك من المريض يأتي الصحيح ومن الصحيح يأتي المريض أو كالصغير يأتي من الكبير والكبير يأتي من الصغير وكل الأشياء بلا استثناء (تكون) بهذه الطريقة عينها . إذا سلم بكون مطلق

١ - بطريقة مطلقة - أعني من غير أن يوجد شيء يسبقه ومنه يمكن أن يخرج - بالمعنى الخاص - يعني بالمعنى المطلق للكلمة . - وفى هذه الحالة - يعني فى حالة افتراض أن لا يوجد كون مطلق . وأن الموجود الكائن يخرج دائماً من موجود سابق عليه . وقد قطعت الجملة لأنها فى النص قد طالت أكثر مما يلزم . من المريض يأتي الصحيح - بمعنى أن الموجود المريض يرجع صحيحاً . أو بالعكس يصير الصحيح مريضاً . فالموجود إذن لا يكون بالمعنى الخاص . بل هو فقط يتغير حاله ويمر بكيفيات مختلفة . ولكنه كائن أولاً ومن قبل أن يلحقه التغير . - يكون مطلق - يعنى أن الشيء الذى لم يكن من قبل قد وجد وهو يخرج من العدم حيث كان فيه قبل الوجود . - من اللاوجود من العدم - ليس فى النص إلا كلمة واحدة وعلى هذا المعنى يقال عن شيء ما أنه مغمور فى العدم وأن «العدم يتعلق ببعض الموجودات» كما هي عبارة النص . ولقد يظهر على العبارة صورة التناقض على أنها صادقة . - الأبيض يمكن أن يأتي من اللاأبيض - أعني أن شيئاً لم يكن أبيض يمكن أن يصير أبيض . وليس ذلك هو الكون بالمعنى الخاص بل هو مجرد تغير أو مجرد استحالة . - الكون المطلق يأتي من اللاوجود المطلق - يعني أن شيئاً يكون بعد أن لم يكن ، خارجاً من العدم الذى كان فيه .

يلزم حينئذ أن الموجود يأتي مطلقاً من اللاوجود، أي من العدم، بحيث يحق التأكيد بأن العدم يتعلق ببعض الموجودات. والكون الإضافي يمكن أن يأتي من لا موجود إضافي. ومثال ذلك الأبيض يمكن أن يأتي من اللاأبيض أو الجميل يأتي من اللاجميل. لكن الكون المطلق يجب أن يأتي من اللاوجود المطلق.

٢- حينئذ المطلق ها هنا يدل إما على الأولي في كل مقولة للموجود وإما على الكل، أعني الذي يشمل ويحوي كل شيء. فإذا كان الأولي هو مدلول المطلق فهناك كون للجهورات مما هو ليس بجوهر. ولكن ما ليس له جوهرية وما ليس ألبتة شيئاً معيناً بذاته لا يمكنه بالبداية أن يكون لأي واحدة أخرى من المقولات كالكيف والكم والأين..... إلخ؛ لأنه حينئذ يكون معناه التسليم بأن كيوف الجواهر يمكن أن تنفصل عنها. فإذا كان اللاوجود هو بصورة عامة مدلول المطلق فذلك هو النفي الكلي لجميع الأشياء، وعلى ذلك فما يولد وما يكون يلزم ضرورة أن يولد من لا شيء.

٣- على أننا قد تكلمنا على هذا الموضوع في موضع آخر وبحثناه بأطول من ذلك، ولكننا نلخص هاهنا فكرتنا ونقول في قليل من الكلمات إنه من وجه يمكن أن يوجد

٢- حينئذ المطلق هاهنا يدل إما على الأولي - المطلق يظهر أنه لا يمكن استعماله في هذا المعنى الضيق ولكن هذا هنا هو مجرد تمييز لفظي كله تحكم. في كل مقولة للموجود - يعني في جميع المقولات إلا في مقولة الجوهر فإن الأولي هو الحد الأعلى وعلى ذلك - ففي مقولة كيف ليس المقصود واحدة من الكيوف الخاصة بل هو: كيف نفسه. - وإما على الكل - يعني الجوهر وإلى هذا المعنى ينصرف عادة لفظ المطلق. - يشمل ويحوي كل شيء - ليس في النص إلا كلمة واحدة. ومعنى ذلك أنه يلزم أولاً أن يوجد الشيء حتى يمكن بعد أن يوصف بأي كيف اتفق. - فإذا كان الأولي هو مدلول المطلق - أضفت الكلمات الثلاثة الأخيرة لجعل الفكرة أكثر ضبطاً وجلاء. - فهناك كون للجوهر - التعبير لا يظهر أنه على ما ينبغي. فإن المقصود ليس هو الجوهر بالضبط بل هو مجرد وجود مكيف تبعاً لكل مقولة فإن شيئاً يصير أبيض بعد أن لم يكن أبيض من قبل. - إلخ - وضعت هذه الكلمة للدلالة على أن جميع المقولات ليست المذكورة هنا. - كيوف - عبارة النص أعراض. مدلول المطلق - رأيت من الواجب تكرير هذه العبارة لتكميل النص. - النفي الكلي لجميع الأشياء - ولعل أحسن من ذلك أن يقال: "النفي الكلي لجميع المقولات" بما فيها مقولة الجوهر.؟ - ما يولد وما يكون - ليس في النص إلا أحد الفعلين.

٣- في موضع آخر - يعني في الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ف ١ وما يليها ص ٤٧٣ من ترجمتنا كما نبه إليه فيلوبون. - آت من العدم من اللاوجود - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - لا شيء يمكن أبداً أن يأتي - ليست عبارة النص بهذا القدر من البيان. - ما هو بمجرد القوة - الممكن ليس موجوداً على التحقيق ولكنه يكفي إمكان وجوده لأجل أن يكون له وجود بنوع ما. - على الوجهين اللذين بينهما - زد هاتين الكلمتين الأخيرتين، وبعبارة أخرى الممكن كائن وغير كائن معاً.

كون مطلق لشيء آت من العدم اللاوجود. ومن وجه آخر لا شيء يمكن أبد أن يأتي إلا مما هو موجود. ذلك في الحق أن ما هو بمجرد القوة وليس بالفعل يجب أن يكون أولاً وبالضرورة على الوجهين اللذين بينهما آنفاً ولكنه لا بد مع ذلك من العناية الكبرى في فحص هذه المسألة التي يمكن أن تدهشنا صعوبتها حق بعد الإيضاحات التي أسلفناها. وتلك المسألة هي كيف أن الكون المطلق يحصل سواء كان يأتي مما هو بالقوة أم يأتي بأي وجه آخر.

٤- يمكن البحث في الحق فيما إذا كان يوجد فقط كون للجوهر ولشيء معين بالفعل أو ما إذا كان لا يوجد أيضاً كون للكيف وللکم وللأين.... إلخ. وهذه الأسئلة عينها توجه على السواء بالنسبة إلى الفساد - وإنه إذا كان بالفعل شيء يكون أو يولد فمن الواضح أنه يجب وجود جوهر ما بالقوة على الأقل إن لم يكن بالفعل وبالكمال منه يخرج كون الشيء وفيه يتغير بالضرورة متى فسد.

٥- هل من الممكن أن واحدة من المقولات الأخرى التي هي بالفعل وبالكمال المحض تتعلق بهذا الموجود بالقوة؟ أو بعبارة أخرى هل يكن تطبيق معاني الكيف والکم والأين على هذا الذي ليس شيئاً إلا بالقوة وبالقوة فقط بدون أن يكون شيئاً بذاته بطريقة مطلقة حتى ولا أن يكون مطلقاً أبداً؟ لأنه إذا كان هذا الموجود ليس أي شيء بالفعل ولكنه كل الأشياء بالقوة فإن الوجود المفهوم على هذا النحو، يمكن أن يكون

٤- إذا كان يوجد قط- أضفت الكلمة الأخيرة. - كون للجوهر- ويمكن ترجمتها بهذه العبارة «إذا كان الكون يتعلق بالجوهر». - بالنسبة إلى الفساد- الذي هو ضد الكون. أفلا يوجد كون وفساد إلا في مقولة الجوهر؟ أين يوجدان أيضاً في المقولات الأخرى. - بالفعل - زدت هذه الكلمة. - جوهر ما- كلمة جوهر بعينها موجودة في النص ولكن يظهر أن الجوهر يجب دائماً أن يكون بالفعل لا أن يكون ممكنًا مجرد إمكان - بالفعل وبالكمال- ليس في النص إلا كلمة واحدة.

٥- واحدة من المقولات الأخرى- يعنى إحدى المقولات الأخرى غير مقولة الجوهر. - بهذا الموجود بالقوة- النص ليس بهذا الوضوح. - والأين- أو أي مقولة أخرى. - ذا وجود منفصل- وهذا تناقض. - التي هابها الفلاسفة أكثر من كل شيء- الفلاسفة الذين لم يستطيعوا أبداً أن يقبلوا بأي صورة معنى العدم. من العدم المحض- عبارة النص بالضبط هي «من العدم السابق الوجود». - كائن حقيقي- يمكن أن يضاف «متميز» فإذا كان الممكن ليس جوهرًا أفيقال إنه واحدة أخرى من المقولات. - المذكورة - آنفاً- كما قلنا آنفاً- ر ف ٢.

ذا وجود منفصل وحينئذ يوصل إلى هذه النتيجة التي هابها الفلاسفة الأولون أكثر من كل شيء وهي إيجاد الأشياء من العدم المحض ولكنه إذا لم يسلم أن هذا يكون موجوداً حقيقياً أو جوهراً وأنه شيء آخر من المقولات المذكورة فحينئذ يفرض كما قلنا آنفاً إن الكيفيات والأعراض يمكن أن تكون منفصلة عن الجواهر.

٦- تلك هي النظريات التي يلزم مناقشتها هنا بالقدر المناسب كما أنه يلزمنا البحث عما هي العلة التي تجعل كون الموجودات أبدياً سواء الكون المطلق أو الكون البعضى. ما دام لا يوجد على رأينا إلا علة واحدة أو حد منها ينبعث مبدأ الحركة وما دام لا يوجد أيضاً إلا مادة واحدة أو حد يلزم إيضاح ما هي هذه العلة.

٧- ولكننا سبق بنا أن تكلمنا عليها في كتابنا «الحركة» إذ قرنا فيه أنه يوجد من جهة شيء غير متحرك طول الأبد كله ومن جهة أخرى شيء على ضد ذلك واقع في حركة أبدية. فدراسة المبدأ غير المتحرك للأشياء تتعلق بفلسفة أخرى عليا. وأما المحرك الذي يحرك كل البقية، لأنه هو نفسه قد حرك بحركة مستمرة، فاننا سنتكلم عليه فيما بعد عندما نوضح ما هي علة كل واحدة من الظواهر الخاصة. وهنا نقتصر على علاج هذه العلة التي تظهر بصورة مادة والتي تجعل أن كون الأشياء وفسادها لا يتخلفان في الطبيعة. ولكن هذه المناقشة قد تجلو أيضاً الشك الذي أثارناه آنفاً وسيرى كيف ينبغي أن يعنى أيضاً

٦- بالقدر المناسب- لهذا الموضوع الخاص الذي ندرسه في هذا الكتاب.- العلة التي تجعل كل الموجودات أبدياً- ليس هذا شيئاً آخر إلا الإسناد إلى الله الذي هو خالق الأشياء وحافظها كما هو مبين بعد. - سواء الكون المطلق- يعنى الذي يخرج الأشياء من العدم. - أو الكون البعضى- يعنى كون الكيفيات المتعاقبة على الأشياء. علة واحدة أوحد- هي المحرك الذي لا يتحرك. - مادة واحدة أوحد- فيها يفعل المحرك الأول. ما هي هذه العلة- ها هنا عبارة النص ينقصها قليل من الجلاء، لأن السياق يقتضى علتين لا علة واحدة وهما علة فاعلة وعلة مادية.

٧- في كتابنا «الحركة» هذا العنوان يدل على كتاب الطبيعة.- إذا قرنا فيه- ر. الطبيعة ك ٨ ب ٣ ف ٢ من ترجمتنا. ر. أيضاً أوائل كتاب الطبيعة والتحقيق الخاص للعنوانات المختلفة لهذا الكتاب. - بفلسفة أخرى عليا- يعنى ما بعد الطبيعة. ر. الكتاب السابع من ترجمة كوزان.- سنتكلم عليه فيما بعد - ر. الباب العاشر من الكتاب الثاني من هذا المؤلف. -الظواهر - أو الكائنات.- العلة التي تظهر بصورة مادة يعنى العلة المادية.- لا يتخلفان- هذا هو التعاقب الأبدى للكائنات. ولكن في مذهب أرسطو لما أن العالم ليس له أول ولا ينبغي أن يكون له آخر فتعاقب الكائنات يجب أن يستمر كما ترى” وهذه المسألة قد بحثت أيضاً في الكتاب الثامن من الطبيعة ب ٧ ف ٤ وفى الكتاب الثالث ب ٥ ف ٤ - بالفساد المطلق وبمطلق كون الأشياء. - يعنى إمكان أن شيئاً يجيء من العدم ويرجع إليه.

بالفساد المطلق وبمطلق كون الأشياء.

٨- ومع ذلك فإنها مسألة محيرة أن يعرف ماذا عسى أن تكون العلة التي تدبر وتسلسل تناسل الأشياء إذا فرضنا أن ما يفسد يرجع إلى العدم وأن اللاوجود ليس شيئاً لأن ما ليس موجوداً ليس جوهرًا ولا كيفًا ولا كمًّا ولا أينًا إلخ. لأنه حينئذ ما دام في كل آن واحد من الكائنات يبيد وينعدم كيف يتأتى أن العالم بتمامه لم يكن قد فني منذ زمان طويل ألف مرة إذا كان المنبع الذي يأتي منه كل واحد من هذه الكائنات محدودًا ومتناهيًا؟ في الحق إذا كان هذا التوارث الأبدي لا ينقطع ألبتة فليس ذلك بأن ينبوع الذي تصدر منه الكائنات يكون غير متناهٍ لأن ذلك محال تمامًا ما دام أنه في الواقع لا شيء غير متناهٍ. وأنه إنما يكون فقط بالقوة أن شيئًا يمكن أن يكون غير متناهٍ في القسمة. وقد وضحت أن القسمة هي وحدها محل عدم الانقطاع وعدم الفوات لأنه يمكن دائمًا الحصول على كمية أضعف فأضعف. ولكننا هنا لا نرى وجهًا للمشابهة. أفلا تصير أبدية التعاقب ضرورية بهذا السبب وحده أن فساد شيء هو كون شيء آخر وأن العكس بالعكس كون هذا موت ذلك أو فساده؟.

٩- وبهذا تلغى علة يمكنها أن تكفي لتوضيح كل شيء بالنسبة لكون الأشياء وفسادها، هاهنا في عمومها وهناك في كل فرد من الكائنات بخصوصه. على أنه مع هذا يلزم البحث في أنه لماذا عند الكلام على بعض الأشياء يقال بطريقة مطلقة إنها تكون وتهلك في حين أنه عند الكلام على بعض أشياء أخرى لا يقال ذلك على إطلاقه، إذا كان حقًا أن كون

٨- التي تدبر وتسلسل - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - يرجع إلى العدم أو «يذهب إلى العدم». - ليس جوهرًا ولا كيفًا - أعني في أي مقول من المقولات. - ولا أينًا - ليس هنا إلا أربعة مقولات معدودة عوضًا عن عشرة. لذلك وضعت لفظ إلخ. - العالم بتمامه - عبارة النص بالضبط «الكل». - محدودًا ومتناهيًا - ليس في النص إلا كلمة واحدة. هذا التوارث الأبدي - عبارة النص ليست بهذا الوضوح. - وقد وضعنا - ر. الطبيعة نظرية اللانهاية ك ٣ ف ٥. وب ٢ ف ٥. - أضعف فأضعف - ذلك في الحق هو نظرية أرسطو في الطبيعة. ولكن يظهر أنه يمكن أن يكون نمو الأشياء غير متناهٍ وكذلك قسمتها ما دام الموضوع من كل وجه تخيلية محضة. - بهذا السبب وحده أن فساد شيء - هذا الفرض عينه موجود في كتاب الطبيعة ك ٣ ب ١٢ ف ٢ من ترجمتنا.

٩- ها هنا في عمومها - النص ليس بهذه الصراحة. - بطريقة مطلقة - من غير تحديد ولا تقييد من أي نوع.

موجود بعينه هو عين فساد آخر وإذا كان العكس بالعكس فساد هذا هو كون لذلك.

١٠ - هذا التباين في التعبير يقتضي أيضاً أن يفسر ما دام أننا نقول عن كائن في حالة بعينها إنه فسد مطلقاً لا أنه فسد من وجه بعينه فقط، وما دمنّا نصرف الكون إلى معنى مطلق كما نصرف الفساد سواء بسواء. على ذلك فشيء بعينه يصير شيئاً آخر بعينه ولكنه لا يصير على الإطلاق. انظر مثلاً كيف نقول عن شخص يتعلم إنه يصير عالماً ولكننا لا نقول من أجل ذلك إنه يصير ويكون على الإطلاق. وبإدكار ما قلناه غالباً من أن بعض الأسماء تدل على جوهر حقيقي والبعض الآخر لا يدل عليه يمكن معرفة من أين تأتي المسألة المطروحة هنا. لأنه يهم كثيراً أن يعين فيما يتغير الشيء الذي يتغير، مثال ذلك تحول الشيء الذي يصير ناراً يمكن أن يسمى كوناً مطلقاً ولكن أيضاً فساداً للشيء للأرض مثلاً. وكذلك كون الأرض هو بلا شك أيضاً كون، ولكنه ليس كون مطلقاً مع أنه فساد مطلق ومثلاً فساد النار.

١١ - بهذا المعنى كان برمينيد لا يعترف إلا بشيئين في الدنيا الموجود واللاموجود، وهما عنده النار والأرض. على أنه ليس من المهم افتراض هذه العناصر أو عناصر أخرى مشابهة لها لأننا لا نبحث إلا في الطريقة التي بها تحصل الظواهر لا في موضوعها. إذن

١٠ - هذا التباين في التعبير - عبارة النص هي: «هذا» فقط. - أنه فسد مطلقاً - يعني أنه يمر من الوجود إلى اللاموجود بوجه تام وينقطع عن الوجود بعد أن بقي فيه زمناً ما. - من وجه بعينه فقط - يعني مثلاً أن شيئاً يصير أبيض بعد أن كان أسود فإنه لا يتقطع بذلك عن أنه كائن مطلقاً. فقط أنه انقطع عن كونه أبيض. وأنه فسد من حيث أنه أبيض دون أن يفسد حقيقة. - عن شخص يتعلم - وأنه على ذلك لم يكن بعد عالماً ثم يصير إذن عالماً. ولكن لا يمكن أن يقال بوجه مطلق أنه يصير كما لو أنه ومد مثلاً أنه يصير ويكون - ليس في النص إلا كلمة واحدة. ما قلناه غالباً - يمكن أن يراجع كتاب المقولات ب ٤ ف ١. - بعض الأسماء - عبارة النص غير محدودة. - جوهر حقيقي - عبارة النص بالضبط، شيء «معين». - فساد الشيء للأرض مثلاً - يعني أن الأرض يجب أن تفسد لتصبح نار مع التسليم بأن هذا التحول ممكن كما يفترضه برمينيد. - فساد النار - الملاحظة بعينها.

١١ - الموجود واللاموجود - في كتاب الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ هو البارد والحار لا الموجود واللاموجود اللذان اعتبرهما برمينيد العنصرين الأوليين. ومع ذلك فإن البارد والحار هما مرادفان أيضاً في ذلك الكتاب للأرض والنار. - على أنه ليس من المهم - يحس أرسطو هاهنا أن تحول الأرض إلى نار أو النار إلى أرض فرض غريب في بابه. - لا في موضوعها - يعني الموضوع الذي فيه تتحقق الظواهر والذي يمكن أن يكون على السواء الأرض أو النار أو أي جسم آخر كيفما اتفق. فإن الجوهر يمكن أن يتغير ولكن الظاهرة هي دائماً هي بعينها. ومع ذلك فإن أرسطو قد بين عبارته بياناً وضعتاً فيما يلي.

التغيير الذي يوصل الأشياء إلى اللاوجود المطلق إنما هو فساد مطلق وبالعكس ما يوصلها مطلقاً إلى الوجود هو كون مطلق. ولكن مهما كانت الجواهر التي يعتبر فيها الكون والفساد سواء النار أو الأرض أو أي عنصر آخر مشابه فإن الكون والفساد لا يزالان أحدهما للوجود والآخر اللاوجود.

١٢- هذا إذن هو فرق أول في التعبير يمكن تقريره بين الكون والفساد المطلقين وبين الكون والفساد للذين ليسا مطلقين. وفرق آخر يمكن أن يميزها وهو المادة التي يحصلان فيها أياً كانت هذه المادة، فالتى تدل فصولها دلالة أكثر على هذه الحقيقة بعينها أو تلك هي أيضاً أدخل في الجوهرية والتي تدل فصولها دلالة أكثر على العدم هي أدخل في اللاوجود. وعلى ذلك فالحرارة مقولة ما ونوع حقيقي وعلى الضد البرودة فإنها ليست إلا عدماً. وبهذه الفصول بعينها تتميز الأرض والنار.

١٣- عند العامي، إنما يقرر الفرق على الأخص بين الكون وبين الفساد هو أن الواحد مدرك بالحواس وأن الآخر ليس كذلك. فمتى وجد تغير في مادة محسوسة قال العامي إن الشيء يولد ويكون كما يقول إنه يموت ويفسد حينما يتغير إلى مادة غير مرئية. ذلك بأن الناس يعرفون على العموم الوجود واللاوجود تبعاً لما إذا كانوا يحسون الشيء أو لا يحسونه. كما أنهم يعتبرون الموجود ما يعرفونه واللاوجود ما يجهلونه. فحينئذ،

= التغيير الذي يوصل - ليس النص بهذه الصراحة - سواء النار أو الأرض - كما يريد برمينيد - أحدهما للوجود - وهو الكون أو التولد - والآخر للوجود - وهو الفساد أو التلف.

١٢- فرق أول في التعبير - ليست عبارة النص على هذا الضبط - التي يحصلان فيها - أضفت هذه الكلمات لإيضاح الفكرة - هذه الحقيقة بعينها أو تلك - عبارة النص هي بالبساطة "شيء بعينه" - وعلى ذلك فالحرارة مقولة - قد لا يكون هذا المثل مختاراً اختياراً حسناً. فإذا كان البرد هو عدم الحرارة فقد يمكن القول أيضاً بأن الحرارة عدم البرودة. فإن الحرارة والبرودة هما على السواء كيفان أحدهما ضد الآخر - تتميز الأرض والنار - ر. الفقرة السابقة. وعلى حسب تفسير فيلوبون أن النار أدخل في الجوهرية من الأرض. فإنها الإيجاب أو الملكة في حين أن الأرض ليست إلا العدم - ر. آخر الفقرة الآتية.

١٣- الفرق بين الكون وبين الفساد - الترجمة أضبط من النص - فمتى وجد تغير - الترجمة أضبط من النص - يولد ويكون يموت ويفسد - ليس في النص في كلا الطرفين إلا كلمة واحدة - إدراكهم لوجود الأشياء - يعني على حسب أن الأشياء محسوسة أو غير محسوسة أو لا يمكن أن تحس.

الحس هو الذي يؤدي وظيفة العلم. وكما أن الناس لا يدركون حقيقة حياتهم وكونهم إلا لأنهم يحسون أو يمكنهم أن يحسوا، كذلك أيضًا إدراكهم لوجود الأشياء إذ يبحثون عن حقيقتها وما هم بواجديها فيما يقولون.

١٤ - ذلك أن الكون والفساد المطلقين هما متغايران تمامًا تبعًا لاعتبارهما على حسب الرأي العامي أو لاعتبارهما في حقيقتهما الواقعية. إذن الهواء والريح أقل من سواهما في مراتب الوجود من حيث كونهما جسمين إذا كان المرجع في ذلك إلى مجرد شهادة الحواس. ومن أجل ذلك يظن أن الأشياء التي فسدت مطلقًا تفسد بالتحول إلى هذين العنصرين في حين أنه يعتقد أن الأشياء تولد وتكون متى تحولت إلى بعض عناصر يمكن لمسها، أي إلى أرض مثلاً، ولكن في الحق ذانكم العنصران هما جوهر ونوع أكثر من الأرض نفسها.

١٥ - إذن قد وضع ما يدل على أنه يوجد الكون المطلق من حيث كونه فسادًا لشيء والفساد المطلق من حيث كونه كونًا لشيء أيضًا. وهذه تتعلق، في الواقع، بأن المادة

١٤ - على حسب الرأي العامي - يمكن ترجمتها أيضًا هكذا: أخذًا بجرد الظاهر - أقل من سواهما في مراتب الوجود من حيث كونهما جسمين - عبارة النص هي بالضبط "أقل" فقط - إلى مجرد شهادة الحواس - ما دام أن الهواء والريح يحسان أقل من العناصر الكثيفة مثل الأرض والماء.

- إلى هذين العنصرين - الهواء والريح. - مثلاً - زدت هذا اللفظ لتمام الفكرة. - ونوع - أو صورة. وليس لفظ النص بأكثر ضبطًا من اللفظ الذي التزمت استعماله. - أكثر من الأرض نفسها - ربما كان اللازم بيان علة هذه النظرية التي يظهر لأول وهلة أنها مشككة، أما فيلوبون فيزعم أن الهواء على الحقيقة أكثر جوهرية من الأرض لأنه يحيط بها وأن له فوق ذلك خاصة الحرارة التي تزيد في تمدده.

١٥ - إذن قد وضع - ليس هذا الإيضاح جليًا كالمرغوب. وربما كان هذا الملخص الذي أثبت هنا سابقًا لوقته. - أنه يوجد - يظهر أن الأحسن هو أن يقال: "إنه يظن أن يوجد". ولكنني لم أجرؤ على المخاطرة بهذا التغيير. - المادة - عبارة النص هي غير معينة أيضًا كاللفظ الذي استعملته في الترجمة فإنه يمكن أن يتساءل: مادة أي شيء هي ؟ - الواحدة - يعني من هذين الشئيين. - جوهر - يعني شيئًا شخصيًا وخاصًا. - هي أكثر - أو بعبارة أخرى "الواحدة لها وجود أكثر بروزًا وللأخرى وجود أقل حسية". - تولد وتصير - لا يوجد إلا كلمة واحدة في النص الإغريقي - بالتعيين - أو فقط. - الذي نعينه ها هنا - إذا نقول إن التولد المطلق هو فساد شيء آخر وأن الفساد المطلق هو أيضًا تولد. - نحن لا نسد على هذا الوجه عينه - كل هذه القيود دقيقة وغامضة. - إلى الأشياء التي تتغير بعضها في البعض الآخر - تلك هي الأحوال المختلفة التي بها يمر جسم بعينه كما يفهم من سياق الكلام الآتي. وليس هذا بالمعنى الخاص فسادًا لكيف أو كونًا له بل هو مجرد تعاقب.

مختلفة إمّا لأن الواحدة جوهر في حين أن الأخرى ليست جوهرًا، وإما لأن الواحدة هي أكثر وأن الأخرى أقل، وإمّا لأن المادة التي يأتي منها الشيء والتي يذهب إليها هي أقل أو أكثر حسية. ويقال على الأشياء تارة إنها تولد وتصير بالإطلاق وتارة يقال بالتعيين أنها تصير هذا الشيء بعينه أو ذاك من غير أن يأتي واحد من الآخر بالتكافؤ على النحو الذي نعينه هاهنا. ونحن نقتصر في الواقع الآن على إيضاح لماذا - ما دام أن كل كون هو فساد لشيء آخر وأن كل فساد هو كون لشيء آخر أيضًا - نحن لا نسند على هذا الوجه عينه الكون والفساد إلى الأشياء التي تتغير بعضها في البعض الآخر.

١٦ - على أن هذا لا يحل المسألة التي كنا وضعناها لأنفسنا حلًا نهائيًا. بل هو يوضح لماذا يقال عن واحد يتعلم إنه يصير عالمًا لا أنه يصير مطلقًا في حين أنه بالنسبة لشيء ينشأ طبيعة يقال بطريقة عامة إنه يولد ويصير. تلك هي التعاين أي المقولات المختلفة التي بعضها يدل على الوجود الحقيقي والجزئي والآخر يدل على الكيف والآخر على الكم. وبالتالي لا يقال ألّبتة على كل الأشياء التي لا تدل على جوهر إنها تصير بطريقة مطلقة بل إنها تصير كذا أو كذا من الأشياء. ومع ذلك فإن الكون في كل الأحوال على السواء لا ينطبق انطباقًا صريحًا إلا على الأشياء الداخلة في إحدى المجموعتين. مثلاً في مقولة الجوهر يقال إن الشيء يصير إذا تكون نار. ولا يقال ذلك إذا كان الذي يكون هو أرضًا.

١٦ - التي كنا وضعناها لأنفسنا حلًا نهائيًا - على الروابط الحقيقية بين الكون المطلق وبين الفساد المطلق. - أنه يصير عالمًا - إذ أن جهله ينقلب علمًا كما أن علمه يمكن أن ينقلب جهلاً إذا نسي ما حفظه. - ينشأ طبيعة - كلمة النص يظهر لي أن لها ما لهذا اللفظ الذي استخدمته في الترجمة من القوة. - أنه يولد ويصير - لا يوجد في النص إلا كلمة واحدة. - بعضها الوجود الحقيقي والجزئي وهو مقولة الجوهر. والنص أقل ضبطًا من ذلك. - والآخر على الكم - لا يوجد ها هنا إلا ثلاث مقولات على التعداد مع أن المقولات عشرة. ر. كتاب المقولات ب ٤ ص ٥٨ من ترجمتنا. - إنها تصير كذا أو كذا من الأشياء يعني أنها تتغير بالكيف أو بالوضع ما دام المفروض ضرورة أن الجوهر هو ثابت تحت جميع المقولات. - في إحدى المجموعتين - اللتين إحداهما موجبة والأخرى سالبة. ومع ذلك فإن ما يلي كفيلاً بإيضاح هذه الفكرة وإن كانت الحدود التي اتخذت أمثلة ربما لا يكون قد توافر فيها حسن الاختيار. - إذن تكون نار - لأن النار معتبرة حدًا إيجابيًا في حين أن الأرض معتبرة حدًا سلبيًا. - إذا كان الذي يكون هو أرضًا - ر. ما سبق ف ١٤ - إذا صار الكائن عالمًا - هذا هو الحد الإيجابي في حين أن الجاهل حد سلبي ولكن في الحالة الأولى والأخرى يقال أيضًا أنه يصير عالمًا أو يصير جاهلاً. وكل هذا هو غاية في الدقة.

وفي مقولة كيف يقال عن الشيء إنه يصير إذا صار الكائن عالمًا لا إذا صار جاهلاً.

١٧- إذن فانظر كيف نوضح لماذا بعض الأشياء يكون بطريقة مطلقة وكيف أن البعض الآخر لا يكون لا بطريقة مطلقة ولا أصلاً حتى في الجواهر أعيانها. وقد قلنا أيضاً لماذا الموضوع من حيث هو مادة هو علة الكون المستمر الأبدي للأشياء نظراً إلى أنه يمكن على السواء أن يتغير في الأضداد وأنه بالنسبة للجواهر كون ظاهرة هو دائماً فساد لأخرى وبالتكافؤ أن فساد هذه كون لتلك.

١٨- على أنه لم يبق محل لأن يتساءل لماذا أن هذا الفساد الدائم للموجودات هو الذي يجعل أن شيئاً يمكن أن يكون. لأنه كما يقال إن شيئاً هو فاسد مطلقاً حينما يمر إلى اللامحسوس وإلى اللاموجود كذلك يمكن أن يقال إنه يكون ويأتي من اللاموجود متى أتى من اللامحسوس. والنتيجة أنه سواء أكان هناك موضوع أولاً أم لم يكن فإن الشيء يأتي دائماً من العدم بحيث إن الشيء في آن واحد حين يكون يأتي من اللاوجود وحين يفسد يعود إلى اللاوجود أيضاً. وهذا هو الفاعل في أنه ليس يوجد انقطاع ولا خلو. لأن الكون هو فساد اللاوجود والفساد هو كون العدم.

١٩- ولكن قد يتساءل عما إذا كان هذا اللاموجود المطلق هو ثاني الضدين. ومثلاً

١٧- حتى في الجواهر أعيانها- يعني في حالة ما إذا كان شيء مع كونه موجوداً أقل من مرتبة الوجود من آخر لأنه تابع له ر. ما سبق ف ١٥- الموضوع من حيث هو مادة- الموضوع يبقى مع تغيره.- المستمر الأبدي- لا يوجد في النص إلا كلمة واحدة.- كون ظاهرة- أو بعبارة أخرى تغير الكيفيات. فإن كون الأسود هو فساد للأبيض وكون الأبيض هو فساد للأسود. والموضوع الذي يصير على التناوب أسود وأبيض لا يزال باقياً.

١٨- إن هذا الفساد الدائم للموجودات- ليس النص على هذا القدر من الصراحة في كل هذا الموطن.- حينما يمر إلى اللامحسوس - ر. ما سبق ف ١٣.- فإن الشيء يأتي دائماً من العدم- قد اتخذت عبارة كعبارة النص في أنها عامة غامضة. وبعبارة أخرى سواء كان هناك مجرد تغير في الكيف فالظاهرة تأتي دائماً مما لم يكن.- انقطاع ولا خلو- ليس في النص إلا كلمة واحدة. ومع ذلك فمن فرط التعمق أو بالحرى من الإسراف اللغوي أنه يمكن التكلم عن كون العدم أو فساد.

١٩- هو ثاني الضدين- الذي ليس كائناً بالفعل ولكنه يمكن أن يكون بأن يشغل محل الضد الذي هو كائن.- لما أن الأرض وكل ما هو ثقيل هو اللاموجود - ضد الرأي العامي الذي يسند إلى الأرض وجوداً أكثر من وجود الهواء والنار بحجة أن الحواس تدركها أكثر. ر. ما سبق ف ١٣.

=

لما أن الأرض وكل ما هو ثقيل هو اللاموجود إذا كانت النار وكل ما هو خفيف هي أو ليست هي الموجود. ولكن يمكن أن يقال أيضًا إن الأرض هي الموجود وإن اللاموجود هو مادة الأرض كما أنه هو مادة النار على السواء. ولكن هل مادة أحدهما من العناصر ومادة الآخر هي إذن مختلفة؟ وهل من المحال أن يأتي أحدهما من الآخر كما هو الحال في الأضداد. لأن النار والأرض والماء والهواء لها أضداد أو هل أن مادتها هي واحدة من وجه وهل ليست مختلفة إلا من وجه آخر؟ لأن ما هو موضوع من وجه ومن آخر هو واحد ولكن شكل الوجود هو وحده الذي ليس واحدًا. على أننا نقف عندما قلناه في هذا الموضوع.

= أن الأرض هي الموجود - يظهر في الحق أنه من الصعب إنكار ذلك. - وأن اللاموجود هو مادة الأرض - لا يظهر أن اللاموجود يمكن أن يكون مادة لأي شيء ما إلا أن يصرف ذلك إلى المعنى المجرد المحض حيث كان القول فيما مر. - وهل من المحال أن يأتي أحدهما من الآخر - هذا ما يشبه أن لا يعتمد إلا على شهادة الحواس. - لها أضداد - قد يكون أضبط من ذلك بيانًا أن يقال إنها بعضها لبعض ضد. ما هو موضوع - يعني المادة مأخوذة على معناها المجرد لا على المعنى الحقيقي بالفعل. - شكل الوجود هو وحده - هذا - تمييز من لازمت أرسطو وهو في الغالب غاية في الصحة والضبط. - نقف - لا يظهر مع ذلك أن الموضوع قد انتهى ولا أنه على الخصوص قد وضح بقدر الكفاية من الإيضاحات التي سبقت.

الباب الرابع

فصول الكون والاستحالة - تمييز الموضوع ومحمول - الموضوع حد الاستحالة -
أمثلة مختلفة - حد الكون المطلق وأمثلة متنوعة - آخر المقارنة بين الكون والاستحالة.

١ - يجب الآن توضيح بماذا يختلف الكون والاستحالة لأننا نرى أن هذين التغيرين
للأشياء هما متميزان تمامًا أحدهما من الآخر نظرا إلى أن الموضوع الذي هو كائن
حقيقي والتكيف الذي هو طبعا محمول على الموضوع هما في غاية الاختلاف وأنه
يجوز أن يقع بالتغير بأحدهما وبالأخر.

٢ - توجد استحالة متى كان الموضوع، وهو باق بعينه وهو دائما محسوس، يلحقه
تغير في خواصه المخصوصة التي يمكن أن تكون مع ذلك أضدادا أو أوساطا. على ذلك
مثلا الجسم هو صحيح ثم هو مريض مع بقاءه هو بذاته. وكذلك أيضا النحاس هو تارة
مستدير وتارة ذو زوايا مع بقاءه جوهريا هو بعينه.

ب ٤ ف ١ - الكون والاستحالة - الكون أو التولد هو الحركة في الجوهر يعني الحركة التي تسير مما ليس موجودا إلى ما هو
موجود أي من اللاوجود إلى الوجود. وأما الاستحالة فهي الحركة التي تغير في الموضوع كيميائه وتعقبها أضدادها . ر
الطبيعة ك ٣ ب ٣ ف ٨ و ك ٧ ب ٤ ف ٣ من ترجمتنا.

- التغير بأحدهما وبالأخر - لفظ تغير مصروف هنا إلى معنى الحركة.

٢ - توجد استحالة - حد الاستحالة هذا لا يبعد في شيء عن الحد الذي أعطي في كتاب الطبيعة.

- وهو دائما محسوس - أو بعبارة أخرى: حقيقة متميزة وشخصية يمكن أن تدركها حواسنا أضدادا أو أوساطا - مثلا
الجسم وهو يمر من الأسود إلى الأبيض أو وهو يمر بجميع الألوان المتوسطة التي بين ذينك اللونين. - مع بقاءه هو
بذاته - من حيث الجوهر. وهذا هو الشرط الأساسي وبدونه لا يمكن أن تقع الاستحالة. - جوهريا - أضفت هذه الكلمة
لزيادة بيان المعنى.

٣- ولكن حينما الموجود يلحقه التغير بكليته دون أن يبقى منه شيء محسوس من جهة أنه موضوع واحد وبحدّه وأن الدم مثلاً يتكون بأن يأتي من كل المنطقة وأن الهواء يأتي من كل الماء أو بالعكس الماء من كل الهواء. حينئذ يوجد في هذه الحالة كون للواحد وفساد للآخر. وهذا حق على الخصوص متى كان التغير يمر من اللامحسوس إلى المحسوس سواء بالنسبة لحاسة اللمس أو بالنسبة لجميع الحواس الأخرى، مثلاً حينما يوجد الماء أو حينما يوجد تحلل الماء إلى هواء لأن الهواء هو بالمقارنة غير محسوس تقريباً.

٤- ولكن في هذه الأشياء إذا بقي لحدي التقابل كيف ما متمائل في الموجود الذي يتولد وفي الذي يفسد وإذا كان مثلاً حينما يتكون الماء بأن يأتي من الهواء وهذان العنصران هما على السواء شفافان وباردان فلذا لا يلزم بعد أن أحد هذين الكيفين فقط يتعلق بالجسم الذي فيه يحدث التغير، ومتى لم يكن الأمر كذلك فلا يكون إلا مجرد استحالة. مثلاً في حالة ما الرجل الموسيقي ينعدم والرجل غير الموسيقي يكون ويظهر،

٣- ولكن حينما الموجود يلحقه التغير - حد للكون أو لصيرورة الأشياء - بكليته هذا هو الشرط الأساسي للتولد وإلا فلا يكون التغير إلا استحالة - الدم يتكون بأن يأتي من كل النطفة - الأمر على العكس النطفة هي التي تأتي من الدم إلا إذا كان لفظ "النطفة" ها هنا له معنى خاص. - كون للواحد وفساد للآخر - اتخذت تعابير مبهمة كتعابير النص. - بالمقارنة - زدت هذه الكلمة .

٤- ولكن هذه الأشياء إذا - يرى مفسرو جاذبة «كويمير» بحق أن المعنى في هذه الفقرة مغلق وتوضيحات فيلوبيون لا تحلو غموضه. ويظهر أن أرسطو يقصد الرد على اعتراض لم يبينه بالضبط. "في الكون يتولد الكائن بكليته والتغير يلحقه بكليته. أما في الاستحالة فالكيفيات وحدها هي التي تكون محلاً للتغير وإذا متى وقع كون عنصر جديد يمكن أن يتساءل إذا كانت كيفيات الأول يجب أن تزول هي أيضاً جميعها معه". يجب أرسطو بالسلب متى كان الكيف مشتركاً بين الكائن الذي يزول وبين الكائن الذي يتولد بالتغير. وعلى ذلك فالماء مع أنه يأتي من الهواء الذي انعدم له خواص الهواء من جهة أنه مثله شفاف بارد. هذا هو تفسير المفسرين نقلته هنا. وقد كان من المرغوب فيه أن يكون النص أكثر توسعاً. - فقط - زدت هذه الكلمة. - ومتى لم يكن الأمر كذلك - يعني متى لم يكن للشئ الكائن الكيفيات عينها التي للشئ الفاسد. - فلا يكون إلا مجرد استحالة - عبارة النص أقل ضبطاً. الاستحالة مجرد تغير في الكيف وليس تغيراً جوهرياً. - في حالة ما الرجل الموسيقي ينعدم. حفظت أسلوب عبارة النص مع أنه في اللغة اليونانية شاذ كما تراه في الفرنسية. - ولكن الرجل - يعنى الموجود الجوهري الذي هو تارة موسيقى وأخرى غير موسيقى. - خاصة... أو كيفه - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - إلا المهارة في فن الموسيقى أو الجهل به - النص في غاية من الإيجاز لم تبلغه عبارتي في الترجمة. - كون وفساد - كما في الجواهر - كيفيات - أو تغيرات. - للرجل - الذي يبقى كما هو مع هذه التغيرات المختلفة. - للرجل الذي هو موسيقى - والذي ليس بعد مجرد رجل على المعنى المطلق والجوهري.

ولكن الرجل لا يزال دائماً هو بعينه. وحينئذ إذا لم تكن أصلاً خاصة هذا الموجود أو كيفه إلا المهارة في فن الموسيقى أو الجهل به فإذاً يوجد كون لإحدى الظاهرتين وفساد للأخرى. من ذلك يرى لماذا أن تلك ليست إلا كيفيات للرجل في حين أن هذا هو كون وفساد للرجل الذي هو موسيقي وللرجل الذي لا يعرف الموسيقى، فليس هناك إلا تكيف للموضوع الذي هو ثابت وهذا هو بالضبط ما يسمى استحالة.

٥- وإذاً حينما يكون تغير حد ضد لآخر حادثاً في الكم فتلك زيادة ونقص. ومتى كان ذلك في الأين فتلك هي نقلة. ومتى كان في الملكية الخاصة والكيف فتلك استحالة بالمعنى الخاص. ولكن متى لم يبق شيء مطلقاً من الموضوع الذي أحد أضداده هو تغير أو عرض فذلك أنه يوجد كون من وجه وفساد من وجه آخر.

٦- وحينئذ فالمادة التي هي على جهة الأولوية والأفضلية الموضوع القابل للكون وللفساد. وبوجه ما هي أيضاً التي تعاني أنواع التغيرات الأخرى؛ لأن كل الموضوعات مهما كانت فهي قابلة لتقابلات ما بالأضداد.

على أننا نقف هنا فيما كنا نريد أن نقول على الكون والفساد وعلى الاستحالة أيضاً لنوضح ما إذا هي تكون أو لا تكون وكيف تكون.

٥- حد ضد الآخر- عبارة النص الضدية ر. المقولات ب ١٠ و ١١ ص ١١٩ من ترجمتنا لتعرف الفرق بين المتقابلات والأضداد. - فتلك زيادة ونقص - فإن الموجود يتغير إذن في الكم. فتلك هي نقلة- فإن الموجود إذن يتغير فقط في المكان. - في الملكية الخاصة أو في الانفعال. - بالمعنى الخاص - أضفت هاتين الكلمتين لضبط المعنى.

٦- المادة- مأخوذة على وجه غير معين: أثبتته كما هو في الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ص ٤٧٣ من ترجمتي. - على جهة الأولوية- أو «على الخصوص». - للكون وللفساد- تبعاً لأنها تكون أو لا تكون. - وبوجه ما- بطريقة ملتوية لا بالطريقة الخاصة. - أنواع التغيرات الأخرى- الزيادة والنقص والنقلة والاستحالة، وقد لاحظ بحق فيلوبون أن أرسطو لم يكن بيانه في أي موضع آخر أجلى منه في هذا الموضع فيما يتعلق بحد المادة الذي هو دائماً من الصعوبة بمكان.

الباب الخامس

نظرية النمو - الفروق بينه وبين الكون والاستحالة سواء في موضوع النمو أو في الكيفية التي يحصل بها النمو - نقلة الشيء النامي غير المحسوسة - صعوبة إدراك من أين يأتي النمو في الجسم - كل أجزاء الجسم تنمو دفعة واحدة - الشروط الأصلية للنمو هي ثلاثة - المقارنة بين النمو والاستحالة - نظرية جديدة للنمو - تمييز ما بالفعل من ما بالقوة - يلزم أن ما بالقوة يتعلق حتى يوجد النمو - علاقة العنصر الجديد الذي يحدث نمو الجسم بالجسم النامي .

١ - علينا أيضًا أن نتكلم على النمو وأن نقول في ماذا يختلف النمو عن الكون وعن الاستحالة وكيف يمكن للأشياء التي تنمو أن تنمو والتي تنقص أن تنقص .

٢ - يلزم إذن أولاً أن نفحص ما إذا كان الفرق بين هذه الظواهر بعضها والبعض الآخر ينحصر فقط في الموضوع الذي تتعلق به . إن تغيراً يقع من موجود إلى موجود آخر، مثلاً من الجوهر بمجرد القوة إلى الجوهر بالفعل وبالكمال هل هو كون وتولد؟ والتغير الذي يقع في العظم هل هو نمو ونقص؟ أو ذلك الذي يحصل في الكيف هل هو استحالة؟ ولكن الظاهرتين الأخيرتين اللتين ذكرناهما أليستا دائماً تغاير أشياء تمر من القوة إلى

ب ٥ ف ١ - النمو - على تقدير "على النقص" الذي هو ضد النمو كما أنه تكلم على الفساد بعد الكون . وليس هناك حد يقابل الاستحالة لأنها يمكن أن تقع على الوجهين . وآخر هذه الفقرة ثبت مع ذلك أن أرسطو يتصدى للكلام على النقص كما يتصدى للكلام على النمو .

٢ - في الموضوع الذي تتعلق به - هذه العبارة غامضة قليلاً كعبارة النص، ويمكن ترجمة عبارة النص أيضًا هكذا: «في الموضوع الذي تحصل فيه» . - من الجوهر بمجرد القوة من الجوهر الذي ليس موجوداً إلى جوهر حقيقي موجود بالفعل كما يخرج حيوان من حيوان يلد . - هل هو كون وتولد - ليس في النص إلا كلمة واحدة . - الذي يقع في العظم - على وجه أو على وجه آخر . - الظاهرتين الأخيرتين - زدت لفظ "الأخيرتين" زيادة في البيان . - إلى الفعل والكمال - ليس في النص إلا كلمة واحدة . وأن الكلمتين اللتين ذكرتهما ليست إحداهما إلا ترجمة للأخرى . - التي تختلف - من الكون ومن الاستحالة إلى النمو وإلى النقص - يتولد و يصير - ليس في النص إلا كلمة واحدة . - يجب لهما التغير بالمكان - بأن يأخذ أكثر أو أقل من الحيز تبعاً لحالي النمو والنقص . - الذي يتحرك في الأين - أو «الذي تلحقه نقلة» .

الفعل والكمال؟ أو أيضًا أليست طريقة التغير هي التي تختلف؟ وحينئذ الشيء الذي يستحيل بمنزلة الشيء الذي يتولى ويصير لا يظهر أنه يجب لهما التغير بالمكان لزومًا. ولكن الذي ينمو والذي بذل يجب أن يتغير بالحيز تغيرًا مخالفًا لتغير الشيء الذي يتحرك في الأين.

٣- لأن الشيء المتحرك في الأين يغير مكانه بكليته في حين أن الذي ينمو لا يتغير إلا كشيء ينزلق ويمتد. والموضوع وهو باق في مكانه أجزاءه وحدها تغير مكانها. ولكن هذا ليس كحال أجزاء الكرة الدائرة على نفسها لأن هذه الأجزاء تغير محل جسم الكرة كله مع بقاءه في الحيز بعينه، وعلى الضد من ذلك أجزاء الجسم النامي تشغل حيزًا أكثر فأكثر كما أن أجزاء الجسم الذابل تشغل حيزًا أقل فأقل.

٤- يرى حينئذ أن التغير في شيء يتولد وفي الذي يستحيل وفي الذي ينمو هو يختلف لا بالشيء الذي يقبل التغير فحسب بل أيضًا بالطريقة التي يحصل بها التغير. ولكن أما من حيث الشيء ذاته الذي يلحقه تغير النمو وتغير الذبول - من جهة أن النمو والذبول يظهر أنهما لا ينطبقان إلا على عظم - كيف ينبغي إدراك أنه ينمو؟ هل يجب أن يفهم أنه يتكون

٣- مكانه بكليته - يميز المفسرون ها هنا حالين. - إما أن الجسم ينتقل بكليته مازًا من مكان إلى آخر وإما أن أجزاءه هي التي تغير مكانها كحال أجزاء كرة تدور على نفسها دون أن تغير مكانها كما هو مذكور بعد. - ينزلق ويمتد - ليس في النص إلا كلمة واحدة ليست على هذا القدر من الضبط. - أجزاءه وحدها - أضفت الكلمة الأخيرة - الدائرة على نفسها. - ر. الطبيعة ك ٨ ب ١٤ ف ١ ص ٥٥٤ من ترجمتنا. - الكرة - زدت هذا اللفظ. - حيزًا أكثر فأكثر - دون أن تغير مكانها. - ٤- في شيء يتولد... والذي يستحيل... والذي ينمو - تلك هي الأنواع الثلاثة الممكنة للتغير. - بالطريقة التي يحصل بها التغير - كما بين هذا في الفقرة السابقة أما من حيث الشيء ذاته - أضفت هذه الكلمة الأخيرة. - أنه ينمو - أضفت هذه العبارة لأنه ظهر لي أنها ضرورية لتكميل الفكرة. وربما يلزم أن يزداد أيضًا "ويذبل" كما فعل ذلك عدة من المفسرين. بالفعل وبالكمال. ليس في النص إلا كلمة واحدة. - يحمل على معنى مزدوج - هذا التحليل ربما كان مجاوزًا إلى حد أبعد مما يلزم ويظهر عليه أنه دقيق بعض الشيء. - منعزلة ومنفصلة ليس في النص إلا كلمة واحدة ومع ذلك لا يرى كيف أن المادة يمكن أن تنعزل وتنفصل دون أن تؤلف جسمًا. - لفهم النمو - أضفت هذا لتكميل الفكرة. - أي جزء في الأين - أو "أي حيز" لا يمكن أن تكون موجودة - ليس النص على هذه الصراحة. - في أين ما - ليس النص على هذه الصراحة. - ما يأتي: منها - التعبير مبهم ولكن النص ليس أقل إبهامًا. - بحيث أن هذا الجسم - أو بالأولى: "هذه المادة" المنعزلة: التي منها يجب أن يخرج الجسم الحقيقي - أو بالواسطة - عبارة النص بالضبط "أو بالعرض" ويلزم دائمًا أن يذكر أن المقصود هنا هو مادة النمو لا المادة على العموم.

في هذه الحالة جسم وعظم فعلي مما ليس هو جسمًا ولا عظمًا إلا بمجرد القوة والذي هو بالفعل وبالكمال ليس له جسم ولا عظم حقيقي؟ غير أن هذا الإيضاح نفسه يمكن أن يحمل على معنى مزدوج ويمكن أيضًا أن يتساءل على أي الوجهين يجب أن يحصل النمو. هل هو يأتي من المادة التي تكون منعزلة ومنفصلة في ذاتها؟ أم هل يأتي من المادة التي تكون في جسم آخر؟ ولكن هذين الوجهين لفهم النمو أليسا هما مستحيلين على السواء؟ فإنه إذا كانت في الواقع مادة النمو منعزلة فإما ألا تشغل أي جزء في الأين وإما أن تكون كنقطة أو ألا تكون إلا من الخلو وتكون جسمًا لا تدركه حواسنا. ففي أحد هذين الفرضين لا يمكن أن تكون موجودة. وفي الثاني يجب أن توجد ضرورة في أين لأن ما يأتي منها يجب أن يكون في أين ما بحيث إن هذا الجسم يكون فيه أيضًا إما بنفسه أو بالواسطة.

٥- ولكن إذا فرض أن المادة هي في جسم وأنها انفصلت عنه بحيث إنها لا تؤلف ألبنة جزءًا من هذا الجسم لا بذاتها ولا بالعرض فينتج من هذا الفرض طائفة من المستحيلات البينة. وتوضيحه: مثلاً إذا تكون هواء آت من الماء فذلك ليس لأن الماء يتغير بل لأن مادة الهواء تكون محوية في الماء الذي يكونه كما لو كانت في آنية ما لأنه لا شيء يمنع من أن تكون المواد غير متناهية في العدد بحيث يمكنها أيضًا أن تكون بالفعل، وبالحقيقة يلزم أن يضاف زيادة على هذا أنه ليس كذلك أن الهواء يظهر أنه يأتي من الماء كما لو أنه كان يخرج من جسم يبقى دائماً على ما كان عليه.

يحسن حينئذ افتراض أن المادة هي غير قابلة للانفصال في جميع الأجسام وهي واحدة ومتماثلة عددياً ولو أنها ليس واحدة ولا متماثلة في نظر العقل.

٥- في جسم- عبارة النص غير معينة وهي «في شيء ما» ومع ذلك فإنه يجب تقدير أن المادة هي في جسم ينمو كما يدل عليه المثل الآتي الذي فيه الهواء يتكون بخروجه من الماء... لأن الماء يتغير- وهذا هو التفسير العامي والطبيعي... كما لو كانت في آنية ما- ليس عليها إلا أن تخرج منها جاهزة دون أن تعاني تأثيراً جديداً- المواد- التي يمكنها أن تفعل النمو. - غير متناهية في العدد- أو فقط غير متناهية- كعبارة النص.- بالفعل وبالحقيقة- ليس في النص إلا كلمة واحدة. أن الهواء يظهر أنه يأتي من الماء- يعنى أنه يوجد تغير فعلي يصير الماء هواء وأن الهواء لا يخرج تماماً من الماء. -أن المادة- أي مادة النمو- في جميع الأجسام- ربما يكون الأحسن قصر الفكرة والقول «في الجسمين المذكورين».- عددياً... في نظر العقل- هذه من التمايز التي اعتادها أرسطو.

٦- وبالأَسباب عينها لا ينبغي افتراض أن مادة الجسم ليس إلا نقطاً أو خطوطاً لأن المادة هي بالضبط ما تكون النقط والخطوط نهايات لها. فهي لا يمكنها أبداً أن تقوم بدون خاصية ما ولا بدون صورة وعلى ذلك حينئذ فإن شيئاً يأتي دائماً من شيء آخر مطلقاً كما سبق بيانه في غير هذا الموضع. وهو يأتي من شيء موجود بالفعل وبالكمال إما من جنسه أو من صورته. مثال ذلك النار هي تكون بالنار والرجل هو يكون بالرجل أعني بحقيقة، بكمال، لأن الصلب لا يمكن أن يأتي من مجرد كيف الصلب. والمادة هي المادة لجوهر جسماني أعني مادة جسم خاص معين ما دام الجسم لا يمكن أبداً أن يكون شيئاً مشتركاً. وهي ذاتها سواء في العظم أو في كيف العظم قابلة للانفصال في نظر العقل لكن غير قابلة للانفصال في الأين إلا أن يفترض أن الخواص يمكنها أن تنفصل عن الأجسام الحائزة لها.

٧- بين حينئذ على حسب هذه المناقشة أن النمو في الأشياء ليس تغيراً يأتي من عظم بالقوة المحضة دون أن يكون له امتداد ما بالفعل وبالكمال لأن كيف المشترك حينئذ

٦- ليست إلا نقطاً أو خطوطاً وهذا ما يؤول به إلى ألا يكون له حقيقة فعلية أكثر من حقيقة الموجودات الرياضية. - نهايات - لأن النظر نهايات للخط والخطوط نهايات للسطوح. - بدون خاصية ما - تصيره مدرّكاً بحواسنا وتجعل منه جسمًا حقيقيًا. - ولا بدون صورة أسهل للإدراك من مجرد خاصية. - شيئاً أو "كائنًا". - كما سبق بيانه في غير هذا الموضع - يحيل فيلوبون على الكتاب الأول من الطبيعة حيث درس هذا الموضوع كما يقول وفي الحق أنه يوجد في الطبيعة ك ١ ب ٨ ف ٩ ص ٤٧٨ من ترجمتنا مناقشة مشابهة لهذه. - بالفعل وبالكمال - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - من صورته - أو "من نوعه". - من مجرد كيف الصلب - ليس النص هكذا صريحاً. فإن الصلابة تختص بجسم حقيقي ولا يمكنها بذاتها أن تنتج شيئاً. - مشتركاً. - كالمثل التي قال بها أفلاطون فإنها مشتركة بين جميع الكائنات التي تشترك فيها - إلا أن يفترض - كما يزعم أرسطو أن أفلاطون افترضه في نظريته في المثل. - الخواص - أو الكيوف.

٧- من عظم بالقوة المحضة - ر. ما سبق في آخر الفقرة الثانية. - كيف المشترك - لاحظ فيلوبون أنه يوجد ها هنا رواية أخرى وأن في بعض النسخ الخطية تحريفاً في حرف واحد به يكون اللفظ دالا على «الخلو» بدل «كيف المشترك». وقد حاول فيلوبون أن يبرر استقامة التعبيرين جميعاً. ولكن التعبير الذي اتخذته يظهر لي أنه الأفضل. و «كيف المشترك» ها هنا يجب أن يصرف إلى المثل. والتعبير الثاني يمكن أن يستند إلى آخر الفقرة الآتية. - في غير هذا الموضع - على رأى فيلوبون في الكتاب الرابع من الطبيعة. ولكن لم أجد في ذلك الكتاب الرابع هذا المعنى. بل يوجد في الكتاب الأول منها شيء من هذا القبيل ر. ب ٥ ف ١٢ ص ٤٦٠ من ترجمتنا - تغيراً من هذا القبيل - يعني يمر من القوة إلى الفعل. من الإمكان المحض إلى الوجود الحقيقي. وفي الحق أن هذا يكون كوناً لا نمواً. فإن الشيء يولد لا أنه ينمو. - أولاً - أضفت هذه الكلمة لتكميل الفكرة. - واقعية العظم - يعني الذي يدفع عظم الشيء إلى أبعد ما يمكن أن يبلغه في النظام الطبيعي للأشياء. - أولى به أن يكون كوناً - تكرير لما قيل آنفاً.

يكون قابلاً للانفصال. وقد سبق فيما تقدم في غير هذا الموضع أن هذا كان شيئاً محالاً. وفوق ذلك فإن تغيراً من هذا القبيل ينطبق على الخصوص لا على النمو بل على الكون. لأن النمو ليس إلا ازدياداً في عظم موجود من قبل كما أن الذبول ليس إلا انتقاصاً له. فانظر لماذا يلزم أن يكون أولاً للجسم الذي ينمو عظم ما. وبالنتيجة لا يمكن أن النمو الذي يمر إلى واعية العظم يأتي من مادة مجردة من كل عظم لأن هذا أولى به أن يكون كوناً لا أن يكون نمواً حقاً.

٨- فالأفضل حينئذ أن نأخذ بهذا البحث من جديد كما لو كنا في البداية تماماً وأن نبحت ثانياً عما يمكن أن تكون هي أسباب نمو الأشياء ونقصها بعد أن أثبتنا ماذا يعني بنما أو نقص. في شيء ينمو يظهر إذن أن جميع الأجزاء بلا استثناء تنمو. كما أنه في النقص جميع أجزاء الشيء يظهر أنها تصير أكثر فأكثر صغيرة. وفوق ذلك فإن النمو يظهر أنه يحصل بأن شيئاً ينضم إلى الجسم والاضمحلال بأن شيئاً يخرج منه. ولكن النمو لا يمكن أن يحصل بالضرورة إلا بشيء ما لا جسماني أو جسماني فإذا كان باللاجسماني فالجزء المشترك يكون قابلاً للانفصال ومن المحال أن توجد مادة منفصلة عن كل عظم كما قيل آنفاً. وإذا كان بشيء ما جسماني حصل النمو فينتج عنه أن هناك جسمين في حيز واحد بعينه، أي حيز الذي ينمو وحيز الذي يفعل النمو وذلك هو أيضاً محال.

٨- فالأفضل حينئذ - يظهر أن المناقشة كانت إلى الآن من الجد بحيث لا محل لإعادة بل يكفي الاستمرار فيها. - بعد أن أثبتنا ماذا يعني - النص ليس على هذه القدر من الصراحة ولكن الترجمة التي أعطيها تستند إلى شرح فيلوبون. - يظهر إذا - سبك العبارة يؤيد تفسير المفسر الإغريقي للفقرة السابقة. - الجزء المشترك - ر. ما سبق في الفقرة السابعة وما سيلي في الفقرة التاسعة. فإن الجزء المشترك لا يمكن ها هنا أن يدل إلا على الهولي مجردة عن كل صورة ومشترك بالنتيجة لجميع الأجسام. وهذا تجريد محض. وفي هذا الموضع أيضاً يوجد في بعض النسخ الخطية تحريف في حرف واحد فيقرأ «الخلو» بدلا من «الجزء المشترك» وقد عولت على هذه العبارة الأخيرة كما سبق. ويحاول فيلوبون أن يؤول العبارتين كليهما مع أن الأصل الذي تحت نظره يظهر أنه يوجد فيها لفظ «الخلو» لا «الجزء المشترك». - كما قيل آنفاً - في الفقرة السابقة. وهذا التفصيل يظهر أنه يؤيد التعبير الذي اخترته - جسمين في حيز واحد بعينه - مبدأ قرره أرسطو مراراً في الطبيعة. وقد احتفظ به علم الطبيعة الجديد في نظرية عدم قبول الأجسام للمداخلة.

٩- بل لا يمكن أن يقال إن نمو الأشياء ونقصها يمكن حصولهما بالطريقة عينها التي بها يأتي الهواء من الماء مثلاً ما دامت حيثنذ كتلة الهواء قد صارت أعظم مقداراً. إذ ليس في هذا مجرد نمو للماء بل هذا هو كون لجسم جديد فيه تغير الجسم الأول وهذا هو فساد لظده. وليس ذلك نموّاً لا لأحدهما ولا للآخر. ولكن إما أن ليس هذا نموّاً لشيء وإما أنه نمو لهذا الذي هو مشترك بين الشيئين الذي كان والذي فسد على السواء، وهذا الجزء المشترك هو جسم أيضاً. فلا الماء ولا الهواء نما وفقط أحدهما باد وانعدم في حين أن الآخر كان ويلزم أن يكون هناك جسم ما دام أنه وجد نمو.

١٠- ولكن هناك أيضاً محال جديد لأنه يلزم عقلاً حفظ الشروط الضرورية التي بدونها لا يمكن إدراك الجسم الذي ينمو أو الذي ينقص وهي ثلاثة أحدها هو أن كل جزء ما يصير أكبر في عظم ينمو، مثلاً إذا كان من اللحم فإن جزءاً ما من اللحم ينمو. والشرط الثاني هو أن النمو يحصل بانضمام ما إلى الجسم. وثالثاً وأخيراً يلزم أن الشيء ينمو وأن يبقى معاً، وفي الواقع حينما شيء يكون أو يبيد مطلقاً فهو لا يبقى البتة. ولكن حين يعاني استحالة أو نموّاً أو نقصاً فإن هذا الشيء مع أنه ينمو أو يستحيل يمث وبقي هو بعينه. فها هنا إنما هو كيف الشيء وحده هو الذي لا يبقى بعده هو هو. وهناك إنما هو

٩- التي بها يأتي الهواء من الماء- يعني متى أخذ الماء لأي سبب ما أن يتغير ويتغير إلى هواء. ر. الميتورولوجيا ك ١ ب ٩ ف ٢ ص ٥٥ من ترجمتنا. - كتلة الهواء- المشاهدة مضبوطة ولكن لا يظهر لي أن القدماء كان عندهم طريقة ما لتحقيقها. - لجسم جديد- ليس النص على هذا القدر من الضبط. - لظده- لأن الماء مفروض ضد الهواء. - لهذا الذي هو مشترك- هذا يؤيد ترجمتنا للجزء المشترك في الفقرتين ٧، ٨. - هذا الجزء المشترك- زدت قليلاً على عبارة النص أيضاً لها. - فلا الماء نما - لأنه في الواقع قد باد لينقلب إلى هواء. - يلزم أن يكون هناك جسم- وهو إذا «الجزء المشترك» أي الهولي التي ليست مع ذلك جسماً فعلياً.

١٠- محال جديد- أضفت هذه الكلمة الأخيرة ما دام أنه قد نبه آنفاً إلى محالات أخرى. - عقلاً - عبارة النص بالضبط هي: "بالعقل في نظر العقل". - الشروط الضرورية- عبارة النص ليست بهذا الضبط تماماً. - الجسم الذي ينمو - عبارة النص أدخل في باب عدم التعيين لأنه يقول: "هذا الذي ينمو". - وهي ثلاثة- وهذه الثلاثة الشروط هي حقيقة جداً ولا يكاد يمكن اليوم أن يقال أحسن من هذا. - وأن يبقى- يعني أن يبقى هو ما هو كما كان من قبل إلا من حيث امتداداته فإنها تكبر أو تصغر. - يكون أو يبيد- تلك هي حركة الكون والفساد- أعني المرور من اللاوجود إلى الوجود أو من الوجود إلى اللاوجود. - يمث وبقي - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - حفظ هذه الشروط- التكرير ليس في النص على هذا القدر من التمام.

العظم نفسه الذي لا يبقى هو بعينه. وحينئذ إذا كان النمو هو بحق ما قد زعم فإن الشيء النامي يمكن إذن أن ينمو بدون أن شيئاً يأتي وينضم إليه وبدون أن هذا الشيء يبقى كما أنه قد يمكن أن يفنى بدون أن شيئاً يخرج منه وبدون أن الشيء النامي يبقى. ولكن يلزم مطلقاً حفظ هذه الشروط ما دام أنه افتراض أن النمو هو في الواقع كما قد ذكر.

١١ - وقد يمكن أيضاً أن يسأل ما هو بالضبط هذا الذي ينمو؟ هل هو الجسم الذي إليه يأتي وينضم شيء؟ مثلاً متى فعل سبب بعينه نمو الفخذ في جسم إنسان فهل الفخذ نفسه هو الذي يصير أسمن؟ ولماذا هذا الذي يسمن الفخذ أعني الغذاء لا ينمو هو أيضاً؟ وفي الواقع لماذا أن الاثنين لا ينموان معاً؟ لأن هذا الذي ينمو وهذا الذي ينمي يكونان أعظم كما هي الحال عند مزج الماء والنبذ فإن كمية كليهما تصير أعظم على السواء. أليس يمكن أن يقال إن هذا يرجع إلى أن الجوهر في حالة يمكث ويبقى في حين أنه في الحالة الأخرى الجوهر. وهو هاهنا، جوهر الغذاء يبيد؟ وها هنا أيضاً إنما العنصر الغالب هو الذي يعطي اسمه للمزيج كما هي الحال حين يقال على المزيج إنه من النبذ لأن المزيج كله يفعل فعل النبذ لا فعل الماء.

١٢ - والأمر كذلك أيضاً بالنسبة للاستحالة فإذا، مثلاً، بقي اللحم ومكث دائماً ما هو وإذا طرأ على اللحم كيف أصلي لم يكن من قبل فاللحم حينئذ بالبساطة قد استحال

١١ - ما هو بالضبط هذا الذي ينمو - يظهر هاهنا أنه لا محل للشك وأنه هو الجسم عينه الذي ينمو بتمثله هذا الذي يأتي وينضم إليه. - في جسم إنسان - أضفت هذه الكلمات. - لا ينمو هو أيضاً - قد يمكن ألا يعطي هذا الجزء من القضية صورة الاستفهام فيقال: "في حين أن هذا يسمى الفخذ لا ينمو". - يكونان أعظم - العبارة مبهمة لأن المزيج من الاثنين هو في الحق أكبر من كليهما على حدة. ولكن كليهما على حدة لم يكبر إلا أن يكون المقصود هو ذلك المعنى الملتوي في المثال الآتي - كمية كليهما - هذا ليس صحيحاً فإن كمية النبذ وكمية الماء تبقيان كما كانت. ولكن مزيجهما وحده هو الأعظم فإذا قيل أنه يوجد من الماء أكثر أو من النبذ أكثر فليس ذلك إلا تجاوزاً في اللفظ. - العنصر الغالب هو الذي يعطي اسمه للمزيج - وهذا أيضاً ليس من الصحة بمكان إذ لا يقال للمزيج إنه من الماء أو من النبذ بل يقال إنه ماء مخمر.

١٢ - والأمر كذلك أيضاً بالنسبة للاستحالة - يعني أن في ظاهرة الاستحالة توجد أيضاً الشروط بعينها كما في ظاهرة النمو. - بالبساطة قد استحال - هذا هو المعنى الحق للاستحالة. فإن كيف وحده قد تغير ولكن الجسم بقي هو بعينه. - =

ولكن أحياناً هذا الذي يحيل الشيء إما أنه لا يعاني شيئاً هو نفسه في جوهره الخاص الذي لم يستحل وإما أحياناً أنه يستحيل هو أيضاً. ولكن هذا الذي يحيل شأنه كشأن مبدأ الحركة هو في الشيء النامي وفي الشيء المستحيل لأنه فيهما يوجد المبدأ المحرك. وقد يمكن أيضاً أن هذا الذي يدخل في الجسم يصير فيه أعظم كالجسم الذي يقبله ويستفيد منه سواء بسواء، مثلاً إذا كان العنصر الذي يدخل يصير فيه هواء، ولكنه وهو يعاني هذا التغير يفسد والمبدأ المحرك لا يكون فيه بعد.

١٣ - بعد أن بلغنا الكفاية من بسط هذه الصعوبات يلزم محاولة استكشاف حل هذه النظرية مع التسليم بالشروط الآتية دائماً:

إن النمو ليس ممكناً إلا بأن يمكث الجسم النامي ويبقى وإنه لا شيء يمكنه أن ينمو بدون أن شيئاً ينضم إليه ولا أن ينقص بدون أن شيئاً يخرج منه. وإنه فوق ذلك كل نقطة محسوسة حيثما اتفق من الجسم النامي أو الناقص تصير أكبر أو أصغر، وإن الجسم ليس

= في جوهره الخاص الذي لم يستحل - هذه الجملة لا توجد في بعض النسخ الخطية. وليست أيضاً في شرح فيلوبون. ولكن يظهر لي أنه يمكن قبول المعنى الذي أعطيه في ترجمتي هذه. - هذا الذي يحيل - أو عبارة أخرى أكثر ضبطاً "علة الاستحالة". - شأنه كشأن مبدأ الحركة - الذي يفعل أن الشيء ينمو ويذبل. - في الشيء النامي وفي الشيء المستحيل - هذا تطابق أيضاً بين النمو وبين الاستحالة. - المبدأ المحرك - هنا للمحركة وهناك للاستحالة. ولم يقبل الشراح الإغريق هذه النظرية بتمامها فعلى رأي فيلوبون أن الإسكندر الأفروديزي كان ينازع في أن مبدأ الاستحالة و النمو موجود دائماً في الجسم الذي يستحيل أو الذي ينمو. وهذا المبدأ هو غالباً في الجسم الغريب الذي يجلب للآخر النمو أو الاستحالة. - يصير فيه هواء - هذا موجز أكثر مما يلزم ولا يزال غامضاً. وكان يلزم أن يزداد عليه أن الماء بصيرورته هواء مثلاً يمتد وما دام أنه صار أعظم فقد انقطع عما كان هو ما هو من قبل. - وهو يعاني هذا التغير - ليكون المعنى أبين من ذلك كان يلزم إيراد مثال خاص ما كان ليترك أقل شك. - والمبدأ المحرك لا يكون فيه بعد - فإنه في ذلك الجسم الذي يسبب التغير الذي يعانيه .

١٣ - بعد أن بلغنا الكفاية من بسط هذه الصعوبات - يرى فيلوبون أن أرسطو لم يبسط إلى الآن إلى الآراء العامة في علل النمو والذبول وأنه يشرع منذ الآن في بسط مذهبه الخاص. - استكشاف حل هذه النظرية - على ما يفهمها أرسطو. - بالشروط الآتية - ليست عبارة النص على هذا المقدار من الصراحة. ومع ذلك فإن هذه الشروط قد سبق عدّها آنفاً ف ١٠. - محسوسة - معنى مادية. وقد ألح فيلوبون في أهمية هذه الكلمة التي بدونها على رأيه لا يستقيم المعنى. - إن الجسم ليس خلواً لا يظهر أن هنا روايات أخرى كما كان فيما سبق في الفقرة السابعة. - إن جسمين لا يمكن البتة أن يشغلا حيزاً واحداً بعينه - ذلك ما نسميه الآن عدم مداخلة الأجسام. - باللاجسماني - قد حافظت على عموم اللفظ الإغريقي وهو مفهوم.

خلوًا وإن جسمين لا يمكن ألّبتة أن يشغلا حيزًا واحدًا بعينه، وأخيرا إن الجسم الذي يحصل فيه النمو لا يمكنه أن ينمو باللاجسماني.

١٤ - وسنصل إلى الحل المطلوب بقبولنا بادئ بدء أن الأجسام ذوات الأجزاء غير المتشابهة يمكن أن تنمو لأنه إنما هي الأجسام ذوات الأجزاء المتشابهة هي التي تنمو لأن الأولى ليست إلا مركبة من الثانية، ويلزم بعد هذا التنبيه إلى أنه متى ذكر اللحم والعظم وأي جزء آخر مشابه لهما من الأجسام فذلك يمكن أن يؤخذ بمعنى مزدوج كما هي الحال بالنسبة لجميع الأشياء الأخرى التي لها نوعها ولها صورتها في المادة، لأن المادة والصورة هما مسميان على السواء لحماً وعظماً. فالقول بأن كل جزء كيفما اتفق من جسم ينمو وبأن عنصراً جديداً يأتي وينضم إليه فذلك بيان ممكن باعتبار الصورة ولكنه ليس كذلك باعتبار المادة. ويجب أن يرى أن الحال هاهنا كالحال حينما يقاس الماء بمقياس يبقى هو بعينه فإن الماء الذي يجيء بعد هو آخر ودائماً آخر. كذلك بهذه المثابة

١٤ - الأجسام ذوات الأجزاء غير المتشابهة - يمثل لها الشراح الإغريق بالوجه واليد.... إلخ. التي تنمو بنمو اللحم والدم والعظم التي هي أجسام متشابهة الأجزاء لا أنها تنمو بأن وجهها أو يداً تأتي فتتضم إليها ر. ما يلي ف ١٥. ر لأن الأولى ليست إلا مركبة من الثانية - معلوم أن هذا هو مذهب أنكساغوراس في «متشابهات الأجزاء» ويمكن الاطلاع أيضاً على أول «تاريخ الحيوانات». فإن الأجسام المتجانسة الأجزاء هي التي فيها الأجزاء دائماً هي بعينها والتي هي متشابهة للكل. على ذلك جزئية من الدم هي دائماً دم. وجزء من العظم هو عظم دائماً. ولكن جزء اليد ليس يداً وجزء الوجه ليس وجهاً. لذلك ترى لماذا أن هذه الأجسام مكونة من أجزاء غير متجانسة - بمعنى مزدوج سيوضح فيما بعد فإنه يمكن أن يعني بها على السواء أن المادة هي التي تنمو أو أنها الصورة فقط - نوعها وصورتها - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - المادة والصورة هما مسميان على السواء - يظهر أن المادة أولى بهذه التسمية من الصورة. - باعتبار الصورة - في الحق أن الصورة النوعية تبقى ولكن يلزم أيضاً أن المادة تنمو. - باعتبار المادة - هذا يظهر عليه أثر الدقة أكثر من أثر الصحة. - بمقياس يبقى هو بعينه - فإن الماء الذي يمر على التعاقب من هذا المقياس يمكن أن يختلف ولكن صورة المقياس لا تختلف وهذا حق ولكن المثل لم يجود حسن اختياره لأن المقياس لا يمكن أن ينمو القول وأرد بصدد إيضاح النمو. - الماء الذي يجيء - عبارة النص «الذي يجيء» فقط. فأردت تحرير الفكرة برفع بعض الشيء من عموم العبارة. - تنمو مادة اللحم - يظهر أن هذا يناقض ما أثبت سابقاً وهو أن النمو لا يقع إلا باعتبار الصورة لا باعتبار المادة. - لا يوجد ضم إلى كل جزء كيفما اتفق - على رغم ما يعتقد العامة. - الجزء الفلاني يسيل - والواقع أن الأجسام الحية هي في سيلان دائم للجزيئات التي تفقد منها وللعناصر الجديدة التي تقبلها بلا انقطاع. - لا إلى كل جزء كيفما اتفق من الشكل - وضعت لفظ «شكل» لا لفظ «صورة» لأن تعبير النص مختلف أيضاً.

تنمو مادة اللحم ولا يوجد ضم إلى كل جزء كيفما اتفق. ولكن الجزء الفلاني يسيل والجزء الفلاني ينضم. فليس يوجد ضم ولا يحصل الضم إلا إلى كل جزء كيفما اتفق من الشكل ومن النوع.

١٥- ولكن بالنسبة للأجسام المركبة من أجزاء غير متشابهة مثلاً بالنسبة لليد فمن الأشد وضوحاً أن كلها ينمو بحالة متناسبة لأنه في هذا الحالة ما دامت مادة النوع مختلفة فهي أسهل تمييزاً عما يكون بالنسبة للحم وبالنسبة للأجسام ذوات الأجزاء المتشابهة. من أجل ذلك حتى على ميت يظهر أنه لا يزال يعرف اللحم والعظم بأكثر سهولة من أن يميز فيه اليد والذراع، وحينئذ فمن وجه يمكن أن يقال إن كل جزء كيفما اتفق من اللحم ينمو ومن وجه آخر لا يمكن أن يقال إن كل جزء ينمو. فبحسب الصورة قد انضم شيء ما لكل جزء كيفما اتفق ولكن لا بحسب المادة. ومع ذلك فإن الكل صار أعظم لأن شيئاً جاء وانضم إليه. وهذا الشيء يسمى الغذاء ويسمى أيضاً الضد. ولكن هذا الشيء لا يزيد على أن يتغير في النوع بعينه كمثّل ما يأتي الرطب ينظم إلى اليابس وبانضمامه إليه يتغير بأن يصير هو نفسه يابساً. وفي الواقع يمكن معاً أن الشبيه ينمو بالشبيه وبجهة أخرى أن يكون ذلك باللاشبيه.

١٦- وقد يمكن أيضاً أن يتساءل عما هو بالضبط ذلك الشيء الذي يحدث النمو. واضح أن هذا العنصر الجديد يجب أن يكون الجسم بالقوة. مثلاً إذا كان اللحم هو الذي

١٥- المركبة من أجزاء غير متشابهة- المثل المعطى في النص كاف في البيان فإن اليد لا تتركب من أيد كما يتركب الدم من الجزئيات الدموية- بحالة متناسبة - هذا ليس من الضبط على الغاية- مادة النوع - أو مادة "الصورة". مادة اليد- مضاعفة التركيب. جلد وأوتار ودم وعظم وأربعة عضلات إلخ- فهي أسهل تمييزاً- ليس النص على هذا القدر من الصراحة- اليد والذراع- (عبارة متشابهة لهذا في كتاب النفس ك ٢ ب ١ ف ٩ ص ١٧٦ من ترجمتنا) لأن اليد والذراع هما عضوا فعل فمتى تعطلا عن العمل فكأنهما غير موجودين- ولكن لا بحسب المادة- بنفس السبب الذي ذكر فيما سبق في آخر الفقرة ١٤- الكل- مركب معاً من صورة ومادة- الضد- هذا التعبير ليس واضحاً جداً- والأولى أن تنمو الأجسام بالمثابة كما سيحيى- يأتي الرطب ينضم إلى اليابس- مثال ذلك أن يسقط الماء على سطح جاف ويتبخر عليه- أن الشبيه ينمو بالشبيه- تكاد هذه أن تكون قاعدة في الفلسفة القديمة. ولكن هذا العموم مبهم قليلاً. ومع أن الأجسام في الحق تنمو بمثل العناصر الجديدة فإن هذا الإيضاح ليس كافياً لتعبير ظاهرة النمو المعقدة.

١٦- الشيء- تعبير النص هو أيضاً أقل تعييناً من ذلك- فإن ما ينمي الجسم يجب أن يكون له صفة خاصة بها يمكن=

ينمي يجب أن يكون لحمًا بالقوة مع أنه بالفعل وبالكمال شيء آخر. وهذا الشيء الآخر وجب أن يفسد ليصير لحمًا. على ذلك حينئذ ليس هو في ذاته ما يصير إليه. لأنه إذن يحصل كون لا مجرد نمو. ولكن الشيء الذي ينمو هو بالضبط في ذلك الشيء، فماذا لقي الجسم بهذا العنصر الجديد حتى إنه نما هكذا؟ أعاني اختلاطًا كما يصب الماء في النيذ بحيث إن المزيج كله يمكن أن يبقى نبيذًا؟ أم كما أن النار تحرق متى تلامس شيئًا قابلاً للاحتراق، كذلك الأمر في الجسم الذي ينمو والذي هو لحم بالفعل وبالكمال، الجوهر الباطن الذي له قوة الإنماء هل يفعل لحمًا حقيقياً بالفعل وبالكمال من الحكم بالقوة الذي اقترب منه؟ يلزم إذن أن يكون هذا العنصر الجديد مع الآخر ومقترناً به في الوجود لأنه لو كان منعزلاً لحصل كون حقيقي. وعلى هذا النحو يمكن إيجاد نار من النار الموجودة من قبل بإلقاء الخشب فوقها. وهذا بهذه الطريقة ليس إلا نمواً في حين أنه متى كان الخشب نفسه يحترق فهنا كون حقيقي.

= أن يتمثل في الجسم وينقلب إلى جوهره. - هذا العنصر الجديد - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - الجسم بالقوة - يعني عبارة أخرى أنه يمكن أن يصير الجسم بتمثله فيه. - إذا كان اللحم هو الذي ينمي - كالأغذية التي نأخذها فنتحول إلى دم ولحم لتقويم حياتنا وإنماء جسمنا. - بالفعل والكمال - ليس في النص إلا كلمة واحدة - أن يفسد - أو «يفنى». كذلك الخبز الذي نطعمه هو بالقوة دم ولحم. ولكنه في حقيقته الخاصة لم يكن بعد أحدهما ولا الآخر - يحصل كون - أو «تولد» - في ذلك الشيء - هذه هي عبارة الأصل بنصها ويظهر أن فيها مبالغة لأنه لا يمكن أن يقال إن اللحم هو في الخبز ولو أن الخبز بعملية الهضم يتغير جوهرياً ويصير دماً. ومع ذلك زدت كلمة «بالضبط». - بهذا العنصر الجديد - عبارة النص ليست على هذا القدر من الصراحة. - أعاني اختلاطاً - اضطرت هنا إلى أن أزيد النص بياناً. - يمكن أن يبقى نبيذاً - ذلك ممكن في الواقع إذا كانت كمية الماء المصبوب قليلة بحيث لا تغير طبيعة المزيج تغيراً محسوساً. - أم - كلمة النص «و». - كما أن النار تحرق - المقارنة غاية في الصحة على أكثر مما كان يعتقده أرسطو. إن الفسيولوجيا في أيامنا هذه قد وجدت في تمثيل الأغذية نوعاً من الاختراق فإن القوى الحيوية هي نوع من النار يحيل الأغذية التي تدخل في أجسامنا. - بالفعل وبالكمال - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - الجوهر الباطن الذي له قوة الإنماء - عبارة النص مبهمة جداً وقد اضطرت إلى زيادة ضبطها في الترجمة - بالفعل والكمال - هنا أيضاً ليس في النص إلا كلمة واحدة - هذا العنصر الجديد - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - مع الآخر ومقترناً به - قد زدت على الأصل بل فصلت الجملة لأن النص هنا غاية في الإيجاز. ولكني لا أرى المعنى جلياً تماماً. فإن «المع والاقتران» قد يفهم بحسب المكان بل وبحسب الجوهر وعلى هذا المعنى الأخير يكون مجرد تمثيل - كون حقيقي - أضفت هذه الكلمة الأخيرة. - من النار الموجودة من قبل. - ليس النص على هذا القدر من التوسع. - متى كان الخشب نفسه يحترق - ليس التعبير واضحاً قدر الكفاية لأن الخشب لا يحترق بنفسه بل يلزم دائماً تقريبه من النار. - فهذا كون حقيقي - زدت أيضاً هذه الكلمة الأخيرة. فإن هذا الكون إنما هو كون ظاهرة جديدة.

١٧- ولكن الكم مأخوذاً على معناه الكلي لا يكون هاهنا إلا كما قد يمكن أن يكون الحيوان الذي لا هو إنسان ولا أي حيوان خاص. وبالفعل الحال هنا هنا بالنسبة إلى الكم كالحال هنالك بالنسبة إلى الكلي. فحينئذ اللحم والعظم أو اليد أو الأعصاب والأجزاء المتشابهة من هذه الأعضاء تنمو لأن كمية ما من مادة تأتي فتتضم إليها بلا شك ولكن بدون أن تكون هذه المادة كمية مقدرة من لحم. فمن جهة أن العنصر الجيد هو الواحد والآخر بالقوة ومثلاً كمية معينة من لحم بهذا المعنى، فهذا العنصر على هذا الوجه ينمي الجسم لأنه يلزم أن يصير من اللحم، ومن اللحم بكمية معينة. ولكن فقط من جهة أن العنصر المضاف هو من اللحم أنه يمكنه تغذية الجسم. وبذلك كان الغذاء والنمو يختلفان أحدهما عن الآخر عقلاً. من أجل ذلك أيضاً الجسم هو مغذى كل الزمن الذي يعيشه ويمكنه بل الزمن الذي يفناه ولكنه لا ينمو بلا انقطاع. في الحق إن التغذية هي مماثلة للنمو وتشبه به ولكن كونهما مختلف. على ذلك حينئذ بما أن العنصر الذي يأتي فينضم هو بالقوة فكمية ما من اللحم يمكنها أن تنمي اللحم. ولكن فقط من جهة أنه لحم بالقوة يمكنه أن يكون غذاء.

١٧- مأخوذاً على معناه الكلي - عبارة النص أقل تعييناً. ومن الصعب جداً تحصيل ذلك الفرق الدقيق ويمكن ترجمته أيضاً هكذا: ولكن ليس الكل هو الذي يصير هنا كمية ما - الحيوان - على طريق العموم لا الخصوص. فإن الحيوان يوصف أنه مفهوم كلي لا يوجد ولكن الذي يوجد هو هذا الحيوان الثلاثي الخاص أو ذاك الذي فيه يتحقق المعنى الكلي للحيوان. - إلى الكم - بالمعنى الكلي. - إلى الكلي - يعني "المثال". فإن الكم مفهوماً على المعنى الكلي لا يوجد إلا كما يوجد الحيوان بالمعنى المجرد. - الأجزاء المتشابهة - أي الأجزاء العنصرية التي لا تفترق بعضها عن بعض والتي هي جميعاً متشابهة. - كمية ما من مادة - كل هذه التمايز يمكن أن تظهر دقيقة بل غاية في الدقة ولكنها صحيحة والظواهر نفسها من الدقة بحيث يلزم ألا يدهش من صعوبة وصفها وتقريرها - كمية مقدرة - أضفت هذه الكلمة الأخيرة لبيان الفكرة. وبتطبيق هذا على الأغذية التي نغذي بها نجد في الحق أن الخبز هو كمية تأتي فتضاف إلى لحمنا. ولكن في الحق أيضاً إنه لم يكن بعد من اللحم تماماً العنصر الجديد - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - الواحد والآخر بالقوة - يعني أخذاً بشرح فيلويون، من اللحم بالقوة بطريقة عامة وأيضاً كمية ما من اللحم بالقوة أيضاً أو بعبارة أخرى يلزم أن العنصر الجديد يمكن أن يصير معاً لحماً وكمية ما من اللحم بانضمامها إلى الجسم يمكنها أن تعطيه النمو الذي يأخذه. - العنصر المضاف - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - يمكنه تغذية الجسم - عبارة النص هي "إنه يغذي". - عقلاً - أو ربما "بحديهما". - الذي يفناه - ويمكن ترجمته أيضاً هكذا: "بل إلى أن يفسده". - في الحق - أضفت هاتين الكلمتين. - ولكن كونهما مختلف - تمييز معروف وغالب الاستعمال في مذهب أرسطو. - على ذلك حينئذ - تلخيص للنظرية السابقة التي يظهر أنها دقيقة جداً وصحيحة جداً معاً.

١٨ - وهذه الصورة أو هذا النوع بلا مادة هو في المادة كقوة لا مادية. ولكن إذا تجيء فتتضم إلى الجسم مادة ما هي لا مادية بالقوة مع أن لها أيضًا بالقوة الكم، فهذه الأجسام اللامادية ستكون إذن أعظم. ولكن إذا كانت هذه المادة المضافة تصل إلى حد ألا تستطيع أن تكون شيئًا وإذا كان الماء كذلك بامتزاجه أكثر فأكثر بالنبيذ يصل إلى أن يصيره فأكثر مائيًا وإلى أن يحيله أخيرًا تمامًا إلى ماء فحينئذ يمكنه أن يجر إلى فساد الكمية ولكن الصورة والنوع يبقيان كما كانا.

١٨ - هذه الفقرة كلها غامضة جد الغموض. ومن المحتمل أن النص فيه محرف فيما يظهر. على أنه وارد في النسخة التي شرحها فيلوبون فيما يظهر على ما هي عندنا اليوم وأنه لم يجد فيها صعوبة ما غير أن شرحه لم يأتنا ببيان خاص يجلو غوامضها. - بلا مادة في المادة لا مادية - كل هذه التكاير موجودة في الأصل. - الكم هذه النقط التي وضعتها هنا تقليدًا لبعض الناشرين من شأنها أن تدل على احتمال وجود بياض في الأصل ولكن الواقع أنه ليس لدينا إلا مجرد ظن لم يقم عليه دليل ما. - فهذه الأجسام اللامادية - في النص اسم إشارة لجمع مذكر يظهر أنه لا يتعلق بشيء مذكور ويثير في النفس الظن بوجود النقص الذي أشرت إليه. وقد افترض مفسرو جامعة كويمبر وجود رواية أخرى تنحصر في علامة على حرف متحرك. ولكن هذه الرواية الأخرى لا تكاد تجلو غموض النص. فعلى رأيهم أن القصد هنا هو التمثيل بالمزمار حيث يمكن تمييز الصورة زيادة على المادة كما في كل آلة أخرى. وهذه الفرض لا يميز حجاب الظلام عن هذه الجملة ويجب تركها كما هي مع الاعتراف بأنه لا يمكن تصحيحها. - هذه المادة المضافة - عبارة النص غاية في عدم التعيين وقد ظننت أن من الواجب أن أكون أكثر تعيينًا وضبطًا في الترجمة. - تكون شيئًا - هاهنا حافظت على عبارة النص في كل عمومها لأنني خفت أن أحرفها إذا حاولت أن أجعلها أقل عمومًا. فإن «لا تكون شيئًا» تفيد من غير شك أن المادة المضافة لن يمكنها أن تتمثل في جوهر الإنسان الذي تضاف إليه - فساد الكمية - يظهر أن الأولى أن يقال «فساد الكيفية» ولكن ليس هنا رواية أخرى. الصورة والنوع - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - يبقيان كما كانا - يظهر على ضد ذلك تبعًا لنفس المثل الذي أورده المصنف أن الصورة والنوع يفنيان ما دام النبيذ يتقلب نهائيًا إلى ماء بإضافة السائل الذي صب فيه.

الباب السادس

الفعل المتكافئ للعناصر بعضها في بعض - في اختلاطها - رأى ديوجين الأبلوني - لأجل إدراك أن العناصر تفعل أو تنفعل بعضها ببعض يلزم توضيح ما يعني بتماسها - المعاني المختلفة لهذه الكلمة - الفرق بين الحركة والفعل - المحرك غير المتحرك لا حاجة به ضرورة إلى مس الشيء الذي يحركه - الشيء المحرك يمكن ألا يمس شيئاً هو أيضاً في تقويته - آخر نظرية التماس .

١ - لما أنه يلزم عند دراسة المادة وبالنتيجة العناصر أن يقال بادئ بدء ما إذا هي تكون أو لا تكون، وإذا كان كل واحد منها أزلياً أو إذا كانت مخلوقة بأي وجه ما. ومع أنها مخلوقة إذا كان يمكنها كلها أن تتكون بطريقة واحدة أو إذا كان أحدهما هو أسبق من الآخر فينتج من ذلك أن من الضروري أن تعين جيداً بادئ الأمر الأشياء التي لم يتكلم عنها حتى هذه الساعة إلا بطريقة جد مبهمة وغير كافية جداً.

٢ - وفي الحق كل أولئك الذين يقبلون الخلق للعناصر أنفسهم كما يقبلونه بالنسبة للمركبات التي تنتج عنها يقتصرون في إيضاح كل شيء على الاجتماع والافتراق وعلى الانفعالية وعلى الفعل. ولكن الاجتماع ليس إلا اختلاطاً ولم يحد لنا جلياً ما يجب علينا

١ - لما أنه يلزم- قد حافظت على أسلوب الجملة في النص الإغريقي كما هي مع أنها طويلة في الترجمة فيما يظهر.- إذا كانت مخلوقة- أو «تكون».- التي لم يتكلم عنها- يحتمل أن يكون المقصود بهذه العبارة فلاسفة من أسلافه وإن أرسطو لم يقصد الكلام من نظرياته الخاصة.- جد مبهمة وغير كافية جداً- ليس في النص إلا كلمة واحدة.

٢ - يقبلون الخلق- عبارة النص هي «الذين يخلقون» الذين يولدون، الذين يكونون. يقتصرون في إيضاح كل شيء- ليس النص صريحاً بها القدر.- على الانفعالية- لكيلا أقول «الانفعال».- ليس إلا اختلاطاً- ربما لا يكون المعنى محكماً.- لم يحد لنا جلياً- عبارة النص أشد إبهاماً قليلاً.- بدون موضوع يفعل وينفعل- هذا الموضوع هو ذلك الذي من غير أن ينقطع كونه يمكنه على التعاقب أن يقبل الأضداد كما سيبيء بيانه في الفقرة الثالثة.

أن نعني باختلاط الأجسام. ومن جهة أخرى ليس من الممكن كذلك أن تحصل استحالة ولا افتراق أو اجتماع بدون موضوع يفعل وينفعل. لأن أولئك الذين يقبلون تعدد العناصر يجعلونها تولد من الفعل والانفعال المتكافئين بين العناصر بعضها والبعض الآخر.

٣- ومع ذلك يلزم دائماً الوصول إلى القول بأن كل فعل يأتي من مبدأ واحد أحد. فانظر كيف أن ديوجين كان عنده الحق إذ يقرر أنه إذا كانت كل العناصر لم تكن تأتي من واحد فلا يمكنها أن يكون بينها لا فعل ولا قابلية للفعل على طريق التكافؤ وأن الحار مثلاً قد لا يمكن أن يبرد ولا البارد أن يسخن من جديد. وكان يقول ليست الحرارة ولا البرودة هي التي تتغير إحدهما في الأخرى بل من البين بذاته أن الموضوع هو الذي يعاني التغيير. وبالنتيجة كان يستنتج ديوجين أن في الأجسام التي فيها يمكن وجود فعل وانفعال يلزم بالضرورة أن يكون لها طبيعة واحدة هي موضوع لهاتين الظاهرتين. ولا شك في أن تقرير أن جميع الأشياء هي في هذه الحالة قد لا يكون تقريراً صحيحاً، فإن هذا لا يلاحظ في الواقع إلا في الأجسام التابعة بعضها لبعض.

٤- لكن إذا أريد استيضاح الفعل والانفعال والاختلاط بجلاء لزم بالضرورة أيضاً دراسة ما هو التماس بين الأشياء. إن الأشياء لا يمكنها حقيقة الفعل والانفعال أحدها بالآخر حين لا يمكنها التماس على التبادل. وإذا لم تكن قد تلامست سابقاً بأي وجه ما

٣- كل فعل - عبارة النص غير محددة ولكنني اضطررت كما فعل المصنف إلى أن أكرر الكلمة عنها التي استعملت آنفاً. - ديوجين - على تقدير الأبلوني. - كل العناصر لم تكن تأتي من واحد - عبارة النص تستخدم بالبساطة ضمير جمع فالتزمت زيادة البيان في الترجمة. - لا فعل ولا قابلية للفعل - يعنى فعل بعضها في بعض بالتكافؤ هذه. - تحتمل الفعل التي تفعله تلك. - وكان يقول - أضفت هذه الكلمات لأن أسلوب النص يسمح بإضافتها. - الموضوع - يعنى الجسم بعينه الذي يكون بالتناوب بارداً أو حاراً والذي مع بقاءه يمكن أن تتغير حاله وكيفية وجوده. - كان يستنتج ديوجين - أضفت هذه الكلمات للسبب السابق. - موضوع لهاتين الظاهرتين - ليس النص على هذا التوسع. - التابعة بعضها لبعض - بمعنى أنها يمكنها أن يفعل بعضها في بعض. وربما أمكن ترجمة العبارة هكذا «في الأشياء التي يوجد فيها تكافؤ بين بعضها والبعض الآخر».

٤- بجلاء - أضفت الكلمة المفهومة بالسهولة من السياق والتي تتم الفكرة. - بين الأشياء. - أضفت هاتين الكلمتين. - هذه الظواهر الثلاث - قد يمكن ترجمتها هكذا: «هذه الكلمات الثلاث» فإن عبارة النص غير محددة تماماً.

فلا يمكنها أبداً أن تختلط أحدها بالآخر. فيلزم إذن أولاً حد هذه الظواهر الثلاث التماس والاختلاط والفعل.

٥- فلنصدر عن هذا المبدأ: وهو أنه بالنسبة لجميع الأشياء التي فيها الاختلاط يلزم مطلقاً أنها يمكنها أن تتلامس بينها. وإذا كان الواحد يفعل والآخر ينفع بالمعنى الخاص فيلزم أيضاً أن يكون هذا التماس ممكناً. هذا هو سببنا في الكلام بادئ بدء على التماس.

٦- لكن كما أن أكثر الكلمات الأخرى هي مأخوذة على عدة معان تارة بطريق التواطؤ وتارة بالاشتقاق من كلمات أخرى سابقة عليها كذلك يقع هذا التنوع في الإطلاق اللفظي بالنسبة للفظ التماس. ومع ذلك فإن التماس بالمعنى الخاص لا يمكن أن ينطبق إلا على الأشياء التي لها وضع ولا وضع إلا للأشياء التي لها مكان لأنه يلزم أن يعنى بالتماس وبالمكان كما يعنى الرياضيون سواء أكانا، أي المكان والتماس، منفصلين عن الأشياء أم كانا يوجدان بأي وجه ما. وحينئذ إذا كان كما بين سابقاً أن التماس هو أن تجتمع النهايات فيمكن أن يقال إن هذه الأشياء تتلامس على التي، وهي ذات أعظام وأوضاع معينة، نهاياتها مجتمعة معاً.

٥- بالمعنى الخاص - معنى هذا في شرح فيلوبون أن المقصود هنا هو التماس المادي المحض وقد يقال إن تميمة تمس الذي وجهت إليه ولكن هذا المساس هو معنوي محض - وليس هذا هو المعنى الذي يقصده أرسطو من المساس أو التماس إذ يطبقه على الأشياء. ر. ما سيحيي ف. ١. - أن يكون هذا التماس ممكناً - عبارة النص بالبساطة هي: «وبالنسبة لهذه الأشياء يلزم أن يكون الأمر كذلك» فأثرت زيادة البيان.

٦- تارة بطريق التواطؤ - ر. أول المقولات ب ١ ف ١ ص ٥٣ من ترجمتي. - بالاشتقاق هذا هو ما يسمى بالمشتقة أسماؤها. ر. المقولات ب ١ ف ١ ص ٥٤. - سابقة عليها - يعني أبسط وأعم وقد يمكن حمل هذا المعنى على مجرد التقدم بالزمان. فإن أصل الكلمة متقدم على المشتق الذي يخرج منه. - هذا التنوع في الإطلاق اللفظي - ليس الأصل صريحاً هكذا كما يعنى الرياضيون - كان حق هذا أن يوضح وكان يلزم أن يقال بالضبط كيف يفهم الرياضيون التماس والمكان. - المكان والتماس - أضفت هاتين الكلمتين ليكون البيان أجلى أكانا منفصلين عن الأشياء - يرى فيلوبون أن هذا كان مذهب فيثاغورث الذي اتخذ أفلاطون مذهباً له إذا صدقت الانتقادات التي وجهها أرسطو إلى نظرية المثل. - أم كانا يوجدان بأي وجه ما - مثلاً في الأشياء التي لا تكون منفصلة عنها جوهرياً. - كما بين سابقاً - ر. الطبيعة ك ٥ ب ٥ ف ٤ و ١٤ ص ٣٠٠ و ٣٠٤ من ترجمتنا. - أن تجتمع النهايات - عبارة النص هي: «معاً» وهذه الكلمة تطلق على الاجتماع في المكان كما تطلق عليه في الزمان. - نهايتها مجتمعة معاً - الشأن في هذه الجملة كما هو في التنبيه السابق.

٧- ولكن لما كان الوضع خاصًا بالأشياء التي لها أيضًا أين وكان الفصل الأول للأين هو الفوق والتحت مع المقابلات الأخرى من هذا القبيل، ينتج منه أن جميع الأشياء التي تتلامس يجب أن يكون لها ثقل أو خفة أو هاتان الخاصتان معًا أو على الأقل إحدى الاثنين. وهذه الأشياء من هذا النوع إنما هي القابلة للفعل وللانفعال فبين إذن بذاته أنه يجب استنتاج أن تلك الأشياء تتلامس بالطبع وأنها بما هي أعظام منفصلة ومتميزة فنهاياتها واقعة طرفًا لطرف ويمكنها أحدها أن يحرك والآخر أن يتحرك على التكافؤ أحدهما بالآخر. ولكن لما أن المحرك لا يحرك بالطريقة عينها التي بها الشيء المحرك يحرك في دوره وأن هذا الأخير لا يمكن أن يحرك إلا بما هو واقع في الحركة هو نفسه في حين أن الآخر يمكنه أن يحرك مع بقاءه هو نفسه غير متحرك، فمن البين أنه يمكننا تطبيق هذه التمايزات عينها على الجسم الذي يفعل لأنه حتى في اللغة العامة يقال أيضًا على السواء أن الذي يحرك يفعل وأن الذي يفعل يحرك.

٨- ومع ذلك يوجد هنا فصل ما. فينبغي التمييز: ذلك أن كل ما يحرك لا يمكنه دائمًا أن

٧- الفصل الأول- يعني الفصل الأظهر والذي يقرع الحواس بادئ الأمر. ر. الطبيعة ك ٣ ب ٧ ف ٨ ص ١١٤ من ترجمتنا. - مع المقابلات الأخرى من هذا القبيل - يعنى اليمين واليسار والأمام والخلف إلخ. - ينتج منه - هذه النتيجة ليست حتمية فيما يظهر ولكن في نظريات أرسطو لما أن الحركة إلى الفوق تستدعي الخفة والحركة إلى التحت تستدعي الثقل فالجسم لا يمكن أن يكون له مكان إلا إذا كان ثقيلًا أو خفيفًا. - أو هاتان الخاصتان - معًا - هذا غير مفهوم إلا على طريق المقارنة، فإن جسمًا هو ثقيل بالنسبة لجسم معين وخفيف بالنسبة لآخر. - إحدى الاثنين - على هذا في نظريات أرسطو أن الأرض ليس لها إلا الثقل والنار ليس لها إلا الخفة. وأما الهواء والماء فلهما في آن واحد الخفة والثقل تبعًا لمقارنتهما بهذين العنصرين الآخرين اللذين هما طرفان. - طرفًا لطرف - عبارة النص هي "معًا" كما سبق. - أحدها أن يحرك والآخر أن يتحرك - عبارة النص على هذا الإيجاز وليست أكثر وضوحًا. - مع بقاءه هو نفسه غير متحرك. - ر. كل نظرية المحرك الأول غير المتحرك في الطبيعة ك ٨ ب ٧ و ٨ ص ٥٠٧ وما بعدها من ترجمتنا. ر. أيضًا ما بعد الطبيعة ك ٧ ب ٨ ص ٢٠٣ ترجمة كوزان. هذه التمايزات عينها على الجسم الذي يفعل - ليس النص صريحًا بهذا القدر. - وإن الذي يفعل يحرك - هذا الخلط بين الفعل وبين الحركة لا يفهم جد يفهم إلا إذا أدركت أنواع الحركة الثلاثة التي قررها أرسطو وهي الثقل والاستحالة والنمو، وبين أنه يوجد فعل في الثلاثة جميعًا. ومع ذلك فإن أرسطو في الفقرة الثالثة قد عين فرقًا بين فعل وبين حرك.

٨- التمييز - أو أيضًا «أن يكون الحد مع التمييز» هذا هو معنى التعبير الإغريقي في قوله. - بالمقابلة - المعنى هاهنا ليس واضحًا جدًا. وهاكه أكثر تفصيلًا وبيانًا: الفعل والتحريك ليسا حدين متساويين ومتكافئين فيلزم تمييزهما. ولأجل =

يفعل كما سنرى بالمقابلة بين ما يفعل وبين ما ينفع، فإن جسمًا لا ينفع إلا في الأحوال التي فيها تكون الحركة تأثيرًا أو شهوة. ولا توجد شهوة إلا في حالة ما يكون بالجسم مجرد استحالة، مثلاً في حالة ما يصير حارًا أو يصير أبيض. ولكن معنى التحريك له من السعة أكثر مما لمعنى الفعل. وحيث أن البين أن المحركات أحياناً يجب أن تلامس الأشياء التي تحركها وأحياناً لا تلامسها.

٩- حد التماس مأخوذاً في أعم معناه ينطبق على الأجسام التي لها وضع بما أن أحد الجسمين في التماس يمكن أن يحرك وبما أن الآخر يمكن أن يتحرك وبما أن المحرك والمتحرك ليس بينهما نسبة إلا نسبة الفعل والانفعال.

١٠- في الأحوال الأكثر عادية الشيء الذي لمس يلمس الشيء الذي لمسه لأن كل الأشياء تقريباً التي يمكننا مشاهدتها هي واقعة في الحركة قبل أن تحرك أيضاً في دورها. وفي كل الأحوال يظهر أن هناك ضرورة إلى أن الشيء الذي لمس يلمس الشيء الذي

= أن يفهم جيداً الفصل الذي يفصلها يلزم مقارنة حدين آخرين: الفعل والانفعال. - كما سنرى... فإن جسمًا لا ينفع - عبارة النص غير محددة فلزم أن تكون الترجمة أكثر ضبطاً. - تأثيراً أو شهوة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - مجرد استحالة - يعني بدون أن يكون هناك نقلة ولا تغير في العظم بالزيادة أو بالنقص. - في حالة ما يصير حاراً - النص أقل صراحة. فإن الجسم يكون في مجرد استحالة متى صار حاراً بعد أن كان بارداً أو أبيض بعد أن كان أسود. - له من السعة أكثر - فإن الحركة يمكن أن تكون بالنقلة أو الاستحالة أو النمو وأما الفعل فلا ينطبق إلا على الاستحالة وحدها. - وحيث من البين - هذه النتيجة ليست من البيان على ما يظن المؤلف فيما يظهر ولا تنتج بوضوح مما تقدم.

٩- مأخوذاً على أعم معناه - وفي الوقت عينه على معناه الأخص. - ينطبق على الأجسام التي لها وضع - ر. ما سبق ف

٦- أحد الجسمين في التماس - النص ليس صريحاً هكذا. - إلا نسبة الفعل والانفعال - عبارة النص هي: في الأشياء التي بينها فعل وانفعال.

١٠- في الأحوال الأكثر عادية - يظهر أن كل هذه الفقرة استطراد لا يتصل لزوماً بما تقدم. - التي يمكننا مشاهدتها - أو "التي هي أمامنا". - قبل أن تحرك أيضاً في دورها - ليس النص صريحاً هكذا ولكن المعنى لا ريب فيه. - لا يلمس الآخر هذا ممكن معنوياً كما يشته المثل الوارد في آخر الفقرة ولكن من الجهة المادية يتلامس الشيطان بالتبادل. ومن المحال أن شيئاً يلمس آخر من غير أن يلمسه هذا الآخر. وأن الفعل قد يأتي من جهة واحدة دون أن يقابل بمثله ولكن التماس كما يدل عليه لفظه هو دائماً متكافئ. وأن مثل المحرك غير المتحرك ليس قطعاً لأن إصال الحركة يمكن أن يقع على مسافة ومن غير تماس حقيقي الأجسام المتجانسة - هذا التعبير مبهم قليلاً. وقد فسره فيلوبون بأن فهم أن المقصود هو الأجسام المركبة من مادة واحدة بعينها لأنها بذلك تستطيع أن ترد الفعل الذي تقبله ر. ما سيأتي في الباب السابع =

يلمسه. ولكننا نقول إنه قد يجوز أحياناً أيضاً أن المحرك وحده يلمس الشيء الذي يعطيه الحركة، وأن الشيء الملموس لا يلمس الآخر الذي يلمسه. ولما أن الأجسام المتجانسة لا تحرك إلا متى حركت هي أنفسها فيلزم فيما يظهر أن جسمًا ملموسًا يلمس هو أيضًا. وبالنتيجة إذا كان محرك ما، مع كونه هو نفسه غير متحرك، يؤتى الحركة، فيلزم أن يمس الشيء الذي يحركه دون أن يمس هو نفسه شيء. وعلى ذلك في الواقع نقول أحياناً على الشخص الذي يؤذينا إنه يمسنا من غير أن نمسه نحن أنفسنا.

١١ - ذلك ما كنا نبغي أن نقول على التماس معتبراً في الأشياء الطبيعية.

= ف ٥. - فيما يظهر - ربما كان الواجب أن يكون التعبير أكثر تأكيداً. - فيلزم أن يمس - إن نظرية المحرك غير المتحرك قد بسطت بإسهاب في الطبيعة ك ٨ وفي ما بعد الطبيعة ك ١٢ ب ٨. فإن المحرك غير المتحرك يعنى الله ينقل الحركة التي يخلقها بطريقة مغايرة لما تنتقل به الحركة للأشياء التي تدركها مشاهدتنا في هذه الدنيا وليس من المحتمل بهذا المعنى أن الله يمس الكائنات كما تماس الكائنات بعضها بعضاً. - يمسنا - هذا التعبير الذي اضطررت إلى أن أستعمله لا يظهر أنه مناسب تماماً في لغتنا وإن كان أكثر مناسبة في اللغة الإغريقية. ولكنه ليس إلا على طريق المجاز فإن هذا المس المعنوي لا دخل له في التماس المادي الذي هو موضوع البحث في هذا الباب كله.

١١ - ذلك ما كنا نبغي أن نقول - يمكن تقريب هذه النظرية كلها بالنظريات التي ذكرت ولكن باختصار في الطبيعة ك ٥ ب ٥ ف ١٣ وك ٦ ب ١ ف ٢ فإن المذهب في الموضوعين واحد. - في الأشياء الطبيعية - لا في الأشياء المجردة والرياضية.

الباب السابع

نظرية الفعل والانفعال - آراء الفلاسفة - ديمقريطس هو الذي أجاد فهم هذا الموضوع - سبب خطأ الفلاسفة - الشبيه لا يمكن أن يقبل أي فعل من الشبيه - العلاقة الضرورية بين الفاعل والمنفعل - الشبه والفرق بينهما - توفيق رأيين متعارضين في تمييز لفظي - المشابهة بين الحركة وبين ظاهرتي الفعل والانفعال - المحرك الأول يمكن أن يكون غير متحرك - الفاعل الأول يمكن أن يكون كذلك لا منفعلًا - ختام نظرية الفعل والانفعال.

١ - تعقيبًا لما تقدم نوضح ماذا ينبغي أن يعنى بفعل وانفعال. ولقد تلقينا من الفلاسفة السابقين لنا نظريات متخالفات بينها في هذا الموضوع. ومع ذلك فإنهم متفقون بإجماع على أن الشبيه لا يمكن أن يقبل شيئًا من الشبيه؛ لأن الواحد منهما ليس أشد فاعلية ولا انفعالية من الآخر. وأن الأشباه لها كيفياتها متماثلة مطلقًا. ثم يزداد أن الأجسام غير المتشابهة والأجسام المختلفة إنما هي التي لها فعل وانفعال على طريق التكافؤ بعضها في بعض. مثال ذلك حينما تطفأ نار بنار أكبر منها يزعم فلاسفتنا أن النار التي هي أقل انفعلت في الواقع بمقتضى مقابلة الأضداد بما أن كثيرًا هو ضد لقليل.

١ - بفعل وانفعال - لم يمكنني أن أجد في لغتنا عبارات تجعل كلمات النص أكثر وضوحًا. وقد يمكن أن يترجم أيضًا هكذا: «أن يكون فاعلاً وقابلًا». يفعل وينفعل هما المقولتان الأخيرتان للمقولات العشر. ر. المقولات ب ٤ ف ١ و ٢ من ترجمتنا. - تلقينا من الفلاسفة السابقين لنا - يلاحظ فيلوبون أن أرسطو يبقي على عهد طريقته العادية من بسط النظريات السابقة قبل بسط نظريته الخاصة. - إن الشبيه لا يمكن أن يقبل شيئًا من الشبيه - ذلك هو أحد المبادئ التي قد يوجد منها عدد عظيم في الفلسفة القديمة لا تستند إلى مشاهدات وافية وليست إلا نتائج سابقة لأوانها ومنطقية محضة. - غير المتشابهة والأجسام المختلفة - هذا التكرير هو في النص. - فعل وانفعال. أو إنما هي الفاعلة والقابلة. - بنار أكبر - يظهر أنه ليس هنا اختلاف حقيقي. فإن النار الأقل هي تمامًا متشابهة للنار الأقوى من جهة كونها نيرانًا فقط إحداهما التهمت الأخرى. ولكنه لا ينبغي التشدد في طلب الضبط إلى علم ذلك الزمان. - بما أن كثيرًا هو ضد لقليل - هذا حق ولكنه لا ينتج منه أن نارًا صغيرة تكون ضدًا لنار كبيرة. ومع ذلك هذا ما كان يجب أن يكون ليصير المثل صحيحًا وحقيقًا بالانطباق.

٢- ديمقريطس هو الوحيد، خلافًا لجميع الآخرين، الذي قدم في هذا رأياً خاصاً. فهو يقرر أن هذا الذي يفعل وهذا الذي يقبل هو في الحقيقة مماثل ومشابه لأنه لا يوافق على أن أشياء مختلفة ومتغيرة تماماً يمكنها أن تقبل أياماً بعضها من بعض. وإذا كان بعض الأشياء مع كونها متغيرة بينها، لها بعضها على بعض فعل ما متكافئ فهذه الظاهرة، على رأيه، تقع فيها لا بما هي متخالفة بل بما هي على الضد من ذلك لها نقطة ما من المشابهة والمماثلة.

٣- تلك هي إذن الآراء التي قررت قبلنا. ولكن الفلاسفة الذين قرروها قد يظهر أنهم تناقضوا فيما بينهم، والسبب في اختلافهم في هذا الصدد هو أنه في مسألة يلزم فيها اعتبار مجموع الموضوع لم يعتبروا فيه هؤلاء وهؤلاء إلا جزءاً واحداً.

٤- وفي الحق إن ما هو شبيه تماماً ولا يغير مطلقاً بأى وجه ما لا يمكنه مطلقاً أن يحتمل شيئاً ولا أن يقبل شيئاً من قبل شبيهه. لماذا، في الحق، إن أحد الشئيين يفعل دون الآخر! فإذا كان ممكناً أن الشيء يقبل بأى طريقة من شبيهه إذن يمكنه أن يقبل أيضاً من ذاته. وحينئذ مع التسليم بهذا فينتج منه أن لا شيء في الدنيا يكون غير قابل للفناء ولا غير متحرك إذا فرض أن الشبيه بما هو شبيه يمكنه أن يفعل ما دام حينئذ كل موجود أيّاً كان

٢- ديمقريطس هو الوحيد- يظهر أن أرسطو في جميع مؤلفاته يحفل كثيراً بديمقريطس وبنظرياته وهنا يعطيه الحق على الأقل بالجزء ضد جميع الفلاسفة السابقين.- رأياً خاصاً - كلمة النص ليس لها معنى محدود بهذا المقدار. وربما أفادت أن ديمقريطس قرر رأياً صواباً من بعض الوجوه ومعارضاً للنظريات السابقة.- من المتشابهة والمماثلة - ليس في النص إلا كلمة واحدة.

٣- تلك هي إذن الآراء- قد يرى أن بسط الآراء السابقة موجز بعض الشيء ولكن يجب علينا في هذا الصدد أن ننق بصدق أرسطو الذي ما سعى البتة في الحط من أقدار أسلافه على رغم التهمة التي اتهمه بها باكون.- مجموع الموضوع- ليس النص على هذا القدر من الضبط. ومع ذلك فإن الفكرة التي يعبر عنها أرسطو هي عريقة في الصحة. وذلك يرجع إلى القول بأن هذه المذاهب على العموم أولى بها أن تكون غير تامة من أن تكون باطلة.

٤- أن يحتمل شيئاً ولا أن يقبل شيئاً- ليس في النص إلا كلمة واحدة. ولكن لما أنه يوجد فيه أداة نفى أردت أن أوفيه القوة بالفعلين ولو أن المعنى واحد تقريباً. من قبل شبيهه- يعني مما هو على جهة الإطلاق والتماثل مشابه له.- أحد الشئيين - زدت هاتين الكلمتين.- يفعل - أو يتفعل.- يمكنه أن يقبل أيضاً من ذاته- يعني يحتمل فعلاً يحدثه هو نفسه في نفسه، وهذه النظرية دقيقة فيما يظهر.- مع التسليم بهذا - أو بعبارة أخرى إذا افترض أن الشبيه يفعل في الشبيه وأن شيئاً يفعل مباشرة في نفسه.- غير قابل للفناء ولا غير متحرك- قد قرر أرسطو دائماً أنه يوجد في الدنيا أشياء غير قابلة=

يمكنه أن يعطي الحركة لنفسه ويعطيها أيضًا على السواء للموجود المغاير تمامًا والذي ليس له به تماثل ما. وفي الواقع إن البياض لا يمكنه أن يقبل أي فعل من قبل خط ولا أن خطأً يفعل بشيء من قبل البياض إلا ما ربما يكون بالعرض والواسطة: مثلاً في حالة ما إذا كان الخط بالمصادفة أبيض أو أسود. لأن الأشياء لا يمكنها أن تغير طبعها عفواً من تلقاء أنفسها متى لم تكن أضداداً بعضها لبعض أو غير آتية من أضداد.

٥- ولكن لما أن فعل وانفعل ليسا بالطبع خاصية أي جسم اتفق وأخذ بالمصادفة وأنهما لا يكونان إلا في الأشياء الأضداد بعضها لبعض أو التي بينها تضاد ما فينتج من ذلك ضرورة أن الفاعل والقابل يجب أن يكونا شبيهين ومتحدين بجنسهما بالأقل وأن يكونا غير متشابهين ومتضادين بنوعهما على هذا تريد الطبيعة أن الجسم يقبل فعل الجسم والطعم يقبل فعل الطعم واللون فعل اللون، وعلى جملة من القول أن شيئاً مجانساً يمكن أن يقبل فعلاً من قبل الشيء المجانس. والسبب فيه أن جميع الأضداد هي في جنس واحد، وأن الأضداد تفعل بعضها في بعض وتقبل بعضها من قبل البعض الآخر. إذن يلزم ضرورة أن، من وجه، الفاعل والقابل يكونان متشابهين وفي الحين عينه يلزم أيضاً أن يكونا غير متشابهين ومتغايرين بينهما.

٦- ما دام إذن يلزم أن يكون الفاعل والقابل هما متحدين ومتشابهين في الجنس ولا متشابهين في النوع وأن هذه هي نسب الأضداد فينتج من هذا جلياً أن الأضداد والأوساط

= للفناء وأنه بالأقل المحرك الأول هو غير متحرك. - يمكنه أن يعطي الحركة لنفسه - ليس النص على هذا الضبط ويمكن ترجمته أيضاً هكذا: "لنفسه وإن ما هو مغاير له تماماً وليس له معه أدنى تماثل يمكنه أن يعطيها لنفسه على السواء". وقد ظهر لي أن المعنى الآخر أفضل من جهة النحو. - وفي الواقع - لا يظهر أن ارتباط المعاني هنا واضح. - البياض الأمثلة لا يظهر أنها قد أحسن اختيارها. - من قبل خط - أو بالأولى سطح كما يفسره فيلوبون. - بالعرض والواسطة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - الخط أو السطح عفواً من تلقاء أنفسها - ربما صحت ترجمتها أيضاً "بالتبادل".

٥- أي جسم اتفق وأخذ بالمصادفة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - تضاد ما ليس النص على هذه الصراحة. - بجنسهما.... بنوعهما - هذا التمييز سيصلح فيما بعد للتوفيق بين الآراء المتعارضة للفلاسفة السابقين. - يقبل فعل - أو بعبارة أخرى مماثلة لعبارة النص: "يقبل من الجسم" وهذا التعبير مع ذلك مبهم وكان الأولى إيضاحه. - مجاناً - أو من الجنس بعينه ر. ما سبق ب ٦ ف ١٠. - إذن يلزم ضرورة - تكرير لما سبق آنفاً بالحرف تقريباً.

٦- ما دام إذا.... الفاعل والقابل - تكرير آخر مساعد مع ذلك على إيضاح الفكرة أكثر منه على إبطالها. - نسب الأضداد - ر. المقولات ب ١١ ف ٦ ص ١٢٢ من ترجمتنا. - مطلقاً - أو على العموم. - إن النار تسخن - ربما كان التعبير عامماً =

تفعل وتقبل على طريق التكافؤ بعضها إزاء البعض الآخر. فإن فيها مطلقاً يحصل فساد الأشياء وكونها. لذلك فبسيط جداً أن النار تسخن وأن البرد يبرد وعلى جملة من القول أن الشيء الذي يفعل يحيل إلى ذاته الشيء الذي يقبل فعله. ما دام أن هذا الذي يفعل وهذا الذي يقبل هما ضدان، وأن الكون هو على التحقيق تحول الشيء إلى ضده. ينتج منه أن بالضرورة الذي ينفع يتغير بهذا الذي يفعل. وعلى هذا النحو فقط يحصل كون مفض إلى الضد.

٧- هذا هو الذي يوضح جيداً كيف أن فلاسفتنا من غير أن يكرروا صراحة الأقوال أعيانها يمكنهم مع ذلك على الوجهين أن يصلوا إلى استكشاف الطبع والحق. وعلى هذا نقول تارة إنه الموضوع نفسه هو الذي ينفع متى قلنا إن فلاناً يبرأ وإنه يدفأ وإنه يبرد وإنه يعاني انفعالات من هذا القبيل. وتارة أيضاً نقول مثلاً إن البرودة هي التي تصير ساخنة أو إن المرض هو الذي يصير الصحة وعلى الوجهين العبارة صادقة.

٨- والأمر كذلك أيضاً فيما يخص الفاعل فإننا نقول أحياناً إنه هو فلان الذي يسخن الشيء الفلاني ومرة أيضاً إن الحرارة هي التي تسخن. لأنه تارة هي المادة التي تقبل

= جداً وربما كان يلزم ذكر مفعول كأن يقال مثلاً: "تسخن الجسم الذي تفعل فيه". وأن البرد يبرد هذا التكرير غير المقيد بوجود كذلك بالنص. - يحيل إلى ذاته - ها هنا أيضاً العبارة قليلة الضبط ولو أن المعنى صحيح جداً - تحول الشيء إلى ضده - النص غاية في الإيجاز فاضطرت إلى بسطه. - الذي ينفع يتغير بهذا الذي يفعل - قد يكون في العبارة بعض التجاوز لأن الشيء الذي يسخن لا ينقلب ناراً - مفض إلى الضد. - النص يستخدم تعبيراً يشعر بنوع من الحركة. وهذا الذي حاولت تحصيله في ترجمتي.

٧- فلاسفتنا - عبارة النص أقل ضبطاً. - الطبع والحق - ليس في النص إلا كلمة واحدة - إنه الموضوع - يعني الموضوع الذي له الكيف المعد لأن يتغير بكيف مضاد. - البرودة يعني الكيف ذاته. وقد لا يكون التمايز بَيِّنًا في النص ولأنه على هذا التمايز يعتمد في التدليل فكان الإلزام أن يكون التعبير أظهر من هذا. وقد أجاد فيلويون إيضاح هذه الفقرة كلها ولو أنه أطال في الإيضاح. - هي التي تصير ساخنة - في هذا التعبير شيء من الغرابة في النص وفي ترجمتي أيضاً - وعلى الوجهين العبارة صادقة - يعني سواء قصد إلى الموضوع أو قصد إلى الكيفية نفسها التي تتغير.

٨- والأمر كذلك - يعني أنه يمكن أن يجرى هذا التمايز بالنسبة للفاعل والقابل اللذين هما متحدان بالجنس و مختلفان بالنوع. - فلان الذي يسخن الشيء الفلاني - ليس النص على هذا القدر من البيان. - إن الحرارة هي التي تسخن - من جهة أنه هو الموضوع ومن جهة أخرى أنها هي الكيفية أو كما سيحيي بعد في النص من جهة المادة ومن جهة أخرى الضد. - من هذه الجهة - يعني بالنظر إلى المادة التي هي مقولة بالاشتراك على الفاعل والقابل معاً. - من جهة مخالفة - =

الفعل وتارة أيضًا الضد هو الذي يقبل. على ذلك فإنه بنظر الأشياء من هذه الجهة زعم بعضهم أن الموجود الذي يفعل والذي ينفعل يجب أن يكون بينهما شيء من التماثل. وأن الآخرين بنظرهم الأشياء من جهة مخالفة زعموا أن الأمر على الضد من ذلك تمامًا.

٩- ولكن التدليل الذي يمكن عمله لإيضاح ما هو يفعل وينفعل هو نفسه الذي به يوضح ما هو يحرك ويتحرك. وعلى ذلك لفظ المحرك يحمل أيضًا على معنيين. فأولاً الشيء الذي فيه يوجد مبدأ الحركة يشبه أن يكون المحرك ما دام المبدأ هو أول العلل وثانيًا إنما هو الحد الأخير بالإضافة إلى الشيء الذي هو محرك وإلى كون الشيء.

١٠- وتنطبق الملاحظة نفسها على الفاعل. وعلى هذا النحو نقول على السواء إن الطبيب هو الذي يبرئ أو هو النبذ الذي أمر به للمريض. وحينئذ لا شيء يمنع من أن المحرك الأول في الحركة التي يعطيها يبقى هو نفسه غير متحرك. بل أحياناً قد تكون هناك ضرورة إلى أن يكونه ولكن الحد الأخير يجب دائماً لأجل أن يحرك أن يكون أولاً قد حرك هو نفسه.

= يعني بالنظر إلى الكيفيات المتضادة التي إحداها تتغير إلى الأخرى. - إن الأمر على الضد من ذلك تمامًا. ر. ما سبق بيانه في آخر الفقرة الثالثة حيث يعيب أرسطو على كلتا النظريتين أنها لم تعتبر إلا جزءاً من الموضوع الذي كان يجب فحصه في مجموعه.

٩- التدليل الذي يمكن عمله - الجملة قلقة بعض الشيء في الترجمة كما هي كذلك في النص. ولكن المعنى بَيِّن. فإن يفعل وينفعل يستوضح معناه كما يستوضح معنى يحرك ويتحرك. - لفظ المحرك يحمل أيضًا على معنيين - تبعاً لما إذا كان القصد المحرك الأول والمحرك الابتدائي - أو المحرك التابع الذي يمكن أن يكون الأخير والأقرب بالنسبة للمتحرك أي الشيء المحرك. - الشيء - اخترت التعبير بهذا اللفظ المبهم مجازة للنص. - يشبه أن يكون المحرك. - أو «يشبه أن يحرك». - المبدأ هو أول العلل - بتعريف كلمتي المبدأ والعللة يتبدى الكتاب الخامس من كتاب ما بعد الطبيعة. - الحد الأخير - يعني المحرك الثانوي الذي هو الأقرب إلى المتحرك. - الشيء - زدت هذا المضاف إليه ويمكن أن توضع بدله «الظاهرة».

١٠ - الملاحظة نفسها - النص أشد إبهاماً. وبعبارة أخرى «إن لفظ الفاعل يمكن أن يحمل على معنى مزدوج مثل لفظ المحرك». - الذي أمر به للمريض - زدت هذه الكلمات التي ظهر لي أنها ضرورة لتمام الفكرة. فإن الطبيب هو المحرك الأول والعللة الأولى للشفاء والنبذ الذي أمر به للمريض هو المحرك الثانوي والعللة التبعية للصححة المستردة. - في الحركة التي يعطيها - هنا رواية أخرى عديمة الأهمية استعجها بعض الناشرين ولكنها لا تساوي الرواية التي أثبتناها في القيمة. - تكون هناك ضرورة - راجع نظرية المحرك الأول غير المتحرك في كتاب الطبيعة ك ٨ ب ٦ و ٧ و ١٥ من ترجمتنا. الحد الأخير "المحرك الأخير".

١١ - وفي الفعل أيضًا الحد الأول ليس متأثرًا ولا قابلاً ولكن يلزم أن الحد الأخير،
 ليتمكن أن يفعل، ينفعل أيضًا هو ذاته بفعل ما بادئ بدء. كل الأشياء التي ليست من مادة
 واحدة بعينها تفعل دون أن تقبل هي أعيانها وأن تظل غير قابلة. مثال ذلك صناعة الطب
 فإنها مع فعلها الصحة لا تقبل أي فعل من قبل الجسم الذي تشفيه. ولكن الغذاء مع فعله
 الصحة يقبل ويلقى هو نفسه أيضًا تأثرًا ما لأنه إما أن يسخن أو يبرد أو يعاني انفعالا آخر
 كيفما اتفق في حين أنه يفعل. ذلك لأنه من جهة الطب هو ها هنا، بنحو ما، كالمبدأ في
 حين أن الغذاء بنحو آخر، هو الحد الأخير الذي يمس العضو الذي يفعل فيه. على ذلك
 حينئذ كل الأشياء الفاعلة التي ليس لها صورتها في المادة تبقى غير قابلة، وكل التي لها
 صورتها في المادة يمكن أن تقبل فعلاً ما، ونقول أيضًا إن المادة هي واحدة على السواء
 بعينها بالنسبة لأي واحد ما من الحدين المتقابلين ونعتبرها أنها بالنسبة لهما جنسهما
 المشترك. ولكن ما يمكنه أن يصير ساخناً يجب ضرورة أن يسخن حينما الشيء الذي
 يسخن يكون حاضراً وقريباً منه. فانظر لماذا أن بين الأشياء التي تفعل بعضها، كما قلت
 أنفاً، هو غير قابل والآخر على ضد ذلك يمكن أن يقبل وكيف أن الأمر واحد بعينه بالنسبة
 للفواعل كما هو بالنسبة للحركة، فإن هناك في الواقع المحرك الأولي هو غير متحرك
 وهنا بين الفواعل إنما الفاعل الأول هو غير القابل وبمعزل عن كل انفعال.

١١ - وفي الفعل أيضًا - كما في الحركة. - الحد الأول - عبارة النص غير محدودة أصلاً. ويمكن ترجمتها أيضًا "العلة
 الأولى". - ليس متأثراً ولا قابلاً - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - ليتمكن أن يفعل - زدت هذه الكلمات. - بادئ
 بدء - زدتهما - أيضًا. - التي ليست من مادة واحدة بعينها - هي والأشياء التي تفعل فيها. - لا تقبل أي فعل - عبارة النص
 "لا تقبل شيئاً". - يقبل ويلقى - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - تأثراً ما - عبارة النص غير محدودة. - يسخن.....
 يبرد - في ظاهرة الهضم. التي بها الجهاز الهضمي يتمثله. - كالمبدأ - أو بوجه ما المحرك الأول والمبدئي. - هو الحد
 الأخير - هنا أيضًا ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - التي ليس لها صورتها في المادة - يعنى التي هي والقابل
 التي تفعل فيه ليست من مادة واحدة. - هذا الأسلوب كثير التكرار عند أرسطو ولكنه هنا غير محل للشك بحسب
 شرح فيلوبون. فإن القرينة تسوغ تفسير الشارح. - يمكن أن تقبل فعلاً ما - في حين أنها تحدث فعلاً في الشيء الواقع
 تحت تأثيرها. - من الحدين المتقابلين - أو بعبارة أخرى "بالنسبة للفاعل وبالنسبة للقابل". - جنسهما المشترك - زدت
 الكلمة الأخيرة. ر. ما سبق في الفقرة الخامسة. - الشيء الذي يسخن - عبارة النص غير محددة. - كما قلت أنفاً - في
 أول الفقرة السابقة. - المحرك الأول - يعنى العلة أيًا كانت التي هي أول ما يعين الحركة. وأظن أنه يلزم أن يخص اسم
 المحرك الأول بمبدأ الحركة الكلية. فإنه لا يبرأ هنا إلا حركة جزئية تقوم بها محركات عديدة بعضها توابع بعض - هنا -
 زدت هذه الكلمة لتكون المقابلة أظهر - غير القابل وبمعزل عن كل انفعال - ليس في النص إلا كلمة واحدة.

١٢- ولكن إذا كان الفاعل علة كما هي حال المحرك سواء بسواء فمن أين يجيء أن مبدأ الحركة، أي الغاية التي من أجلها يحدث كل الباقي، لا يحدث هو نفسه فعلاً؟ مثال ذلك الصحة ليست فاعلاً ولا يمكن تسميتها كذلك إلا بالمجاز المحض. ومنذ يوجد الفاعل ينتج منه أن القابل الذي يقبل الفعل يصير شيئاً ما، ولكن متى تكون الكيفيات حاصلة تماماً وحاضرة فليس للفاعل أن يصير فإنه قد كان كل ما يجب أن يكونه. إن صور الأشياء وغاياتها يمكن أن يقال إنها كيفيات وعادات في حين أن المادة إنما هي التي بما هي مادة قابلة تماماً. على هذا حينئذ النار لها حرارتها في المادة وإذا كانت الحرارة شيئاً ما قابلاً للانفصال عن مادة النار فلا يمكنها أن تقبل شيئاً ولا أن تتأثر. ولكنه محال من غير شك أن الحرارة تكون منفصلة عن النار التي تسخن وإذا كان ثم أشياء منفصلة بهذه المثابة فإن ما قلناه آنفاً لا يكون صادقاً إلا بالنسبة لتلك.

١٣- وعلى الجملة نقف عند حد الاعتبار المتقدمة في إيضاح ماهية فعل وانفعال لنبين بأي الأشياء يتعلق أحدهما والآخر وبأي طريقة يكون الفعل والانفعال وكيف يكونان.

١٢- الغاية التي من أجلها يحدث كل الباقي - أو: "اللم" كما هي عبارة النص. - الصحة ليست فاعلاً - لأنها الغاية التي ينشدها الطبيب والمريض. فالطبيب هو المحرك الأول. والأدوية التي يأمر بها تفعل تحت أوامره لبلوغ الغاية التي هي الشفاء والصحة. - القابل الذي يقبل الفعل - ليس النص على هذه الصراحة. - يصير شيئاً ما - يعنى يكسب كيفاً جديداً يعطيه إياه الفعل الواقع عليه. - حاصلة تماماً وحاضرة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - كل ما يجب أن يكونه - أضفت هذه الكلمات إتماماً للمعنى. - صور - أو "أنواع". فإن صور الأشياء هي طبيعتها الخاص والنهائي. - كيفيات وعادات - في النص كلمة واحدة. لأن الكيفيات والعادات لما أنها أشياء مكتسبة ودائمة فليست محلاً للتغير. فإن الشيء هو ما هو. فليس يصير شيئاً آخر بأن يكسب كيفية جديدة مخالفة. - قابلة تماماً - من حيث إنها هي المادة التي تقبل على التعاقب الأضداد التي تتناوب عليها بالدور. - لها حرارتها في المادة - التعبير مغلق قليلاً على رغم الإيضاحات التي تقدمت. - عن مادة النار - أضفت هذه الكلمات تكميلاً للمعنى. - أن تقبل شيئاً ولا أن تتأثر - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - عن النار التي تسخن - أضفت هذه الكلمات. - ما قلناه آنفاً - أو بعبارة أخرى "هذه الأشياء تكون غير قابلة البتة ولا يمكنها أن تخضع لفعل أي كان". ر. هذه النظرية نظرية الجوهر والصورة في الطبيعة ك ١ ب ٨ ص ٤٧٣ وما بعدها من ترجمتنا.

١٣- وعلى الجملة - النص ليس صريحاً هكذا. ولكن هذه الفقرة هي في الواقع محصل كل ما سبق. - وبأي طريقة.... وكيف - هذا الجزء الخاص من المسألة سيعالج أيضاً في الباب الذي يلي بطريقة أخص وأوسع مما هنا.

الباب الثامن

نقض النظرية التي تفرض أن الفعل والانفعال يحدثان في الجواهر المادية بالمسام - رأي الفلاسفة القدماء - استشهاد من أمبيدقل - لوكيس وديمقريطس هما أقرب إلى الحق - وحدة الموجود محال وكذلك ثباته - غرائب ضلالات الفلاسفة القدماء - عرض نظرية لوكيس - عرض نظرية أمبيدقل - مواطن الاتفاق والاختلاف بينها وبين نظرية لوكيس - استشهاد من طيماوس أفلاطون - مقارنة بين أفلاطون ولوكيس - اعتراضات على نظرية أفلاطون وعلى نظرية الوحدة ونظرية الذرات - استحالة قبول وجود الذرات وفهم من أين جاءت الحركة - الرؤية من خلال الأوساط تصير غير قابلة للإيضاح - خاتمة نقض النظرية التي تفسر بواسطة المسام الفعل والانفعال في الأشياء.

١ - لنعرض مرة أخرى كيف أن ظاهرتي الفعل والانفعال ممكنتان. من الفلاسفة من يرى أنه حينما يعاني شيء أثرًا ما على جهة الانفعال. فذلك أن الفاعل الذي يفعل الأثر نهائياً وبطريق الأصلية ينفذ في ذلك الشيء بواسطة مسام أو قنوات. يقولون إننا كذلك نرى وإننا نسمع وإننا ندرك جميع الإدراكات الأخرى للحواس. وفوق ذلك إذا أمكن أن ترى الأشياء من خلال الهواء والماء والأجسام الشفافة فذلك بأن هذه الأجسام لها مسام غير مدركة بالبصر لسبب صغرها ولكنها مع ذلك شديدة الانضمام مرصوفة بنظام

١ - ب ٨ ف ١ - مرة أخرى - ويمكن أيضاً ترجمتها: «من جهة نظر أخرى». - ظاهرتي الفعل والانفعال - ليس النص واضحاً هكذا وقد أردت أن أجعله أبين خصوصاً في ابتداء باب . - من الفلاسفة من - يقصد إلى أمبيدقل كما تدل عليه الفقرة التالية. - يعاني شيء أثرًا ما على جهة الانفعال - النص أكثر إيجازاً. - نهائياً - راجع ما سبق ب ٧ ف ١٠ و ١١. - وبطريق الأصلية - لأنه يفعل بتماس مباشر وبلا واسطة. - مسام أو قنوات - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - ندرك.... الإدراكات - تكرار الكلمات هذا في النص. - هذه الأجسام - أو هذه العناصر لأن عبارة النص غير مانعة. - نظام وتركيب - ليس في النص إلا كلمة واحدة.

وترتيب، وكلما تكون الأجسام أكثر شفافية كان لها من هذا المسام عدد أكثر.

٢- وعلى هذا النحو استبان بعض الفلاسفة الأشياء كما فعل أمبيدقل مثلاً. ولكن لم تقصر هذه النظرية على الفعل وعلى الانفعال بل زعم أن الأجسام لا تختلط إلا متى كانت مسامها متناسبة المقياس على طريق التكافؤ. وقد اختلط لوكيس وديمقريطس بأحسن من غيرهما الطريق الحق وأوضحا كلا بكلمة واحدة بأن صدرا عن نقطة الابتداء الحقيقية التي يعينها الطبع. وفي الواقع إن بعض القدماء قد ظن أن الموجود هو بالضرورة واحد وغير متحرك فعلى رأيهم الخلو لا يوجد. وأنه لا يمكن أن توجد حركة في العالم ما دام أنه لا يوجد خلو منفصل عن الأشياء. وكانوا يزيدون على ذلك أنه لا يمكن أيضاً أن يوجد تعدد ما دام أنه لا يوجد خلو يقسم الأشياء ويعزلها. على أن دعوى أن العالم ليس متصلًا لكن الموجودات التي تؤلفه متماسة مهما كانت منفصلة فذلك يرجع إلى القول بأن الموجود متعدد وليس هو واحداً وأن الخلو موجود. وأنه إذا كان الموجود هو مطلقاً قابلاً للقسمة في جميع الاتجاهات فمن ثم لا توجد بعد وحدة لأي ما كان بحيث إنه لا يوجد أيضاً تعدد. وأن الكل هو خلو كله، يقولون، إنه إذا فرض أن العالم شطره على نحو

٢- كما فعل أمبيدقل مثلاً- وهو الذي يلزم أن ينسب إليه الرأي المعروف في الفقرة السابقة دون أن يذكر صاحبه.- على الفعل وعلى الانفعال- عبارة النص بالضبط هي ”الفاعلات والمنفعلات“ أي الأشياء التي تفعل والتي تقبل الفعل.- متناسبة المقياس على طريق التكافؤ- يعني أن الجسمين يمكن أن يدخل أحدهما في الآخر بحيث يتحصل منهما مزيج حقيقي. وقد مثل فيلوبون بالنبيذ والماء فإن مسامهما متناسبة القياس في رأيه ما دام أن هذين السائلين يمتزجان. وعلى ضد ذلك مسام النار ومسام الخشب فإنها لما كانت غير متناسبة القياس كانت النار تفسد الخشب ولا تختلط به.- بأحسن من غيرهما- أستخلص هذا المعنى من شرح فيلوبون.- نقطة الابتداء الحقيقة التي يعينها الطبع- ليس النص على هذا الضبط تماماً.- بعض القدماء.- يقصد برمينيد ومدرسة إيليا كما يقول فيلوبون.- فعلى رأيهم - أضفت هذه العبارة التي مضمونها متمش مع سياق النص وكل ما هو وارد إلى آخر هذه الفقرة خاص برأي برمينيد ومدرسة إيليا ذلك الرأي الذي هو مبسوط بطريقة قلقلة وغامضة. راجع مناقشة مشابهة لهذه وإبطالاً لمذهب برمينيد وميليسوس في الطبيعة ك ١ ب ٢ وما بعده ص ٤٣٣ من ترجمتنا.- وإنه لا يمكن أن توجد حركة- هذه النظرية على علاقات الخلو والحركة هي منسوبة بالصراحة إلى ميليسوس في كتاب الطبيعة ك ٤ ب ٨ ف ٥ ص ١٨٩ من ترجمتنا.- منفصل عن الأشياء- أضفت الكلمتين الأخيرتين.- وكانوا يزيدون على ذلك- هذه الكلمات ليست صراحة في النص ولكن هذا المعنى يفهم من سياق الجملة.- إنه لا يوجد خلو- ليس النص على هذه الصراحة.- يقسم ويعزلها- ليس في النص إلا كلمة واحدة.- ليس متصلاً- وواحداً كما كانت تزعمه مدرسة إيليا.- مهما كانت منفصلة- ليس النص=

وشطره على آخر فذلك إيضاح أشبه ما يكون بفرض مجازف فيه لأنه حينئذ إلى أي نقطة ولماذا الجزء الفلاني من العالم يكون كذلك وعلينا في حين أن الجزء الفلاني الآخر مقسوم؟ وبهذه الطريقة يوصل أيضًا على رأيهم إلى تأييد أنه بالضرورة لا يوجد حركة في العالم.

٣- بالصدور عن هذه النظريات وبمعاندة شهادة الحواس والاستهانة بها بحجة أنه ينبغي اتباع العقل فقط انتهى بعض الفلاسفة إلى التصديق بأن العالم واحد غير متحرك وغير متناهٍ لأنه إن لم يكن كذلك فإن الحد بحسبهم لا يمكن إلا أن يحاد الخلو.

٤- تلك هي إذن نظريات هؤلاء الفلاسفة وتلك هي الأسباب التي دفعتهم إلى فهم الحق على هذا النحو، ولا شك في أنه إذا استمسك بالتدليل العقلية المحضة فذلك يشبه أن يكون مقبولاً، ولكن إذا أريد اعتبار الحوادث الواقعية فيوشك أن يكون من الجنون تأييد آراء كهذه. لأنه لا يوجد معنون ذهب إلى هذه النقطة من الضلال أن يجد أن النار والثلج هما شيء واحد بعينه. ولكن خلط الأشياء الجميلة لذاتها والتي لا تظهر لنا كذلك

= على هذا الوضع. - إذا كان الموجود هو مطلقاً قابلاً للقسمة - وإذا يؤول أمره إلى لا شيء بالقسمة التي ذهب بها إلى اللانهاية. - فمن ثم لا توجد بعد وحدة لأي ما كان - أو عبارة أخرى وحدة الأشخاص تنعدم مع الأشخاص أعيانها ولما أنه لا يوجد بعد من ثم تعدد ممكن فالكل يكون خلواً. - شطره على نحو - يعني أن الاتصال يكون في شطر العالم والخلو في الشطر الآخر. - يقولون أضفت هذه الكلمة للدلالة على أن ذلك بقية معارضات برمينيد وأصحابه. - على رأيهم - أضفتها للغرض المتقدم. - لا يوجد حركة في العالم - وهذا هو المبدأ الأساسي لمدرسة إيليا وهو أن الموجود واحد وغير متحرك. راجع نقض هذه النظرية في الطبيعة ك ١ ب ٢ وما يليه ص ٤٣٣ من ترجمتنا.

٣- بمعاندة شهادة الحواس والاستهانة بها - يلزم الانتباه إلى هذه العبارات الشديدة التي توصي بقوة باتخاذ نهج المشاهدة دون النظريات المنطقية المحضة. راجع أيضاً الفقرة السابقة. - بعض الفلاسفة - برمينيد وعلى العموم مدرسة إيليا. - إن لم يكن كذلك... بحسبهم - أضفت هذه الكلمات التي ظهر لي أنها ضرورية لبيان الفكرة، ومع ذلك فإن الفقرة لا تزال غامضة ولم أر فيلوبيو يفسرها في شرحه لأنه بلا شك لم يكن ليجد فيها أدنى صعوبة.

٤- الحق - ربما كان أحسن أن يقال «الحقيقة» التدليل العقلية المحضة - ليس النص على هذا القدر من التأكيد. - فذلك يشبه أن يكون مقبولاً - أو أيضاً: «إن الأشياء تشبه أن تمضي على هذا الوجه». - إذا أريد اعتبار الحوادث الواقعية - راجع مقدمتي لكتاب الميتورولوجيا على نمط المشاهدة عند القدماء وعلى الأخص عند أرسطو ص ٤٦ وما بعدها. - يوشك أن يكون من الجنون - من الصعب أن تعاب نظريات مدرسة إيليا العقلية المحضة بأكثر من هذه الشدة. - الأشياء الجميلة لذاتها - هذه النقطة لم يشرحها أيضاً فيلوبيو وفيها خفاء. فإن كلمة النص التي ترجمتها «الجميلة لذاتها» فيها إيهام وهي =

إلا بالاستعمال من غير أن يرى فيها مع ذلك أي فرق ما بينها، ذلك لا يمكن أن يكون إلا نتيجة لتيه حقيقي للعقل.

٥- فأما لوكيس فإنه كان يظنه محيطاً علماً بالنظريات التي، مع كونها متفقة مع الحوادث الواقعية المدركة بالحواس، لم تكن، بحسب مذهبه، لتعرض للكون ولا للفساد ولا للحركة ولا للتعدد في الموجودات. ولكن بعد هذا التسامح الذي أسداه إلى حقيقة الظواهر قد أسدى غيره إلى أولئك الذين يقبلون وحدة الموجود بحجة أنه لا يوجد حركة ممكنة بدون الخلو. ويقبل القول بأن الخلو هو اللاموجود وأن اللاموجود ليس هو شيئاً مما هو موجود. وإذاً، على رأيه، الموجود بالمعنى الخاص هو متعدد للغاية. والموجود على هذا المعنى لا يمكن أن يكون واحداً. وعلى العكس أن هذه العناصر تكون غير متناهية في العدد وتكون فقط غير مرئية بسبب لطافة حجمها للغاية. ويزيد على ذلك لوكيس أن هذه الجزئيات تتحرك في الخلو لأنه يقبل الخلو، وأنها باجتماعها تسبب كون الأشياء وبانحلالها تسبب فسادها، وأن الأشياء تفعل أو تنفعل تبعاً لما أنها تتماس على طريق التكافؤ وأنها على ذلك ليست هي شيئاً واحداً بعينه، وأنها بتركبها واشتباكها بعضها ببعض تكون العالم كله. ويستنتج لوكيس من هذا أن التعدد لم يكن ليخرج ألبتة

= تدل على الأشياء الطيبة كما تدل على الجميلة. - وقد يكون المعنى أن أرسطو يعيب على مدرسة إيليا أنها تفسد قاعدة الأخلاق بخلطها بين الخير والشر. وهذا المعنى هو الذي أرتآه بعض الشراح المتأخرين.

٥- فأما لوكيس - راجع عن آراء لوكيس وديمقريطس في الخلو كتاب الطبيعة ك ٤ ب ٨ ف ٣ وما بعدها ص ١٨٧ من ترجمتنا. ومع ذلك فإن أرسطو يبين عليه هنا شدة الاهتمام بلوكيس أكثر منه في كتاب الطبيعة حيث يقول عنه وعن أستاذه « إنهما لم يظاً عتبة المسألة ». - بحسب مذهبه - زدت هذه العبارة لإتمام الفكرة - ولا للحركة ولا للتعدد - وبالجملة كل ما تشهد لنا الحواس بأنها حقائق بيّنة. - الذي أسداه إلى حقيقة الظواهر - ليس النص على هذه الصراحة. - اللاموجود ليس هو شيئاً مما هو موجود - يظهر أن هذا هو تكرير محض ولكنه وارد في النص. - على رأيه - أضفت هاتين الكلمتين. - متعدد للغاية - أظن أن هذا هو الرواية الحقّة وهي متفقة مع سبك النص وفي بعض النسخ "مليء للغاية. مليء بالتمام" وليس بين الروايتين إلا تغيير حرف واحد. - هذه العناصر - التزمت هنا أن أوضح التعبير الذي جعله النص غير محدد. - لطاقة حجمها للغاية - تلك هي الذرات المقبولة أيضاً عند ديمقريطس أستاذ لوكيس. - ويزيد على ذلك لوكيس - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - العالم كله - أضفت هذه العبارة لكيلا أكرر ما قيل آنفاً. - ويستنتج لوكيس من هذا - ليس النص على هذه الصراحة. - الذي تقبله وتعاينه - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - بواسطة المسام - ر. ما سبق ف ١. - بواسطة الخلو - تكرير لما قيل آنفاً في هذه الفقرة نفسها. - التي تدخل - أو التي "تولج".

من الوحدة الحقة كما أن الوحدة لا يمكن أن تأتي أيضًا من التعدد الحق، وأن كل هذا هو محال على الإطلاق من جهة ومن أخرى. وأخيرًا كما أن أمبيدقل وبعض الفلاسفة الآخرين يزعمون أن في الأشياء الفعل الذي تقبله وتعانيه هو يحصل فيها بواسطة المسام فكذلك يرى لوكيس أيضًا أن كل استحالة للأشياء وكل انفعال لها إنما يحصل على هذا النحو نفسه وأن الانحلال والفساد يكونان بواسطة الخلو، والنمو حاصل كذلك بواسطة الجزئيات الجامدة التي تدخل في الأشياء.

٦- وأما أمبيدقل فينبغي ضرورة أن يقول قول لوكيس تقريبًا لأنه يقول بأنه يجب أن يوجد جزئيات جامدة وغير قابلة للتجزئة إذا كانت المسام ليست متصلة مطلقًا. ولما أن هذا الاتصال للمسام محال لأنه حينئذ لا يمكن وجود شيء جامد، إلا أن يكون هو المسام، والكل بلا استثناء لا يكون بعد إلا خلوًا، فحينئذ يلزم على رأى أمبيدقل أن الجزئيات التي تتماس تكون غير قابلة للتجزئة وأن المسافات وحدها التي تفصلها تكون خلوات، وهذا هو ما يسميه المسام. وهذه الآراء هي أيضًا آراء لوكيس في الفعل والانفعال في الأشياء.

٧- تلك هي الإيضاحات التي أعطوها عن الوجه الذي تكون به الأشياء تارة فاعلة وتارة منفعة. وحينئذ يرى مبلغ ما عليه في الحقيقة هؤلاء الفلاسفة وكيف يعبرون آراءهم في هذا الصدد مؤيدين مذاهب تكاد تكون مطابقة للحوادث.

٦- وأما أمبيدقل - ر. ما سبق ف ٢ حيث يظهر أن أمبيدقل أنزل من أجل هذه النظرية في منزلة أدنى من ديمقريطس ولوكيس. - جزئيات جامدة وغير قابلة للتجزئة - وفي هذا المعنى يقرب أمبيدقل من مذهب الذرات. - ليست متصلة مطلقًا - يعني تلامس مباشرة بعضها بعضًا. ولكن فكرة المسام عنها تستلزم ضرورة حواجز جامدة تفصلها وتعزلها بعضها عن بعض. - هذا الاتصال للمسام. النص ليس على هذا القدر من الصراحة وعبارته غير محددة. ولكن المعنى مع ذلك لا يمكن أن يكون محلًا للشك - إلا أن يكون هو المسام - وربما كان أحسن "بجانب المسام". - وحدها - هذه الكلمة ليست في النص ولكن ظهرت لي مفيدة في إتمام الفكرة. - هي أيضًا آراء لوكيس - نتيجة وتكرير لما قيل في أول هذه الفقرة.

٧- تارة فاعلة وتارة منفعة - أو أيضًا «تفعل وتنفعل». - هؤلاء الفلاسفة - هذا ينطبق بالأخص على لوكيس وديمقريطس. - تكاد تكون مطابقة للحوادث - ر. ما سبق ف ٤ .

٨- ولكن في نظريات فلاسفة آخرين كأبيدقل يلمح، بجلاء أقل، كيف يدرك كون الأشياء وفسادها واستحالتها والطريقة التي بها تقع هذه الظواهر. فعلى رأي البعض أن العناصر الأولية للأجسام هي غير قابلة للتجزئة ولا تختلف بينها إلا بالصور، ومن هذه العناصر تتركب الأجسام في البداية وإليها تتحلل في النهاية. ولكن من جهة أمبيدقل فقد يرى على كفاية الوضوح أنه يبلغ بكون الأشياء وفسادها إلى العناصر أنفسها. على أنه كيف يمكن أن يكون وأن يفسد العظم الملتك لهذه العناصر؟ هذا هو ما ليس بيتنا ألبتة في مذهبه. بل زيادة على ذلك أن هذا ما لا يستطيع تبيان ما دام أنه ينكر أن النار ذاتها عنصر كما ينكر أيضاً على السواء وجود جميع العناصر الأخرى. وقد أيد أفلاطون النظرية عينها في طيماوس لأنه فضلاً على أن أفلاطون يعبر في هذه النقطة مثل لوكيسس فإن أحدهما يقبل أن التي لا تتجزأ هي جوامد والآخر أنها ليست إلا سطوحاً، وأن أحدهما يقرر أن جميع الجوامد التي لا تتجزأ هي محدودة بأشكال عددها غير متناهٍ والآخر أن لها أشكالاً متناهية ومضبوطة. والنقطة الواحدة التي فيها يتفق الاثنان جميعاً أنهما يقبلان وجود التي لا تتجزأ وتحديدها بأشكال.

٩- إذا كان حقاً أن من ذلك في الواقع تأتي أكوان الأشياء وفساداتها فمن ثم يوجد عند لوكيسس لإدراكها طريقتان الخلو والتماس. وعلى هذا النحو، على رأيه، أن كل شيء

٨- كأبيدقل - هذا يشبه أنه مناقض لما قيل في ٦ حيث آراء أمبيدقل معتبرة لصيقة بآراء لوكيسس التي ووفق عليها. - فعلى رأي البعض - يعني الفلاسفة الآخرين ما عدا أمبيدقل. - غير قابل للتجزئة - هي الجواهر الفردة. - تتركب الأجسام في البداية - تكرير لما سبق. - العظم - مهما كان. يعني غير متناهٍ في الصغر ما دام الأمر خاصاً بالذرات. - إن النار ذاتها عنصر - ر. فيما سيأتي ك ٢ ب ٣ ف ٦ رأي أمبيدقل في النار التي هي على رأيه خليط وبالنتيجة ليست عنصراً حقيقياً. - وقد أيد أفلاطون النظرية عينها - النص أقل صراحة. - في طيماوس - ر. ترجمة كوزان ص ١٦١ و ١٦٧ وما بعدها. - إلا سطوحاً - ربما لم يقل أفلاطون ذلك صراحة - ولكن هذا هو النتيجة الضرورية لنظرياته. - متناهية ومضبوطة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - والنقطة الواحدة التي فيها يتفق الاثنان - ليس النص على هذه الصراحة. - وجود التي لا تتجزأ - لا يظهر أن أفلاطون يقبل مذهب الجواهر الفردة تماماً على النحو الذي يظهر أن أرسطو يقوله هنا.

٩- فساداتها - أو «انفصالها» وكلمة النص ليست أكثر من ذلك ضبطاً. - على رأيه - زدت هذه العبارة. - قد يكون متميزاً ومنقسماً - وضعت هاتين الكلمتين لأوفي قوة كلمة النص الواحدة. - إلا التماس وحده - يعني أن السطوح بتلاسمها تنتهي بأن تتركب الأجسام. ولا أدري هل هذا هو في الحق معنى نظرية أفلاطون. - في بحثنا السابقة - ر. كتاب السماء ك ٣ ب ١ ف ١٤ وخصوصاً ب ٧ و ٨ حيث نظرية أفلاطون منقوضة بالتطويل. - السطوح لا تتجزأ - هذا هو مذهب =

قد يكون متميزاً ومنقسماً، ولكن عند أفلاطون الأمر على الضد ليس إلا التماس وحده ما دام أنه يرفض وجود الخلو. وقد تكلمنا في بحوثنا السابقة على مذهب السطوح التي لا تتجزأ، وأما الجوامد التي لا تتجزأ فليس هاهنا محل لفحص أطول من ذلك عن نتائج هذه النظرية التي ندعها الآن إلى جانب.

١٠ - ولكن إذا نحن استطرنا بعض الشيء نقول إنه ضرورة في هذه المذاهب كل ما لا يتجزأ فهو يجب أن يكون غير منفعل لأنه لا يمكن أن يكون منفعلاً وقابلاً أي فعل ما إلا بالخلو الذي هو غير مقبول عندهم. وهو كذلك لا يمكنه أن يحدث أي فعل ما في أي شيء اتفق ما دام أنه لا يمكن أن يكون لا صلباً ولا بارداً مثلاً. وفي الحق إنه من السخف الاقتصاد على تخصيص الحرارة بالشكل الكري وحده فقط لأنه من ثم يكون بالضرورة كيف المضاد، أعني البرودة، يتعلق بشكل آخر غير الكرة. ولكن إذا كان هذان الكيفان يوجدان في الأشياء، أعني الحرارة والبرودة، فيكون من السخف الاعتقاد بأن الخفة والثقل والصلابة والرخاوة لا يمكن أن تكون فيها أيضاً. وإنى أعترف بأن ديمقريطس يزعم أن كل ما لا يتجزأ يمكن أن يكون أكثر ثقلاً إذا كان أكبر حجماً بحيث إنه، بالبين بذاته أيضاً، يمكن أن يكون أكثر حرارة.

١١ - ولكنه من المحال، متى كان الأمر على ما يقال، أن تلك التي لا تتجزأ لا تقبل تأثيراً ما بعضها من قبل البعض الآخر، وأن ما هو متوسط الحرارة مثلاً لا يقبل تأثيراً من

= أفلاطون. - أما الجوامد التي لا تتجزأ - هذا هو مذهب الجواهر الفردة الذي هو مذهب لوكيس وديمقريطس. - نتائج هذه النظرية - ليس النص بيتاً هكذا.

١٠ - في هذه المذاهب. - أضفت هذه الكلمات التي ظهرت لي ضرورة لإتمام الفكرة والتي يجيزها تفسير فيلوبون - الذي هو غير مقبول عندهم - أضفتها للسبب المتقدم. - من السخف - هذا التعبير القاسي قد كرر عدة مرات في هذه الفقرة ولكنه وارد في النص كما هو في الترجمة. - الشكل الكري وحده فقط. - ر. طيمائوس أفلاطون ترجمة كوزان ص ١٥٣ و ١٦٧ وما بعدها. وربما لا تكون عبارة طيمائوس من التأكيد على ما يزعم أرسطو. - إذا كان أكبر حجماً - النص هنا بين الدقة لما به من الإيجاز. ويظهر مع ذلك أن كل الذرات قد يجب أن تكون متساوية بينها وأن إحداها لا ينبغي أن تكون أكثر ثقلاً من الأخرى.

١١ - على ما يقال - النص أقل بياناً. - لا تقبل تأثيراً - أو لا تنفعل. - ما هو متوسط الحرارة - هذا هو الواقع المعلوم الذي هو توازن الحرارة. - فإن شئين غير متساويي الحرارة يصيران متساويين بأن يفعل أحدهما في الآخر. - ولكن إذا كان =

قبل ما له حرارة أكثر منه للغاية. ولكن إذا كان الصلب يقبل تأثيراً فالرخو أيضاً يجب أن يقبل تأثيراً لأنه لا يقال على شيء إنه رخو إلا مع الاستحضار الذهني لفعل يمكنه احتمال ما دام الجسم الرخو هو بالضبط هذا الذي يطاوع الضغط بسهولة.

١٢ - ومع ذلك ليس أقل سخفاً ألا يقبل في الأشياء مطلقاً شيء إلا الصورة وإذا تقبل الصورة فمن السخف ألا يفترض فيها إلا واحدة إما مثلاً البرودة وإما الحرارة؛ لأنه لا يمكن أن يوجد طبع واحد بعينه لهاتين الظاهرتين المتقابلتين.

١٣ - وفي الحق إن من المحال أيضاً على سواء أن يفترض أن الموجود مع بقاءه واحداً يمكن أن تكون له عدة صور لأنه بما هو لا يتجزأ قد يعاني تغييره المختلفة في النقطة عينها. وبالنتيجة فعبثاً ينفعل، فيبرد مثلاً، وبهذا عينه يحدث أيضاً فعلاً آخر أو بل يقبل أي تأثير آخر اتفق.

١٤ - يمكن استخدام هذه التنبيهات أنفسها بالنسبة لجميع التغيرات الأخرى؛ لأنه سواء قبل القول بجوامد لا تتجزأ أو قبل القول بسطوح لا تتجزأ فالنتائج تكون هي أنفسها ما دام ليس ممكناً أن اللامتجزئة تكون تارة أكثر تخلصاً وتارة أكثر كثافة إذا لم يوجد خلو في اللامتجزئة.

= الصلب يقبل - ليس النص على هذه السعة. - بطلوع الضغط بسهولة - ر. الميتورولوجيا ك ٤ ب ٤ ف ٦ وما بعدها ص ٢٩٨ من ترجمتي.

١٢ - ومع ذلك ليس أقل سخفاً هذا الانتقاد موجه على الأخص بغير شك إلى أفلاطون. - الصورة - هذا التعبير محمول هنا على معنى مهم ما دامت القرينة تعين أن معنى الصورة أيضاً الخاصية. وفي الواقع إن الحار والبارد خاصيتان وليستا صورتين بالمعنى الخاص. - لهاتين الظاهرتين المتقابلتين - أضفت الكلمة الأخيرة.

١٣ - مع بقاءه واحداً - ليس النص على هذه الصراحة. - تغييره المختلفة - زدت الكلمة الأخيرة. - في النقطة عينها - الكلمة التي استعملت في النص غير محددة فاضطرت إلى زيادة الضبط. - يحدث أيضاً فعلاً آخر - المعنى ليس جلياً وكان يقتضي توسعاً في التعبير. - أي تأثير آخر اتفق - هنا أيضاً ترجمتي أكثر ضبطاً من النص.

١٤ - بجوامد لا تتجزأ - هذا هو مذهب لوكيس وديمقريطس. - بسطوح لا تتجزأ هذا هو مذهب أفلاطون. ر. ما سبق ف ٩. - أن اللامتجزئة - عبارة النص ليست محدودة تماماً. - في اللامتجزئة - هذه هي عبارة النص بعينها.

١٥ - وكذلك من السخف على السواء تمامًا افتراض أن أجسامًا صغارًا هي غير قابلة للتجزئة وأن أجسامًا كبارًا لا تكونه. ففي الحالة الحاضرة للأشياء يفهم العقل في الواقع أن الأجسام الكبرى يمكن أن تتفتت بأسهل جدًّا من الصغرى ما دام أنها تتحلل بدون عناء لأنها كبيرة وأنها تتلامس وتتصادم في كثير من النقط. ولكن لماذا اللامتجزئة قد توجد مطلقًا في صغار الأجسام بالأولى من أن توجد في الكبار؟

١٦ - وفوق ذلك كل هذه الجوامد هل هي من طبع واحد بعينه أم هل هي تختلف بعضها عن بعض بما أن بعضها من النار والآخر من الأرض بحسب كتلتها؟ فإذا لم يكن إلا طبع واحد بعينه لجميعها فماذا عسى أن تكون العلة التي قسمتها؟ بل لماذا بتماسها لا تجتمع كلها بالتماس في كتلة واحدة بعينها كالماء حينما يلامس الماء؟ فإن الماء الأخير المضاف لا يختلف في شيء عن الماء الذي كان يتقدمه. ولكن إذا كانت هذه التي لا تتجزأ يختلف بعضها عن بعض فحينئذ ماذا تكون؟ بين بذاته أنه يلزم التسليم أن هذه هي مبادئ الظاهر وعللها أولى من أن تكون مجرد أشكال لها، ومن جهة أخرى إذا قيل إنها

١٥ - أجسامًا صغارًا - الجواهر الفردة مفروض أنها على نهاية ما يمكن من الدقة بحيث تعزب عن مشاهدتنا. وقد استنتج أنها غير قابلة للقسمة لأنها أصغر من أن تقسم. - ففي الحالة الحاضرة للأشياء - عبارة النص هي: «الآن». - تتحلل - قد يكون أولى «تتجزأ». - وإنها تتلامس وتتصادم في كثير من النقط - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - مطلقًا - ليس في النص الإغريقي إلا هذه الكلمة وحدها والتعبير أوجز مما ينبغي وكان يلزم التوسع فيه لجعل المعنى أبين من ذلك. فإذا كانت الجواهر الفردة غير قابلة للتجزئة بطبيعتها فصغرها وكبرها لا دخل له، فسواء كانت كبيرة أم صغيرة فإنها تظل غير قابلة للتجزئة وعلى ما جبلها الطبع.

١٦ - وفوق ذلك - رد آخر بعد الردود السابقة. - كل هذه الجوامد - المعتبرة أنها جواهر فردة أو ذرات غير قابلة للقسمة. - بما أن بعضها من النار - على حسب ما يظهر أنه ينتج على الخصوص من النظريات المقررة في طيماوس. - التي قسمتها - أو «فصلت بعضها عن بعض». وهنا القسمة أو الفعل يشبه أنها ترجع أيضًا إلى مجرد عدم المشابهة. - بتماسها - أو «بعد أن تلامست على طريق التبادل». - في كتلة واحدة بعينها - عبارة النص غير محددة. - كالماء - المثل على الأقل واضح جدًّا لأن الماء ينضم إلى الماء بلا أدنى عناء. وإن الذرات يجب أن تجتمع بعضها مع بعض على هذا النحو بسبب تماثلها الطبيعي. - الماء الأخير - هذه هي عبارة النص بعينها. - المضاف - هذه الكلمة ليست في النص. - فحينئذ ماذا تكون؟ - هذا سؤال موجه إلى مذهب أفلاطون ومذهب لوكيس الذي يريد أرسطو بلا شك أن يعيب عليه أنه لم يلح في هذه النقطة قدر الكفاية. - مجرد أشكال لها - المسلم بها في نظريات أفلاطون ونظريات لوكيس. - إذا قيل - ليس النص على هذه الصراحة. - تفعل أو تنفعل - في حين أنه في المذاهب التي يطعن فيها أرسطو تعتبر الجواهر الفردة غير قابلة للانفعال. ر. ما سبق ف ١٠.

مختلفة الطبع فحينئذ يمكنها بتلامسها المتبادل أن تفعل أو تنفعل بعضها بالآخر.

١٧- أكثر من ذلك، ماذا سيكون المحرك الذي يوقعها في الحركة؟ إذا كان هذا المحرك مخالفاً لها فحينئذ يكون ما لا يتجزأ قابلاً. وإذا كان كل ما لا يتجزأ يحرك نفسه فإما أن يصير قابلاً للتجزئة بما هو محرك في جزء ومحرك في جزء آخر وإما أن يجتمع النقيضان في الشيء بعينه معاً. وحينئذ تكون المادة واحدة لا بالعدد فقط بل بالقوة أيضاً.

١٨- وحينئذ هؤلاء الذين يزعمون أن التغيرات التي تقبلها الأجسام تكون بحركة المسام يجب عليهم أن ينتبهوا، لأنهم إذا سلموا بأن الظاهرة تقع حتى لو كانت المسام مليئة لاستعاروا حينئذ للمسام وظيفة غير مفيدة قطعاً ما دام أنه إذا انفعل الجسم في هذه الحالة بالطريقة عينها يمكن افتراض أنه، بدون أن يكون له مسام وبما هو نفسه متصل، قد يمكنه أيضاً أن يقبل بالتمام كل ما يقبل.

١٩- ولكن كيف يمكن أن يحصل النظر بالطريقة التي يفسر بها في هذا المذهب؟ ليس أكثر إمكاناً في الواقع أن يمر بالتماسات من خلال الأشياء الشفافة منه في خلال

١٧- ماذا سيكون المحرك الذي يوقعها في الحركة؟ ليس النص على هذه السعة. - مخالفاً لها- يعنى أجنبياً منها وخارجاً عنها. - ما لا يتجزأ قابلاً- وهو في النص أيضاً بصيغة المفرد ولكن الجمع ربما كان أولى ما دام المقصود هو الجواهر الفردة. فإن ما لا يتجزأ يصير قابلاً بما هو يقبل ويعاني الحركة التي يوصلها إليه المحرك. - إذا كان كل ما لا يتجزأ يحرك نفسه- من غير أن يتلقى الحركة في الخارج. - محرك في جزء ومحرك في جزء آخر- قد وضح في «الطبيعة» أن المحرك الذي يعطى الحركة الذاتية لنفسه يجب أن يفهم على أن له جزأين أحدهما يتلقى الحركة التي يعطيها له الآخر. مع أنه يبقى بأكمله غير متحرك. ر. الطبيعة ك ٨ ب ٦ ف ٥ ص ٦٠١ من ترجمتنا. - في الشيء عينه - وهو محال لأن الضدين لا يجتمعان في آن واحد في شيء واحد بل يجب أن يتعاقبا عليه. - بالعدد- أو بالشخص. - بل بالقوة أيضاً- يعني أنها يمكن أن تنفعل بالضدين معاً. وكلمة بالقوة هنا ليس لها معناها العادي.

١٨- يجب عليهم أن ينتبهوا- ليس النص على هذا القدر من الضبط فظنت واجباً عليّ أن أقسم الجملة والفكرة لأجعلهما أكثر بياناً. - حتى لو كانت المسام مليئة - أو مملوءة بالمواد التي يمكن أن تجتازها لتفعل في الأجسام وتغيرها بأي طريقة كانت. - انفعل.... بالطريقة عينها- ويعاني الفعل الذي قد يعانيه بدون أن يكون له مسام أو إذا كانت المسام خالية. - كل ما يقبل - أضفنا هذه الكلمات.

١٩- النظر- من خلال الأوساط وكما قيل آنفاً "من خلال الأجسام الشفافة" التي هي مفترضة ذوات مسام يمر منها الضوء. - بالتماسات- حفظت عبارة النص على حالها مع كونها غامضة. ولم يكن شرح فيلوبون ليزيل هذا الغموض. وقد ينبغي أن يفهم أن الضوء إنما يلامس سطوح الأجسام الشفافة وينفذ فيها هكذا. - إذا كانت المسام كلها مليئة- بجسم يكون=

المسام إذا كانت المسام كلها مليئة. فأيكون الفرق إذن بين أن يكون لها مسام وبين ألا يكون لها البتة ما دام أن الكل سيكون مليئاً على السواء؟ بل إذا كانت هذه المسام ذاتها مفترضة خالية وإذا كان فيها أجسام فحيث تعود الصعوبات أنفسها. ولكن إذا افترض أن المسام ذات امتدادات صغيرة بحيث لا تستطيع بعد أن تقبل أي جسم اتفق فإن من سفه الرأي أن يتصور أن الصغير خال وأن الكبير ليس كذلك مهما كانت سعته وأن يتمشى بالاعتقاد إلى أن الخلو هو شيء آخر غير مكان الجسم بحيث إنه، كما هو بين بذاته، يلزم أن يكون الخلو دائماً على مقدار مساوٍ للجسم نفسه.

٢٠- وعلى جملة من القول فإنه غير مفيد افتراض مسام. فإذا كان جسم لا يفعل في آخر بمسه فلن يفعل أيضاً بأن يخترق مسام. وإذا كان إنما يفعل بالمس فحيث، حتى بدون مسام، تفعل الأجسام أو تقبل الفعل كلما وضعها الطبع أحدها تلقاء الآخر في علاقة من هذا القبيل.

٢١- والحاصل أنه يرى من كل ما تقدم أن تصور مسام على الوجه الذي فهمها به بعض الفلاسفة إنما هو خطأ كامل أو فرض باطل. فإن الأجسام بما هي قابلة للتجزئة مطلقاً في كل جهة فمن السخرية افتراض مسام ما دام أن الأجسام بما هي قابلة للتجزئة يمكنها دائماً أن تنفصل.

= الضوء مضطراً لطرده أمامه ليأخذ مكانه ويجتاز الجسم الشفاف. - بين أن يكون لها مسام وبين ألا يكون لها البتة - ليس في النص هذا التردد الذي ظهر لي ضرورياً لتبيين الفكرة. - ما دام أن الكل سيكون مليئاً على السواء؟ - إما باتصال الجسم نفسه وإما بامتلاء المسام. - هذه المسام - النص غير محدود تماماً. - الصعوبات أنفسها - التي جيء على بيانها. ويقال في الجزئيات الموجودة في المسام ما كان يقال أولاً في المسام أنفسها. - إن الصغير خال - حفظت بناء جملة النص على ما هو عليه. والمراد بالصغير هنا الجسم القليل الامتداد. - إن الخلو هو شيء آخر غير مكان الجسم - الفكرة غامضة قليلاً ولم أجد في شرح فيلوبون شيئاً يوضحها على قدر الكفاية.

٢٠- وعلى جملة من القول - هذا هو محصل المناقشة السابقة. وقد استنتج أرسطو أن نظرية الفعل والانفعال لا حاجة بها إلى فرض المسام الذي تخيله بعض الفلاسفة. - في آخر - أضفت هاتين الكلمتين. - وإذا كان إنما يفعل بالمس - يعني بأن يلمس مباشرة الشيء الذي يقع عليه فعله. - كلما وضعها الطبع - ليس النص على هذا القدر من الضبط.

٢١- إنما هو خطأ - ملخص كل هذه المناقشة. - قابلة للتجزئة مطلقاً في كل جهة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - أن تنفصل - وتعمل لأنفسها مسام كما فسره فيلوبون.

الباب التاسع

تفاصيل جديدة على نظرية كون الأشياء وعلى خواصها الفاعلة والقابلة - الأفعال التي تحصل عند التماس وعلى بعد - توضيح ديمقريطس غير الكافي - تحول أشكال الأجسام إذ تتغير بالحال دون أن تتغير بالمكان - خاتمة نظرية الفعل والانفعال.

١ - أما نحن فإننا، صاعدين إلى المبدأ الذي طالما قررناه، نعيد إيضاح الطريقة التي بها الكون والفعل والانفعال تقع في الأجسام. في الواقع إذا كان شيء له الخاصة الفلانية تارة بالقوة المحضة وتارة بالفعل وبالكمال، وإذا كان يمكنه بالطبع أن يفعل في واحد معين من أجزائه ولا يفعل في الآخر ولكن في مجموعته يفعل بنسبة ما له من هذه الخاصة، فمن البين أنه سيفعل أكثر أو أقل تبعاً لما أن هذه الخاصة فيه أكثر شدة أو أقل. على هذا الوجه على الأخص قد يمكن بأكثر سهولة التسليم بوجود المسام، وتكون حالها على ذلك في الأجسام كما هو الحال في المعادن تمتد أحياناً عروق متصلة من المادة القابلة لانفعال ما.

ب ٩ ف ١ - المبدأ الذي طالما قررناه - وهو التمييز بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل كما سيرد في السطور الآتية. - بالقوة المحضة - أضفت كلمة "المحضّة" - بالفعل وبالكمال - ليس في النص إلا كلمة واحدة. فإن التمييز بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل هو أحد المبادئ الأساسية لمذهب المشائين. ولكن قد يرى أن تطبيقه هنا ليس واضحاً جداً بل ولا فاقعاً جداً لإيضاح نظرية المسام. - وإذا كان يمكنه بالطبع..... - قد تركت للجملة اليونانية طولها كله لكيلا أغير تأليفها في النص. - قد يمكن بأكثر سهولة التسليم - عبارة النص ليست على هذا القدر من البيان ولو أن عبارتي في الترجمة ليست على ما كنت أريد أن تكون من الجلاء - وتكون حالها على ذلك في الأجسام - في الحق إنها لا تكون بعد مسام بل تكون فقط بعض أجزاء من مادة الجسم أكثر قابلية من غيرها لقبول الأثر الفلاني أو الفلاني. - كما هو الحال في المعادن - المشاهدة مع ذلك حقة. وليس ولا واحد إلا شاهداها. - القابلة لانفعال ما - ليس النص على هذا القدر من البيان.

٢- على ذلك كلما كان الشيء متجانسًا وكان واحدًا كان غير قابل. ويجري هذا المجري أيضًا متى كانت الأشياء لا تتلامس بينها أو لا تلامس أغيارًا يمكنها بطبعها أن تفعل أو تنفعل، أعني مثلاً أنه ليس فقط النار تسخن بالتماس ولكنها تسخن أيضًا على مسافة لأن النار تسخن الهواء والهواء يسخن الجسم، لأن الهواء بطبعه يمكن أن يفعل وينفعل معًا.

٣- ولكن متى يقال إن شيئًا يمكن أن ينفعل في واحد من أجزائه ويمكنه ألا ينفعل في آخر؟ فينبغي إيضاح ماذا يعنى بذلك بعد الحد المعطى في المبدأ، فإذا كان في الواقع العظم ليس هو مطلقًا قابلاً للتجزئة في جميع الجهات لكن فيه شيئًا ما جسمًا كان أو سطحًا يكون غير قابل للتجزئة فيه فقد ينتج من ذلك أنه لا يوجد بعد من عظم يمكن أن يكون بأكمله قابلاً، بل قد لا يكون بعد من شيء أمكن أن يكون متصلًا. وحينئذ إذا كان ذلك

٢- كلما كان الشيء متجانسًا وكان واحدًا - أو بعبارة أخرى ألا يكون مستجمعًا للشرائط المطلوبة لينفعل أو ليحدث فعلا ما دام أن الشيء لا يمكن أن يفعل في نفسه وكان الشبيه لا يفعل في الشبيه ولا يقبل منه. - كان غير قابل - بمعزل عن كل فعل وكل انفعال أت من ذاته. - لا تتلامس بينها - بلا واسطة. - أو لا تلامس أغيارًا - تصلح إذن كوسطاء للوصول إلى الشيء الذي عليه يقع الفعل. - أن يفعل - بأن ينقل إلى الجسم الحرارة التي تلقاها. - وينفعل - بأن يقبل مباشرة حرارة النار التي يجب أن ينقلها.

٣- متى يقال - يمكن ترجمتها أيضًا «متى أقول» فإن الفرق بينهما غير بين في النص. - بعد الحد المعطى في المبدأ - قرب الترجمة من النص بقدر ما استطعت ولكن الفكرة لا تزال غامضة ولم يغن شرح فيلوبون في جلاتها شيئًا. - فقد ينتج من ذلك - عبارة النص ليست مضبوطة ولكن هذا المعنى يظهر أنه ينتج لزوماً مما يلي. - يمكن أن يكون بأكمله قابلاً - ر. الفقرة السابقة. - أمكن أن يكون متصلًا - لأن الذرات منعزلة بعضها عن بعض وما دامت منفصلة هكذا لا يمكن أن يكون لها الاتصال الذي هو ضروري لتأليف جسم. - وكان كل جسم قابلاً للتجزئة - هذه هي نظرية أرسطو المبسطة مراراً في «الطبيعة». - مقسوماً.... قابلاً للتجزئة - هذا هو ما بالفعل وما بالقوة - في نقط التماس - عبارة النص هي: «بحسب التماسات». - لا شيء مما هو محال يكون أبداً - هذا المبدأ يديهي للغاية ولكن لا يرى وجه اتصاله بما سبق. وقد أفرغت جهدي في استجلاء هذه الفقرة فلم أنجح ولم أجد الشراح بما فيهم سان توماس قد نححووا في ذلك أيضًا. وهناك تفسيراً يساعد بالأقل على تسلسل المعاني: «لكي تفسر ماهية الفعل والانفعال في الأشياء يلزم التسليم بأنه من المحال أن شيئاً يقبل فعلاً ما.» في واحد من أجزائه ولا يفعله في الجزء الآخر. فالشيء إما أن يكون بأكمله قابلاً وإما أن يكون بأكمله فاعلاً. فإذا سلم بالذرات فحينئذ يمكن ألا يكون الشيء بعد قابلاً بكليته ولكن بذلك أيضًا ينقطع عن أن يكون متصلًا. وإذن فمذهب الذرات باطل. وكل عظم هو دائماً وعلى الإطلاق قابل للقسمه دون أن يمكن الوصول إلى جزئيات لا تتجزأ. ويكاد لا يهم ما إذا كانت القسمة واقعة مادياً أو ممكنة إمكاناً مجرداً على وجه ذهني صرف. ويكفي إمكان حصولها ليكون الجسم الخارج منها له دائماً وحدته وأن يكون بالنتيجة في مجموعها إما فاعلاً وإما قابلاً».

خطأ وكان كل جسم قابلاً للتجزئة دائماً فلا يهم بعد أن يكون الجسم مقسوماً فعلاً وبهذه الصفة قابلاً للتماسات أو يكون بالبساطة قابلاً للتجزئة؛ لأنه ما دام يمكن أن يكون مقسوماً في نقط التماس، كما هو المدعى، يمكن اعتباره كأنه مقسوم حتى قبل أن يكونه ويكون قابلاً للقسمة ما دام أنه لا شيء مما هو محال يكون أبداً.

٤- وإن ما يجعل سخيلاً تماماً تقرير أن الفعل والانفعال يحصلان على هذا النحو بشق الأجسام هو أن هذه النظرية تمحو الاستحالة وتفسدها. وعلى هذا نحن نرى أن جسمًا بعينه دون أن ينقطع عن أن يكون متصلًا هو تارة سائل وتارة متجمد دون أن يقبل هذا التحول لا بقسمة أجزائه ولا باتحادها ولا بنقلتها ولا بتماسها كما يزعم ديمقريطس. لأن الجسم ما كان ليغير وضعه ولا ليغير مكانه ولا ليغير طبعه ليصير متجمداً بعد أن كان سائلاً. وليس يرى أيضاً أن الأشياء المتصلبة والمتجمدة تكون حالاً غير قابلة للقسمة في كتلتها بل الجسم ب كله يكون على السواء سائلاً وأحياناً يصير ب كله صلباً ويتجمد.

٥- وأخيراً، في هذا المذهب قد لا يمكن بعد وجود نمو الأشياء ولا اضمحلالها لأنه لا جسم يمكن أن يصير أكبر إذا لم يكن هناك إلا مجرد إضافة وإذا لم يتغير ب كله على أثر اختلاط بشيء أجنبي أو على أثر تغير ما يحصل فيه.

٤- الفعل والانفعال- النص غير محدد تماماً ولكني أحدد المعنى اعتماداً على تفسير فيلوبون.- على هذا النحو- يعني بواسطة المسام التي افترضها بعض الفلاسفة. يشق الأجسام- حفظت عبارة النص بعينها، فإن الأجسام هي بنحو ما مشققة بالمسام التي تتخللها.- تمحو..... وتفسدها- ليس في النص إلا كلمة واحدة.- الاستحالة- يعني أن في هذا المذهب لا يمكن إدراك ظاهرة الاستحالة.- دون أن ينقطع عن أن يكون متصلًا- ليس النص على هذا القدر من الصراحة.- تارة متجمد يضرب فيلوبون مثلاً لذلك اللبن الذي هو تارة سائل وتارة متجمد. وقد يمكن الظن كبعض الشراح أن المقصود أيضاً هو الماء فإنه تارة سائل وتارة جليد.- يتماسا- على تقدير بأجسام أخرى.- كما يزعم ديمقريطس- وفي الحق هذه هي كل ما ينسبه ديمقريطس إلى الذرات من الخواص.- متجمداً- أو جليداً.- حالاً- أي في النظام الحالي للطبع.- غير قابلة للقسمة في كتلتها- يفهم سان توماس من هذا أنه لا حاجة بأن تتجمد الأشياء أو تتجلد إلى أن تدخلها ذرات غير قابلة للقسمة بل هي تكاد هذا التغير في جوهرها الذاتي على السواء- أي في جميع أجزائه بدون أن بعضها يعاني التغير الذي تقاومه الأخرى.

٥- في هذا المذهب- أضفت هذه الكلمات لتبيين الفكرة.- قد لا يمكن بعد وجود- يعني أنه لا يمكن توضيح ما هو نمو الأشياء أو اضمحلالها.- إلا مجرد إضافة- بأن تأتي الذرات فتتضم إلى الجسم لتنميه وتزيد حجمه أو أنها تنسحب منه لتتقصه أو لتهلكه- بشيء أجنبي- أضفت الكلمة الأخيرة.- يحصل فيه- النص ليس على هذا القدر من الضبط.

٦- ونحن نقصر على ما أتينا به من القول فيما يتعلق بكون الأشياء وفعلها وتناسلها وتحولاتها المتكافئة. وهذا يكفي على سواء ليفهم على أي النواحي هذه النظريات تكون ممكنة وكيف لا تكونه بحسب الإيضاحات التي أعطيت عنها أحياناً.

٦- نقصر - هذا ملخص مضبوط لكل هذا الباب والأبواب السابقة من أول الباب السابع. وإن أرسطو بعد أن أفسح مكاناً لتوضيح المذاهب الأخرى لم يكده يفسح لمذهبه الخاص من الإيضاح ما كان يستدعيه من البيان والإطناب.

الباب العاشر

نظرية الاختلاط - من الفلاسفة من أنكر أن الأشياء أمكنها أن تختلط فيما بينها - إبطال هذه النظرية - المعنى العام لشروط الاختلاط - الطبع المختلف للأجسام المختلطة - الفرق بين الاجتماع وبين الاختلاط الحق - لكي يوجد اختلاط بين الأشياء يلزم أن يوجد بينها تجانس بل شيء من التناسب - النقطة من النيذ في كمية من الماء - سهولة الاختلاط أو صعوبته تبعاً للتخالف في طبع الأشياء وصورتها - خاتمة نظرية الاختلاط.

١ - بقي علينا أن ندرس ما هو اختلاط الأشياء. وستتبعها هنا النمط عينه كما فيما سبق لأن هذا هو ثالث الموضوعات التي تصدينا لفحصها في بداية هذه البحوث. يلزم إذن أن ننظر ما هو الاختلاط وما هو الشيء القابل لأن يخلط وما هي الأشياء التي يمكن أن يقع الاختلاط بينها وكيف تتحقق هذه الظاهرة.

٢ - ومن جهة أخرى يمكن أيضاً أن يتساءل عما إذا كان يوجد حقيقة بالفعل اختلاط للأشياء أو أن هذا ليس إلا ضلالاً. لأنه يمكن أن يظن أن شيئاً لا ينبغي ألته أن يختلط بآخر كما يزعم بعض الفلاسفة. يقولون إنه في الواقع حينما الأشياء التي اختلطت تبقى بعد

ب ١٠ ف ١ - ثالث الموضوعات - أي مع الكون والفساد ومع الفعل والانفعال - في بداية هذه البحوث - فيما سبق ب ١ ف ١ لم يتكلم أرسطو إلا على الكون والنمو والاستحالة. - وكان يظهر أن هذه الثلاثة الموضوعات التي عول على الاشتغال بها. ولست أرى أنه قيمة في أي موطن آخر على نظرية الاختلاط. - ما هو الاختلاط - الأسئلة الموضوعة هنا على الاختلاط هي مماثلة للأسئلة التي وضعت فيما سبق على الكون ب ١ وعلى الفعل ب ٧. ومن هذه الجهة فإن المؤلف مصيب في قوله إنه يتبع النمط الذي اتبعه من قبل.

٢ - ومن جهة أخرى - من المذاهب ما ينكر أن اختلاط الأشياء ممكن البتة. وتلك المذاهب هي على ما يظهر تلك النظريات التي يلزم مناقشتها بادئ بدء لأنها تذهب إلى حد هؤلاء الفلاسفة بالضبط. - يقولون - أضفت هذه الكلمة التي تفهم من السياق ما دام إنكار المسألة والقضاء عليها. بعض الفلاسفة - لا شيء يعين في هذا الباب من هم. إن الذي سيعدد فيما يلي إنما هي الأدلة على نفي إمكان الاختلاط. - يزيدون.... على ذلك أضفت هذه الكلمات للسبب المتقدم.

أيضاً ولم تكن لتستحيل لا يمكن أن يقال إنها الآن أكثر اختلاطاً مما كانت من قبل. ولكنها دائماً في الحال بعينها. فإذا أخذ أحد الشيئين أن يبيد في الاختلاط لا يمكن بعد أن يقال إنهما اختلطا ولكن فقط أن أحدهما يوجد وأن الآخر لا يوجد بعد، في حين أن الاختلاط لا يمكن في الحق أن يقع إلا بين شيئين يوجدان على السواء. ويزيدون، أخيراً، على ذلك أنه لا يوجد بعد اختلاط، بهذا السبب عينه، إذا كان الشيئان اللذان يجتمعان يفسدان كلاهما بالاختلاط لأنه من المحال قطعاً أن أشياء لم تكن بعد ألبتة يمكنها أن تختلط.

٣- هذه النظرية، كما يرى، الغرض منها أن يتعين في ماذا يختلف اختلاط الأشياء عن كونها وعن فسادها، وأيضاً في أي شيء يختلف الشيء المختلط عن الشيء الكائن وعن الشيء الفاسد، لأنه من البين أنه ينبغي أن يكون الاختلاط مغايراً بافتراض أنه واقع بالفعل. ومتى وضحت هذه المسائل تنحل المسائل التي وضعناها لأنفسنا من قبل.

٤- ذلك هو السبب في أنه لا يمكن أن يقال إن المادة اختلطت بالنار التي أحرقتها حتى، ولا أنها تختلط بها وقت ما تحرقها، كما أنه قد لا يمكن أن يقال إنها تختلط بنفسها في أجزاء النار كما لا تختلط بالنار نفسها. بل يقال ببساطة أن النار تكونت وأن المادة القابلة للاحتراق قد فسدت. كما أنه لا يمكن أيضاً أن يقال لا عن الغذاء ولا عن صورة

٣- عن كونها وعن فسادها- ر. ما سبق ب ١ وما يليه. - ومتى وضحت هذه المسائل - تلك هي أدلة الفلاسفة الذين ينكرون الاختلاط. - تنحل المسائل التي وضعناها لأنفسنا من قبل - في بداية هذا الباب عينه.

٤- ذلك هو السبب. - هذا فرق بين الاختلاط وبين الكون أو الفساد. - المادة - حصلت كلمة النص بعينها، ولكن المادة هنا معناها الجسم القابل للاحتراق: الخشب أو أي مادة أخرى تغذي النار. - إنها تختلط بنفسها - يعني أن الخشب يختلط بالخشب. - في أجزاء النار - أضفت الكلمة الأخيرة. - كما لا تختلط بالنار نفسها - قد اتقيت بقدر ما استطعت التكرير الموجود في النص واعتمدت في إيضاح هذه الفقرة كلها على تفسير فيلوبون تكونت.... فسدت - حصل فيه كون لأحدهما وفساد للآخر ولكنه لم يحصل فيه اختلاط. - كما أنه لا يمكن أيضاً أن يقال - هذا فرق بين الاختلاط وبين الزيادة - صورة الخاتم - أضفت الكلمة الأخيرة التي يدل عليها السياق فيما يلي. وربما كان اختيار المثليين غير حسن لأن الغذاء يمكن أن يعتبر كأنه مختلط بالجسم الذي ينميه. ولكن بالبديهة طابع الخاتم لا يختلط به. - لا الجسم ولا البياض - حفظت عبارة النص على إيجازها. فإن البياض والجسم الذي هو أبيض لا يختلطان ولكن البياض هو في الجسم. - كيفيات الأجسام وتغايرها - التي هي في الأشياء ولكن بدون أن تختلط بها. - إن الاثنين يبقيان عبارة النص أكثر إبهاماً، ويجب أن يعني بالاثنتين الجسم والصفات التي تكيفه - البياض والعلم - يعني كيفين عوضاً عن جسم وكيف. - الكيفيات أو الخواص النص غير محدد البتة. - التي ليست قابلة للانفصال - على تقدير "عن الموضوعات التي هي فيها" وكل هذه الفقرة مغلقة جداً بل ربما كانت دقيقة فيما يظهر.

الخاتم أن الأولى باختلاطها بالجسم والثانية باختلاطها بالشمع قد أعطتا شكلاً ما للكتلة بتمامها. ينبغي الاعتراف أيضاً بأنه لا الجسم ولا البياض ولا بالاختصار، كصفات الأجسام وتغايرها يمكنها أن تختلط بالأشياء ما دام أنه يرى على الضد من ذلك أن الاثنين يقيان. كذلك أيضاً البياض والعلم في الواقع لا يمكنها أن يركبا خليطاً ولا أيضاً أي واحد من الكيفيات أو الخواص التي ليست قابلة للانفصال.

هـ - وأيضاً يخدع نفسه من يقرر أن الأشياء جميعها كانت سابقاً مندمجة وأن الكل قد وجد مختلطاً لأن كلا لا يمكن أثبتة أن يختلط بكل على السواء. يلزم دائماً أن كلا الشئيين اللذين يختلطان يمكن أن يبقى على حدة. وحينئذ فإن كصفات الأشياء لا يمكنها أن تكون منفصلة عنها أبداً. ولكن لما أن من بين الأشياء بعضها تكون بالقوة المحضة والآخر بالفعل المحض فينتج من ذلك أن الأشياء التي تختلط يمكنها من جهة أن تبقى بعد ومن جهة أخرى ألا تبقى. فإذا كان في الواقع الخليط الحاصل من الاختلاط هو شيئاً مخالفاً فإنه يكون كذلك دائماً بالقوة للشئيين اللذين كانا يوجدان قبل أن يختلطا وقبل أن ينعدم في الخليط. وهذا إنما هو على التحقيق الجواب على المسألة التي أثارها النظرية التي تكلمنا عليها آنفاً. ويظهر أن الأخلاط تتألف من أشياء كانت من قبل منفصلة ويمكن أن تكون أيضاً من جديد. وعلى ذلك الأشياء المختلطة لا تبقى بالفعل كما يمكث ويبقى الجسم والبياض الذي يشخصه. وليست هي كذلك تكون فاسدة، سيان أحد الاثنين على حياله والاثنان جميعاً معاً ما دامت قوتهما محفوظة دائماً.

هـ - وأيضاً يخدع نفسه - هذا نقد موجه إلى أنكساغوراس الذي كان يرى أن جميع الأشياء في الأصل كانت مختلطة في العماء قبل أن يأتي العقل ويرتب العالم. ر. الطبيعة لك ١ ب هـ ٤؛ حيث تنقض نظرية أنكساغوراس ص ٤٥٥ من ترجمتنا. - كصفات الأشياء - ر. الفقرة السابقة. - بالقوة المحضة... بالفعل لنخص - أضفت الصفتين. - شيئاً مخالفاً للشئيين اللذين يكونان الخليط. - في الخليط - أضفت هاتين الكلمتين. - الجواب على المسألة - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - التي تكلمنا عليها آنفاً - في أول هذا الباب. - أيضاً من جديد - بعد أن حصل الخلط. - الذي يشخصه - أضفت هاتين الكلمتين قوتهما. يعنى إمكان رجوعهما إلى ما كان علينا قبل الاختلاط.

٦- ولكن لندع هذا إلى ناحية ولننتقل إلى المسألة الآتية التي تنحصر في معرفة ما إذا كان الاختلاط هو شيئاً يمكن حواسنا أن تدركه. مثال ذلك حينما الأشياء المختلطة تكون مقسومة إلى أجزاء من الصغر بمكان وتكون موضوعة على قرب بعضها عند بعض حتى لا يعود أحدها متميزاً من الآخر بوجه محسوس فهل يوجد فيها حينئذ اختلاط أو لا يوجد؟ ولكن أليس ممكناً أيضاً أن في الخلط الأشياء كيفما اتفقت تكون موضوعة أجزاء أجزاء بعضها بجانب الأخرى؟ لأن هذا يسمى أيضاً اختلاطاً وعلى هذا النحو يقال إن التبن مختلط بالحب حينما يكون موضوعاً بجانب كل حبة تبنه.

٧- إذا كان جسم هو قابلاً للتجزئة وإذا كان جسم متى كان مختلطاً بجسم آخر يجب أن يكون مجانساً له فقد يلزم أن كل جزء اتفق من الخليط ينضم إلى جزء آخر اتفق. ولكن بما أن الجسم لا يمكن أثبتة أن يكون مقسوماً إلى أجزائه الصغرى وبما أن الانضمام ليس هو أثبتة الاختلاط بل هو شيء آخر تماماً فبالبين لا يمكن أن يقال بعد إن الأشياء اختلطت متى حفظت ذواتها على ما كانت في جزئيات صغيرة. حينئذ يكون الضم ولكن لا يكون

٦- المسألة الآتية- يعني التي ترتبط بالمسائل التي تقدمتها والتي هي بقية لها يمكن حواسنا أن تدركه- ربما كانت المسألة على هذا الوجه غير موضوعة وضعاً حسناً فإن الاختلاط هو دائماً قابل لأن تدركه حواسنا ولكن حواسنا تارة تميز العناصر التي تركب منها الخليط وتارة لا تميزها. - مثال ذلك- ليس النص واضحاً هكذا. - بوجه محسوس أو «بحواسنا». - هل يوجد فيها حينئذ اختلاط أو لا يوجد؟- هذا هو أول أنواع الاختلاط فإن الحواس لا يمكنها بعد أن تميز العناصر التي ركبته. - ولكن أليس ممكناً أيضاً- أحببت أن أصوغ هذه الجملة في صيغة الاستفهام حتى تكون مقابلة للجملة التي سبقتها. وهذا هو التعبير الثاني للاختلاط فإن الشئيين يبقيان باعتبار أن أجزاءهما إنما اجتمعت بعضها إلى بعض. - التبن مختلط بالحب- المثل في غاية الوضوح وهذا المثل ليس البتة كمزج الماء والنيبذ إذ أن فيه أحد السائلين لا يمكن مطلقاً تمييزه عن الآخر كما كان ذلك مفروضاً في الإيضاح الأول.

٧- إذا كان جسم هو قابلاً للتجزئة- يظهر أن هذا هو رد من أرسطو على النظريتين السابقتين. وعلى هذا الوجه فهم فيلويون وسان توماس هذه الفقرة. ولكن المعارضة ليست بيناً في النص الذي بقي غامضاً على رغم جهدي في استجلائه ولم أستطع أن أجعل الترجمة أجلى منه بكثير. - إلى أجزائه الصغرى- يعني أن القسمة لا يمكن أن تصل إلى جواهر فردة وأنها (أي القسمة) ممكنة دائماً كما يقرره أرسطو بالأقل في الذهن إن لم تكنها في الخارج- الانضمام- يمكن ترجمتها أيضاً التأليف. - في جزئيات صغيرة- كالحب والتبن اللذين من الكلمتين اللتين استعملتهما في الترجمة. - اختلاط حقيقي- أضفت كلمة حقيقي زيادة في بيان الفكرة. - الشيء الخليط- يعني الناتج المتحصل من الاختلاط. - جزئيات إلى جزئيات- ليس النص على هذه الصراحة. ولا واحد من الأحداث التي أتينا على تحليلها جعل النص على هذه الصراحة. - في نظر الأعين- لا في الواقع.

لا خلط ولا مزج، وحده جزء من الخليط لا يمكن بعد أن يكون هو الحد الذي قد يعطى للخليط بتمامه. أما نحن فنقول إنه لكي يوجد اختلاط حقيقي يلزم أن الشيء الخليط يكون مركباً من أجزاء متجانسة، وكما أن جزءاً من الماء هو ماء كذلك أيضاً يجب أن يكون أي جزء اتفق من الخليط. ولكن إذا لم يكن الاختلاط إلا انضمام جزيئات إلى جزيئات فليس يوجد ولا واحد من الأحداث التي أتينا على تحليلها. وانما يكون فقط في نظر الأعين أن الشئيين يظهر أنهما مختلطان. وكذلك الشيء عينه يظهر مخلوطاً للرائي فلان الذي ليس له نظر نفاذ في حين أن "لينسيه" يجد أن ليس هناك اختلاط.

٨- إن التجزئة لا تفسر الاختلاط كما لا يفسره اجتماع جزء اتفق بجزء آخر ما دامت التجزئة لا يستطيع حصولها بهذه الطريقة.

وحينئذ إما ألا يكون اختلاط ممكناً وإما أنه يلزم اتخاذ نحو آخر من النظر لكي ييسط كيف يمكن أن تقع هذه الظاهرة. ولنذكر بداية أن من بين الأشياء، كما قلنا، بعضها فاعلة والأخرى قابلة لفعل تلك، بعضها له تأثير مكافئ وهي تلك التي مادتها واحدة بما هي مستطبعة أن تفعل بعضها في الأخرى أو تنفعل بعضها بالأخرى على السواء. وأخرى تفعل مع بقائها غير قابلة للانفعال وتلك هي التي مادتها ليست واحدة وهذه ليس فيها اختلاط ممكن. من هذا يرى كيف أن الطب لا يختلط بالأجسام ليفعل الصحة ولماذا الصحة لا تختلط به أيضاً.

٩- بل من بين الأشياء التي يمكنها أن تفعل وتنفعل على طريق التكافؤ كل تلك التي

٨- إن التجزئة لا تفسر الاختلاط، النص غير محدد، وقد اخترت المعنى الذي عييه فيلوبون. كما لا يفسره اجتماع- الشأن هنا كما في الملاحظة السابقة- ما دامت التجزئة لا يستطيع حصولها- يعني أنها تقف عند حد الذرات أو الأجزاء التي لا تتجزأ التي لم يقبلها أرسطو البتة- اتخاذ نحو آخر من النظر- ليس في النص إلا كلمة واحدة مبهمة وقد ظننت أنه يجب عليّ تحديد المعنى- ولنذكر بدياً- أضفت هذه الكلمات التي تدل القرينة على مفهومها- كما قلنا- ر. ما سبق في الباب السابع- الطب- يظهر لي أن في اختيار المثل شيئاً من الغرابة وقد نبه فيلوبون مثل هذا التنبيه.

٩- التي تكون سهلة التجزئة- كنقطة من الماء في كمية من النبيذ- نموّاً- مهما كان ضعيفاً مع ذلك بنسبة الأشياء المختلطة- للنصر الغالب- في المزيج النهائي. فالمزيج لا يصير- ليس النص على هذا القدر من الضبط- مطلقاً - أضفت هذه الكلمة.

تكون سهلة التجزئة، حينما يختلط منها عدد عظيم بعدد قليل من أشياء آخر وكمية عظيمة بكمية أقل عظمًا لا تنتج على التحقيق اختلاطًا بل نموًّا للعنصر الغالب. وحينئذ أحد الشئيين المختلطين يتغير في الذي هو غالب. على ذلك نقطة من النبيذ لا تمتزج بكمية من الماء تكون عشرة آلاف ضعف. لأنه في هذه الحالة النوع يتحلل ويتغير بتلاشيهِ في كتلة الماء كلها. ولكن متى كانت الكميتان متساويتين تقريبًا فحينئذ كل عنصر يفقد من طبعه ليأخذ من طبع العنصر الذي هو أغلب. فالمزيج لا يصير واحدًا منهما مطلقًا بل يصير شيئًا وسطًا ومشتريًا.

١٠ - فبين إذن أنه لا يكون اختلاط إلا حينما تكون الأشياء التي تفعل لها مقابلة ما بينها لأنها إذن يمكن أن تقبل تأثيرًا ما بعضها من بعض. ومن الأشياء الصغيرة ما يزيد اختلاطها بالأشياء الصغيرة باقترابها منها لأنها حينئذ تتدخل بأسرع وبأسهل بعضها في بعض. ولكن كمية كبيرة تحت فعل كمية كبيرة أيضًا لا تنتج هذه النتيجة إلا مع الطولى.

١١ - على ذلك بين الأشياء القابلة للتجزئة والمنفصلة الأشياء التي تتحدد بسهولة يمكنها أن تختلط. لأن هذه الأشياء تنقسم بلا عناء إلى أجزاء صغيرة. وهذا إنما هو

١٠ - مقابلة ما - عبارة النص هي «تضاد». - يمكن أن تقبل تأثيرًا ما - في حين أنها تحدث فعلًا ما. يزيد - أعني بأكثر سهولة وبأسرع ما يكون كما يدل عليه الكلام الآتي. - لا تتج هذه النتيجة - أو «الاختلاط».

١١ - القابلة للتجزئة والمنفصلة - يعني التي يمكن بسهولة أن تنقسم وأن تقبل فعلًا ما بعضها من قبل البعض الآخر. وربما كان يلزم أن يقال «فاعله» بدل «قابلة للقسمة»، ولكن ليس ولا نسخة واحدة تعطي هذا التصحيح. - التي تتحدد بسهولة - مثل السائل الذي ضرب فيما يلي يوضح تمامًا ماذا يعني بهذا. - يتعين ويتحدد - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - الأجسام الدبقة - عبارة النص غير محددة ولكن المعنى الذي اتخذته هو الذي اتخذته فيلويون. وبدل من الأجسام الدبقة قد يمكن أن يفهم أن المقصود هو السوائل على العموم التي بامتزاجها تصير الكمية الكلية أكثر عظمًا. - ولكن حينما يكن أحد الشئيين المختلطين - ليس النص على هذا القدر من البيان. - هو وحده المنفصل - على تقدير «في المزيج». ولكن العبارة غير جلية ويجب أن يفهم أن أحد الجسمين الممزوجين يفعل بشدة في الآخر ويبتلع بحيث يلاشيهِ. - حائرة - النص هنا يتخذ عبارة مجازية محضة فإنه يقول: «رتي» ولم أجد ما يقابلها في لغتنا. وذلك مجاز جريء ويظهر أن فيلويون دهش له أيضًا، على أن المثل المضروب لذلك يفهم معنى هذه النقطة. - إلا اختلاطًا ناقصًا - وحينئذ لا يكون هذا اختلاطًا حقيقيًا ما دام أن أحد الجسمين يتلاشى بالكلية تقريبًا. - هو الصورة - أو النوع. - اللذين سميا - زدت هاتين الكلمتين لإتمام المعنى. - كمجرد تغير بدون مادة - يعني الصورة أو النوع التي تكيف الخليط من غير أن تغير مادته مطلقًا وهذا يظهر أنه غاية في الدقة والخفاء. - لوًا ما - الذي ليس هو لون القصدير والذي لا يحيل لون النحاس إلا بعض الشيء.

بالتحقيق ما يعني بقولنا تتحدد بسهولة. مثال ذلك السوائل من بين جميع الأجسام هي الأكثر قابلية للمزج لأن السائل من بين الأشياء القابلة للتجزئة هو الذي يتعين ويتحدد بأسهل ما يكون بشرط ألا يكون دقيقًا. فإن الأجسام الدبقة لا تزيد على أن تصير جملة الحجم أضخم وأعظم ولكن حينما يكون أحد الشيئين المختلطين هو وحده المنفعل أو أنه يكونه كثيرًا وأن الآخر يكونه قليلًا جدًا فالخليط الناتج من الاثنين إما ألا يكون أعظم ألبتة أو ألا يكاد يكونه. وهذا هو ما يقع بالنسبة للقصدير مختلطًا بالنحاس لأنه يوجد بعض أجسام حائرة بعضها بالنسبة للبعض الآخر وهي تكون من طبع مشكل. فيمكن أن يلاحظ أن تلك الأجسام لا تختلط إلا اختلاطًا ناقصًا وإلى حد معين. فقد يقال إن أحدهما هو مجرد مأوى في حين أن الآخر هو الصورة. وهذا على التحقيق هو ما يحصل بالنسبة لهذين الجسمين اللذين سميا آنفًا. لأن القصدير الذي هو كمجرد تغير للنحاس بدون مادة يكاد يتلاشى بالتمام وينعدم بالخليط الذي لا يعطيه إلا لونًا ما. وتحصل الظاهرة عليها أيضًا بالنسبة لأجسام أخرى.

١٢- فيرى إذن بحسب جميع التفاصيل المتقدمة أن الاختلاط ممكن وأنه هو ما هو ويرى كيف يكون وما هي الأشياء التي بينها يمكن أن يحصل وهي تلك التي يمكنها أن تسيل من بعضها من قبل البعض الآخر والتي هي قابلة للتحديد بسهولة وقابلة للتجزئة بسهولة، وأن الجواهر من هذا القبيل ليست تفسد ضرورة في الاختلاط ولكنها لا تبقى فيه بعد مطلقًا بأعيانها، فإن اختلاطها ليس مجرد ضم وأن الجسمين لا يكونان بعد مدركين

١٢- فيرى إذن - محصل مضبوط لكل نظرية الاختلاط. - إن الاختلاط ممكن - ر. ما سبق ف ٢. - هو ما هو بحسب النظريات الخصوصية لأرسطو، هذا هو موضوع كل هذا الباب. - قابلة للتحديد بسهولة وقابلة للتجزئة بسهولة - كالسوائل. - ليست تفسد ضرورة - لأنها تبقى فيه بالقوة. وإن الجسمين لا يكونان بعد مدركين بالحواس - ليس النص على هذا القدر من الضبط. ولكن المعنى الذي اتخذته ينتج مما قيل سابقًا في الفقرة السابعة. فإن التبن والحب ليس مختلطين بالمعنى الخاص ولكنهما منضممان. - يقال على شيء أنه مختلط - هاك التعريف الحقيقي للاختلاط على رأي أرسطو. - يكون وإياه من تسعة أسماؤها (سو موبيم) - ر. وبعض ناشري الكتاب يقول "متجانسًا له" «هو مجين» وهذه ربما كانت أحسن ويظهر أن سان توماس اختارها. - والحاصل - النص ليس على هذا القدر من الصراحة.

بالحواس. ولكن يقال على شيء أنه مختلط متى كان وهو مستطيع أن يتحدد بسهولة
يمكنه أن يفعل وينفعل معًا وأنه يختلط بشيء له أيضًا هذه الخواص أعيانها لأن الشيء
المختلط لا يكونه ألبته إلا بالإضافة إلى شيء يكون وإياه من المتفقة أسماؤها (هو
مُؤنيم). والحاصل أن الاختلاط هو اجتماع الأشياء المختلطة مع استحالة لها.

الكتاب الثاني

الباب الأول

نظرية عناصر الأجسام - عددها - شاهد من أميدقل - المادة ليست منفصلة عن الأجسام كما هو في طيماوس أفلاطون فيما يظهر - نقض هذه النظرية - أنها حقة بجزئها باطلة بالجزء الآخر - شاهد من المؤلفات المختلفة السابقة - نظرية جديدة على المبادئ العنصرية للأجسام - طبعها وعددها.

ف ١ - سبق الكلام على الاختلاط وعلى التماس وعلى الفعل وعلى الانفعال ووضح كيف أن هذه الظواهر تقع في الأشياء التي تكابد تغيرات طبيعية. وقد عولج زيادة على ذلك كون الأشياء وفسادها المطلقان وبين بأي طريقة وفي أي الأحوال ولماذا هما يحدثان. وقد درست على السواء الاستحالة وحالة الوجود المستحيل. وفي النهاية قد بينت فصول كل واحدة من هذه الظواهر. والآن يبقى علينا أن ندرس ما يسمى عناصر الأجسام؛ لأن الكون والفساد في كل الجواهر التي تركيبها الطبيعة لا يمكن أن يظهرها بدون الأجسام التي تدرکہا حواسنا.

١-ك ٢ ب ١ ف ١ - سبق الكلام على الاختلاط - تلخيص لكل ما سبق في الكتاب الأول فإن نظرية الاختلاط قد عرضت في الباب العاشر منه. - وعلى التماس - لم يكن ذكر التماس إلا عرضاً لأنه لم يفرد للتماس نظرية خاصة. ر. ك ١ ب ٦ - وعلى الفعل وعلى الانفعال - ر. ك ١ ب ٦ و ٧ وما يليهما - التي تكابد تغيرات طبيعية - بصرف النظر على التغيرات التي تحدثها الصناعة أو إرادة الإنسان ر. ما سبق ك ١ ب ١ ف ١ - كون الأشياء وفسادها المطلقان - ر. ك ١ ب ١ و ٣ وما بعدها. - الاستحالة وحالة الوجود المستحيل - ر. ك ١ ب ٤ - فصول كل واحدة من هذه الظواهر - في أثناء بيان كل واحدة من تلك النظريات الخاصة قد بينت الفصول التي تفصل كل واحدة من الظواهر التي كانت على التعاقب موضع الدرس.

٢- من الفلاسفة من يزعمون أن جميع العناصر مكونة من مادة واحدة بالحقيقة والعدد ويفترضون أنها هي الهواء أو النار أو جسم ما وسط بينهما جاعلين هذه المادة جسمًا جوهريًا متميزًا تمامًا ومنفصلًا. وآخرون يرون أنه يوجد أكثر من عنصر واحد ويقبلون حينئذ على السواء، هؤلاء النار والأرض، وأولئك الهواء ثالثًا مع العنصرين المتقدمين. وآخرون مثل أمبيدقل يزيدون الماء كعنصر رابع. وفي هذه المذاهب المختلفة إنما هو باجتماع هذه العناصر وافتراقها أو استحالتها يعلل كون الأشياء وفسادها.

٣- فلنسلم بلا أدنى صعوبة أن هذه الأوليات للأشياء يمكن بغاية الموافقة أن تسمى مبادئ وعناصر وأنه إنما بتغيرها بتجزئة أو تركيب متكافئ أو أي نوع آخر من التغيير الذي تعانيه يأتي كون الأشياء وفسادها. ولكن يخدع المرء نفسه بالتسليم بأنه يوجد مادة واحدة بعينها خارج جميع العناصر وجعلها منفصلة وجسمانية. لأن من المحال أن هذا الجسم إذا كان مدرجًا بحواسنا يمكن أن يوجد من غير أن يعرض أضدادًا ما. ويلزم ضرورة أن هذا اللامتناهي الذي اتخذه بعض الفلاسفة مبدأ لهم يكون خفيفًا أو ثقيلًا باردًا أو حارًا.

٤- ولكن الطريقة التي شرح بها هذا المبدأ في «طيماوس» ليس فيها شيء من الضبط لأنه لم يقل على وجه جلي ما إذا كان هذا الأصل لجميع الأشياء متميزًا ومنفصلًا عن

٢- هي الهواء- كما كان يعتقد ديوجين الأبلوني وأنكسيمين-. أو النار كما كان يعتقد هيرقليطس اليفيزوسي وهيباس كما روى فيلوبون-. جسم ما وسط كان هذا مذهب اكسيمندروس الذي كان يفترض عنصرًا خامسًا أخذًا من طمع الأربعة الأخرى وهذا مع ذلك متميز عنها ز-. جاعلين هذه المادة- ليس النص على هذا القدر من الصراحة-. هؤلاء النار والأرض- كما هو مذهب برمينيد-. وأولئك الهواء ثالثًا- مع العنصرين- ذلك كان مذهب يون الشيوزي إذا صدق تفسير فيلوبون-. مثل أمبيدقل- إنما هو دائمًا أمبيدقل الذي ينسب إليه ارسطو نظرية العناصر الأربعة ر. أيضًا الطبيعة ك ٣ ب ٧ ف ٩ وما بعدها من ترجمتنا.

٣- هذه الأوليات للأشياء- حفظت عبارة النص بذاتها-. أي نوع آخر من التغيير مثلًا لا يمكن إلا الاستحالة عند المذاهب التي لا تقبل إلا عنصرًا واحدًا لأنه بتغير هذا العنصر الوحيد إلى ما لا نهاية له تتكون جميع الظواهر الأخرى-. وجسمانية- هذه هي ترجمة الكلمة الواردة في النص بالضبط-. إذا كان مدرجًا بحواسنا- ويجب أن يكونه ما دام أنه جوهري ومنفصل عن جميع الأخرى-، من غير أن يحرض أضدادًا ما- عبارة النص هي «بلا تضاد»-. هذا اللامتناهي - أو «هذا غير المحدود».

٤- هذا الأصل لجميع الأشياء ر. ترجمة طيماوس أفلاطون لكوزان ص ١٥٢. - متميزًا ومنفصلًا عن العناصر- النقد حق ان لم يكن مهما جدا-. على الأسبقية أضفت هاتين الكلمتين-. موضوع المصنوعات الذهبية ر. طيماوس ص ١٥٤ =

العناصر. والمحقق هو أن طيماوس لم يرجع في واحد منها إلى هذا المبدأ ولو أنه قال مع ذلك أنه الموضوع السابق لكل ما يسمى بالعناصر كما أن الذهب هو على الأسبقية موضوع المصنوعات الذهبية. ومع ذلك فإن هذا الإيضاح ليس حسنًا على الصورة التي ألقى بها إلينا. فإنه يجوز تمامًا انطباقه على الحالات التي يوجد فيها استحالة بسيطة، ولكن بالنسبة للحالات التي فيها كون وفساد يكون محالًا أن تسمى الأشياء بالتي منها تأتي. صدق طيماوس إذ يقول إنه لا دخل في باب الخلق أن يقرر أن كل مصنوع من الذهب هو ذهب لكن مع أن عناصر الأشياء تكون جامدة فإنه يجاوز بتحليلها إلى حد السطوح. ومحال أن سطوحًا تكون المادة الأولية التي يكلموننا عنها.

٥- نحن أيضًا نعترف أنه يوجد مادة ما للأجسام التي تدر كها حواسنا ولكن هذه المادة التي منها يأتي ما يسمى بالعناصر ليست منعزلة ألبتة بل هي توجد دائمًا مع أضداد. على أن هذا الموضوع قد درس في موطن آخر بأوسع من ذلك وأضبط.

= من ترجمة كوزان. - على الصورة التي ألقى بها إلينا- وفي الواقع أن طيماوس لا يتكلم إلا على التصاوير المتعاقبة لسبيكة الذهب ولا يتكلم البتة على كونها الأصلي. أن تسمى الأشياء- التعبير ليس واضح البيان، وهو بعينه الذي استخدمه طيماوس في هذا الموضع. فإنه يمكن أن يقال على الشيء المصنوع من سبيكة الذهب إنه ذهب ولكن بالنسبة للشيء الذي يتكون والذي يتولد من لا شيء لا يمكن أن يعطى اسم الشيء الذي خرج منه ما دام أنه لم يأت من شيء آخر. - التي منها تأتي- إذا كان الأمر بصدده الكون“ والتي إليها تنعدم“ إذا كان الأمر بصدده الفساد. - صدق طيماوس- ليس النص على هذه الصراحة. لا دخل في باب الخلق أن يقرر- ر. طيماوس لأفلاطون ص ١٥٤ ترجمة كوزان. - إلى حد السطوح- ر. كتاب السماء ك ٣ ب ٧ وما بعده. فإن أفلاطون لما حلل الأجسام إلى سطوح قد نزع منها كل حقيقة. وإن التحليل البالغ إلى هذا الحد البعيد قد أفسدها- يكلموننا عنها- أضفت هذه الكلمات.

٥- نحن أيضًا نعترف- ليس النص على هذا القدر من الضبط. - منها يأتي ما يسمى بالعناصر- هذه الفكرة لا تظهر أنها عريقة في الصحة. - وإن المراد بالمادة هنا إنما هو حال منطقية للأجسام أكثر منه حالًا حقيقية. فقد يمكن حينئذ أن هذه الجملة لم تكن ألا تذييلًا أضافه إلى النص بعض المفسرين. ومع ذلك فإن هذه الجملة موجودة في نص فيلوبون. - ليست منعزلة البتة وباقية على طريق الاستقلال عن الأجسام كالمادة التي أخطأ أفلاطون، على رأي أرسطو، في قبولها. - مع أضداد- فإن المادة لها دائمًا كيف يميزها لا انفكاك لها عنه- في موطن آخر- في الطبعة ك ١ ب ٨ خصوصًا ص ٢٠ ص ٤٨٤ من ترجمتنا. وفي كتاب السماء ك ٣. - بأوسع من ذلك وأضبط- ليس في النص إلا كلمة واحدة.

٦- على أنه لما أن الأجسام الأول يمكن أيضًا بهذه الطريقة أن تأتي من المادة فيلزم التكلم على هذه الأجسام الأول مع التسليم بأن المادة هي المبدأ والمبدأ الأول للأشياء ولكنها غير منفصلة عنها وأنها موضع الأضداد . فإن الحار مثلاً ليس هو مادة البارد كما أن البارد ليس مادة الحار . ولكن المادة هي موضوع الاثنين .

٧- حينئذ بادئ بدء الجسم الذي هو مدرك بالقوة بإحساسنا هذا هو المبدأ ثم بعد ذلك تأتي الأضداد كالحار والبارد مثلاً . وفي المقام الثالث النار والماء والعناصر الأخرى المتشابهة . هذه الأجسام كلها تتغير تغيراً بعضها إلى بعض ولكن لا بالطريقة التي يقول بها أمبيدقل وفلاسفة آخرون ، لأنه بحسب نظرياتهم قد لا يكون بعد حتى ولا الاستحالة ، وإنما هي المقابلات بالأضداد هي التي لا تتغير بعضها إلى بعض . على أنه لما كانت تلك هي مبادئ الأجسام فلا بد مع ذلك من دراسة كيفياتها وعددها لأن الفلاسفة الآخرين استخدموا ذلك في مذاهبهم بعد أن قبلوها على طريق افرض ولكنهم لا يقولون لماذا هذه الأضداد لها الطبع الفلاني وأنها في العدد الذي نراها عليه .

٦- الأجسام الأول- حفظت للنص عبارته بتمامها ، ولكن المراد هنا هو العناصر مع جميع الأجسام الخاصة التي تركيبها على حسب نظريات أرسطو التي هي أيضًا مثلاً- أضفت هذه الكلمة . - ليس هو مادة- بل هو الضد وتحت الضدين الموضوع الذي يكيفانه على طريق التناوب .

٧- الجسم الذي هو مدرك- هو المادة المفهومة على المعنى المنطقي أي المحسوسة بالقوة ولكنها ليست مدركة إلا على شكل واحد من الضدين .- النار والماء- يعني الأربعة العناصر مع جميع الأجسام الخاصة التي تركيبها على حسب نظريات أرسطو التي هي أيضًا نظريات الأقدمين .- الطريقة التي يقول بها أمبيدقل وفلاسفة آخرون- المعنى ليس بيئاً وقد جعله الإيجاز في التعبير غامضاً . فإن أمبيدقل وفلاسفة آخرين يرون العناصر غير قابلة للتغيير مطلقاً ومن ثم لا يمكن أن يفهم مع عدم قابلية التغير نظرية الاستحالة مهما كانت مسلماً بها .- وإنما هي المقابلات- ليس النص على هذا القدر من الصراحة . في مذاهبهم .- أضفت هاتين الكلمتين .

الباب الثاني

حد الجسم كما تعرفه لنا حاسة اللمس - تعديد الأضداد الأصلية التي يعرضها الجسم المحسوس باللمس - فصول هذه الأضداد - الفعل المتباين للبارد والحر والجاف والسائل - علاقة جميع الفصول الأخرى بهذه الفصول الأربعة الأصلية.

١ - ما دمنا نبحث فيما هي مبادئ الجسم المدرك بحواسنا، أعني الجسم الذي يستطيع اللمس أن يدركه، وما دام أن جسمًا يعرفنا إياه اللمس هو الذي يكون حسه الخاص هو اللمس فينتج بالبداهة أن جميع المقابلات بالأضداد التي يمكن مشاهدتها في الجسم لا تؤلف أنواعه ومبادئه ولكنها إنما هي فقط أنواع ومبادئ الأضداد التي تخص حاسة اللمس. إن الأجسام تتمايز بأضدادها، ولكن بأضدادها التي يمكن لللمس أن يبينها لنا. لذلك نرى لماذا أنه لا البياض ولا السواد ولا الحلاوة ولا المرارة ولا أي واحد من الأضداد المحسوسة ليس عنصرًا للأجسام.

٢ - وهذا لا يمنع أن يكون النظر حاسة أسمى من اللمس وبالنتيجة أن موضوع النظر هي أسمى أيضًا. ولكن النظر ليس عرضًا للجسم الملموس بما هو ملموس بل هو يرجع إلى شيء مغاير تمامًا يمكن مع ذلك أن يكون متقدمًا عليه بطبعه.

ب ٢ ف ١ - الجسم المدرك بحواسنا - الجسم المادي والمحسوس. - أعني الجسم الذي يستطيع اللمس أن يدركه - يلاحظ فيلويون بحق أن أرسطو يشتغل أولاً بحاسة اللمس لأن هذه الحاسة أكثر الحواس إدراكًا ممكنًا. فإن من الأجسام التي تخفى على نظرنا ما ندرکه بحواسنا. وذلك كالهواء إذ بينما لا يمكننا أن نراه يؤثر في أحساسنا بأن يلامسنا. - يعرفنا إياه اللمس - عبارة النص هي: "جسم قابل لللمس". - التي يمكن مشاهدتها في الجسم - أضفت هذه العبارة لبيان الفكرة تمامًا. - لا تؤلف أنواعه ومبادئه - هذا التفوق الذي لحاسة اللمس يتقدم تمييز الكيفيات الأول والثواني للأجسام ويذكر به. تلك هي النظرية التي قبلتها بعد ذلك المدرسة الايقوسية. - ليس عنصرًا للأجسام - عبارة النص: "لا تكون عناصر".

٢ - أن يكون النظر حاسة أسمى - ر. كتاب النفس ك ٢ ب ٧ ص ٢٠٨ من ترجمتنا في نظرية الرؤية. - من اللمس - ر. كتاب النفس ب ١١ ص ٢٣٧. إن موضوع النظر هو أسمى أيضًا - ر. أول ما بعد الطبيعة: ك ١ ب ١ ص ١٢١ من ترجمة =

٣- حينئذ بالنسبة للملحوسات أنفسها يلزم الفحص والتمييز بين الفصول الأول لها ومقابلاتها الأولى بالأضداد . المقابلات والمضادات التي يبينها لنا اللمس هي الآتية: البارد والحر، اليابس والرطب، الثقيل والخفيف، الصلب واللين، الدبق والفريك، الأملس والخشن، الكثيف والمتخلخل. من بين هذه الأضداد الثقيل والخفيف ليسا لا فاعلين ولا منفعلين لأنه ليس لأتهما يفعلان أحدهما في الآخر أو لأتهما ينفعان أحدهما من الآخر أعطيا الاسم الذي يحملانه. ومع ذلك يلزم أن العناصر يمكن أن تفعل وتنفع بعضها من بعض على طريق التكافؤ ما دام أنها تختلط وتتغير على طريق التكافؤ بعضها إلى بعض.

٤- ولكن الحر والبارد واليابس والرطب هي مسماة كذلك أولاهما لأنها تفعل والأخرى لأنها تنفع. فإن الحر هو الذي يجمع ما بين الجواهر المتجانسة؛ لأن التفريق الذي يقال عن النار إنها تفعله إنما هو في حقيقة الأمر تركيب الأشياء التي من نوع واحد ما دام أن الذي يحصل إذن هو أن النار تخرج الجواهر الغريبة وتنفيها. والبرد على ضد ذلك يجمع ويركب على السواء الأشياء التي من نوع واحد والتي ليست من نوع واحد، ويسمى سائلاً ما ليس محدوداً في صورته الخاصة ولكنه يمكن مع ذلك أن يقبل بسهولة

= كوزان الطبعة الثانية. فإن أرسطو يجعل فيها النظر أعلى مرتبة من جميع الحواس كما فعل هنا. - ليس عرضاً- أو "كيفاً". - إلى شيء مغاير تماماً حفظت عبارة النص على عدم تحدها. - متقدماً عليه بطبعه- أي الشيء الخاص بحاسة اللمس.

٣- بالنسبة للملحوسات أنفسها- حفظت كلمة النص بعينها التي لا خفاء في معناها بعد الإيضاحات السابقة. فإن الملحوسات هي الأجسام التي تعرفها لنا حاسة اللمس فقط. - الفحص والتمييز - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - ومقابلاتها الأولى بالأضداد- عبارة النص: "التضاد". - لأنها يفعلان أحدهما في الآخر- عبارة النص ليست على هذا الوضوح. - أعطيا الاسم الذي يحملانه- عبارة النص أكثر إيجازاً.

٤- أولاهما لأنها تفعل - يظهر أن فعل البارد وفعل الحر متكافئان تماماً وأنهما يفعلان ويقبلان على السواء. ويعني بأولاهما الحر والبارد وبأخراهما اليابس والرطب وقد عني فيلوبون بأن يوضح في إطناب لماذا يجعل أرسطو من البارد والحر عنصرين فاعلين ومن اليابس والرطب عنصرين منفعلين. ر. عن هذه النظرية كلها الكتاب الرابع من الميتورولوجيا ب ١ وما بعده. ص ٢٧٣ من ترجمتنا- هو الذي يجمع- وبهذا المعنى أن الحر يفعل. - الجواهر المتجانسة- هذا يقال خصوصاً على الجواهر التي تسيح وتذوب تحت فعل النار فيكون قوامها إذن كالسوائل. - في حقيقة الأمر- زدت=

صورة. واليابس على ضد ذلك هو ما كان بما له من صورة محددة تمامًا في حدودها الخاصة لا يقبل صورة جديدة إلا بعناء.

٥- من هذه الفصول الأول إنما يأتي المتخلخل والكثيف والدبق والفريك والصلب واللين والفصول الأخرى المشابهة. إذن فإن جسمًا له خاصية إمكان أن يملأ الأين بسهولة يتصل بالسائل لأنه غير محدد هو نفسه وأنه يخضع من غير أدنى عناء إلى فعل الشيء الذي يلمسه تاريخًا ذاته تأخذ صورة ذلك الشيء. كذلك المتخلخل يمكنه أن يملأ الأين على سواء لأنه لمَّا لم يكن له إلا أجزاء خفيفة وصغيرة كان يجيد الملء ويلامس تمامًا، وهذه خاصية تميز على الخصوص الجسم المتخلخل. حينئذ بالبديهة المتخلخل يقارب السائل في حين أن الكثيف يقارب اليابس. ومن جهة أخرى الدبق يتعلق أيضًا بالسائل؛ لأن الدبق ليس إلا نوعًا من السائل مع بعض كفيات كالزيت. ولكن الفريك يتعلق باليابس لأن الفريك إنما هو التام اليبس. ويمكن القول بأنه لم يتجمد إلا لخلوه من كل سائل. ويمكن أن يقال أيضًا إن اللين جزء من السائل لأن اللين هو ما يطاوع عند التواءه على نفسه ودون أن ينتقل كما أن السائل يفعل هذا الفعل بالضبط أيضًا. تلك هي العلة

= هذه الكلمات - تخرج.... وتنفي - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - البرد على ضد ذلك يجمع - وعلى هذا المعنى فالبرد هو فاعل كالحرارة. - والتي ليست من نوع واحد - فإن الثلج بجلد ويجمع غالبًا الجواهر الأكثر تغايرًا. - ما ليس محدودًا في صورته الخاصة - فإن السائل لم يكن البتة إلا صورة الحاوي له. أما هو نفسه فليس له صورة في كتله. - في حدودها الخاصة - أو "في سطحه الظاهر الخاص". صورة.... حدود - النص يستخدم لفظًا واحدًا للدلالة على صورة أو حدود.

٥- من هذه الفصول الأول - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. والفصول الأخرى المتشابهة - التي قد لا تكون إلا ثانوية بالنسبة للفصول الأول للبارد والحرار واليابس والرطب. - له خاصية إمكان أن يملأ الأين - ليس في النص إلا كلمة واحدة. ويمكن أيضًا أن يفهم من الأين «الأمكنة الفارغة أو التجاويف» كما فهم فيلوبون. - يتصل بالسائل - عبارة النص بالضبط: «هو من السائل» أي جزء منه - خفيفة وصغيرة - هذا غير صحيح تمامًا وأن السطح مهما يكن متخلخلًا فإنه لا يحسن أن يملأ الأين بحسب الوضع الذي يعطى إياه. - يتعلق أيضًا بالسائل - أو «من السائل» كما ذكر في المتخلخل. - كالزيت - كان يمكن إيجاد مثل أكثر انطباقًا. - من كل سائل. - أو «من كل رطوبة». - ودون أن ينتقل - كحال الماء الذي تنفصل جزئياته في حين أن الجسم اللين تبقى جزئياته متصلة مع مطاوعتها للضغط الواقع عليها. - يتعلق بصنف السائل - «أو هو من السائل». - من المتجمد - هذا هو لفظ النص بعينه تركته على عمومه.

في أن السائل لم يسم شيئاً في حين أن اللين يتعلق بصنف السائل، وأخيراً فالصلب يتعلق باليابس لأن الصلب هو شيء من المتجمد والمتجمد يابس.

٦- على أن يابساً وسائلاً لفظان يحملان على معانٍ شتى، فإن السائل والمبتل يمكن أن يعتبرا كمقابلين لليابس كما أن اليابس والمتجمد هما مقابلان للسائل. وكل هذه الخواص المختلفة تتعلق بالسائل واليابس محمولين على المعنى الأولى لهاتين الكلمتين، لأنه من حيث إن اليابس هو مقابل للمبتل وأن المبتل هو ما كان به على سطحه سائل غريب، في حين أن المتنقع هو ما به السائل إلى باطنه. ولما أن اليابس هو على ضد ذلك ما كان خلوًا من كل سائل غريب فبين بذاته أن المبتل يتصل بالسائل في حين أن اليابس المقابل له يتصل باليابس الأولي.

٧- ويجري هذا المجرى أيضاً في السائل والمتجمد، فإن السائل لما كان ما به رطوبة خاصة والمتجمد ما هو خلو منها يجب أن يستنتج منه أن هذين الكيفيين أحدهما يتعلق بصنف السائل والآخر بصنف اليابس.

٨- فبين حينئذ بأن كل الفصول الأخرى يمكن أن يرجع بها إلى الأربع الأولى، وأن هذه لا يمكن أن ينزل عددها إلى أقل من ذلك لأن الحار ليس هو والرطب أو اليابس شيئاً واحداً كما أن الرطب ليس هو لا الحار ولا البارد. كذلك البارد واليابس ليسا تابعين أحدهما للآخر كما أنهما ليسا تابعين للحار ولا للرطب. والحاصل أنه لا يوجد ضرورة إلا هذه الأربعة الفصول الأصلية.

٦- يابساً وسائلاً- أو «يابساً ورطباً» وقد أثرت كلمة سائل حتى تكون مقابلته أظهر بالمبتل الذي سيأتي ذكره. - اليابس والمتجمد- ربما يمكن أن يقال أيضاً (اليابس والمتجمد). هذه الخواص المختلفة- ليس النص على هذا القدر من الضبط. - على المعنى الأول لهاتين الكلمتين- ر. الملاحظة في ف ٣. - المتنقع- أو «المغمور». - يتصل بالسائل- ر. ملاحظتنا على هذا التعبير في الفقرة السالفة.

٧- في السائل..... بصنف السائل- يظهر أن هنا تكراراً في الكلمات لا فائدة معه وقد اضطررت أن أتبع الأصل. ولم يفسر فيلوبون هذا العيب الذي ربما لم يفتن له.

٨- كل الفصول الأخرى- الذي ذكرت ووضحت بعد الفصول الأربعة الأولية والأصلية. - إلى الأربعة الأولى- البارد والحار واليابس والرطب. - إلى أقل- يعني إلى اثنين بدل أربعة. - والرطب- أو «السائل». - الأصلية- أضفت هذا الوصف. ر. الكتاب الرابع من الميتورولوجيا ب ١.

الباب الثالث

تركيب العناصر بين بعضها والبعض - ليس منها إلا أربعة لأن الأضداد خارجة عنها - نظريات سابقة على عدد العناصر - برمينيد - أفلاطون - أمبيدقل - طبع العناصر المختلفة - الأمكنة المختلفة التي يشغلها في الآن.

١ - لما أنه يوجد أربعة عناصر وأن التراكيب الممكنة لحدود أربعة هي ستة، ولكن أيضاً لما أن الأضداد لا يمكن أن تزوج بينها ما دام البارد والحر واليابس والرطب لا يمكن ألبة أن تندمج في شيء واحد بعينه، فبين أنه لا يبقى إلا أربعة تراكيب للعناصر. فمن جهة، حار ويابس، حار ورطب، ومن جهة أخرى بارد ويابس، بارد ورطب.

٢ - تلك هي نتيجة طبيعية لوجود الأجسام التي تظهر بأنها بسيطة: النار والهواء والماء والأرض، فالنار حارة ويابسة والهواء حار ورطب ما دام أن الهواء نوع من البخار. والماء بارد وسائل، وأخيراً الأرض باردة ويابسة. ينتج منه أن توزيع هذه الفصول بين الأجسام الأول يفهم جد الفهم وأن عدد هؤلاء وهؤلاء هو على تمام التناسب.

١ - لما أنه يوجد أربعة عناصر - هذه هي عبارة النص ولكن الحر والبارد، واليابس والرطب أولى بها أن تكون خواص للعناصر من أن تكون عناصر بالمعنى الخاص. - أن تزوج بينها - لأنها تنفاسد. - أنه لا يبقى إلا أربعة تراكيب - ليس النص على هذه الصراحة - رطب - أخذت اللفظ الأكثر استعمالاً عادة ولكن اللفظ الإغريقي يفيد سائلاً كما يفيد رطباً. ٢ - التي تظهر بأنها بسيطة - أسلوب هذه العبارة لا يدع محلاً لأقل شك في بساطة العناصر بالإطلاق على حسب نظريات أرسطو. وقوله تظهر بأنها بسيطة يفيد أن بساطة العناصر يمكن أن تحقق بالمعاينة. - والماء بارد وسائل - اخترت هنا لفظ سائل بدل رطب لأنه أنسب للماء.

٣- وفي الحق إن كل الفلاسفة باعترافهم للأجسام البسيطة بأنها عناصر قبلوا منها تارة واحداً وتارة اثنين وتارة ثلاثة وتارة أربعة.

٤- فأما الذين لم يقبلوا منها إلا واحداً فمضطرون إلى توليد كل الأخرى من تكثيف هذه العنصر أو تخفيفه. وبالتالي يقبلون مبدأين: المتخلخل والكثيف أو الحار والبارد؛ لأنها في هذا المذهب هي الفواعل المؤلفة والعنصر الوحيد يكون خاضعاً لفعالها بما هو مادة.

٥- وأما الفلاسفة الذين هم كبرمينيد يقبلون عنصرين: النار والأرض، فيعتبرون العناصر الوسيطة (الهواء والماء) مزيجاً من ذينكم العنصرين. كذلك الحال عند الذين يقبلون عناصر ثلاثة كما فعل أفلاطون في تقاسيمه لأن عنده العنصر الوسط ليس إلا مزيجاً. وحيث أن الذين يقبلون عنصرين والذين يقبلون ثلاثة يوشك أن يكونوا على اتفاق تام لولا أن بعضهم يقسم العنصر الوسط إلى اثنين وأن الآخرين يتركون له وحدته.

٣- للأجسام البسيطة بأنها عناصر - الظاهر أنه ينتج من هذه الفقرة أنه ولا واحد من الفلاسفة قد قبل أكثر من أربعة عناصر. ومع ذلك فإن أرسطو نفسه في الميتورولوجيا قبل فيما يظهر خامساً وهو الأثير. ر. الميتورولوجيا ك ١ ب ٣ ف ٤ ص ٩ من ترجمتنا.

٤- تكثيف أو تخفيفه - ر. الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ ص ٤٦١ من ترجمتنا. - هذا العنصر - أضفت هاتين الكلمتين لتمام الفكرة. - الفواعل المؤلفة - أو «الصناعة» - خاضعاً لفعالها - ليس النص على هذه الصراحة. - بما هو مادة - أهل لأن تقبل الأضداد على التعاقب.

٥- كبرمينيد - في الطبيعة ك ١ ب ٦ ف ١ أن المبدأين المنسوبين إلى برمينيد هما المتخلخل والكثيف أو الحار والبارد وليس هما النار والأرض مع أن النار يمكن أن تشخص بالحار والأرض بالبارد. - في تقاسيمه - قد يظهر أن هذا يدل على عنوان خاص لمؤلف لأفلاطون ولكن فيلوبون بناء على قول مفسرين سابقين يؤكد أن المؤلف المنسوب إلى أفلاطون تحت هذا الاسم كان منتحلاً. ويرى الإسكندر الأفروديزي أن المقصود هنا هو تلك الآراء غير المكتوبة لأفلاطون التي يرويها أرسطو بالصراحة في الطبيعة ك ٤ ب ٤ ف ٤ ص ١٥٠ من ترجمتنا. وقد ظن شراح آخرون أن المقصود هو التقاسيم المبينة في محاوراة أفلاطون المعنونة «السفسطائي». ويظهر أن تفسير الإسكندر هو الأقرب للاحتمال. - ليس إلا مزيجاً - كما يرى برمينيد. - يوشك أن يكونوا على اتفاق تام - ما دام أنه مزيج في عرف الطرفين. - العنصر الوسط إلى اثنين - قد لا يكون هذا مطابقاً تماماً لما قيل آنفاً فإن برمينيد يظهر أنه يقبل عنصرين وسطين لا واحداً ولا يمكنه أن يدمج الهواء والماء.

٦- ومنهم كأמידقل من يعترفون جلياً بأربعة عناصر غير أنه هو أيضاً ينزلها إلى اثنين لأنه يقابل بالنار كل العناصر الأخرى مجتمعة. فعلى رأي أميدقل يكون لا النار ولا الهواء ولا أي واحد من العناصر الأخرى بسيطاً بل ممزوجة. فإن الأجسام البسيطة هي جميعها بسيطة بلا شك، ولكنها ليست مع ذلك متماثلة. مثلاً الجسم المشابه للنار هو من نوع النار ولكنه مع ذلك ليس بالضبط ناراً. والجسم المشابه للهواء هو من نوع الهواء دون أن يكون هواء. وكذلك الحال في بقية العناصر. ولكن النار هي إفراط في الحرارة كما أن الثلج إفراط في البرودة؛ لأن التجلد والغليان هما إفراطان من جنس ما أحدهما للبارد والثاني للحر. فإذا كان إذن الثلج هو تجلد للسائل والبارد، فالنار تكون أيضاً غليان الحار واليابس. فانظر لماذا لا يمكن أن يتولد شيء لا من الثلج ولا من النار.

٧- الأجسام البسيطة بما هي في عدد الأربعة تتعلق اثنين اثنين بكل واحد من مكاني الأين. فالهواء والنار هما من المكان المائل نحو الحد الأقصى. والأرض والماء بالمكان الذي هو نحو المركز وأن العناصر الطرفية والخالصة أكثر من غيرها هي النار والأرض.

٦- كأמידقل- ر. ما سبق ب ١ ف ٢. - كل العناصر الأخرى مجتمعة- ليس النص على هذا الضبط. - فعلى رأي أميدقل- أضفت هذه العبارة لأنه يظهر لي أن كل ما سيأتي لا يمكن إسناده إلا إلى أميدقل. وهذا تفسير بأن توماس وجامعة كويمبرا. ويظهر أن فيلوبون يظن أن هذه هي فكرة أرسطو الخاصة. - بل ممزوجة - من الصورة والهيولى كما يقول فيلوبون. - الأجسام البسيطة- عبارة النص غير محددة وهي "البسائط" ومن الجائز أن يكون المراد هنا الأربعة العناصر الخاصة الحار والبارد واليابس والرطب. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته لا تزال هذه الفقرة قلقة غامضة. - الجسم المشابه للنار- هو المركب من الحار واليابس. ر. ما سبق ف ٢. - ولكنه مع ذلك- ليس النص على هذه الصراحة. - الجسم المشابه للهواء- وهو المركب من الحار والرطب. ر. ما سبق ف ٢. - التجلد والغليان- من الغريب أن ترى هاتان الظاهرتان متقابلتين في نظريات القدماء. وقد لزم أن تمر قرون عديدة حتى ينتج هذا التقابل نتائج العملية فيؤسس عليه ميزان الحرارة (الترمومتر) هذه الآلة العجيبة التي تصلح لتعيين درجة حرارة الجسم. - فانظر لماذا لا يمكن أن يتولد شيء- لا يظهر أن المعاني مرتبطة جد الارتباط بعضها ببعض وقد يمكن أن تكون هذه الجملة ليست إلا تنذيراً.

٧- الأجسام البسيطة- هذه هي عبارة النص بعينها ويظهر أن أرسطو هنا يرجع إلى الكلام على مذهبه الخاص وأن ليس المراد هنا الكلام على المذاهب الخاصة لأמידقل. - يكفي واحد من مكاني- الفوق والتحت. - الأين- أضفت هذه الكلمة. من المكان المائل نحو الحد الأقصى- عبارة النص غير محددة قليلاً ومع أي حدودها نوعاً ما فلم أبلغ جعلها أجلى بياناً. - الذي هو نحو المركز- نلاحظ هنا الملاحظة السابقة. - العناصر الطرفية- يعني التي هي في النقط الأكثر مقابلة من الأين للمركز وللمحيط من أن يعني به تركيبها. وقد يمكن أن يقال "الأظهر" في اتجاهها. - والأكثر مازجة- هذه هي عبارة النص بعينها ولكن يلزم أن يفهم أن هذا ينطبق خصوصاً على الحركة. - هو ضد للأخر- في الطائفة الأخرى. - الأرض ضد الهواء- التقابل ليس بين الظهور. - كيفيات متضادة- انظر ما يلي.

والعناصر الوسطى والأكثر ممازجة هي الماء والهواء. وفي كل طائفة أحد الاثنين هو ضد للآخر لأن الماء ضد النار والأرض ضد الهواء ما دام أن لها في تركيبها كيفيات متضادة.

٨- ومع ذلك فعلى القول بالإطلاق الأربعة الأجسام البسيطة لا يتعلق كل واحد منها إلا بكيف واحد. على ذلك الأرض هي من اليابس أكثر من أن تكون من البارد، والماء هو من البارد أكثر من أن يكون من السائل، والهواء هو من السائل أكثر من أن يكون من الحار، والنار هي من الحار أكثر من أن تكون من اليابس.

٨- فعلى القول بالإطلاق - زدت لفظ « القول ». - إلا بكيف واحد - عبارة النص غير محدودة. - أكثر من أن تكون - هذا يناقض قليلا مفهوم قوله « على الإطلاق » في أول الجملة. - من البارد أكثر من أن يكون من السائل - يظهر أن الأمر على ضد ذلك أن الماء سائل أكثر منه باردًا. فهو سائل قبل كل شيء ولكن المذهب الذي وضع هنا يقتضي هذا التناظر في الوضع. فقد تركت السيولة للهواء وربما قد يمكن أن يقال أيضًا بدل السيولة السائلة.

الباب الرابع

نظرية تبدل العناصر بعضها ببعض - فصول العناصر فيما بينها يمكن أن تكون أكثر أو أقل عددا - سهولة التبدل وصعوبته - أمثلة مختلفة بحسب تجاوز العناصر أو البعد بينها في النظام الذي هي مرتبة بعد وبحسب تماثل كيفيات العناصر أو تقابلها - خاتمة الجزء الأول لنظرية التبدل المتكافئ بين العناصر .

١ - بعد أن بيّنا فيما سبق أن الأجسام البسيطة يكون بعضها بعضاً على طريق التكافؤ وأن المعاينة الحسية تدلنا على أنها تتكون بهذه الطريقة لأنه إن لم يكن كذلك فقد لا توجد استحالة، ما دامت الاستحالة لا تنطبق إلا على كيفيات الأشياء التي يمكن لمسها، فليزمننا أن نقول بأي طريقة يحصل تغير العناصر بعضها إلى بعض وما إذا كان ممكناً أن كل عنصر يتولد من كل عنصر أو إذا كان هذا ممكناً فقط بالنسبة للبعض ومحالاً بالنسبة للبعض الآخر .

٢ - فإذا كان ثم أمر بديهي هو أن كلها يمكن بالطبع أن تتغير بعضها إلى بعض لأن كون الأشياء يروح إلى الأضداد ويجيء من الأضداد . وكل العناصر لها تقابل بعضها

١ - بعد أن بيّنا فيما سبق - ر. كتاب السماء ك ٣ ب ٧ ف ١ ص ٢٦٥ من ترجمتنا. ويظهر بناء على هذه الفقرة أن كتاب السماء كان في فكرة المؤلف مرتبطاً بهذا الكتاب كما يعتقد المفسرون إذ وضعوا الكتابين أحدهما تلو الآخر . - المعاينة الحسية - عبارة النص " الحس " . - لأنه إن لم يكن كذلك فقد لا توجد استحالة - الدليل ليس جيد البيان إذ إن الاستحالة مختلفة عن الكون وأنها تقتضيه. فإنه يلزم أن يوجد الشيء قبل أن يستحيل ولكن وجود العنصر لشيء لا ينتج منه أن هذا العنصر يأتي من عنصر آخر . - التي يمكن لمسها - ر. ما سبق ب ٢ ف ١ . - تغير العناصر بعضها إلى بعض - يمكن مراجعة كتاب السماء وكتاب الميتورولوجيا أيضاً ك ١ ب ٢ و ٣ من ترجمتنا.

٢ - أمر بديهي - بالتدليل أثر منه بالمشاهدة . - يروح إلى الأضداد - حفظت عبارة النص على فرط إيجازها. ومع ذلك فهي مفهومة بسهولة بعد التفاصيل التي تقدمت. فإن الشيء بتكونه يذهب من اللاوجود إلى الوجود وعلى ضد ذلك بفساده يذهب من الوجود إلى اللاوجود فهو يجاوز ضدّاً ليذهب إلى الضد الآخر . - لها تقابل - اتخذت لفظاً أعم من لفظ =

بالنسبة إلى البعض الآخر لأن فصولها أضداد وحينئذ في بعض العناصر الفصلان هما ضدان ومثال ذلك في الماء والنار فإن أحدهما يابس وحار في حين أن الآخر سائل وبارد. وبعض العناصر الأخرى ليس لها إلا واحد من الفصلين كالهواء والماء، فإن أحدهما هو سائل وحار والثاني بارد وسائل.

٣- وحينئذ فمن البين أنه على العموم كل عنصر يمكن بالطبع أن يأتي من كل عنصر. وليس من الصعب الاقتناع بهذا بأن يشاهد كيف تحصل الظاهرة بالنسبة لكل عنصر على حدته. لأنه سيري أن كلها تأتي من كلها. والفرق الوحيد إنما هو أن التغير يتكون بكثير أو قليل من السرعة وبكثير أو قليل من السهولة. وكلما كان بين العناصر نقط ارتباط تحولت بعضها إلى بعض سرعاً جداً. وما ليس بينها نقط ارتباط تتغير ببطء. وعلة ذلك أن شيئاً واحداً بمفرده يتغير بأسرع من عدة. وعلى ذلك فالهواء يأتي من النار بتغير أحد الكيفين ليس إلا، ما دام أن أحدهما يابس وحار والثاني حار وسائل. وينتج منه أنه إذا كان اليابس مغلوباً بالسائل فيتكون الهواء ثم أنه من الهواء يتكون الماء إذا كان الحار هو المغلوب بالبارد لأن أحدهما كان سائلاً وحاراً والثاني كان بارداً وسائلاً فيكفي إذن أن الحرارة وحدها تتغير لأجل أن يتكون الماء.

٤- وبهذه الطريقة عينها أيضاً أن الأرض تأتي من الماء وأن النار تأتي من الأرض لأن هذين العنصرين أيضاً لهما أحدهما قبل الآخر نقطة جمع ووصل، فإن الماء سائل وبارد

= النص الذي هو "تضاد" - فصولها أضداد - ر. ما سبق ب ٢ ف ٢. - فإن أحدهما هو سائل - قد اضطرت للاحتفاظ بلفظ «سائل» المطبق على الهواء كما هو أيضاً في النص.

٣- بأن يشاهد - وصية جديدة بنمط المشاهدة. - نقط ارتباط - ربما كان أضبط أن يقال «تركيب» ممكن. فإن الحد المستعمل في النص فيه تفاوت لم أستطع تحصيله مباشرة. ر. الفقرة الآتية. - تحولت - أو "مرت من واحد إلى الآخر". أحد الكيفين - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - كان - قد حافظت على أسلوب النص وهذا يتعلق بالنظريات التي بسطت آنفاً. - يابس وحار.... حار وسائل - أي أن كيفي الحار يجتمعان ما داما متمائلين. فلا يبقى للتغير إلا اليابس والسائل. - كان سائلاً - حفظت صيغة الماضي كما هي في الأصل.

٤ - نقطة جمع ووصل - ترجمت هنا بوضوح معنى الكلمة الإغريقية التي هي خاصة بالأشياء التي يمكن جمع أجزائها لتؤلف كلاً بعد أن فصلت. - هو المغلوب - بالكيف الآخر الذي هو أقوى منه. فإن السائل المغلوب يتلاشى ولا يبقى من الكيفين إلا البرودة التي هي الكيف المشخص للأرض. - فمن الأرض تتكون النار - كل هذه النظريات تظهر لنا =

والأرض هي باردة ويابسة بحيث إنه إذا كان السائل هو المغلوب تتكون الأرض. ومن جهة أخرى بما أن النار يابسة وحارة والأرض يابسة وباردة فإذا فسد البارد فمن الأرض تتكون النار. فيرى حينئذ أن كون الأجسام البسيطة يحصل بالدور، وطريقة التغير هذه هي أسهل الطرق لأن العناصر التي تتعاقب لها دائماً بينها نقط جمع ووصل.

٥- والماء يمكن أيضاً أن يأتي من النار والأرض من الهواء وبالعكس يمكن أن يأتي أيضاً الهواء والنار من الماء ومن الأرض. ولكن هذا التحول هو أصعب لأن موضوع التغير أشياء أكثر عدداً. وفي الواقع لأجل أن تأتي النار من الماء يلزم أن يفسد أولاً البارد والسائل، وكذلك لأجل أن يأتي الهواء من الأرض يلزم أن البارد واليابس يفسدان. وهذا للزوم واجب أيضاً لأجل أن الماء والأرض يأتیان من النار ومن الهواء لأنه يلزم حينئذ أن يكابد الكيفان التغير.

٦- وأيضاً الكون الذي يحصل بهذه الطريقة هو أبطأ. ولكن إذا فسد أحد كفيي كل واحد من الاثنين فيكون التحول أسهل غير أن هذا التحول لا يحصل بعد حينئذ من الواحد إلى الآخر على طريق التكافؤ. غير أنه من النار ومن الماء تأتي الأرض والهواء، ومن الهواء ومن الأرض تأتي النار والماء. وفي الواقع إذا فسد بارد الماء ويابس النار

= غريبة في هذه الأيام ولكن يجب الرجوع إلى زمن أرسطو. وقد كانت هذه النظريات مقبولة بلا نزاع إلى القرن السادس عشر. - العناصر التي تتعاقب - ليس في النص إلا كلمة واحدة غاية في عدم التحديد، فإن العناصر المتعاقبة هي التي لها كفيات مشتركة. - جمع ووصل - ر. ما سبق في أول هذه الفقرة.

٥- والماء يمكن أيضاً أن يأتي من النار - ليس بين الماء والنار نقطة مشتركة ما فلاجل أن يتغير أحدهما إلى الآخر لا بد من الوسطاء. وها هنا الهواء هو الذي له نقط مشتركة بينه وبين الماء من جهة وبينه وبين النار من جهة أخرى. - هذا التحول - عبارة النص أشد ابهاماً. - البارد والسائل - اللذان هما كيفا الماء. - البارد واليابس - كيفا الأرض الخاصان. - الكيفان - لفظ النص غير محدد.

٦- الكون - كون العنصر الجديد الناتج من تحول العناصر الأخرى. - لا يحصل بعد حينئذ من الواحد إلى الآخر - وحينئذ يوجد جسم ثالث مكون من الكيوف الباقية. ينازع فيلوبون في صحة هذه النظرية التي هي مع ذلك، كما يقول هو، كانت مقبولة عند الإسكندر الأفروديزي. - غير أنه من النار ومن الماء - لا يظهر أن المعاني متعاقبة تماماً. - يتكون الهواء عنصر مخالف للنار والماء اللذين أنتجاه. - تتكون الأرض - الملاحظة عنها. - يابس بارد - اللذان هما كيفا الأرض.

يتكون الهواء لأنه لا يبقى بعد إلا حار أحدهما وسائل الآخر. ولكن إذا فسد حار النار وسائل الماء تتكون الأرض لأنه لا يبقى إلا يابس أحدهما وبارد الآخر.

٧- وكما هو الأمر في الهواء والأرض يكون في تكون النار والماء لأنه إذا فسد حار الهواء مع يابس الأرض يتكون الماء ما دام أنه سيبقى سائل أحدهما وبارد الآخر. ولكن حينما يكون المنعدم هو سائل الماء وبارد الأرض تتكون النار لأنه يبقى حار أحدهما ويابس الآخر وهما الكيفان الخاصان بالنار.

٨- وهذا الإيضاح لكون النار يتفق جداً مع الحوادث التي يشهد بها الحس؛ لأنه إنما هو اللهب الذي هو على الأخص نار واللهب ليس إلا الدخان المحترق والدخان يتركب من هواء وأرض.

٩- في العناصر التي تتوالى وتتعاقب ليس ممكناً متى كان أحد الكيفين قد فسد في واحد أو في الآخر أن يحصل مرور وتحول للعناصر إلى أي جسم آخر لأن البواقي التي تبقى في الاثنين هي إما متماثلة أو متضادة. وحينئذ لا من بعضها ولا من الآخر يمكن أن يتحصل جسم. مثال ذلك إذا فسد يابس النار وإذا فسد أيضاً سائل الهواء لا توجد نتيجة ممكنة ما دامت الحرارة هي التي تبقى من طرف ومن آخر. وكذلك الحال فيما إذا كانت هي الحرارة التي تنعدم من الاثنين فإنه لا يبقى بعد إلا ضدان وهما اليابس والسائل، ويجرى هذا المجرى في جميع الأحوال الأخرى ما دام أنه في الأحوال التي من هذا القبيل

٧- سائل أحدهما- السائل يظهر أن استعماله خاص بالماء دون سواه. ولكن في هذه النظريات يلزم قبوله أيضاً بالنسبة للهواء لأن لفظ رطب يظهر أنه أحسن استعمالاً في بعض الأحوال. ويمكن أيضاً أن تستعمل كلمة «لطيف» للهواء ولكن هذه الكلمة لا توافق تماماً كلمة النص. - وهما الكيفان الخاصان بالنار- ر. ما سبق ب ٣ ف ٢.

٨- وهذا الإيضاح لكون النار- ليس النص على هذه الصراحة. - يتفق جداً مع الحوادث- لا يظهر أن هذا الاتفاق تام كما يظن المؤلف ولكن هذا لا يمنع من أن النمط الذي يوصي باتباعه وحق ولو أنه لم يحسن تطبيقه. - الدخان يتركب من هواء وأرض- لأن الدخان على رأي أرسطو هو تبخر الخشب. ر. الميتورولوجيا ك ٤ ب ٩ ف ٤٢ ص ٣٣٩ من ترجمتنا.

٩- التي تتوالى وتتعاقب- مثال ذلك الهواء بعد النار والماء بعد الهواء والأرض بعد الماء ما دامت العناصر الأربعة مرتبة على هذا النظم. - مرور وتحول- ليس في النص إلا كلمة واحدة. - البواقي التي تبقى في الاثنين- ليس النص على هذه الصراحة. نتيجة ممكنة - يعني جسمًا ثالثًا مخالفًا للجسمين اللذين أنتجاه. - الحرارة هي التي تبقى - وفي هذه الحالة =

يبقى دائماً تارة الكيف المماثل وتارة الكيف المضاد، وعلى هذا فمن البين حينئذ أنه لأجل تكوين العناصر مارة ومتغيرة من واحد إلى واحد يكفي أن كيفاً واحداً يفسد. ولكن بالنسبة للعناصر التي تمر من اثنين إلى واحد فقط، هنالك يحتاج إلى فساد عدة كيفيات.

١٠ - وعلى جملة من القول فإنه قد وضح أن كل عنصر يتولد من كل عنصر وقد بين بأي طريقة يحصل تحول بعضها إلى بعض.

= هي النار. - ضدان - يترافعان ولا يمكنهما أن يجتمعا ما دام أنهما يتفاسدان على التكافؤ. مارة ومتغيرة - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - من واحد إلى واحد - التعبير ليس بئناً جداً ولم أزد على أن حصلته بعينه. - كيفاً واحداً - الكيف المضاد. والنص ليس على هذا القدر من الضبط. - عدة كيفيات - كلمة النص في غاية الإبهام.

١٠ - وعلى جملة من القول - عبارة النص هي بالبساطة: «حينئذ».

الباب الخامس

بقية نظرية تبدل العناصر - من المحال ألا يوجد إلا عنصر واحد منه تأتي كل العناصر الأخرى - في هذا الافتراض قد تحصل استحالة العنصر الوحيد ولكن لا يحصل ألبتة كون حقيقي للعناصر المختلفة - شاهد من طيماوس لأفلاطون - عرض جديد للطريقة التي بها تتغير العناصر بعضها إلى بعض - يحصل التبدل بسرعة متناسبة مع وجود كيف مشترك - نسبة العناصر الأطراف بعضها إلى بعض ونسبة العناصر الأوساط - الحدود الضرورية لهذا التحول - لا يمكن التمشي إلى اللانهاية في أي واحدة من الجهتين - البيان الحرفي لهذا المبدأ.

١ - التفاصيل السابقة لا تمنعنا تقدير هذه المسائل على ضوء آخر. فإذا كانت مادة الأجسام الطبيعية هي، كما يرى بعض الفلاسفة، الماء والهواء أو عناصر من هذا القبيل فيلزم أن تكون واحداً أو اثنين أو عدة من هذه العناصر. وفي الحق لا يمكن ألا تكون جميع الأشياء إلا عنصراً واحداً أو أكثر. مثلاً أن الكل لا يكون إلا هواء أو ماء أو ناراً أو أرضاً ما دام التغير يحصل في الأضداد. وفي الواقع لنفرض أن الكل هو من الهواء وأن الهواء يبقى في جميع التغيرات فسيحصل من ثم مجرد استحالة ولن يحصل بعد كون.

١ - التفاصيل السابقة - ليس النص على هذه الصراحة. - على ضوء آخر - عبارة النص بالضبط هي: «هكذا» يعني «بالطريقة الآتية». - فإذا كانت مادة الأجسام الطبيعية - يجب أن يعنيها هنا بالأجسام الطبيعية أولاً بعض العناصر ثم بعد ذلك جميع الأجسام التي تؤلفها العناصر الأولية بتراكيبها. كما يرى بعض الفلاسفة وعلى الأخص فلاسفة مدرسة يونيا. - عنصراً واحداً أو أكثر - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - ما دام التغير يحصل في الأضداد - وأن تقبل واقعية التغير المدرك بحواسنا - في جميع التغيرات أضفت هذه الكلمات لبيان الفكرة.

٢- ولكن في هذا الافتراض عينه ليس ممكنًا، فيما يظهر، أن يكون الماء في آن واحد هواء أو أي عنصر آخر مشابه. فسيوجد دائمًا بين الكيفيات تقابل وخلاف حيث لا يكون للنار إلا واحدًا من الطرفين الحرارة مثلاً. ولكن النار لن يمكنها ألبتة أن تكون بالبساطة هواء حارًا لأن هذا إنما هو استحالة. ولا يظهر أن الأمور تقع على هذا النحو. ومن جهة أخرى إذا فرض على العكس أن الهواء يأتي من النار فهذا التغير لا يمكن حصوله إلا بالتغير من الحرارة إلى ضدها فهذه الكيفية المضادة ستكون إذن في الهواء حينئذ سيكون الهواء شيئًا باردًا وبالنتيجة من المحال أن تكون النار هواء حارًا لأنه قد ينتج منه أن العنصر الواحد قد يكون حارًا وباردًا في آن واحد. وسيوجد حينئذ خلاف هذين العنصرين شيء ما آخر سيبقى مماثلًا وهو أي مادة أخرى عامة للثنتين.

٣- قد يكون التدليل عينه منطبقًا في حق كل عنصر آخر غير الهواء ولا يمكن أن يوجد منها واحد قد يكون المنبع الوحيد الذي منه تكون قد خرجت الأخرى كلها. وليس يوجد خلاف هذه العناصر عنصر آخر وسيط، كأن يكون مثلاً عنصرًا وسطًا بين الهواء والماء أو بين الهواء والنار، أثقل من الهواء والنار وأخف من كل الآخر. لأن هذا الوسيط حينئذ يكون بمقابلة الأضداد هواء ونارًا معًا. ولكن ثاني الضدين هو العدم وبالتبع لا يمكن

٢- أن يكون الماء- بعض الناشرين يثبت النار بدل الماء، وأظن أن هذه هي الرواية الحقّة لأنها هي وحدها التي تتفق مع كل ما يلي. ويظهر أن فيلوبون أيضًا على ذلك. ولكني لم أجسر على تغيير النص لأن هذا التغير لا يستند إلى أي نسخة مخطوطة- بين الكيفيات- أضفت هاتين الكلمتين لتتطابق المعنى. - واحد من الطرفين- هذه هي كلمة النص بعينها أثبتتها وربما قد لا تكون الكلمة المختارة.- الحرارة- بافتراض أن الهواء حار وسائل كما سبق في ف ٢ و ٣.- الأمور تقع على هذا النحو- ليست عبارة النص على هذه الصراحة.- إن الهواء يأتي من النار- كما أفترض أنّما من أن النار هي التي كانت تأتي من الهواء فيلزم أن الهواء يمكن أن يأتي من النار أيضًا ما دام أنه لم يفترض إلا عنصرًا واحدًا أحدًا.- من الحرارة- التي هي في النار بالبداهة.- إلى ضدها- الذي هو البرودة.- هذه الكيفية المضادة- ليس في النص إلا اسم إشارة غير محدد.- وسيوجد حينئذ- هذه هي النظرية التي سبقف عندها أرسطو فيما يلي.- أي مادة أخرى عامة للثنتين- هي المادة بالقوة المحضة لا بالفعل والتي يمكنها أن تقبل على التناوب صورة كل واحد من الأضداد ونوعه. ر. طيمائوس أفلاطون ترجمة كوزان ص ١٢٢

٣- في حق كل عنصر آخر غير الهواء- النص مبهم جدًا.- قد يكون المنبع الوحيد- النص مبهم جدًا أيضًا.- عنصر آخر وسيط- كما كان يرى أنكسيمندروس على رواية فيلوبون.- هو العدم- ر. الطبيعة ك ١ ب ٨ ف ١٠ ص ٤٨٠ من ترجمتنا. فإن العدم هو ثاني الضدين بمعنى أن هذا الضد الثاني لا يوجد إلا متى انقطع وجود الآخر.- وعن الحاوي- =

أن يثبت هذا العنصر الوسيط وحده، كما يقوله بعض الفلاسفة، عن اللامتناهي وعن الحاوي. فيلزم إذن إمّا أن كل واحد من العناصر المعروفة يمكن أن يكون على السواء هو ذلك الوسيط وإمّا ألا يمكن ولا واحد منها أن يكونه.

٤- ولكنه إذا لم يكن أجسام محسوسة سابقة على تلك فالعناصر التي نعرفها هي كل هذه الموجودة، فيلزم حينئذ إمّا أن تثبت العناصر إلى الأبد كما هي دون أن يتغير بعضها إلى بعض وأما أن تتغير على الدوام. يمكن أن يسلم أيضًا إمكان تغيرها جميعًا أو أن بعضها يمكن أن يتغير وأن الأخرى لا يمكنها ذلك كما قال أفلاطون في طيماوس، ولقد وضح فيما سبق أن العناصر تتغير بالضرورة بعضها إلى بعض، ولكنه قد بين أيضًا أنها لا تتغير بسرعة على السواء تحت هذا التأثير المتبادل، وأن التغير يحصل أسرع بالنسبة للتي بينها نقطة صلة، أعني كيفًا مشتركًا وأبطأ بالنسبة لتلك التي ليس لها من ذلك. فإذا لم يكن إذن إلا مقابلة واحدة بالأضداد على حسبها تتغير الأجسام فيلزم بالضرورة حينئذ أن يوجد جسمان لأن الهولوى إنما هي التي تصلح وسطًا للضدين غير مدرك وغير منفصل، ولكن لما أنه يوجد بالمعاينة عناصر أكثر فإن أقل ما يمكن أن يوجد من المقابلات إنما هو اثنان، ومتى وجد اثنان فلا يمكن أن يوجد ثلاثة حدود فقط بل يلزم مطلقًا أربعة كما قد تدل عليه المشاهدة. وهذا إنما هو عدد التراكيب اثنين اثنين؛ لأنه ولو أنها ستة في المجموع إلا أن منها اثنين لا يمكن ألّبتة أن يكونا لأنهما ضدان أحدهما للآخر. ومع ذلك فقد عولجت هذه المسائل فيما سبق.

= حفظت لفظ النص على إبهامه. ر. على اللامتناهي الطبيعة ك ٣ ب ٦ ف ٤ ص ٩٧ من ترجمتنا. الفلاسفة الذين يشير إليهم هنا أرسطو بلا شك هم أتباع فيثاغورث ر. كذلك أيضًا الطبيعة ف ١٢ ص ١٠٠. - يمكن أن يكون على السواء هو ذلك الوسيط- ليس النص على هذا القدر من البيان. ولكن المعنى الذي وفناه ظاهر من شرح فيلوبون.

٤- أجسام محسوسة- عبارة النص غير محددة. - فالعناصر التي نعرفها- زدت «التي نعرفها». - كما هي- زدتها أيضًا. - كما قال أفلاطون في طيماوس- ر. طيماوس ترجمة كوزان ص ١٦٦ وما بعدها. - فيما سبق- ر. ما سبق ب ٣ و ٤. - أعني كيفًا مشتركًا- زدت هذه العبارة على جملة التذييل- مقابلة واحدة بالأضداد ليس في النص إلا كلمة واحدة. - للضدين- أضفت هذا الجار والمجرور لإتمام الفكرة. ر. الطبيعة ك ١ ب ٨ من ترجمتنا. - عناصر أكثر- ليس النص على هذه الصراحة. فيما سبق- ر. ما سبق ب ٣ ف ١.

٥- مع أن العناصر تتغير بعضها إلى بعض فإن من المحال أن يوجد مبدأ التحول لا في أحد الطرفين ولا في الوسط. وإليك ما يثبت. فأما الطرفان فإنه ليس ممكناً أن تكون كل الأشياء من النار كما أنها لا تكون كلها من الأرض، لأن هذا يرجع إلى القول بأن الكل يتولد من النار أو أن الكل يتولد من الأرض. ولكن لا يمكن أن يقال أيضاً، كما يريد بعض الفلاسفة، أن الوسط هو المبدأ وأن الهواء ينقلب إلى نار وإلى ماء ولا أن الماء ينقلب إلى هواء وإلى أرض. لأنني أكرر أن الأطراف لا يمكن ألبته أن يتغير بعضها إلى بعض.

٦- على ذلك يلزم إيجاد نقطة وقوف ولا يمكن من جهة ولا من أخرى السير إلى اللانهاية على خط مستقيم لأنه يترتب عليه وجود مقابلات وأضداد غير متناهية العدد لعنصر واحد أحد. فلنرمز للأرض بحرف أ وللماء بحرف م وللحرف هـ وللنار بحرف ن. فإذا تغير هـ إلى ن وإلى م فالتقابل يكون بين هـ، ن. ولنفرض أن هذين الضدين هما البياض والسود. ومن جهة أخرى إذا تغير هـ إلى م فسيكون تقابل آخر لأن م، ن ليسا متماثلين ولتكن مقابلة السيولة واليبوسة مرموزاً لليبوسة بحرف ي وللسيولة بحرف س فإذا كان حينئذ الأبيض هو الذي يمكث ويبقى فيكون الماء سائلاً وأبيض، فإذا لم يكن أبيض فيكون أسود ما دام أن التغير لا يحصل إلا إلى الأضداد. فيلزم حينئذ بالضرورة أن يكون الماء إما أبيض وأما أسود، ويمكن افتراض أنه في الحالة الأولى. وبالطريقة عينها

٥- مبدأ التحول- عبارة النص هي بالبساطة «مبدأ». - من النار..... من الأرض- بأن النار والأرض هما العنصران الطرفان. - الهواء ينقلب إلى نار- بما أن الهواء عنصر وسيط. - الماء ينقلب إلى هواء- الملاحظة عينها. - أكرر- أضفت هذه الكلمة. - أن يتغير بعضها إلى بعض- لأن الأطراف هي أضداد تتفاسد ولكنها لا تتبدل على طريق التكافؤ.

٦- يلزم إيجاد نقطة وقوف- التي هي أحد الطرفين. - إلى اللانهاية على خط مستقيم- يعني من غير أن يرتد على عقبيه ليذهب من جديد من الطرف الثاني إلى الطرف الأول كما ذهب أولاً من الطرف الأول إلى الطرف الثاني ومع ذلك فإن هذه الفكرة ليست بيّنة بياناً كافياً. - مقابلات وأضداد- ليس في النص إلا كلمة واحدة. - فلنرمز للأرض بحرف T (بالفرنساوية وقد وضع بدلها في النص العربي حرف ا) في النص أخذت حروف الرمز من أوائل أسماء العناصر كما نبه إليه فيلوبون كما فعلت في الترجمة. ومع ذلك فإن هذا المثل الحرفي لم يأت بإيضاح كبير. - البياض والسوداء. - نبه سان توماس بحق إلى أن هذه الأمثلة ليست مختارة وأن هذه ليست هي الكيفيات العادية للعناصر- م، ن ليسا متماثلين- بل هما ضدان بالعرف العام ما دام أنهما الماء والنار. - السيولة- يمكن أن تترجم أيضاً "الطوبة". - أعني النار تتغير كذلك إلى ماء- كل هذه التغيرات هي نظرية محضة ولا تطابق حقيقة الواقع في شيء. والمؤلف هنا ليس متمسكاً بنهج المشاهدة الذي طالما أوصى به.

أيضاً ي البيوسة يكون لحرف ن وحينئذ ن أعني النار تتغير كذلك إلى ماء لأنهما الضدان، والنار كانت سوداء أولاً ثم يابسة بعد ذلك كما كان الماء سائلاً أولاً ثم أبيض.

٧- فبين إذن أن كل العناصر يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض. والكيف الباقية ستوجد في الأرض كما يوجد فيها نقطتا الاجتماع والارتباط الأسود والسائل ما دام أن هذين الكيفين لم يتركبا معاً بعد بأي طريقة كانت.

٨- وهاك البرهان على أنه لا يمكن ها هنا أن يتمشى إلى اللانهاية مبدأ اعتمدنا عليه من قبل أن نقرر الإيضاح الذي سبق، وذلك هو أنه إذا فرض أن النار المرموز لها بحرف ن تتغير إلى عنصر آخر ولا ترجع إلى الورا وأنها مثلاً تتغير إلى ر فمن ثم يكون بين النار وبين ر مقابلة بالأضداد مختلفة عن المقابلات المذكورة آنفاً ما دام أن ر لا يمكن أن تكون مماثلة لأي واحد من العناصر المرموز لها بالحروف أ، م، هـ، ن ولنفرض أن الكيف ك هو كيف ن وأن الكيف ي هو كيف ر فتكون ك حينئذ لكل العناصر أ، م، هـ، ن لأن كل هذه العناصر يتغير بعضها إلى بعض ولكن مع التسليم بأن هذا لم يوضح بعد فإن من البين على الأقل أنه إذا تغير ر من جديد إلى عنصر آخر فمن ثم يكون تقابل آخر بالأضداد ويكون بين ر وبين النار ن. وتكون الحال كذلك دائماً بالنسبة للحد المزيد وأنه

٧- أن كل العناصر - قد يكون من الممكن تخصيص هذه القضية التي هي أعم مما ينبغي بعض الشيء وقصرها على عنصري الأرض والنار. - الكيف الباقية - يعني التي لم يتألف أحدها مع الآخر بعد. - نقطتا الاجتماع والارتباط - يعني الكيفيات المشتركة للعنصرين والتي بها يمكن أن يجتمعا ويتركبا بحيث أن أحدهما يتغير إلى الآخر.

٨- مبدأ اعتمدنا عليه - ر. ما سبق ف ٦ - الإيضاح الذي سبق - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - ولا ترجع إلى الورا - يعني إذا توالى التغير على خط مستقيم وإذا لم تتغير النار على التعاقب إلى هواء وماء وأرض لتتغير الأرض بعد ذلك إلى ماء وهواء ونار. - المذكورة آنفاً - ر. ب ٥ و ٦. - لا يمكن أن تكون مماثلة - يعني أن "ر" تكون مفروضة عنصراً خامساً خارجاً عن النار والهواء والماء والأرض. - الكيف "ك" - عبارة النص هي فقط "ك". - فتكون "ك" حينئذ لكل العناصر - ما دام أنه للعنصر "ن" بواسطة "ر" ولسائر الأخرى بواسطة "ن" للحد المزيد - كما زيدت "ر" على أربعة العناصر الأخرى. - إذا كانت هذه الحدود غير متناهية بالعدد - يجب أن يعني بالحدود العناصر الجديدة التي قد تفترض تلو العنصر الخامس كما افترض الخامس تلو للأربعة الأول. - لعنصر واحد أحد - ما دام أن جميع العناصر يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض على التعاقب. - أي عنصر ما - عبارة النص غير محددة - ذكرنا - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - بل وأزيد منه - هذا غير مفهوم تماماً ما دام قد افترض أن عدد الأوساط غير متناه. - لبعض =

يوقع دائماً مقابلة مع الحدود السابقة بحيث إنه إذا كانت هذه الحدود غير متناهية بالعدد فتكون كذلك مقابلات غير متناهية بالعدد لعنصر واحد أحد. وإذا كان هذا ممكناً فمن ثم يكون من المحال أن يعطي أي قول شارح وأن يوضح كون أي عنصر ما دام أنه يلزم، إذا كان واحد يأتي من الآخر، أن يجتاز من المقابلات عدد ما ذكرنا بل وأزيد منه، وينتج من ذلك أنه بالنسبة لبعض العناصر لا يكون تغير ممكن البتة، مثال ذلك إذا كانت الأوساط غير متناهية بالعدد وهذا لازم إذا كانت العناصر غير متناهية بالعدد هي أنفسها، وعلى ذلك مثلاً لا يكون تغير من هواء إلى نار إذا كانت المقابلات التي تجتاز هي غير متناهية بالعدد.

٩- وأخيراً كل العناصر أيضاً تنتهي إلى عنصر واحد لأنه يلزم أن تكون كل هذه المقابلات متعلقة إما بالمقابلات من أعلى بالعناصر التي هي أسفل من ن وإما بالمقابلات من أسفل بهذه العناصر نفسها بحيث إن الكل ينتهي إلى واحد.

= العناصر - عبارة النص غير محددة ويظهر لي أن هذا يرجع بالضرورة إلى العناصر. إذا كانت الأوساط غير متناهية بالعدد- كما افترض سابقاً، فإن الهواء والنار هما مع ذلك عنصران متجاوران كلاهما فإذا لم يكن تغير أحدهما إلى الآخر على طريق التكافؤ فمن باب أولى العناصر المتباعدة كالنار والأرض.

٩- وأخيراً- أضفت هذه الكلمة لبيان أن هذا هو تمام كل ما سبق، ومع ذلك فلا يرى قوة هذا البرهان المبني على فرض عنصر خامس وسلسلة متناهية من العناصر حتى لو فرض أنه لا يوجد إلا أربعة عناصر فما دام أنها يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض كما يقرره أرسطو فإنه يظهر أيضاً أنه يمكن أيضاً أن تنتهي إلى واحد. ومع ذلك فإنني لست واثقاً بأن يكون المراد هنا هو العناصر ما دام أن عبارة النص غير معينة كما في بعض الفقرات الأخرى. ومن الممكن أن تكون جميع الأوساط هي التي تنتهي إلى واحد. - كل العناصر أيضاً تنتهي إلى عنصر واحد- حفظت عدم التعيين الموجود في النص. وما زالت هذه الفقرة مغلقة على الرغم من توضيحات فيلوبون الذي يستند مع ذلك إلى الإسكندر الافروديزي. والظاهر أن هذا الأخير كان لديه نص أرسطو كما وصل إلينا، ومن المحتمل أنه لا محل لافتراض أي تحريف ها هنا. وأن الفكرة العامة لهذا التدليل هي مع ذلك جلية وإن كانت التفاصيل ليست دائماً كذلك. فعلى رأي أرسطو أن أربعة العناصر يمكن أن يتغير بعضها إلى بعض. ولكن هذا التغير لا يصح أن يكون غير متناهٍ ويلزم الاستمسك بالأربعة العناصر التي تدركها حواسنا وبالأربع الكيفيات التي تشخصها وتميزها. وقد فسر سان توماس هذه الفقرة بالاختصار الذي ليس من عادته. ولم يكن هذا الإيجاز ليساعد على جلاء المعنى.

الباب السادس

إبطال نظرية أمبيدقل على مقارنة العناصر بينها سواء بالنسبة إلى الكم أم بالنسبة إلى الأثر والتناسب - في مذهب أمبيدقل نمو الأشياء يرجع إلى مجرد جمع - إنه لا يفسر أيضاً كون الأشياء، بل أخضعه لسلطان المصادفة، ولا علة الحركة الأصلية ولا طبع الناس الحقيقي - شواهد مختلفة من شعر أمبيدقل.

١ - حينما يرى أن فلاسفة يقبلون تعدد عناصر الأجسام وينكرون في آن واحد أن العناصر تتغير بعضها إلى بعض، كما يفعل أمبيدقل، قد يمكن أن يسألوا في شيء من الدهش كيف يستطيعون إذن أن يقرروا أن العناصر هي قابلة للمقارنة بعضها ببعض. هذا مع ذلك هو ما يزعمه أمبيدقل إذ يقول: "لأن العناصر كلها كانت متساوية فيما بينها".

فإذا كانت المساواة في الكم لزم أن يوجد بين الأشياء المقارنة شيء مشترك يصلح لقياسها، مثال ذلك إذا كان من كوتيل (ربع لتر) واحد من الماء يمكن إيجاد عشرة كوتيلات من الهواء فذلك بأن العنصرين كانا من بعض الوجوه شيئاً واحداً ما دام أن قياسهما واحد.

ب ٦ ف ١ - حينما يرى - ليس النص على هذه الصراحة. - في آن واحد - أضفت هذه الكلمات حتى تكون المقابلة بين المعاني أظهر. - كما يفعل أمبيدقل - ر. ما سبق ب ٣ ف ٦. - قابلة للمقارنة - التعبير مبهم ولم أشأ أن أزيد عليه ما يعينه. وإن الأمثلة التي ستذكر فيما بعد ستقلل من إبهامه شيئاً. - كانت متساوية - ها هنا أيضاً قد حصلت عبارة النص على ما فيها من عدم التعيين. - فإذا كانت المساواة في إيجاد عشرة كوتيلات من الهواء - أو "إذا كان كوتيل من الماء يقابل عشرة كوتيلات من الهواء" وهذا ليس إلا مجرد فرض وليس معناه أن أرسطو يظن أن هذه هي في الواقع النسبة بين الهواء والماء.

٢- فإذا كانت الأشياء ليست قابلة للمقارنة هكذا بالنسبة إلى الكم أي أن الكمية الفلانية مضارعة الكمية الفلانية فلنزم على الأقل أن تكونه بعلاقة الأثر الذي يمكن أن تحدثه. مثال ذلك: إذا كان كوتيل من الماء يمكن أن يحدث من البرودة ما تحدثه عشرة كوتيلات من الهواء فحينئذ تكون العناصر قابلة أيضاً للمقارنة بينها بعلاقة الكمية لا من حيث هي بالضبط كمية مادية ولكن من حيث إنه يمكنها أن تحدث فعلاً ما.

٣- قد يمكن أيضاً مقارنة القوى أو الطاقات ليس فقط بمقياس الكمية مباشرة بل أيضاً بالتناسب والتشبيه. على ذلك يمكن أن يقال إن الشيء الفلاني حار كما أن الشيء الآخر أبيض. فكاف التشبيه تبين علاقة المشابهة إذا كان المعنى هو الكيف، فإن كان المقصود الكم فهي تفيد المساواة. ولكن من السخف، فيما يظهر، أن الأجسام التي لا يمكن أن تتبدل بعضها ببعض لا تكون قابلة للمقارنة فيما بينها بعلاقة المشابهة وأن تكون فقط بمقياس قوتها ولأن الكمية الفلانية من النار مثلاً يمكن أن تكون أيضاً حارة وتحدث الحرارة التي تحدثها الكمية الفلانية من الهواء التي هي أعظم منها. وفي الواقع إن جوهرًا من هذا الطبع إذا كانت كميته أعظم يمكنه أن يصير بالتناسب مكافئاً لأنه سيكون والآخر من جنس واحد.

٤- أزيد على ذلك أنه على حسب مذهب أمبيدقل لا يوجد نمو ممكن إلا النمو الذي

٢- الأشياء- أو «العناصر»- مضارعة- أو «آتية من» الأثر الذي يمكن أن تحدثه- ليس النص على هذا الوضوح- يمكن أن يحدث من البرودة- كان من حق هذه العبارة أن تكون أوسع مما هي- مادية- أضفت هذا الوصف- أن تحدث فعلاً ما- عبارة النص بالضبط هي: «بما هي مستطبعة شيئاً ما».

٣- القول إن الطاقات- ليس في النص إلا كلمة واحدة- مباشرة- أضفت هذه الكلمة لبيان الفكرة- بالتناسب والتشبيه- ليس في النص إلا كلمة واحدة- فكاف التشبيه- ليس النص على هذا القدر من الضبط- ولكن من السخف فيما يظهر- الرأي الذي ينقده أرسطو هنا يجب أن يكون مسنداً أيضاً إلى أمبيدقل على رغم أن هذا التعيين لم يذكر في النص صراحة- قابلة للمقارنة فيما بينها- لم يذكر فيما سبق أن هذا الرأي هو رأي أمبيدقل- المشابهة- أو «التناسب»- مثلاً- أضفت هذه الكلمة- الكمية الفلانية من الهواء التي هي أعظم منها- في نسبة حرارة الهواء إلى حرارة النار. أما القاعدة فهي مع ذلك صحيحة. فإن جسمين مكيفين بكيف واحد يمكن أن يوازن بينهما بالزيادة على أضعف الاثنين.

٤- أزيد على ذلك... هو يفترض- ليس النص على هذا القدر من الظهور- حين يقول- أضفت هاتين الكلمتين- تنمي الأرض- عبارة النص بالضبط: «تنمي نوعها الخاص» وقد بين أرسطو فيما سبق أن نمو الأشياء لا يمكن أن يحصل بمجرد الإضافة ك ١ ب ٥ ف ٨- ولا يظهر- يحال على المرجع السابق.

يحصل بالجمع، وهكذا هو يفترض أن النار تنمو بالنار حين يقول: «الأرض تنمي الأرض والهواء ذاته ينمي الهواء»

حيثنذ ليس هذا إذن إلا مجرد إضافة ولا يظهر أن الأشياء التي تنمو يمكن أن تنمو هكذا.

٥- ولكنه أعسر أيضًا على أمبيدقل أن يوضح كون الموجودات في الطبع لأن كل الموجودات التي تولد وتتكون بحسب القوانين الطبيعية أو تولد دائمًا بطريقة منتظمة أو بالأقل على الغالب بهذه الطريقة، والموجودات التي تتكون على ضد هذا النظام الثابت أزلًا أو بالأقل الأكثر في العادة هي ثمرة علة اتفاقية وثمره المصادفة. فما هو الفاعل إذن في أن من إنسان يولد إنسان إما دائمًا وعلى حسب قاعدة أزلية وإما بالأقل بحكم العادة الغالبة، كما أن من القمح يأتي دائمًا قمح لا شجرة زيتون؟ أم هل العظام لا تتكون أيضًا بالطريقة عينها؟ كلا إن الأشياء لا تكون بالمصادفة وبالاتفاق كما يقول أمبيدقل بل هي تتكون بنوع ما من العقل.

٦- فما هي إذن العلة في كل هذه الظواهر؟ إنها ليست في الحق لا الأرض ولا النار، وليست كذلك العشق والتنافر لأن أحدهما ليس علة إلا لتأليف الأشياء والآخر لتفريقها. تلك العلة إنما هي أصل لكل شيء. وليست فقط كما يقول أمبيدقل:

٥- على أمبيدقل - أضفت هاتين الكلمتين اللتين تفهمان من صوغ النص. - في الطبع بصرف النظر عن الأشياء التي توجدنا صناعة الإنسان. - علة اتفاقية وثمره المصادفة - أن إبطال نظرية المصادفة هذا هو مطابق تمام المطابقة. حتى في لفظه أحيانًا للنظرية الواردة في الطبعة ك ٢ ب ٤ ف ٦ و ٨ ص ٣١ و ٣٢ من ترجمتي وأيضًا في الباب الخامس وما يليه. - أم هل العظام لا تتكون أيضًا - لا يرى جيدًا لماذا مثل بالعظام هنا. وإن كان أمبيدقل في الحق يستعمل هذا المثل غالبًا. - كما يقول أمبيدقل - ر. الطبعة ك ٢ ب ٨ ف ٣ ص ٥٤ وما بعدها من ترجمتنا. - بنوع من العقل - أو «بنوع ما من الفطنة». - ٦- إنها ليست في الحق لا الأرض ولا النار - هذه الجملة واردة على صيغة تهكمية. - العشق والتنافر - المبدآن العظيمان عند أمبيدقل. ر. الطبعة ك ٧ ب ١ ف ٤ ص ٤٥٥ من ترجمتنا. - إنما هي أصل لكل شيء - يعني صورته الجهورية. وكان يمكن لأرسطو أن يترقى أيضًا إلى أعلى من ذلك ويتساءل إلام يجب أن يرجع في أصل كل شيء. - وليست هذه بعله - أو نوعًا من التناسب والنظام. وإن اللفظ المستعمل في النص هو في غاية السعة. - لأنه ممكن تمامًا - يظهر أن فيلوبيون لم يفهم هذه الجملة الصغيرة لأنه لم يفسرها. - اتفاقي ومشوش - ليس في النص إلا كلمة واحدة.

«اختلاط وتنافر للأشياء المختلطة»

فهي ليست إذن مما يسمى بالمصادفة وليست هذه بعلة. لأنه ممكن تمامًا أن يوجد أحيانًا اختلاط اتفاقي ومشوش.

٧- إذن ما هو علة لكل واحد من الموجودات الطبيعية إنما هو تركيبها، إنما هو الطبع الخاص لكل واحد منها مما لا يقول عنه أمبيدقل كلمة واحدة. بل يمكن التأكيد بأنه لم يدرس الطبع حقيقة ولو أن الطبع هو بالضبط النظام والخير لجميع الأشياء. ولكن أمبيدقل لا يشيد مطلقًا إلا بذكر الامتزاج والاختلاط ومع ذلك فليس هو التنافر بل هو العشق الذي فصل العناصر وهما على رأيه متقدمان على الله ذاته لأن عناصر أمبيدقل هي أيضًا آلهة.

٨- إنه لا يتكلم كذلك على الحركة إلا بطريقة غاية في العموم لأنه لا يكفي أن يقال إن التنافر والعشق هما اللذان يعطيان الحركة إذا لم يعين أن العشق ينحصر في أن يسبب النوع الفلاني من الحركة والتنافر في أن يسبب النوع الفلاني منها. وحينئذ كان يجب على أمبيدقل هاهنا إما أن يحد الأشياء بالضبط، أو أن يتصور فرضًا ما، أو أن يوضح توضيحًا قويًا أو ضعيفًا مع ذلك، أو أن يخلص منه بأي طريقة أخرى.

٧- إنما هو تركيبها- والترجمة الحرفية هي: «كونها على ما هي عليه». ومع ذلك فإن هذا غير صحيح جدًا فإنه لا يمكن أن يقال إن تركيب الموجودات هو علتها الحقيقية. - النظام والخير لجميع الأشياء- على هذا المعنى يمكن القول بأن هذا هو علتها الغائية. - الامتزاج والاختلاط- ليس في النص إلا كلمة واحدة. - العشق الذي فصل- لا يظهر أن هذا مطابق تمامًا لأراء أمبيدقل. وفي الحق أنه لأجل الجمع يلزم أولًا التفريق ولكن أمبيدقل إنما يستند التفريق إلى التنافر. - على رأيه- أضفت هاتين الكلمتين لبيان الفكرة. - الله ذاته- إله أمبيدقل هو «السفوروس» الذي يحيط بكل شيء فتارة ينسبط بالتنافر وتارة ينقبض بالعشق. ر. الطبيعة ك ١ ب ٥ ف ٤ في التعليقات ص ٤٥٥ من ترجمتنا.

٨- غاية في العموم- ويمكن أن يترجم أيضًا:- «أبسط مما ينبغي» فإن عبارة النص تؤدي المعنيين. - إذا لم يعين- ليس النص على هذه الصراحة. - بالضبط - زدت هذا القيد لتمام المعنى. - يخلص منه بأي طريقة أخرى- عبارة النص فيها من طابع المؤلف الحرفي نحو ما في العبارة التي ترجمناها بها.

٩- رد آخر، إن الأجسام هي تارة متحركة بالقسر وضد الطبع وتارة هي ذات حركة طبيعية. مثال ذلك النار تتجه إلى فوق من غير أن يكون ذلك بالقسر ولا تتجه إلى تحت إلا بالقسر، فالحركة الطبيعية هي ضد الحركة القسرية فبالنتيجة كما أنه يوجد حركة قسرية يوجد أيضاً حركة طبيعية. فهل هو إذن العشق أو ليس هو العشق الذي يكون هذه الحركة الأخيرة؟ متى كان للأرض حركة تحملها إلى تحت فإنما هي حركة مضادة للائتلاف وتشبه الانفصال. إذن يكون التنافر هو أولى من العشق في أن يكون علة الحركة الطبيعية وبالنتيجة يكون العشق أولى من التنافر في أنه مضاد للطبع. فإذا لم يكن لا التنافر ولا العشق يكونان الحركة فلا يكون للأجسام أعينها لا حركة ولا سكون. ولكن هذا إنما هو نتيجة باطلة.

١٠- يعترف أمبيدقل أن الأجسام بالبديهة في حال حركة لأن التنافر هو الذي فصلها. والأثير قد ارتفع في الملاء الأعلى لا بواسطة التنافر ولكن كما يقول أحياناً أمبيدقل بضرب من المصادفة:

«الهواء حينئذ يطير هكذا ولكن في الغالب على خلاف ذلك»

٩- رد آخر- ليس النص على هذا القدر من التعيين. -بالقسر وضد الطبع- ر. الطبيعة ك ٨ ب ٤ ف ٢ ص ٤٨١ من ترجمتنا وما بعدها-. كما أنه يوجد حركة قسرية على تقدير «بحسب نظريات أمبيدقل». - هذه الحركة الأخيرة- زدت وصف «الأخيرة» لبتعين المعنى. - تحملها إلى تحت- وفي نسخ أخرى ربما كانت هي الأكثر عدداً «إلى فوق» بدلا من «إلى تحت». ولكن هذا لا يتفق مع تقارن النص. فإن أرسطو يرد بأنه حتى لو كانت الأرض محمولة إلى تحت بحركتها الطبيعية فإن الحركة أشبه بالتفريق منها بالجمع. ما دامت الأرض أو بعض أجزائها على الأقل تتجه إلى المركز حيث النار يجب أن تلقاها بحركة قسرية لتنضم إليها. - فإنما هي حركة مضادة- ليس النص مثل الترجمة في الوضوح. وفي كل هذه الفقرة شيء من الخفاء. - للائتلاف - زدت هذه الكلمة. - الحركة الطبيعية- التي تفرق بين الأشياء بدلا من أن تجمعها والتي توجه النار إلى فوق في حين أنها توجه الأرض إلى تحت. - لا التنافر ولا العشق - في مذهب أمبيدقل. - نتيجة باطلة يقبل أرسطو كقاعدة لا تحتل الجدل أن الحركة موجودة. ر. الطبيعة ك ١ ب ٢ ف ٦ ص ٤٣٦ من ترجمتنا. ١٠- يعترف أمبيدقل- النص لا يذكر هنا أمبيدقل وعبارته هي: «الأجسام يظهر أنها في حركة». ولكن هذا بالبديهة يرجع إلى مذهب أمبيدقل كما تعينه القرينة. -الهواء حينئذ يطير هكذا- هذا البيت بعينه قد استشهد به في الطبيعة ك ٢ ب ٤ ف ٦ ص ٣٢ من ترجمتنا. - وأخيراً يعلمنا أمبيدقل- هذا الأسلوب التهكمي موجود في النص.

وأحيانا يقول أمبيدقل أيضًا إن النار اضطرت أن تتجه بالطبع إلى فوق وأن الاثير قد جاء.

«يتكى بقوة على قواعد الأرض»

وأخيرًا يعلمنا أمبيدقل أن العالم هو مسير الآن بالتنافر كما كان سابقًا مسيرًا بالعشق سواء بسواء.

١١ - فماذا هو إذن على رأيه المحرك الأول والعلة الأولى للحركة؟ حقًا ليس هو العشق والتنافر ولو أن كليهما مع ذلك يسبب نوعًا ما من الحركة وإذا كانا هما المحرك الأول الذي يوجد فيكونان المبدأ الحقيقي للأشياء.

١٢ - وأخيرًا فليس أقل سخفًا أن يفترض أن النفس تأتي من العناصر أو أنها واحد من العناصر لأنه كيف تتكون إذن الاستحالات الخاصة للنفس! مثال ذلك كيف يفهم أن يكون لها أو لا يكون لها صنعة الموسيقى! كيف يفهم الذكر والنسيان! من البين أنه إذا كانت النفس من النار يكون لها بما هي نار جميع الكيفيات التي تتعلق بالنار. وإذا كانت النفس مزيجًا من العناصر كان لها كيفيات الأجسام وليس ولا وحد من كيفيات النفس بجسماني. على أن هذه المناقشة تتعلق بدراسة غير هذه قطعًا.

١١ - على رأيه - زدت هاتين الكلمتين لأنه يظهر لي أن الكلام لا يزال مسوقًا إلى إبطال مذهب أمبيدقل. - نوعًا ما من الحركة - فإن العشق يجمع العناصر والتنافر يفرقها وفي هذا نوع مزدوج من الحركة. - وإذا كانا هما المحرك الأول - النص ملتبس ويمكن أن يفهم على عدة معانٍ. فأما فيلوبون فلم يوضحه وأما سان توماس فإنه أعطى المعنى الذي اخترته تقريبًا.

١٢ - وأخيرًا - أضفت هذه الكلمة لأبين في آن واحد أن هذا هو آخر الانتقادات الموجهة إلى نظرية أمبيدقل ولأبين أن هذا الدليل الأخير مغاير للأدلة السابقة. - الاستحالات - أو «الكيفيات» ولكن حصلت لفظ النص بذاته. - الخاصة للنفس - يعني كل التأثيرات الأخلاقية أو العقلية. - من النار بما هي نار بالنار - هذا التكرير هو في النص. فالغرض الأول إنما هو أن النفس هي عنصر النار مثلاً. والغرض الثاني إنما هو أنها مزيج من العناصر. - بدراسة غير هذه قطعًا - وفي الحق إن هذه المناقشة موجودة في كتاب النفس ك ١ ب ٢ ص ٦ ص ١١٢ من ترجمتنا. حيث يعيب أرسطو كما يعيب هنا نظرية أمبيدقل إلى استشهد لها بعدة أبيات من الشعر تشتمل عليها.

الباب السابع

بقية إبطال مذهب أمبيدقل - متى أنكر أن العناصر يمكن أن تتغير بعضها إلى بعض فلا يمكن توضيح تكون الجواهر العضوية المختلفة - شاهد من أمبيدقل - صعوبة توضيح تكون الجواهر المختلفة ليست أقل عظمًا متى سلم بأحقية المادة - تعيين نظرية جديدة فيها تكون الأضداد هي التي يفعلها المتكافئ تكون جميع جواهر الطبيعة.

١ - نأتي إلى ما يختص بالعناصر التي منها الأجسام مركبة. جميع الفلاسفة الذين يقبلون عنصرًا مشتركًا أو الذين يقبلون أن العناصر تتغير بعضها إلى بعض يجب عليهم بالضرورة أن يعترفوا أيضًا بأنه إذا تحقق أحد هذين الفرضين تحقق الثاني على السواء. ولكن هؤلاء الذين لا يريدون أن العناصر يمكن أن يتوالد بعضها من بعض ولا أن يأتي كل واحد من كل واحد إلا أن يكون كما يجيء اللبن من حائط، هؤلاء إنما يقررون نظرية باطلة لأنه حينئذ كيف يجعل من هذه العناصر العظام أو اللحوم أو أي جوهر آخر مشابه.

١ - ب ٧ ف ١ - التي منها الأجسام مركبة - ليس المقصود هنا بعد كون العناصر بعضها من بعض بل تركيبها لتؤلف جميع الأجسام الموجودة في الطبيعة. - عنصرًا مشتركًا - يعني المادة التي بالقوة وهي العنصر المشترك لجميع الأجسام. - أحد هذين الفرضين - يعني أن العناصر لها مادة مشتركة إذا تغير بعضها إلى بعض - وأنها إذا تغيرت هكذا فذلك أن لها مادة مشتركة يجيء اللبن من حائط - فإن اللبن يكون الحائط بما هي مضاف بعضها إلى بعض وليست مركبة ومتمدة بعضها مع بعض. كذلك العناصر تكون مجموعة ولا تتحد لتكون الأجسام التي تدخل هي في تركيب. إن المقارنة صحيحة ولكن العبارة ليست من السعة على ما ينبغي وهذا المثل الخشن المضروب لا يخلو من بعض الشذوذ. - أو أي جوهر آخر مشابه - يعني متجانس تمامًا. وفي المذهب الذي ينتقده أرسطو لا تكون العناصر إلا مجموعة بعضها مع بعض وليست مترتبة حقيقة.

٢- في الحق إن هذه الصعوبة تبقى. وإلى هؤلاء الذين يقبلون أن العناصر تتوالد يمكن أن توجه إليهم مسألة كيف تبلغ هذه العناصر أن تكون شيئاً مغايراً لها أنفسها؟. مثال ذلك إذا كان من النار يأتي الماء وإذا كان من الماء تأتي النار فذلك لأن بينهما موضوعاً مشتركاً. ولكن من العناصر يخرج في الحق أيضاً اللحم والنخاع فكيف تتكون هذه الجواهر؟

٣- بأي وجه يمكنها أن تتكون على حسب نظريات هؤلاء الذين يتبعون مذهب أمبيدقل؟ بالضرورة ليس بين هذه العناصر إلا جمع كما تجمع مواد حائط يتكون من آجر واحجاز. في خليط من هذا القليل تبقى العناصر هي ما هي وتوضح أجزاء أجزاء بعضها إلى جانب البعض الآخر. وحيث أن هذا المنوال، بناء على هذه النظريات، إنما يتكون اللحم وسائر الأشياء المشابهة له.

٤- ولكنه ينتج منه أن النار والماء لا يخرجان ألبتة من جزء كيفما اتفق من أجزاء اللحم، كما في تصاوير الشمع من هذا الجزء يمكن أن تخرج كرة ومن ذاك يخرج هرم. فكل ما يرى هو أن الواحد والآخر من هذين الشكليين يمكن أن يأتي أيضاً على السواء من كل واحد من جزأي الشمع. وعلى هذا النحو حينئذ إن من اللحم يخرج عنصر النار

٢- أن العناصر تتوالد- هذه هي النظرية المضادة لنظرية أمبيدقل الذي كان يعتقد أن العناصر غير قابلة للتغير. - شيئاً مغايراً لها أنفسها- فافترض أن أربعة العناصر هي أصل لجميع الأجسام التي تشاهدها وأن الأجسام هي شديدة التميز عن العناصر التي تكونها. وأنها لمشكلة أن يعرف كيف يمكنها أن تأتي منها. - إذ كان من النار يأتي الماء- ر. ما سبق ب ٥ ف ٦. - من العناصر- عبارة النص غير معينة.

٣- الذين يتبعون مذهب أمبيدقل- والذين يعتقدون أن العناصر غير قابلة للتغير دون أن يمكن أن تتغير بعضها إلى بعض. - كما تجمع مواد حائط- النص أقل صراحة من آجر وأحجار- فإن المواد مجموعة بعضها إلى بعض مجرد جميع وليست متحدة معاً. - بناء على هذه النظريات- زدت هذه الكلمات لإتمام الفكرة. - وسائر الأشياء المتشابهة له يعني كل الأشياء التي لتجانسها المطلق لا يمكن أن تميز فيها العناصر التي دخلت في تأليفها. ويمكن أن تصاغ هذه القضية في صيغة الاستفهام.

٤- ولكنه ينتج منه- حافظت على لفظ الأصل على ترده. - لا يخرجان البتة- على تقدير «معاً» يعني من النار والماء، مجتمعين مجرد اجتماع، ليسا البتة مطلقاً متحدتين في التراكيب التي يركبانه. - من جزء كيفما اتفق من أجزاء اللحم - حيث تكون متماثلة تمام التماثل. - في تصاوير الشمع - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - من كل واحد من جزأي الشمع. - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - أمبيدقل - زدت هذا الاسم الذي تعينه القرينة. - تعبير هذا ممكناً - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - من مكان لآخر- التعبير بالمكان معناه هنا الجزء، والمثل الآتي يفهم المعنى تماماً، فإن الآجرة موضوعة بجانب الحجر، وذلك إنما هو في موضع آخر أي في محل آخر من الحائط.

والماء وإنه قد يكونان معاً من أي جزء اتفق، ولكن مع مبادئ أمبيدقل لا يكون تعبير هذا ممكناً ويلزم أن كل عنصر يأتي من مكان آخر أو من جزء آخر كما في الحائط فإنه من مكان مختلف تأتي الآجرة والحجر.

٥- كذلك الحال أيضاً بالنسبة للفلاسفة الذين لا يقبلون إلا مادة وحيدة لجميع العناصر فإن شأنهم لا يخلو من الحيرة في إيضاح كيف أن جوهرًا يمكن أن يتألف من عنصرين مثلاً من الحار والبارد أو من النار والأرض وإذا كان اللحم يتكون من الاثنين وهو ليس مع ذلك لا أحدهما ولا الآخر ولا مجرد جمع لهذين العنصرين حافظ لطبعهما الخاص فماذا يبقى إذن ليقبل إلا أن يكون المركب الذي تكون منهما بهذه الطريقة هو المادة المحضة؟ لأن فساد أحد العنصرين يكون إما العنصر الآخر وإما المادة.

٦- ولكن من حيث إن الحار والبارد يمكن أن يكونا أقوى أو أضعف فيجب أن يقال إنه متى كان أحدهما بالفعل مطلقاً وبالكمال فلا يكون الثاني بعد إلا بالقوة. ومتى كان الموضوع ليس له مطلقاً أحد الكيفين وكان البارد مثلاً هو نصف حار والحار نصف بارد، لأن الإفراطين إلى جهة أو إلى أخرى يتماحيان على طريق التكافؤ بالمزج، فحينئذ لا يوجد بالضبط لا مادة محضة ولا واحد أو الآخر من هذين الضدين الموجودين مطلقاً بالفعل وبالكمال ولا يوجد إلا وسيط. ولكن على حسب ما أن أحد الاثنين يمكن أن يكون بالقوة حاراً أكثر منه بارداً أو العكس يكون الجسم في هذه النسبة عينها بالقوة أكثر حرارة أو برودة مرتين أو ثلاث مرات أو على أي نسبة أخرى.

٥- الذين لا يقبلون إلا مادة وحيدة- يظهر أن هذه هي نظرية أرسطو الخاصة. لأنه يقبل أن جميع العناصر يمكن أن تتغير بعضها إلى بعض ولكنه لا يعتقد أن هذه النظرية نفسها بمعزل عن كل انتقاد.- جوهرًا- عبارة النص هي «شيئاً ما».- المادة المحضة- أضفت كلمة «المحضة» مع أنها ليست في النص ولكن القرينة كلها تعين هذا المعنى، فإن المادة المحضة هي هنا الهيولي أي المادة بالقوة.- أحد العنصرين- النص أقل صراحة.- وأما- المادة- على تقدير «بالقوة المحضة» فإن العنصرين يتماحيان في المركب الذي يؤلفانه ولا يبقى إلا مادة الاثنين في حالة اللاوجود.

٦- فيجب أن يقال- من الممكن أن تكون الجملة استفهامية أو تقريرية على السواء- بالفعل.... وبالكمال- ليس في النص إلا كلمة واحدة.- مثلاً- زدت هذه الكلمة.- إلى جهة أو جهة إلى أخرى- ليس النص على هذا القدر من الصراحة.- مادة محضة- زدت الصفة كما في الفقرة السابقة.- إلا وسيط- ومع ذلك فإن تمييز هذا الوسيط صعب لأنه يتعلق بحساسية كل مشاهد.- أحد الاثنين- ليس النص أكثر تعييناً في العبارة.

٧- على ذلك كل الأشياء الأخرى تأتي من مزج الأضداد أو العناصر. والعناصر أنفسها تأتي من هذه الأضداد التي هي بوجه ما العناصر بالقوة لا كما تكونه المادة بل بالطريقة التي ذكرت آنفاً. وبهذه الطريقة تكون النتيجة التي تتحصل مزيجاً في حين أنها بالطريقة الأخرى إنما هي المادة المحضة.

٨- ومع ذلك فالأضداد أيضاً هي قابلة على معنى الحد الذي أعطى في بحوثنا الأولى. مثال ذلك الحار بالفعل هو بارد بالقوة والبارد بالفعل هو حار بالقوة أيضاً بحيث إنهما لولا موازنة تامة لتغير أحدهما إلى الآخر. ويجرى هذا المجرى في جميع الأضداد الأخرى التي يراد ذكرها. وعلى هذا النحو إن العناصر بدهياً تتغير ثم إن منها بعد ذلك تأتي اللحوم والعظام وسائر الجواهر المشابهة، فيصير الحار بارداً والبارد حاراً بمقدار ما تقترب من الحد الوسط. فهناك لا يوجد بعد لا أحد الضدين ولا الآخر. فالوسط متعدد وليس قابلاً للتجزئة. كذلك الأمر أيضاً في السائل واليابس، وأن العناصر الأخرى من هذا القبيل حينما تكون قد وصلت في الوسط تكون اللحم والعظام والجواهر المشار إليها.

٧- كل الأشياء الأخرى - يعنى كل الأجسام المركبة والمختلطة كما نشاهدها في الطبيعة كلها. - بوجه ما العناصر - زدت كلمة « العناصر » أخذاً بشرح فيلوبون. - كما تكونه المادة - التي هي ليست شيئاً إلا بالقوة وليس لها حقيقة فعلية في حين أن الأضداد لها تلك الحقيقة الفعلية. - التي ذكرت آنفاً - في الفقرة السابقة. - مزيجاً - من جوهرين بالفعل يؤلفان جوهرًا جديدًا بامتزاجهما. - المادة المحضة. - زدت كلمة المحضة. -

٨- في بحوثنا الأولى - ر. ما سبق ف ٦. ويظن فيلوبون أن المقصود هنا نظرية الفعل والانفعال المبسطة في الكتاب الأول. ر. ما سبق ك ١ ب ٧ ف ٥. الحار بالفعل يمكن ترجمتها أيضاً: «الجسم الذي هو حار بالفعل.... إلخ» - البارد بالفعل - أو «الجسم الذي هو بالفعل وبالحال بارد». - لولا موازنة تامة - عبارة النص هي « إن لم يكونا متساويين ». - لتغير أحدهما إلى الآخر يعني أن أحدهما يمكن أن يحل محل الآخر على التعاقب بما أن أحد الضدين قد صار كائنًا وأحال الآخر إلى ألا يكون إلا بالقوة. - التي يراد ذكرها - زدت هذه الكلمات. - تغير - بعضها إلى بعض. - تأتي اللحوم والعظام - في هذه الأيام تعترف الكيمياء العضوية كذلك بأن المركبات تأتي من اتحاد الأجسام البسيطة. غير أن الأجسام ليست هي التي كان يقبلها القدماء. والعلم يمكنه أن يبين بالتحاليل المضبوطة كيف تتألف التراكيب. - بمقدار - لفظ النص هو «حينما» إلخ. - الضدين - أضفت هذا اللفظ. - الوسط ممتد - ر. في هذه النظرية الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٩ ص ٥٣٢ من ترجمتنا وأيضاً ك ٥ ب ١ ف ١٢ ص ٢٨٠. - وليس قابلاً للتجزئة - وذلك ما لا يسمح له بأن يتكيف على التعاقب بكيفيات متضادة. - كذلك الأمر أيضاً في السائل واليابس - يظهر أن هذا تكرير لما سبق بيانه آنفاً على جميع الأضداد الأخرى.

الباب الثامن

التركيب العام للأجسام المختلطة - يوجد في كلها من الأرض ومن الماء الذين هما عنصران ضروريان - وفيها أيضاً من الهواء ومن النار وهما ضد العنصرين الأولين - ظاهرة التغذية التي يستشهد بها سنداً لهذا النظرية - كيف أن النار هي العنصر الوحيد، من العناصر البسيطة، الذي يغذي نفسه.

١ - كل العناصر المختلطة المنتشرة حول المكان المركزي هي مركبة من جميع العناصر البسيطة. وعلى هذا فإن فيها جميعها من الأرض لأن كل واحد من هذه الأجسام هو الأحسن، وعلى الغالب، في المكان الخاص به. ويوجد أيضاً من الماء في كل المختلطة لأنه يلزم أن تكون المركبة محددة وأن الماء من بين الأجسام البسيطة هو الوحيد الذي يتحدد بسهولة. ومن جهة أخرى فإن الأرض لا يمكنها البقاء بدون الرطب الذي يمسكها مجتمعة، وإذا خلت تماماً من الرطب سقطت تراباً.

١ - ب ٨ ف ١ - حول المكان المركزي - يعني حول الأرض التي هي في نظريات أرسطو مركز العالم ونحوها تتجه الأجسام ذات الثقل. - فإن فيها جميعها من الأرض - لأن كل الأجسام المختلطة التي تذكر هنا هي ذات ثقل. - هو الأحسن وعلى الغالب - حفظت عبارة النص على ما هي عليه من عدم التعيين ومعنى ذلك أن ذوات الثقل تتجه نحو الأرض وتقف بها في سقوطها. - الخاص به - هذا يمكن أن يعني به "الأرض" أو أي واحد من الأجسام المختلطة. كان نوماس وأهل جامعة كويمبرا يفهمون أن المقصود هو الأرض، وأما فيلوبون فإنه يفهم على الضد أن المقصود هو المختلطة التي يتحد مكانها الخاص بمكان الأرض التي هي المركز على السواء.... - محددة - أو "أن يكون لها شكل محدود تماماً". - الرطب الذي يمسكها مجتمعة - وهذا إنما هو ما يسميه العلم الآن بقوة التماسك. - سقطت تراباً - زدت هذه الكلمة الأخيرة لتمام الفكرة.

٢- تلك هي العلل في وجود الماء والأرض في جميع الأجسام المختلطة. ولكنه يوجد فيها أيضًا هواء ونار. لأن هذين العنصرين هما ضدان للأرض وللماء، فإن الأرض ضد للهواء والماء ضد للنار بمقدار ما يكون جوهر ضدًا لجوهر آخر.

٣- على هذا حينئذ ما دامت أكوان الأشياء تأتي من الأضداد فيلزم ضرورة أنه متى وجد طرفا الضدين في الأشياء فإن الآخر من الضدين يوجد فيها على السواء. وبالنتيجة في كل مركب تلغى جميع الأجسام البسيطة.

٤- يظهر أن ظاهرة التغذية معتبرة في كل واحد من الموجودات تشهد بصحة هذه النظرية. فإن كل الموجودات تتغذى بعناصر مماثلة للعناصر التي تركيبها فكلها تغتذي من عدة عناصر بل إن تلك التي يظهر عليها أنها تغتذي من عنصر وحيد كالنباتات التي تغتذي بالماء هي تغتذي في الواقع بعناصر عديدة على السواء ذلك بأن الأرض هي دائمًا ممزوجة بالماء فترى كيف أن الزراع في ريهم الزراعي لا يزدون على أن يمزجوا الماء بالأرض.

٢- الماء والأرض في جميع أجسام المختلطة- ليس النص على هذه الصراحة تمامًا- الأرض ضد للهواء- بوزنها وبكيفاتها الخاصة معًا- بمقدار ما يكون جوهر - ر. المقولات ب ٥ ف ١٨ ص ٦٨ من ترجمتنا.

٣- أكوان الأشياء تأتي من الأضداد - ر. ما سبق ك ١ ب ٣ وما يليه. - طرفا الضدين أو بعبارة أظهر «الضدان المتطرفان يعني الأرض و الماء». - الآخر من الضدين - الهواء بما أنه ضد الأرض والنار بما أنها ضد الماء. ومع ذلك فتلك فروض منطقية محضة. ولكن في الفقرة التالية سيستشهد أرسطو بما هو واقع . - وبالنتيجة- لا يبين على النتيجة أنها مضبوطة إلى حد التحرج. - جميع الأجسام البسيطة- يعني العناصر الأربعة الأرض والماء والهواء والنار مع أربعة الكيفيات البارد والرطب واليابس والحر.

٤- ظاهرة التغذية- عبارة النص هي بالبساطة: «التغذية». - تشهد بصحة هذه النظرية- النص أوجز من ذلك. - تغتذي بعناصر مماثلة- القضية عامة ولكنها مع ذلك غير كاذبة. - تغتذي تغتذي كل هذا التكرار هو في الأصل. - في ريهم الزراعي- أضفت هذه الكلمة الأخيرة التي تدل عليها القرينة. - أن يمزجوا الماء بالأرض - عبارة النص ليست على هذه الصراحة.

٥- ولكن من حيث إن التغذية تتعلق بالمادة ومن حيث إن الموجود المغتذي على هذا النحو مع أنه مشمول ومظروف في المادة هو الصورة والنوع فطبيعي أن يظن أنه من بين الأجسام البسيطة النار هي وحدها التي تغتذي. أما سائر الأخرى فهي لا تزيد على أن يكون بعضها بعضاً عن طريق التكافؤ كما زعم القدماء وذلك بأن النار وحدها هي على الأخص التي تمثل الصورة ما دام أنها دائماً بطبيعتها الخاص متجهة نحو الحد. وكل شيء هو بالطبع مسوق نحو المكان الخاص به. ولكن صورة كل الأشياء ونوعها توجد دائماً في الحدود التي تعينها.

٦- فيرى إذن بما تقدم أن جميع الأجسام تتركب من جميع العناصر البسيطة.

٥- تتعلق بالمادة- حفظت نظم النص ولكنه كان أوضح أن يقال إن التغذية هي مادة الموجود المغتذي. - الموجود المغتذي.... هو الصورة والنوع- أو بعبارة أخرى «الذات» في حين أن الغذاء الذي يقوم به «ليس إلا المادة». - مشمول ومظروف- ليس في النص إلا كلمة واحدة. - فطبيعي أو «مطابق للعقل». - من بين الأجسام البسيطة- يعني العناصر الأربعة. - وحدها التي تغتذي- نبه فيلوبون على أن هذا على الأخص إما هو تعبير شعري. - لا تزيد على أن- النص ليس على هذا القدر من الصراحة. - القدماء- وهذا هو أيضاً رأي أرسطو. - التي تمثل الصورة- أو «التي تتعلق بالصورة». - نحو الحد- يعني نحو طرف الجهة العليا. من حيث أن الحد يعين نوع الأشياء وصورتها فعلى ذلك النار، فيما يظهر، تتعلق بالصورة أكثر. ومع ذلك يمكن أن يقال إن كل هذه النظريات على جانب عظيم من الدقة. - التي تعينها- زدت هذه العبارة.

٦- فيرى إذا- ملخص الباب. بما تقدم- زدت هذه العبارة. - جميع الأجسام - على تقديره «المختلطة». - من جميع العناصر البسيطة يعني الأرض والماء والهواء والنار. ولا حاجة للإلحاح في بيان الفرق بين هذه النظريات وبين النظريات التي قبلها العلم في الوقت الحاضر وأقرها.

الباب التاسع

الهيولى والصورة- المبادئ الأول للأشياء- ضرورة مبدأ ثالث وهو العلة المحركة- إبطال نظرية المثل على نحو ما عرضها أفلاطون في الفيدون- إن المثل لا يمكن أن تفسر كون الأشياء- إنها لا تكون- يرى أن طائفة من الأشياء تتكون تحت أعيننا بعلة أخرى- إبطال النظرية التي تفسر كون الأشياء بحركة المادة- المادة قابلة لفاعلة- أمثلة مختلفة مستخرجة من طرائق الفن.

١- لما أنه توجد أشياء كائنة وقابلة للدور وأن كل ما يتولد ويكون يوجد في المكان الذي يحيط بالمركز فيلزم بداية الكلام على كون الأشياء مأخوذاً في كل عمومه وبيان عدد مبادئه ومن أي طبع هي. وبهذه الطريقة ندرس بطريقة أسهل الحوادث الجزئية بعد أن نكون قد حصلنا على معرفة الحوادث العامة.

٢- وتلك المبادئ هي هاهنا من حيث العدد والجنس على ما هي عليه المبادئ التي تكتشف في الموجودات الأزلية والأول. وأحد هذه المبادئ هو كهيولى والآخر هو

١- ب ٩ ف ١- كل ما يتولد ويكون- النص يقول بعبارة أكثر عموماً أيضاً: «التولد»- يوجد في المكان الذي يحيط بالمركز- هذا التعبير على جانب من الغرابة. فإنه يدل فقط على أن الأجسام المختلفة التي يمكن مشاهدتها توجد على سطح الأرض لمعتمرة مركز العالم. ومع ذلك فإن هذه العبارة لم تظهر لفيلوبون على شيء من الصعوبة فلم يشأ أن يفسرها. - على كون الأشياء- الملاحظات السابقة. - الحوادث الجزئية... الحوادث العامة- هذا ليس هو النمط العادي لأرسطو وإنه ليمشي من الحوادث الجزئية إلى الحوادث العامة لا من هذه إلى تلك. وليس النص من الضبط بقدر ما عليه ترجمتي إياه.

٢- في الموجودات الأزلية والأول- إنما الأجرام السماوية هي المعتبرة أزلية وغير قابلة للتغيير وأنها أوائل كل الأجسام- هو كهيولى- حفظت نظم النص ولكن يمكن ترجمته هكذا: «ويقوم مقام الهيولى... مقام الصورة». - ينضم إلى هذين الاثنين- زدت هذه الكلمات لأحصل كل قوة العبارة الإغريقية. وهذا المبدأ الثالث إنما هو العلة المحركة أو بالأولى العلة الفاعلة. ويلزم أن يقارن بهذه النظريات نظريات الكتاب الأول من الطبيعة ب ٨ ص ٤٧٣ من ترجمتنا. - ليسا أقدر- الهيولى والصورة كلاهما عقيم بدون المبدأ الثالث الذي يجيء فيعطيهما الفعلية بأن يجمعهما.

كصورة، ولكنه يلزم منها زيادة على ذلك ثالث ينضم إلى هذين الاثنين الآخرين. لأن هذين الاثنين ليسا أقدر على تكوين شيء ها هنا منها في الأول.

٣- وعلى هذا إذن إنما هي الهولى التي فيما يتعلق بالموجودات الكائنة هي العلة في أنها يمكن أن توجد وألا توجد. فمن بين الأشياء ما توجد بالواجب، مثال ذلك الجواهر الأزلية، ومنها ما يجب ألا توجد، فبالنسبة للأولى من المحال ألا توجد، وبالنسبة للآخرى من المحال أن توجد لأنه لا يمكن أن شيئاً يكون على خلاف ما يقضي به الواجب. ولكن هناك أشياء أخرى يمكن أن توجد وألا توجد على السواء. وهذه هي على التحقيق كل ما هو كائن وهالك؛ لأن هذه الأشياء تارة توجد وتارة لا توجد. فحينئذ الكون والفساد لا يتعلقان إلا بما يمكن أن يوجد وألا يوجد.

٤- وذلك بما هو هولى إنما هو علة الأشياء الكائنة. ولكن بما هو غرض غائي فالعلة إنما هي الصورة والنوع. وهذا هو حد الماهية لكل شيء.

٥- ولكنه يجب أن يضاف إلى هذين المبدئين مبدأ ثالث. هذا المبدأ لا يظهر على الفلاسفة أنهم لمحوه إلا كما في الحلم ولم يتكلم عنه ولا واحد منهم بنوع من الضبط، فقد ظن بعضهم كسقراط في «الفيديون» أن طبع المثل قد يكفي لتعبير كون الأشياء.

٣- هي العلة في أنها يمكن أن توجد وألا توجد- وقد يمكن عكس القضية فيقال: «إن إمكان الوجود وعدم الوجود هو من حيث المادة علة الموجودات الكائنة- فمن بين الأشياء- أو «من بين الجواهر» أو «من بين الموجودات»- الجواهر الأزلية يعني «الأجرام السماوية»- يمكن أن توجد وألا توجد على السواء- أو بعبارة أخرى كل الموجودات الممكنة.- كل ما هو كائن- أو «ما هو مخلوق».- وهالك- كما هو أكثر الموجودات الخاضعة لمشاهدتنا.

٤- الأشياء الكائنة- والهالكة- بما هو غرض غائي- عبارة النص هي بالضبط من حيث هو «لماذا».- إنما هي الصورة والنوع- النوع يتحد مع «المثال» كما سيرى بعد- حد الماهية- أو «علة الماهية».

٥- أن يضاف.... مبدأ ثالث هو العلة الفاعلة- إلا كما في الحلم- الانتقاد على جانب من الشدة والاستهانة ر. الكتاب الأول ما بعد الطبيعة ترجمة كوزان. ب ٤ و ٥ - في «الفيديون»- ر. فيدون أفلاطون ترجمة كوزان ص ٢٨٣- طبع المثل- أو «الأنواع لأن الكلمة هي عينها أنهم لم يقولوا أشياء- هذه العبارة قد تدل على السواء أما على أن الفلاسفة الذين يطعن عليهم سقراط قد لزموا الصمت أو أنهم لم يقولوا شيئاً يعتد به- بعضها هي المثل..... إلخ- تلخيص صحيح لفيديون- كون كل شيء هذا هو نظم النص بعينه. إذا كان كل هذا حقاً- في هذا القيد نوع من النفي ومن الانتقاد- وآخرون- لم يقل فيلوبون من هم هؤلاء الفلاسفة الآخرون ولكن من المحتمل لأن يكون المقصود ديمقريطس ومدرسته- على رأيهم زدت هاتين الكلمتين.

لأن سقراط وهو يعيب على الآخرين أنهم لم يقولوا شيئاً في هذا الصدد يفترض أن من الأشياء التي توجد بعضها هي المثل والأخرى تتلقى هذه المثل التي تشاركها، وأن كون كل شيء هو مسمى بحسب مثاله، وأن الأشياء تتكون متى تتلقى هذا المثل وأنها تفسد متى تعدمه. وبالنتيجة إذا كان كل هذا حقاً فيكون سقراط يرى أن المثل هي بالضرورة علة كون الأشياء وفسادها. وآخرون على الضد قد ظنوا أنهم يرون هذه العلة في المادة نفسها لأنه منها على رأيه تصدر الحركة.

٦- ولكن ليس الأولون ولا الآخرون على حق، لأنه إذا كانت المثل هي في الحق عللاً فلماذا لا تكون دائماً بطريقة مستمرة؟ ولماذا هي تكون تارة ولا تكون تارة أخرى مع أن المثل تبقى دائماً هي والأشياء التي يمكن أن تشاركها؟ زد على هذا أنه يوجد أشياء يرى جلياً أن العلة فيها إنما هي شيء آخر غير المثل. فإنما الطبيب هو الذي يعمل الصحة. وإنما العالم هو الذي يعمل العلم مع أن الصحة ذاتها والعلم ذاته موجودان هما والكائنات التي يقومان بها. كذلك الحال أيضاً في جميع الأشياء المصنوعة بحسب الفن الذي يمكن أن يتمها.

٧- ومن جهة أخرى حينما يدعى أن المادة هي التي تكون الأشياء بالحركة التي تعطى إياها، فلا شك في أن هذا الرأي هو أكثر موافقة للطبع من نظرية المثل لأن ما يحيل الأشياء ويغير أشكالها يمكن أن يظهر أكثر من غيره بمظهر العلة في كونها. وعلى العموم في كل كائنات الطبيعة كما في كل كائنات الفن ينظر عادة إلى كل ما يعطى

٦- ليس الأولون ولا الآخرون - يعني لا أفلاطون ولا الماديين. - عللاً - كذلك عبارة النص مبهمة أيضاً. - غير المثل - زدت هاتين الكلمتين. - الذي يعمل الصحة. - ربما كان يلزم أن يزداد «في الجسم» لتوفيه قوة العبارة الإغريقية - الصحة ذاتها - يعني مثال الصحة - العلم ذاته - يعني مثال العلم. - هما والكائنات التي يقومان بها - على ذلك يلزم خلاف مثال الصحة ومثال المريض وجود الطبيب وخلاف مثال العلم والتلميذ يلزم المعلم الكفء لتلقين ما يعلم - بحسب الفن الذي يمكن أن يتمها - ليس النص على هذا القدر من الصراحة.

٧- ومن جهة أخرى - إلى أنصار المادة بوجه أرسطو القول هنا بعد أن أجاب على أفلاطون. - من نظرية المثل - ليس النص على هذا القدر من التعيين - ما يحيل الأشياء - ربما يلزم أن يحمل هذا التعبير على معنى أوسع قليلاً من المعنى الذي يعبر به أرسطو عادة.

الحركة كأنه هو الفاعل لها.

٨- ومع ذلك فإن هؤلاء الفلاسفة الأخيرين ليسوا على حق لأن الانفعال والتحريك إنما هما الخاصتان اللتان تتعلقان بالمادة في حين التحريك والفعل يختصان بقوة مغايرة تمام المغايرة. وهذا هو ما يمكن مشاهدته أيضًا في كل ما يعمل به الفن كما في كل ما يعمل به الطبع. إذن فليس الماء نفسه هو الذي يوجد الحيوان الذي يخرج من بطنه (بل هو الطبع). كذلك ليس الخشب هو الذي يصنع السرير بل هي الصناعة. ومن ثم يمكن استنتاج أن هؤلاء الفلاسفة لم يحسنوا هم أيضًا التغيير. وخطوهم آت من أنهم أغفلوا العلة الأهم من جميع العلل بحذفهم الماهية والصورة.

٩- وينتج منه فوق ذلك أنهم ينسبون إلى الأجسام قوى يجعلونها بها تتوالد بحالة ميكانيكية أكثر مما ينبغي بتركهم إلى ناحية العلة التي ترجع إلى النوع. ولما أنه تبعًا لقوانين الطبيعة كما يقولون الحار يفرق والبارد يجمد، ولما أن كل واحد من العناصر الأخرى يفعل ويتفاعل على طريقته فإن ذلك كاف عندهم في التقرير بأنه أيضًا من هذا أو بهذا يكون سائر الأشياء ويفسد. ويظهر لهم أن اليار نفسها تقبل الحركة وتنفعل.

١٠- يوشك أن يكون هذا الخطأ هو عينه خطأ من يذهب إلى اعتبار المنشار وما

٨- الانفعال - أو "القبول". بقوة مغايرة تمام المغايرة - هذه هي ألفاظ النص بعينها. ويمكن ترجمتها أيضًا بقدره مغايرة. - الذي يخرج من بطنه - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - (بل هو الطبع) - وضعت هذه العبارة بين قوسين لأنها لا توجد إلا في بعض المخطوطات وليست ضرورية. وشرح فيلوبون يدل عليها بالاختضاء - الماهية والصورة قد يكون لازماً أن يقال "الماهية الدائمة".

٩- ميكانيكية أكثر مما ينبغي - هذه عبارة الأصل بحروفها وليست غاية في البيان. ر. الفقرة التالية. ويظهر أن هذا الرد يكاد يدخل بتمامه في غضون الرد المتقدم كما نبه إليه أهل جامعة كويمبرا. أما فيلوبون فإنه بناء على رأي إسكندر الأفروديزي يظن أن هذا الانتقاد موجه على الخصوص إلى برمينيد - الحار يفرق - مثلاً حينما يصهر بعض الجواهر - والبارد يجمد - هذا حق في بعض الأحوال ولكنه ليس حقاً في جميعها. - من العناصر الأخرى - ليس النص على هذا القدر من التعيين - النار نفسها - التي تعتبر أفعال العناصر تصير منفعة في هذا المذهب. - تقبل الحركة - أو "تتحرك".

١٠- يذهب إلى اعتبار المنشار - ر. ما سبق في أول الفقرة التاسعة. فتلك هي المبادئ الميكانيكية التي إليها ينسب الفلاسفة كون الأشياء - ويرجمه إليها - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - فهناك ضرورة أيضًا - ليس النص على هذا القدر من الصراحة أردأ - أي بنظام أقل - العادية - زدت هذه الكلمة.

أشبهه من الآلات الأخرى العلة الحقة لكل ما تصنع ويرجعه إليها بحجة أنه بمجرد ما ينشر يلزم ضرورة أن يقطع الخشب وبمجرد ما يصقل بالفارة فهناك ضرورة أيضاً أن ينصقل اللوح وهلم جرا. وبالنتيجة مع أن النار هي أفعل العناصر وأنها توصل الحركة الأقوى فإنهم لا يرون كيف أنها تفعل وأنها أردأ من الآلات العادية.

١١ - أما نحن فلما أننا تكلمنا فيما سبق على العلل على العموم لم نتصد ها هنا إلا لدرس الهيولى والصورة.

١١ - فما سبق - يظن فيلوبون أن المراد هنا كتاب الطبيعة ولكن الأولى بالمراد هو الكتاب الأول من بعد ما بعد الطبيعة الذي فيه أرسطو قد درس العلل - لم نتصد ها هنا إلا لدرس - ليست عبارة النص على هذا القدر من الصراحة.

الباب العاشر

كون الأشياء وفسادها هما متصلان كالحركة ويتعلقان بالنقلة الدائرية للعالم - ضرورة حركتين - النقطة الدائرية المائلة تسد هذه الضرورة - انتظام الكون والفساد الطبيعيين - المدة الدورية للكائنات - فعل الله - القوانين الثابتة التي وضعها في أبدية الأشياء - النظام العجيب للعالم - تغير الأجسام إنما هو الذي يحفظ مدتها - المحرك الأول غير المتحرك هو المبدأ الوحيد للحركة العالمية - اتصال الحركة يتعلق باتصال المتحرك.

١ - يلزم أن يزداد على ذلك اعتبار آخر وهو أنه بما أن حركة النقلة أزلية كما سبق بيانه فينتج منه بالضرورة أنه بهذه المثابة يجب أن يكون كون الأشياء متصلاً أيضاً على السواء. لأن هذه الحركة تسبب إلى ما لا نهاية كون الأشياء بأن تأتي بالعلة التي يمكنها أن تكون الأشياء ثم تأتي بها ثانية. وهذا يبرهن لنا في آن واحد على أن ما قدمناه صحيح وعلى أنه كان لنا الحق في أن نجعل النقلة لا الكون هي أول التغيرات. وفي الحق أنه أدخل في باب المعقول أن يجعل ما هو موجود علة لتكوين ما لم يوجد من أن نجعل ما لم يوجد العلة الفاعلة لتكوين ما هو موجود. وأن ما هو خاضع للنقلة موجود في حين أن الشيء الذي يكون ويصير هو غير موجود. وذلك ما يجعل أن النقلة متقدمة على الكون.

١ - يلزم أن يزداد على ذلك اعتبار آخر - قد اضطرت إلى التوسع في عبارة النص حتى يتدبّر هذا الباب على وجه أليق. - كما سبق بيانه - في الكتاب الثامن من الطبيعة ب ١٠ ص ٥١٨. وما يليها من ترجمتي. - كون الأشياء - عبارة النص «التولد». - هذه الحركة تسبب إلى ما لا نهاية - تلك هي فكرة عظيمة في ربط كون الأشياء وفسادها بالعلة العامة التي تحرك العالم. - تأتي ثم تأتي بها ثانية - هذه المقابلة هي في النص. - ما قدمناه ر. الطبيعة ك ٨ ب ١٠ ص ٥١٨ وما بعدها. - حيث أرسطو قد فصل الكلام تفصيلاً لإثبات أن الحركة الدائرية هي الأولى والأصلية لجميع الحركات. - ما هو موجود ما لم يوجد - عبارة النص: «الموجود واللاموجود». - يكون ويصير - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - متقدمة - أو أعلى.

٢- بعد أن فرضنا وبيننا أن في الأشياء كونًا وفسادًا متصلين وأن حركة النقلة هي علة تولد الأشياء يجب أن يكون من البين لدينا أنه ما دامت حركة النقلة وحيدة فمن المحال أن الكون والفساد يوجدان جميعًا في آن واحد ما دام أنهما ضدان لأن علة موجوده وباقية هي بعينها وفي الظروف بعينها لا يمكن ألبة أن تعمل إلا المعمول بعينه على حسب نظام الطبيعة. وبالنتيجة فإما أن الكون هو الأزلي وإما أن الفساد هو الأزلي.

٣- وعلى ذلك يلزم أن يوجد عدة حركات وحركات متضادات إما باتجاهها وإما بتفاوتها؛ لأن علل الأضداد هي أضداد كذلك. وليست النقلة الأولى إذن على التحقيق هي التي يمكن أن تكون علة كون الأشياء وفسادها، بل النقلة على حسب الدائرة المائلة. فإن في هذه النقلة حقًا يوجد في آن واحد اتصال لحركة واحدة وإمكان لحركتين، لأنه يلزم بالضرورة من أجل أن الكون والفساد يمكن أن يكونا متصلين أن تكون الحركة سرمدية حتى لا تتخلف هذه التغيرات نفسها أبدًا. ومن جهة أخرى يلزم أن يكون عدد الحركات اثنين لا تكون إحدى هاتين الظاهرتين هي التي تبقى وحدها على الدوام.

٤- وعلى ذلك إذن إنما نقلة العالم هي علة الأبدية وإن ميل الدائرة إنما هو الذي ينتج التقريب أو التباعد لأنه قد يمكن أن تكون العلة تارة بعيدة وتارة قريبة. وبما أن المسافة

٢- فرضنا وبيننا واقع الكون والفساد المتصلين للأشياء تشهد لنا به الحواس. ولا محل لفرضه ولا. لتبينه. ولكن فلاسفة معاصرين لأرسطو كانوا يذهبون إلى حد إنكار الحركة. ر. الكتاب الأول من الطبيعة ب ٣ وما يليه في آن واحد- أضفت هذا القيد لأحصل كل قوة عبارة النص. فإما أن يكون هو الأزلي وإما أن الفساد هو الأزلي- أو عبارة أخرى أحد الاثنين لا الاثنان جميعًا.

٣- حركات متضادات- ر. حد الحركة المضادة في الطبيعة ك ٥ ب ٧ ص ٣٢٠ وما بعدها من ترجمتنا- على حسب الدائرة المائلة- بناء على ما سيأتي «بناء على شرح فيلوبون يلزم أن يعنى بالدائرة المائلة دائرة فلك البروج أو دائرة سمت الشمس. وبحسب ما تكون الشمس أقرب منا أو أبعد يحصل كون الأشياء أو فسادها. قد لا تكون نظرية أرسطو صحيحة ولكنها في الحق كيسة للغاية. إن الحركة اللامتغيرة المتمائلة منذ الأزل تبقى منطبقة على السماء ولكن الحركة المتفاوتة الخاضع لها العالم الأرضي هي في الشمس والسيارات التي تسيرها- اتصال الحركة واحدة وإمكان لحركتين- من هنا علنا الكون والفساد المتعاقبين الأبديين للأشياء أسدى هاتين الظاهرتين- ليس النص على هذا القدر من الصراحة.

٤- نقلة العالم- يعنى حركة النقلة الأزلية التي تتسلط على السماء والكواكب الثابتة على مذهب أرسطو.- ميل الدائرة- زدت المضاف إليه. أن تكون العلة- عبارة النص غير معينة بالمرّة فاضطرت إلى تعيينها.- بشهادتها وقربها- هذا يمكن=

غير متساوية والحركة تكون غير متساوية كذلك، وعلى ذلك إذا كانت الحركة بشهادتها وقربها تسبب كون الأشياء فإن هذه الحركة نفسها بغيابها وابتعادها تسبب فساد الأشياء. وفوق ذلك فإنها إذا كونت باقترابها عدة مرات فإنها تفسد بابتعادها عدة مرات أيضًا لأن علل الأضداد هي أضداد بعضها لبعض.

٥- يلزم أن يزداد على هذا أن الفساد والكون الطبيعيين يتحققان في زمان متساوٍ. وهذا هو الفاعل في أن زمن مدة كل كائن وزمن حياته يمكن أن تعبر بالعدد وتتعين بهذه الطريقة، وفي هذا ترتيب ينتظم جميع الكائنات، فإن المكث والحياة هما دائمًا مقيسان بمدة ما تمضي. غير أن هذه المدة ليست واحدة بالنسبة للجميع على السواء. بل هي أقصر بالنسبة للبعض وأطول بالنسبة للبعض الآخر. وإن المدة التي يقاس بها وجود الكائنات هي بالنسبة لهؤلاء سنة وبالنسبة لهؤلاء هي أكثر، في حين أنه بالنسبة لموجودات أخرى المقدار هو أقل.

٦- إن الظاهر المحسوسة لشاهدة بصدق ما نقوله هنا. متى تطلع الشمس يحصل كون، ومتى تغرب يحصل فساد، وهاتان الظاهرتان تتحققان في أزمان متساوية لأن زمن الفساد الطبيعي هو مساوٍ لزمن الكون. ولكنه يقع غالبًا أن الفساد أسرع بعله تفاعل العناصر بينها. وفي الحق متى كانت المادة غير منظمة ولا واحدة بعينها في كل مكان لزم

= أن ينطبق على الشمس التي ليست هي فقط أكثر أو أقل بعدًا من الأرض بحسب الفصول بل إن نورها هو تارة شاهد وتارة غائب بحسب النهار والليل - باقترابها عدة مرات - حفظت عبارة النص على ما بها من تردد. ومعنى ذلك أنه يلزم أن تقترب الشمس أو تبعد عدة مرات متوالية لتحدث بعض الآثار. - علل الأضداد - أو الأضداد هي علل للأضداد.

٥- يتحققان في زمان متساوٍ - لا يلزم أن يؤخذ هذا بتحرج أكثر مما ينبغي، فإن أرسطو يريد أن يقول إن الزمان الذي فيه يمكن للشمس أن تفسد هو مساوٍ للزمان الذي فيه يمكنها أن تكون. فإن دورية الفصول متساوية دائمًا. - وزمن حياته - لأن مدة الحياة لكل كائن متغيرة بحسب الأوضاع التي وضعتها فيه الطبيعة كما سيقل بعد. ترتيب ينتظم جميع الكائنات - معلوم أن أرسطو كان يهدم دائمًا مذهب المصادفة والاتفاق. ر. ما سبق ب ٦ ف ٥ والطبيعة ك ٢ ب ٤ وما بعده.

٦- الظواهر المحسوسة - كذلك يوصي أرسطو هنا كما هو كما موطن آخر ينمط المشاهدة. متى تطلع الشمس - هذا ليس حقًا إلا بمقدار ما، وأنها لمبالغة في فعل الشمس أن يسند إليها كون جميع الأشياء... في أزمان متساوية - يعني أنه في آخر العام يكون الزمن الذي فيه غابت الشمس مساويًا للزمن الذي فيه طلعت. - الفساد الطبيعي - الرجوع إلى شهادة الشمس أو غيبتها. - الفساد أسرع - العلة عينها أن تفعل في الكون أيضًا - العناصر النص أقل صراحة وقد اضطرت إلى جعل الترجمة أضبط.

أيضاً أن الأكوان التي تخرج منها تكون غير منظمة مثلها وأن يكون بعضها أسرع والآخر أبطأ، وحيثذ يمكن أن يصير كون البعض فساداً للبعض الآخر.

٧- على أن الكون والفساد كما قلنا يجب أن يكونا دائماً متصلين ولا ينبغي ألـبـتـة أن يتخلفا للأسباب التي ذكرناها. ومع ذلك فإن هذا مفهوم جدّاً لأن الطبيعة كما نقرر تبحث دائماً عن الأحسن في كل الأشياء. والوجود هو أحسن من العدم، وقد عددنا في موضع آخر المعاني المختلفة للفظ «وجود». ولكنه لا يمكن أن الوجود يبقى في كل الأشياء ما دام أن بعضها هي أكثر ابتعاداً جدّاً عن المبدأ. وأخذاً بالطريق الوحيد الذي بقي نقول إن الله قد كمل الكل بأن جعل التولد متصلاً وأبدياً. فالوجود هو إذا ملتك ومتصل بقدر ما يمكن لأن كوناً أبدياً وصيرورة مستمرة هما أقرب ما يمكن من الوجود ذاته. وحيثذ فعلة هذا الكون، كما طالما قد قيل، إنما هي النقلة الدائرية لأنها هي وحدها التي تكون متصلة.

٨- فانظر كيف أن جميع الأشياء التي تتغير بعضها إلى بعض، بحسب خواصها القابلة والفاعلة، كالأجسام البسيطة مثلاً، لا تزيد أيضاً على أن تقلد هذه النقلة الدائرية التي هذه الأشياء تكررهما. وفي الحق أنه متى كان الهواء يجيء من الماء والنار تجيء من

٧- كما قلنا- سواء في هذا الباب ف ٣ أو في الطبيعة ك ٣ ب ٥ ف ٤ ص ٩٤ من ترجمتي كما تقرر- هذا هو أحد المبادئ التي أحسن أرسطو في تقريرها وحسن استعمالها . ر. الطبيعة ك ٨ ب ٧ ف ٦ ص ٥١٠ من ترجمتي.- في موضع آخر- خصوصاً في المقولات ب ٢ ف ٢ ص ٥٤ من ترجمتي. وفي الطبيعة ك ١ ب ٣ ف ١ ص ٤٣٨ من ترجمتي. وفيما بعد الطبيعة ك ٤ ب ٧ ص ١٠١٧ طبعة برلين.- الوجود يبقى في كل الأشياء.- على تقدير الوجود «الأزلي» ولكنني اضطررت لاستيفاء التردد الواقع في النص- عن المبدأ- الذي كونها والذي يحفظها - أخذاً بالطريق الوحيد الذي بقي- ربما كان في ذلك تضيق لقدرة الله- الله قد كمل الكل- هذه الفقرة تذكر بعض الشيء بنظريات طيماوس التي ربما كانت هي التي أوحتها- متصلاً وأبدياً- ليس في النص إلا كلمة واحدة- ملتك ومتصل..... كون أبدياً وصيرورة مستمرة- التنبيه السابق عنه. - من الوجود ذاته- على تقدير «الأزلي» كما طالما قد قيل- في هذا الباب ذاته وفي الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٤٦ ص ٥ ف ٥٥٠ و ٥٥٢ من ترجمتي.

٨- كالأجسام البسيطة- يعني العناصر العادية الأرض والماء والهواء والنار. - لا تزيد أيضاً على أن تقلد- ليس النص على هذه الصراحة.- هذه الأشياء تكررهما- أضفت هذه الكلمات. ومع ذلك يمكن أن يرى أن هذه المشابهة بين التغير المتكافئ للعناصر وبين الحركة الأرضية التي تحرك السماء هي مشابهة قسرية. ولكنه يلزم ذكر ذلك المركز العظيم المسند إلى أربعة العناصر في نظريات أرسطو.... على الأخص الميتورولوجيا ك ١ ب ٢ و ٣ ص ٤ وما بعدها من ترجمتنا- وفي الحق أنه متى كان الهواء يجيء من الماء- على رأي أرسطو أن الماء بتبخره يصير هواء- ثم الماء يجيء في دوره من النار لأن النار تتغير إلى هواء والهواء في دوره إلى ماء- تقلد هذا التكرير موجود في الأصل.

الهواء ثم الماء يجيء في دوره من النار فيمكن القول بأن الكون قد حصل دورياً ما دام أنه رجع على نفسه. وعلى هذا إذن فإن حركة هذه الظواهر بامتدادها على خط مستقيم تقلد الحركة الدائرية وتصير متصلة.

٩- وهذا يسمح لنا في آن واحد باستجلاء مسألة يثار ثائرها أحياناً وهي كيف يمكن، مع أن كل جسم متمكن في المحل الخاص به، ألا تكون الأجسام المركبة منفصلة ومنحلة أثناء المدة غير المتناهية للأزمان. والسبب في ذلك بسيط وهو أنها تتغير وتتحول بعضها إلى بعض. فإذا كان كل واحد منها يبقى في محله الخاص ولم يعدله جاره فتكون من زمان طويل قد انفصلت وانعزلت، فهذه الأجسام تتغير إذن على أثر حركة نقلة مزدوجة ومن أجل أنها تتغير لا يوجد ولا واحد منها يمكن أن يبقى ألبتة في مكان ثابت ومعين.

١٠- فيمكن أن يرى إذن بناء على ما تقدم أنه يوجد على الحقيقة كون للأشياء وفساد وما هي العلة فيهما كما أنه يرى ما هو المخلوق والقابل للفساد. ولكن ما دام أنه يوجد حركة فيلزم أن يوجد محرك كما بين ذلك في مؤلفات أخرى. وإذا كانت الحركة أزلية يلزم أن يكون موجوداً شيء ما أزلية أيضاً. ولما أن الحركة متصلة فهذا الشيء الذي هو

٩- يثار تأثرها أحياناً- أو «يثيرها بعض الفلاسفة»- منفصلة ومنحلة- ليس في النص إلا كلمة واحدة- ويلزم أن يفهم أن المراد هو تحليل الأجسام المختلطة حيث كل واحد من العناصر التي تؤلفها يتجه إلى المكان الخاص به، فالأرض إلى تحت والنار إلى فوق والهواء والماء إلى الأماكن المتوسطة. - أثناء المدة غير المتناهية للأزمان- لأن هذه التغيرات بطيئة للغاية ويستدعي أزماناً طويلاً جداً. - وهو أنها تتغير وتتحول- ليس في النص إلا كلمة واحدة. - قد انفصلت وانعزلت- التنبيه السابق عينه.

- حركة نقلة مزدوجة. ر. ما سبق ف ٤ ومدة الحركة المزدوجة هي التي يحدثها ميل الدائرة الذي هو تارة يبعد الشمس عنا وتارة يقربها منا. - وبحسب شرح فيلوبون إنما هي الحركة التي تذهب من الشرق إلى الغرب والتي ترجع من الغرب إلى الشرق. - ومن أجل أن تتغير - وتختلط بعضها ببعض.

١٠- المخلوق والقابل للفساد- حفظت قصداً عبارة النص على قلة تعيينها- في مؤلفات أخرى- هي الطبيعة ك ٨ ب ١٥ ص ٥٥٨ وما بعدها من ترجمتي، وما بعد الطبيعة ك ٧ ب ٦ وما بعده ص ١٩٢ من ترجمة كوزان الطبعة الثانية. - أن يكون موجوداً شيء ما- قد يكون أكثر بياناً أن يقال: محرك ما أزلية. - كثيرة بالعدد..... عديدة- هذا التكرار موجود في النص. - ما دام الزمان متصلاً- ر. على علاقات الزمان بالحركة الكتاب الرابع من الطبيعة ب ١٤ وما بعده ص ٢٢٤ من ترجمتي. - بديا- يرى فيلوبون أن المقصود بهذا كتاب الطبيعة الذي هو يتقدم في ترتيب الدراسة كتاب السماء وهذا الكتاب ويلزم الرجوع إلى الكتاب الرابع والكتاب السابع من الطبيعة.

أحد يجب أن يكون هو عينه أبداً غير متحرك ولا مخلوق ولا قابل للاستحالة. حتى مع افتراض أن الحركات الدائرية أمكن أن تكون كثيرة بالعدد فقد يمكن أن تكون عديدة ولكنها جميعها ما دامت فإنها يجب بالضرورة أن تكون خاضعة لمبدأ واحد أحد. ومن جهة أخرى ما دام الزمان متصلًا وجب أن تكون الحركة متصلة مثله لأنه من المحال أن يوجد زمان بدون حركة. فإن الزمان هو إذن العدد لشيء ما متصل، أعني للنقطة الدائرية كما قلنا ذلك في البداية.

١١ - ولكن هل الحركة متصلة لأن المحرك الذي يقبلها هو متصل أيضًا؟ أم هل هي كذلك بعلّة اتصال المكان الذي تقع فيه، أريد أن أقول الأين، أو بعلّة اتصال الكيف الذي يكيف الشيء؟ من البين أن الحركة هي متصلة بسبب أن المتحرك متصل لأنه كيف يمكن أن يكون كيف شيء متصلًا إلا إذا كان ذلك باتصال الشيء نفسه الذي فيه يظهر هذا الكيف؟ إذا كانت الحركة ليست متصلة إلا بسبب المكان الذي هي فيه فهذا لا يمكن حينئذ إلا بالأين الذي له وحده خاصية الإحاطة بها لأن له عظمًا ما. ولا يوجد عظم متصل إلا عظم الدائرة لأن هذا العظم هو دائمًا متصل بنفسه. وعلى ذلك فالعامل في اتصال الحركة إنما هو الجسم الذي له النقطة الدائرية وإنما الحركة في نوبتها هي العاملة في أن الزمان يكون متصلًا.

١١ - ولكن هل الحركة متصلة - هذه المسألة المهمة قد طرحت على البحث وحلت في الكتاب الثامن من الطبيعة ب ١٥ وما يليه. وفي الكتاب الثاني عشر من ما بعد الطبيعة ب ٦ وما يليه على وجه فيه بعض المغايرة لما قرر هنا. - اتصال المكان..... اتصال الكيف ليس النص على هذا القدر من الصراحة - الذي يكيف الشيء. ؟ - زدت هذه الكليات لتكوين الفكرة أكثر بيانًا. - المتحرك متصل - هذا غير مفهوم تمامًا. فإن الاتصال يمكن أن يكون إما اتصال الزمان أو اتصال المادة. - إلا بالمكان - عبارة النص أقل ضبطًا. - الذي له وحده خاصية الإحاطة بها - وسمعت عبارة النص لجعلها أبين. - الأعظم الدائرة - ر. الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ف ٤١ ص ٥٤٧ من ترجمتي وب ١٤ ص ٥٥٣. - دائمًا متصل بنفسه - لأن المحيط يرجع على ذاته - الجسم الذي له النقطة الدائرية - والأزلية يعنى السماء.

الباب الحادي عشر

نظرية تعاقب الأشياء الأبدي المنتظم - على أي مقدار يكون تدخل الوجوب - الأشياء الواجبة والأشياء الممكنة - الوجوب المطلق - الوجوب الإضافي - علاقة الواجب والأزلي - كون الأشياء لا يمكن أن يكون أبدياً إلا إذا كان دائرياً - ترتيب الأشياء العجيب - الحركة الدائرية للفلك الأعلى تنظم كل الحركات السفلى، حركة الشمس، وحركة الفصول وكل الحركات الأخرى - أبدية الأنواع - فناء الأشخاص المتعاقب - أزلية بعض الجواهر - خاتمة الكتاب.

١ - لما أننا في جميع الأشياء التي تتحرك بحركة متصلة إما لتكون وإما لتستحيل وإما بالاختصار لتتغير، نرى دائماً حادثاً يوجد بعد آخر وظاهرة تتكون على أثر أخرى بحيث لا يقع لا خلو ولا تخلف فيلزمنا أن نفحص ما إذا كان يوجد شيء ما بالواجب أو أنه ممكن في حق جميع الأشياء ألا تكون إذا لم يكن شيء موجوداً بالواجب. وبديهي أن بعض الأشياء هي واجبة وهذا هو الحامل على أن القول على شيء بالتعيين أنه سيوجد هو مغاير تماماً للقول بأنه يجب أن يوجد. لأنه ما دام قد حق القول على شيء بأنه سيوجد فيلزم أيضاً أن يحق القول ذات يوم على شيء أنه موجود في حين أنه متى صدق القول بالبساطة على شيء أنه يجب أن يوجد فلا شيء يمنع من ألا يوجد: مثال ذلك قد يمكن

١ - لا خلو ولا تخلف - ليس في النص إلا كلمة واحدة - إذا كان يوجد شيء ما واجب - على نظرية الوجوب . ر . الطبيعة ك ٢ ب ٩ ص ٦١ من ترجمتي . - بعض الأشياء هي واجبة - تلك هي النتائج الضرورية لفرض ما ولكن الفرض نفسه ليس واجباً . - بالتعيين - زدت هذه الكلمة زيادة في تحديد الفكرة . - بأنه يجب أن يكون يوجد في عبارة النص نحو من الاحتمال ليس موجوداً في التعبير الفرنسي . - بالبساطة - زدت هذه الكلمة أيضاً . وربما كان من الأحسن أن يستعاض في الترجمة عن عبارة "يجب أن يكون" بعبارة "يمكن أن يكون" فإن هذه الصورة الدقيقة من الصعب نقلها من لغة إلى لغة أخرى .

جدًا أن إنسانًا كان يجب أن يتنزهه ألا يتنزه.

٢- ولكن لما أن من بين الأشياء التي هي موجودة ما يمكن أيضًا ألا توجد فديهي أن يكون الأمر كذلك أيضًا بالنسبة للأشياء التي تصير وتكون وأنه ليس هناك أيضًا وجوب. فهل جميع الأشياء التي تكون هي في هذه الحالة أم هل هي ليست فيها؟ أو ليس يوجد منها ما يجب بالضرورة أن يكون؟ أو لا يكون الأمر بالنسبة إلى الصيرورة كما هو الحال بالنسبة للوجود؟ أو ليس يوجد أيضًا أشياء لا يمكن ألا تكون في حين أن أخرى يمكن أن تكون؟ مثال ذلك وجوب أن توجد المنقلبات الدورية وليس ممكنًا أنها لم تكن أصلًا.

٣- والحق هو أنه إنما يلزم بالضرورة أن المتقدم يكون لأجل أن المتأخر يكون أيضًا في دوره. مثال ذلك لكي يوجد بيت يلزم بدايةً أن يوجد أساس. ولأجل أن يوجد أساس البيت يلزم ملاط. ولكن هل لأن الأساس قد عمل يكون واجبًا أن البيت يقام أيضًا؟ أم هل ليس هذا واجبًا إلا إذا كان البيت نفسه واجبًا على الإطلاق؟ وعلى هذا الوجه إذن من الضروري في الواقع أنه ما دام الأساس قد عمل فالبيت يكون أيضًا لأن هذا هو في الحقيقة علاقة المتقدم بالتأخر أنه إذا كان المتأخر يجب أن يكون فيلزم وجوبًا أيضًا أن يكون المتقدم قد كان من قبله.

٤- وإذا كان حينئذ المتأخر واجبًا لزم أن يكون المتقدم واجبًا كذلك. وإذا كان المتقدم

٢- التي تصير وتكون- ليس في النص إلا كلمة واحدة ويلزم الالتفات إلى التمييز بين الوجود وبين الصيرورة. فإن أحدهما أذلي أو على الأقل باق في حين أن الآخر حادث ومؤقت. - بالنسبة إلى الصيرورة- جئت بهذا التعبير الذي هو أولى ما يوفي عبارة النص لا يمكن ألا تكون- يعني أنها واجبة. - المنقلبات الدورية- ليس النص على هذا القدر من الصراحة. ٣- المتقدم.... المتأخر- الأمثلة التالية تبين معنى هاتين الكلمتين- بيت أساس- يكاد يكون هذا المثل هو عين المثل الذي ضرب في الطبيعة ك ٢ ف ٩ ص ٢٢ من ترجمتي لتبيان الفكرة عينها. - ملاط- عبارة النص بالضبط «الحما». - إلا إذا كان البيت نفسه- ليس النص على هذه الصراحة. - فالبيت يكون أيضًا - ولكن فقط لأنه هو نفسه واجب وليس البتة لأنه يجب ضرورة أن يكون النتيجة للأساس. - المتأخر إنما هو هنا البيت - المتقدم- إنما هو الأساس الموضوع ليحمل البناء. الأساس ضروري للبيت ولكن البيت ليس ضروري بالأساس. ٤- مثله- زدت هذا اللفظ بسببه- فالبيت ليس واجبًا أصلاً بالنظر إلى الأساس في حين أن الأساس واجب بالنظر إلى البيت. - كان المفترض- إنما هو بالفرض الصرف أن البيت واجب ولكنه ليس كذلك بالنظر إلى المواد التي تأسس عليها. - كان التكافؤ يعني أن الأول ضروري للثاني بقدر ما يكون الثاني للأول.

واجبًا وكان المتأخر واجبًا مثله فذلك ليس بسببه بأي طريقة ما بل فقط لأنه كان المفترض وجوب المتأخر نفسه. وعلى هذا إذن فإنه حينما كان المتأخر واجبًا كان التكافؤ. ودائمًا حينئذ متى كان المتقدم فواجب أن المتأخر يكون في دوره.

٥- إذا سار التعاقب إلى اللانهاية نازلًا من درجة إلى درجة فمن ثم لا يكون واجبًا أن المتأخر يكون مطلقًا. ولكن حتى هذا لا يكون واجبًا بحسب الفرض الموضوع آنفًا لأنه سيوجد دائمًا شيء آخر يتقدم بالضرورة على المتأخر. وهذا الشيء الآخر يجب أن يكون بالضرورة أيضًا. وبالنتيجة كما أنه لا يوجد مبدأ ممكن للانهاية فلن يوجد كذلك حد أول عامل على أن الأخير يجب أن يكون بالضرورة.

٦- ولكن حتى في الأشياء التي لها حد منته لا يصدق القول بأنه يوجد وجوب لأن تكون الكائنات على الإطلاق. مثال ذلك أن البيت قد كان لأن الأساس قد كان. لأنه إذا البيت كان من غير وجوب وجود دائم بالضرورة فينتج منه أن ما يمكن ألا يكون دائمًا يكون دائمًا. ولكن شيئًا لا يمكن أن يكون دائمًا من حيث كونه إلا إذا كان هذا الكون واجبًا لأن الواجب والأزلي يتمشيان معًا. فما يكون وجوبًا لا يمكن ألا يكون. وعلى هذا إذا كان وجوبًا فهو بذلك نفسه أزلي. وإذا كان أزليًا فهو واجب الوجود وكذلك الحال

٥- التعاقب- العبارة الإغريقية غير محددة. - إلى اللانهاية- يفترض الشراح أن المقصود التناسل على خط مستقيم متناهيًا أو غير متناهٍ عوضًا عن تناسل دائري راجع على نفسه كتولد العناصر. - نازلًا من درجة إلى درجة- عبارة النص هي بالبساطة: «نحو التحت»- بحسب الفرض الموضوع آنفًا- ليس النص على هذا القدر من التحديد ويمكن ترجمته هكذا: «هذا لا يمكن واجبًا حتى على طريق الفرض». لأنه سيوجد دائمًا يعني قبل الحد الأخير المفروض أنه واجب توجد سلسلة حدود متقدمة وهي لأنها غير متناهية لا يمكنها أن تنفذ. ومع ذلك فإن كل هذه الفقرة غامضة قليلًا ويظهر أن فيلوبون يشكو من غموضها. - عامل على أن الأخير- النص ليس على هذا القدر من الضبط، ففي اللانهاية لا يوجد حد أول ولا حد أخير إذ لا أول لها كما لا آخر لها.

٦- التي لها حد منته- أو «آخر». - لأن الكائنات- عبارة النص غير محددة. - لأنه إذا البيت كان- تابعت بالضبط أسلوب النص. ولكن ليس جيد البيان وفيه معان وسطاء محذوفة سببت الغموض. وإليك شرحًا يجلو غامض هذه الفقرة «حتى في الأشياء التي لها آخر معين ليس من الضروري دائمًا أن يتبع المتأخر المتقدم مثال ذلك أساس البيت يمكن أن يعمل دون أن يعمل البيت ضرورة بعده مع أن الأساس ضروري للبيت. لأنه إذا كون البيت من غير أن يكون مع ذلك واجبًا فينتج منه أن شيئًا ممكنًا انقطع عن أن يكون ممكنًا ليصير واجبًا»- ما يمكن ألا يكون دائمًا- يعني ما هو ممكن الواجب والأزلي يتمشيان معًا- أو «الواجب هو في آن واحد أزلي أيضًا».

أيضاً إذا كان كون الشيء واجباً فهذا الكون هو أزلي أيضاً وما دام أزلياً فهو واجب الوجود على سواء.

٧- وإذا كان إذن الكون المطلق لشيء هو واجباً لزم ضرورة أن يكون هذا الكون دائرياً ويرجع على نفسه لأنه يلزم مطلقاً إما أن للكون حداً أو أن ليس له حد. فإن لم يكن له لزم أن يقع على خط مستقيم أو على دائرة. ولكنه ليكون أزلياً محال أن يكون على خط مستقيم لأنه حينئذ لا يكون له ابتداء لا من تحت كما نرى أخذاً بالأشياء التي ستكون ولا من فوق إذا أخذنا بالأشياء التي قد كانت. ولكنه يلزم ضرورة ابتداء للكون من غير أن يكون محدوداً وأنه يجب أن يكون أزلياً. فيوجد إذن ضرورة لأن يكون الكون دائرياً. وعلى هذا النحو فإن التكافؤ أو الرجوع يكون واجباً. ومثلاً لو أن شيئاً كائن بالواجب لكان المتقدم على هذا الشيء هو واجباً أيضاً وإذا كان هذا المتقدم واجباً يلزم وجوباً أيضاً أن المتأخر يكون وهاك إذن اتصالاً أزلياً حقيقياً لأنه لا يهم أن يقع الاتصال بين وسيطين أو عدة وسطاء. على هذا فالوجوب المطلق لا يوجد إلا في الحركة وفي الكون الدائري. ومتى وجدت الدائرة فكل شيء يكون أو كان بالواجب. وكذلك إذا وجد وجوب فالكون يقع دائرياً.

٨- كل هذا الترتيب هو غاية في المعقول. وما دام قد بين أيضاً في موطن آخر أن

٧- دائرياً ويرجع على نفسه- هذا أحد المبادئ المهمة المقررة في كتاب الطبيعة ٨ ب ١٣ و ١٤ ص ٥٥١ وما بعدها. فإن الحركة الدائرية هي الوحيدة التي يمكن أن تكون أزلية- للكون- أو التناسل- لا من تحت ولا من فوق. ر. ما سبق ف ٥ "من تحت" يدل على السلسلة النازلة فإنه يسار مما هو كائن لأجل افتراض كل تعاقب الكائنات. "من فوق" يدل على السلسلة الصاعدة ما دام أنه يسار مما هو كائن للصعود إلى ما قد كان. فلا يوجد إذا ابتداء لا من إحدى الجهتين ولا من الأخرى والسلسلة غير متناهية في الجهتين لأن الخط المستقيم يمتد على امتداد غير متناه. - يلزم ضرورة ابتداء- هذا يظهر أنه يناقض آراء أرسطو المعروفة على أزلية العالم وزد على ذلك أنه ليس للدائرة ابتداء بالمعنى الخاص- للكون..... الكون- النص ليس على هذا القدر من الضبط. -التكافؤ أو الرجوع- ليس في الأصل إلا كلمة واحدة. - اتصالاً أزلياً حقيقياً- ليس في الأصل إلا وصف واحد. - وسطاء. - التعبير الإغريقي غير محدد بالمرّة لذلك لم أكن أكثر منه ضبطاً.

٨- هو غاية في المعقول- اعترف دائماً أرسطو بنظام الطبيعة العجيب من غير أن يجعل مع ذلك لمشية الله وعنايته الإلهية دخلاً مباشراً. - قد بين أيضاً في موطن آخر في الكتاب الثامن من الطبيعة كما يقول فيلوبون - الجسم الذي يقبل =

الحركة الدائرية هي أزلية كما هي الحال في حركة السماء فبديهي أن كل ذلك يقع وسيقع بالواجب وأن كل الحركات التي تتصل بتلك والتي تلك تنتجها هي واجبة مثلها لأنه إذا كان الجسم الذي يقبل أزليًا الحركة الدائرية يوصلها إلى جسم آخر فينتج منه أن حركة هذا الأجسام الآخر يجب أن تكون دائرية أيضًا، ومثلاً لما أن النقلة تحصل بطريقة ما في الأفلاك العليا فيلزم أن الشمس تتحرك بالطريقة عينها. ومتى كان هذا هكذا بالنسبة إلى الشمس فللفصول بهذه العلة مجرى دائري وترجع دورياً. وما دامت كل هذه الظواهر العظمى تقع بهذه الطريقة فكل الظواهر السفلى تحصل بالانتظام عينه.

٩- ولكن حينما توجد أشياء تتحقق بالفعل على هذا النحو ومثلاً حينما المال والهواء يكون لهما هذه الحركة الدائرية ما دام أنه لأجل تكوين السحاب يلزم أن تكون قد أمطرت ولأجل أن تمطر يجب أن يوجد السحاب فكيف يحصل أن الناس والحيوانات لا تعود هي أيضًا على نفسها بحيث أن الشخص نفسه يظهر مرة أخرى؟ لأنه من أن أباك قد كان لا ينتج ضرورة أنك كان يجب أن تكون. والذي هو ضروري فقط إنما هو أنه إذا كنت فيلزم أن أباك قد كان. والعلة في ذلك هي أنه إنما هذا تناسل يقع على خط مستقيم.

١٠- غير أن مبدأ البحث الذي نتصدى إليه ها هنا سيكون أيضًا أن تتساءل عما إذا

= أزليًا الحركة الدائرية هذا هو المتحرك الأول يعني السماء أو جزء من العالم الأبعد عن الأرض. - بطريقة ما- زدت بالانتظام عينه- ليس النص على هذا القدر من الضبط.

٩- لهما هذه الحركة الدائرية- والمتكافئة يجب أن إحداها تولد الأخرى. - لأجل تكوين السحاب يلزم أن تكون قد أمطرت - ر. الميتورولوجيا ك ١ ب ٦ ص ٥٤ وما بعدها من ترجمتي. - والعلة في ذلك هي- ليس النص على هذا القدر من التحديد. - تناسل أو كون.

١٠- مبدأ- يظهر أن هذا أولى به أن يكون الملخص و المتمم ما دام أن هذه المناقشة هي آخر هذا الكتاب. - بالعدد وبالشخص- ليس في النص إلا كلمة واحدة لا تعود إلا بالنوع- يعني أن الشخص يتغير كمن الأب إلى الابن وأن النوع يبقى هو عينه في الكائنين اللذين يخلف أحدهما الآخر. بالنسبة لجميع الأشياء - جواب على السؤال الموضوع آنفًا. - عددًا متماثلة- وعلى ذلك فالشمس هي دائماً بعينها كما نه إليه فيلوبون. فإن جوهرها غير قابل للفساد ولا تتغير في الحركات القائمة بها. - الحركة تطابق- عبارة النص بالضبط هي: "الحركة تتبع المتحرك". وهذه العبارة ليست جلية وفيلوبون لم يفسرها. وأظن أنه يريد أن يقول إن الحركة هي أزلية وغير قابلة للفساد كالجسم الذي تحل به. - لا عددًا - يعني لأن الشخص يبقى هو ما هو. - بالنوع- كما يرى هذا من الأب إلى الابن. فإن الأب يهلك ولكن =

كانت كل الأشياء تعود أيضًا إلى أعيانها أو لا تعود، وعما إذا كان حقًا أن بعضها يعود بالعدد وبالشخص في حين أن الآخر لا تعود إلا بالنوع. بالنسبة لجميع الأشياء التي يمكث جوهرها غير قابل للفساد في الحركة التي يلقاها من البين أنها تبقى دائمًا عددًا متماثلة ما دام أن الحركة تطابق حينئذ المتحرك. ولكن كل الأشياء التي على ضد ذلك جوهرها قابل للفساد فإنها يجب ضرورة أن تتم هذه الرجعى لا عددًا بل فقط بالنوع، وعلى هذا النحو أن الماء يأتي من الهواء وأن الهواء يأتي من الماء، يأتي هو في نوعه لكن لا هو ذاته عددًا. غير أنه إذا كان من الأشياء ما ترجع عددًا أيضًا بأعيانها فليست ألبتة هي التي جوهرًا هو بحيث إنه يمكن ألا يكون.

تم كتاب كون الأشياء وفسادها

= النوع يبقى منقولاً منه إلى الكائن الذي ولده - ذاته عددًا وشخصيًا فإن الهواء بالنوع مشابه للهواء المتقدم الذي دثر. ولكنه ليس هو هو عينه. - هو بحيث أنه يمكن ألا يكون - يعني أنه ممكن وليس واجبًا. ويلاحظ أن نظرية الأبد الأزلي لبعض الأجسام وللأنواع ارتقاء وعظمة جدرة بالكتاب السابع من ما وراء الطبيعة والكتاب الثامن من الطبيعة. وهذا إنما هو أيضًا نقص جديد لمذهب المصادفة والاتفاق الذي طعن فيه أرسطو دائمًا. ر. مقدمتنا للطبيعة لأرسطو ص ٩٣ و ١٠٣ وما بعدها من المجلد الأول. ومقدمة كتاب السماء ص ٩٤ وما بعدها.

تحقيق على الكتاب الموسوم «في ميليسوس وفي إكسينوفان وفي غرغياس»

لترجمة هذا الكتاب الصغير اعتمدت على طبعة ف. ج. أ. مللاخ المنشورة سنة ١٨٤٦ والمنقولة في مجموعة فيرمين ديدو الإغريقية^(١). وهذا الطبعة جيدة قد أعادت إلى سيرته الأولى بطريق توشك أن تكون نهائية كتابًا مهمًا جدًا على ما فيه من نقص. وقد استعان مللاخ لإصلاح النص فوق أعمال من تقدمه نسخة مخطوطة من مكتبة ليبزج العمومية يظهر أنها أضبط النسخ التي وصلت إلينا. وهذه المخطوطة كان قد استعانها بعض الشيء أولياريوس وهو يعمل لمجموعة فيريسيوس الإغريقية (طبعة هارلس ج ٣ ص ٢٨٤). ولم تبدئ البحوث الأدخل في باب الجدل والنفع إلا على يد فلبورن الذي نشر سنة ١٧٠٩ شرحه المسمى:

“Libre de Xenophane, Zenone et Gorgia, Aristoteli vulgu tributus, passim illustratus”

(1) Aristotells de melisso, Xenophane et Gorgia disputationis, cum Eleaticorum philosophorum, Fragmentis et Ocelii Lucani qui fertur de universi natura libello, conjunctim edidit, recensuit, interpretatus est Frid. Guil. Aug. Mullach, Berolini, 1846, xxx- 210. Bibliothèque grecque de Firmu Didot, Fragmenta Philosophum Graecorum. Pages 270 et suiv.

(2) “Cemmentarius in primam partem libelli de Xenohane, Zenone et Georgia, praemissis Vidicii philosophorum Megaricorum, Berolini, 1793 go, xIV-83

وكان أسبلدنغ يتبع طبعة أسلبورج في أكثر كتابه.

وبعد أربع سنين هذا ج. ل. أسبلدنج حذو فلبورن في بحثه مدرسة ميجار فأبرز الجزء الأول من الكتاب ”في إكسينوفان وزينون وغرياس“^(٢) وكان بين يدي أسبلدنج مخطوطة ليزج استخرج منها عدة اصطلاحات وبهذه المساعدة تسنى له أن ينشر نصًا محسنًا جدًا وقرن به تعليقات ممتعة على الفقرات الأشد غموضًا، ولكنه لم يقرن به ترجمة. وإنما كان الجديد في هذا التحقيق هو أن أسبلدنج كان يجعل الجزء الأول من الكتاب مخصوصًا بمذاهب ميليسوس وكان يثبت ببراھين قاطعة أن اسم ميليسوس كان يجب أن يستبدل باسم زينون. وقد قبل من يومئذ رأي أسبلدنج هذا وإني لذاكر الآن السبب الذي يوجب قبوله.

ولم يستطع أسبلدنج مع فحصه مخطوطة ليزج مقابلتها بطريقة مضبوطة تمامًا واعتمد على الأخص على الإصلاح الخفيف الذي عمله فيها أولياريوس. غير أن كر. دان. بك مغير جامعة ليزج الشهير الذي كان قد يسر بحوث أسبلدنج قد أخذ على عاتقه إتمام البحوث، فنشر في السنة عينها كل الروايات المختلفة في تلك المخطوطة الثمينة على هذا الكتاب وعلى بعض مؤلفات أخرى لأرسطو^(١). وهذه النسخة المطبوعة التي اعتد بها مللاخ فضل اعتداد لم تكن، فيما يظهر، لتقدر بل لم تكن لتعرف عند علماء اللغة الذين اشتغلوا بعد ذلك إما بأمر مدرسة إيليا على العموم وإما على الخصوص بالكتاب الخاص الذي فيه فحصت مذاهب إكسينوفان وميليسوس. فالمجمع العلمي ببرلين مثلاً لم ينتفع بها في طبعته حق الانتفاع حتى إن مللاخ قد أظهر الأسف لهذا الإهمال الذي كان اتقاؤه ميسورًا^(٢).

(1) Solemnia Doctorum philosophiae et magistrorum artium a. d XIV febr. M D CCXIII antique ritu creandorum indicit chr. Dan. Beckius Praemissa est varietas lectionis libellorum Aristotelicorum e codice Lip siensi dilligenter enotata.

وإن دانيال بك من الرجال الذين قد أعطوا في الثلث الأول من هذا القرن التاسع عشر في الدراسات الفلسفية في ألمانيا نهضتها القوية.

(٢) ظهرت طبعة أرسطو العامة التي أنجزها بكرو برانديس تحت رعاية المجمع العلمي ببرلين سنة ١٨٣١.

فى سنة ١٨٤٣ أى بعد اثنتى عشرة سنة قد سد تيودور برج بعض هذا النقص فاعتمد على روايات بك ووضع شرحاً أمتع من كل ما تقدمه من الشروح^(١). ومع أن هذا العمل قد كان موضع المدح والاستحسان فإنه لم يثن مللاخ عن إعادة النظر من جديد فنشر، بعد عمل برج بثلاث سنين، الطبعة والشرح اللذين ذكرتهما آنفاً، غير أن مللاخ واسبلدنغ لم يترجما الكتب مع أن ترجمة كتاب مثل هذا مخروم أشد ضرورة من ترجمة غيره. فظلت خير ترجمة لاتينية هي ترجمة جان برناردان فيليشيانو المعلم فى البندقية سنة ١٥٥٢ ولكن مع أن هذه المخطوطة التى ترجمت قليلة التحريف فإنه كان من الممكن أيضاً بل من النافع تصحيحها وضبطها وقد نقلت فى طبعة المجمع العلمى فى برلين.

تلك هى الأعمال التى تناولت الكتاب على ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس حتى الآن. وإنه لينبغى أن يضم إليها تحقيق "م. هنرى ادواردفوس" على غرغياس الليونتيومي^(٢) إذ أنه نشر فيه، من غير ترجمة النص، الجزء الذى يتعلق على الأخص بغرغياس، أى الباب الخامس والسادس من هذا الكتاب الذى تترجمه، وذيله بتفسير.

وبعد هذه التفاصيل اللغوية يلزمنا الكلام على الكتاب ذاته: فى أى حال وصل إلينا؟ ومن هو مؤلفه على المشهور؟ وما هى قيمته الذاتية؟.

فأولاً ما هو العنوان الذى يجب أن يعنون به هذا الكتاب الصغير؟ عند القدماء جميعاً تقريباً وعند المتأخرين إلى بحوث أسبلدنغ كان عنوانه المجمع عليه على العموم هو: "فى إكسينوفان وفى زينون وفى غرغياس" أو بحسب مخطوطة ليبزج فى زينون وفى إكسينوفان وفى غرغياس، فإن أسبلدنغ بتقريبه شواهد "سمبليسيوس" العديدة من

(1) Regiae universitati litterarum Frederico- Alexandrinae D. XXIII mensis Augusti MDCCCXLIII sacra saecularia prima agenti gratulatur academia Marburgensis. Praemissa est Theodori Bergki commentatio de Aristotelis Libello Xenophane · Zenone et Gorgia Marburfi· 1843

(2) De gorgia leontino commentatio· interpositus est Aristotelis de Gorgia liber emendates editus ab. H. Ed. Foss. Halis Saxonum· 1828,80 IV- 186 .Le traité sur Gorfias et le commentaire sont pages 110 et suivantes.

تحاليل هذا الكتاب أبان بطريقة لا تحتل النقض أن المقصود في الجزء الأول هو ميليسوس لا إكسينوفان، فإنه في شرحه الممتع على كتاب الطبيعة لأرسطو قد نقل فقرات تامة من ميليسوس على الموجود أو الطبيعة. وهي مشابهة حتى في ألفاظها في بعض المواطن كل المشابهة للتفاصيل المسطورة في هذا الكتاب الذي نترجمه. فلما وضع أسبلدنج هذه الموافقات بعضها قبالة البعض الآخر وقارن بينها وجهًا لوجه لم يعد بعد في الإمكان إنكار أن ميليسوس هو الفيلسوف المتكلم عنه في البابين الأولين.

إلى هذا الدليل الذي يكفي وحده في إثبات المطلوب ينضم دليل آخر وهو أنه في فهرس "ديوجين اللايرثي" (ك ٥ و ١ وف ٢٥ طبعة فرمين ديدو ص ١١٦) ذكر صريح لكتاب أرسطو على مذاهب ميليسوس. وهذا الذكر ليس مفردًا بل يؤكد ديوجين أن أرسطو قد نقد أيضًا آراء زينون وكذلك قد بحث بحثًا خاصًا في مذاهب أتباع فيثاغورث وأرخيتاس وسبوسيب وأكزينوقراط..... إلخ.

وفهرس ميناش المجهول واضعه يؤيد شهادة ديوجين اللايرثي وإنه ليذكر أيضًا بحوث أرسطو في مذهبي ميليسوس وغرغياس. وما من شيء أقرب إلى الاحتمال من أن يكون أرسطو قد اشتغل بمذاهب ميليسوس إذ إن ما بين أيدينا من كتبه يدلنا على شدة اضطراره بجميع الفلسفات المتقدمة على فلسفته. وهو يذكر ميليسوس غالبًا. وإننا ذاكرون أكثر من مرة ماذا قاله عنه وعن إكسينوفان سواء في علم الطبيعة أو في علم ما بعد الطبيعة أو في غيرهما.

وعلى هذا فالحق في جانب "أسبلدنج" في أن الجزء الأول من هذا الكتاب يتعلق بميليسوس.

ربما نتساءل كيف كان لهذا الشك سبيل إلى هذه النسبة. إذا كان أرسطو ينتقد ميليسوس أو فيلسوفًا آخر بعينه فيكون واجبًا عليه فيما يظهر أن يسميه باسمه إذ لا مسوغ لهذا الإبهام الذي لا يفسر. ولكنه لسوء الطالع لم يفعل، بل قنع في هذه الكتب بأن يقول دائمًا: "هو" دون أن يعين أسسًا مرجعًا لهذا الضمير. ولا سبيل إلى معرفة من هو المعنيّ

بالنقد ألا تعرف صاحب المذهب المنقود من مذهبه نفسه. وعلى ذلك فإن هذا الكتاب إنما كتب بغير عناية في شكله الظاهر على الأقل وأن مؤلفه أيًا كان قد أخطأ في أنه لم يكن مبيّنًا حتى لقد احتيج إلى فطنة الفلاسفة المتأخرين لسد هذا النقص الذي ربما لا يكون منشؤه إلا خطأ ناسخ.

وإن ما أقوله هنا عن ميليسوس يوشك أن يكون منطبقًا على إكسينوفان أيضًا. فإنه ليس مسمى كذلك في الجزء الثاني من الكتاب ولكنه مع ذلك لا سبيل إلى الشك في أمره لأن مذاهبه معروفة أكثر من مذاهب ميليسوس. فنسبة ما يقال هنا إليه لا يتطرق إليها الخطأ.

إن هذا اليقين ينسحب من باب أولى على غرغياس الذي هو غير مسمى أيضًا في أول الجزء الثالث (ب ٦٥) الذي يخصه ولكن براهينه قد نقلت إلينا على يد سكستوس أمبريكوس (adversus mathimaticos exlogicos) ك ٧ ج ٢ ص ٢٨٥ طبعة سنة ١٨٤٢ ج ١ ص ١٣٤) وأنها تماثل على الإطلاق البراهين التي تراها في هذا الكتاب.

من هذا استنتج أن العنوان النهائي الذي يجب أن يحمله هذا الكتاب هو "ميليسوس وفي إكسينوفان وفي غرغياس" فإن هذا العنوان يتفق تمامًا وما يحويه الكتاب، وقد أحسن مللاخ في اتخاذه. ومنذ الآن لا يمكن إلا اتخاذ هذه الصيغة عنوانًا لهذا الكتاب كما فعل مللاخ. أما أنا فإني لم أتردد لحظة في اتخاذه. وفي الحق إنه ليقى أن تعيين "زينون في عنوانات النسخ المخطوطة لا مسوغ له. غير أنني سأحاول فيما يلي مقتفيًا أثر مللاخ اكتشاف المصدر الذي يمكن أن يكون صدر عنه هذا التعيين. والآن أسوق القول إلى ما كنا بصددّه" من حيث العنوان لنفرغ منه.

قد راجع بيكر مخطوطتين معنوتين بعنوانين يخالفان العنوان العادي مغفلاً فيهما ذكر الأسماء الأعلام. فالعنوان فيهما بالبساطة هو: "كتاب أرسطو على المذاهب" أو: "كتاب أرسطو على مذاهب الفلاسفة" فالكتاب الأول هو لمخطوطة في مكتبة سنت مرك في البندقية، والثاني لمخطوطة في الفاتيكان بحسب تعريف بيكر. واختلاف هاتين الروايتين مهم من حيث افتراض أن الشكوك كانت متسللة حتى في الأزمان القديمة إلى

صحة العنوان المشهور. ومن المحتمل أنهم لم يكونوا ليتعرفوا إكسينوفان وزينون في الجزء الأول والثاني (ب ١، ٢، ٣، ٤). وتلقاء هذا الغموض استحبوا عدم التعيين. فقد كان وسمهم الكتاب بأنه "على المذاهب الفلسفية" لا مسؤولية فيه لأنه هو مع ذلك على سعيه صحيح إن لم يكن مضبوطاً. وما كنت لأتخذ هذا الرسم دون غيره ولكنه يلزم أن يقام له وزن ولذلك ذكرته.

أما وقد تحدد العنوان وُيِّن على هذه الصورة فمن هو مؤلف الكتاب؟ أأرسطو هو أم هو آخر؟ .

مخطوطة في الفاتيكان مرقومة Rg طبعة برلين تنسب هذا الكتاب إلى تيوفراسط أو على الأقل هي تدرجه ضمن كتب أخرى كلها لتلميذ أرسطو وخليفته. وإن ما يجعل لهذا الفرض محلاً من الشبه بالحق والثقة هو أن سمبليسيوس في شرحه على كتاب الطبيعة (الورقة 6A) يستشهد بفقرة من تيوفراسط فيها ينقل هذا المؤلف عن إكسينوفان آراء مطابقة تمام المطابقة لما نقرؤه في هذا الكتاب. ولا شك في أن هذين السببين هما الحاملان. برنديس في "تاريخه للفلسفة الإغريقية واللاتينية" (جزء ١ ص ٣٥٨) على أن يسحب هذا الكتاب من أرسطو ليرده إلى تيوفراسط. ولكن هذا التغيير لم يحل محل القبول من ذوق علماء اللغة ولو أنه صادر عن حكم لا يقل عنهم في العلم ولا في الحذق، فقد صرح م. تيودور برج أن هذا الكتاب على رأيه ليس أحق بتيوفراسط منه بأستاذه.

وإني هنا على رأي ملاحظ وأرى كما يرى أن ذلك تجاوز أبعاد جدًّا مما ينبغي. وقد نبهت الساعة أن هذا الكتاب لم يكن ليكتب بالعناية المطلوبة ما دام الفلاسفة الذين تنقد فيه مذاهبهم ليسوا معينين بأسمائهم ولكن في مجموع تأليف أرسطو كما نقلته إلينا القرون كم من غلطات من هذا النوع، وكم من إهمال في التحرير، وكم من قطع لم تتم، وكم من صحف مشوشة حتى في أجمل كتبه مثل "ما بعد الطبيعة" مثلاً! على أن الأسباب التي حملت أرسطو على أن يترك كل مخطوطاته في حالة نقص معروفة. فإنه لم يكذب ينشر شيئاً مدة حياته. ولم يكن إلا حين ناهزت سنه الخمسين عول على إظهار شيء من تعاليمه.

فلما فوجئ بالحركة الموجهة ضد المقدونيين بعد وفاة الإسكندر واضطر إلى هجرة آتينا على عجل مشرداً منفياً لم يسكن إلى محل طمأنينة أن عاجلته المنون لا تعرف كيف كانت ولكن المعروف أنها كانت ميتة عنيفة في سن الثانية والستين. فجمع تيوفراست كل ما كان تركه أستاذه من الأعمال والأوراق، ولم ينشر منها شيئاً هو نفسه أيضاً فيما يظهر. وبقية الحكاية معروفة فإن العالم الغربي لم يكدر يعرف مؤلفات أرسطو إلا حينما جيء بها من آتينا بعناية "سلا" فرتبت بطريقة حسنة أو ساءت بعناية "أندرونيكوس الرودسي". وقد يكون من الغريب أن مخطوطات أهملها المؤلف بحكم الضرورة وأهملها خليفته الأول هي أحسن نظاماً في الترتيب من غيرها. فإن التشويش أو بالأولى النقص في كتيبنا هذا لا يطعن فيه. بل إنني قائل إن هذا الكتاب على ما وجدناه عليه ليس فيه من عدم النظام والحزم مثل ما في مؤلفات أرسطو التي لا شك في صحة نسبتها إليه. بل قد يكون هذا الكتاب أبعد عن سوء التأليف فإن الأجزاء الثلاثة التي يتألف منها متميز بعضها عن بعض ومتتابعة من غير خلط، وعرض المذاهب المتقدمة فيه هو من الوضوح والتنسيق بمكان. وإذا كان لم يتقبل على العموم بقبول حسن فذلك لأن طابعه الأولين قد شوهوه بأغلاط شتى تلافها من بعد ذلك عناية المتأخرين وحذقهم حتى لم يبق منها شيء. وإنني ألقت إلى هذا نظر القارئ الفطن الذي يريد فحص هذا الكتاب الصغير لأن يأخذ بالطبعة التي أصلحها مللاخ وبترجمتي هذه.

ومهما يكن هذا الكتاب "في ميليسوس وإكسينوفان وغرياس" ظنيّاً في نسبته إلى أرسطو فغنه لا شيء فيه يبعده عن مدرسة المشائين الملاصقة عهداً بأرسطو. وإنني لألقي القياد إلى رأي مللاخ الذي يميل إلى اعتبار هذا الكتاب خلاصة من مؤلفات أرسطو التي ذكرها ديوجين اللايرثي كما ذكرناه آنفاً. وقد تكون هذه الخلاصة من وضع بعض المشائين، كما يحتمل أن يكون تيوفراست قد اقتبس كذلك من مؤلفات أرسطو ما رواه عن إكسينوفان كما يذكره لنا سمبليسيوس. وإن في مؤلفات أرسطو لخلاصات من هذا القبيل. والشاهد على ذلك أسلوب "علم الأخلاق الكبير" وأسلوب "علم الأخلاق إلى

نيقوماخوس“.. ولقد أستطيع أن أستنتج أنه إن كان هذا الكتاب ليس من عمل أرسطو ولا من عمل تيوفراست فهو على أقل ما يكون من زمان لا يبعد كثيرًا عن زمانهما. وهذا وحده يكفي أن يجعل له أهمية إنكارها محال.

ولقد تأخذ بي القيمة العالية لما يحويه هذا الكتاب بالنظر إلى تحريره فضلًا عن أن ميليسوس وإكسينوفان وغرغياس رجال ثلاثة كبار لا يمكن لتاريخ الفلسفة أن يهمل تذكرهم. ولو أنهم هنا لم يرتبوا على مقتضى الترتيب الزمني فإن هذا لا ينقص قيمة القول فيهم. ولن تجد في أي كتاب آخر قولاً على ثلاثة الفلاسفة المذكورين مستفيضاً كما في هذا الكتاب، ولا شك في أنه يرغب في أزيد من ذلك، ولكن هذه المقاطيع هي كل ما لدينا عن مجموع مذاهبهم، والشكر علينا واجب لمن حفظ الكتاب على هذه الصورة. فإن مدرسة إيليا على رغم أغلاطها بالغة غاية المجد وأنه إلى جانب آرائها الدقيقة الخافية في وحدة الوجود ولا تحركه فمن المشوق الاستماع إلى نظرياتها السامية العميقة على وجود الله وقدرته الكلية. وبهذه المثابة فإن إكسينوفان الذي يعتبر مؤسس مدرسة إيليا رجل كبير المقام وأنه قد تنبأ قبل سقراط وأفلاطون بنبوءات خليقة بهما. وميليسوس وإن لم يكن في مستوى إكسينوفان يستحق على الأقل ألا يُنسى. وأما غرغياس فمهما كان سفسطائيًا فهو لا يحط مطلقًا قدر الطائفة التي يضعونه فيها، وفي الحق حسبنا أن نذكر أن أفلاطون وضع تحت هذا الاسم الشهير واحدة من أجمل محاوراته.

ولكن كيف في النقد الموجه لمدرسة إيليا ومذاهب أهلها يغفل المؤلف أمر زينون؟ كان اسم زينون في عنوان الكتاب في أكثر النسخ المخطوطة فلماذا لم يكن له وجود في صلب الكتاب؟ من أين هذا الإغفال وهذا النقص؟ يرى ملاح بحق أن هذا الكتاب الذي ليس له الآن إلا ثلاثة أجزاء كان يجب أن يكون فيما سبق مؤلفًا من أربعة أجزاء، وأن نقد زينون كان يجب أن يتلو نقد إكسينوفان. وهذا الفرض مقبول وقد يستتج طبعًا من أن أرسطو قد فحص مذاهب زينون كما فحص مذاهب الفلاسفة الثلاثة الآخرين. ويؤيد ملاح هذه القرينة بفقرة في هذا الكتاب (ب ٥ ف ٣) حيث ذكر فيها اسم زينون عقب

اسم ميليسوس بالصرامة. والى هذه الفقرة يمكن أن يضاف أيضًا فقرتان تكادان تكونان في المعنى عينه (ب ٦ ف ٦ و ٩). وهكذا دون أن نخرج من هذا الكتاب الصغير يمكننا أن نجد براهين تكفي للقول بأنه كان لهذا الكتاب جزء رابع أفرد القول فيه على زينون ولكنه غير موجود الآن. وهذا الجزء كان يأتي في الترتيب عقب الجزء الخاص بإكسينوفان.

وفوق ذلك فإن في الفقرة الأولى من الباب الثاني يرى أن ميليسوس مسمى ومقرَّباً من إكسينوفان الذي لا يجيء فحص مذهبه إلا بعد فحص مذهب ميليسوس. فيظهر من المحقق إذن أن غرض مؤلف هذا الكتاب الصغير أن يدرس ميليسوس قبل إكسينوفان. كذلك يوجد هذا الترتيب في فهرس ديوجين اللايرثي. فإن كتاب أرسطو على ميليسوس مقدم على كتبه على غريغياس وإكسينوفان وزينون. ولكنه لو روعي الترتيب الزمني كما كان يجب أن يعمل لكان إكسينوفان هو الأول وزينون الثاني وميليسوس الثالث وغريغياس الأخير. لا ينبغي أن يعلق على هذه المسائل من حيث الترتيب الزمني أهمية كبرى. ولكن تعاقب المذاهب لا يوجد فهمه إذا خلطت العصور من غير ترتيب وإنما ينفع الفلسفة ذاتها أن يتخرج في ترتيب عصورها بالتسلسل على قدر الإمكان.

يوشك ألا يكون من الأهمية بمكان ذكر أن يكون أرسطو هو الذي أخطأ في الترتيب إذا كان هو مؤلف الكتاب أو أن مختصره هو الذي ارتكب هذا الخطأ، فإنني تارك إلى جانب مسألة الترتيب التي هي مادية محضة لأقول بعض كلمات على الفلاسفة الثلاثة المذكورين في كتابنا هذا.

اشتهر إكسينوفان بأنه كان رئيساً لمدرسة إيليا وهذا هو المجد الذي يسند عادة إليه وإن كان أفلاطون في الفقرة الوحيدة التي ذكر فيها إكسينوفان يشير، فيما يظهر، إلى أن مدرسة إيليا أقدم منه (السفسطائي ص ٢٤١ من ترجمة كوزان - وص ١١٩ ب ٤٤ من الطبعة الإغريقية في طورينو سنة ١٨٣٩). لما نُفي إكسينوفان من وطنه كولوفون إلى يونيا آسيا الصغرى يظهر أنه هاجر إلى صقلية واحتفى فيها بمدينة زنكل ثم بقطنة، ثم ذهب إلى إيليا التي كان قد أسسها حديثاً الفوكين سنة ٥٣٦ قبل الميلاد على شواطئ إغريقيا

الكبرى وعلى بحر طرهينيا، وأنشأ فيها هو نفسه هذه المدرسة التي اشتهرت بها تلك المدينة الجديدة. ولا يدري أمات بها أم رجع إلى كولوفون. والظاهر أنه عُمِّرَ طويلاً متى سلم بصحة ما نقل إلينا من بعض أبيات يقول فيها^(١): إن سنه أربت على الثانية والتسعين. وفي الحق إن هذه الأبيات يمكن أن تفسر بمعنى آخر تدل به على أن إكسينوفان كانت سنه وقتئذ سبعة وستين عاماً وأن الحوادث التي قيل فيها الشعر حصلت حين لم يبلغ عمره إلا خمسة وعشرين، فإنه يقول: "إذا صح أني أستطيع الكلام على هذه الأشياء بصورة مضبوطة". يقول ديوجين اللايرثي: إنه ظهرت آثاره نحو السادسة والستين أولمبية يعني نحو السنة ٥٤٠ وبفرض أنه كانت سنه في هذا الحين ٤٥ أو ٥٠ سنة فيكون ميلاده متأخراً قليلاً عما يفترض له إذ يقال: إنه ولد سنة ٦١٧ قبل الميلاد.

وأن ما يحمل على الظن بأن ميلاد إكسينوفان يجب أن يكون أقرب من ذلك هو أنه استشهد بفيثاغورث^(٢) الذي ربما قبل آراءه في التناسخ. ولقد نعلم بشهادة شيشرون الصريحة (الجمهورية ك ٣ ب ١٥) أن فيثاغورث لم يأت سيارس وقروطن إلا في سنة ٦٢ أولمبية أي السنة الرابعة من حكم طرخان العظيم أعني سنة ٥٣٠ أفيكون من المحتمل أن إكسينوفان تكلم عن فيثاغورث وهو حي بما تكلم به. وحينئذ ألا يلزم عليه أن ينزل بالعصر الذي عاش فيه وبميلاده إلى أنزل من ذلك. واليك هذه الأبيات:

«لما رأى ذات يوم كلباً يضربه بالسوط صاحبه»

«أخذته الشفقة بهذا الكائن الشقي»

«فقال: لا تضرب تلك هي روح صديق»

«تعرفته بسماع صراخه»

(١) ديوجين اللايرثي ك ٩ ب ٢ ص ٢٣٤ طبعة فيرمين ديدو.

(٢) ديوجين اللايرثي ك ٨ ب ٨ ص ٢١٣ طبعة ديدو.

وقد زاد ديوجين اللايرثي الذي روى هذه الأبيات في ترجمة فيثاغورث - في موضع آخر^(١) أن إكسينوفان كان يحارب مذهب حكم ساموس ومذاهب طاليس وأييمينيدي كما أنه كان ينقد بحدّة ما كان. يصور به هيزيود وهوميروس الآلهة وشهواتهم ونقائصهم. وقد كان إكسينوفان يودع أفكاره القصائد والحماسيات التي كان يقرضها. بل قد يكون محتملاً أنه كان يرتزق على دأب ”رهب سود“ بإنشاد قصائده ليطرب السامعين ويستجدي سخاءهم.

وإذا كان إكسينوفان قد طعن في آراء طاليس وفيثاغورث وأييمينيدي فيجب أن يكون متأخراً عنهم وليس محالاً أن يكون قد عاش إلى زمن الحرب الأولى الميديّة (سنة ٤٩٠ قبل المسيح)

وهناك واقعة قد لا استطاع الشك فيها ما دام أرسطو يشهد لها (الميتافيزيقا ك ١ ص ١٤٦ ترجمة كوزان). وهي أن برمينيد كان تلميذ إكسينوفان. وعلى هذه النقطة كل القدماء على وفاق. غير أننا نعلم يقيناً من أفلاطون (تيتيت ص ١٥٤ - والسفسطائي ص ١٦٤ ترجمة كوزان) أنه حينما جاء برمينيد آتينا مع زينون كانت سنة ٦٥ سنة (البرمينيد ص ٦ ترجمة كوزان وص ٧٥١ طبعة طورينو ١٨٣٩). وبفرض أن سقراط كان حديث السن عند حوار برمينيد المنقول لنا في المحاوراة المشهورة بهذا الاسم لم يكن عمره إلا عشرين سنة، فإن هذا ينقلنا إلى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد. وعلى هذا الفرض يكون برمينيد قد ولد في سنة ٥١٥ ولتلقى العلم على إكسينوفان يلزم أن يكون هذا الأخير قد مات في نحو العهد الذي ذكرناه آنفاً.

غير أنني تارك مرة أخرى هذه المجادلات التاريخية^(٢) لأقف برهة عند آراء إكسينوفان الفلسفية التي لها في نظري أهمية أخرى. ولئن كان فيما يتعلق به نقطة مجمع عليها فإنما هي أن أفكاره في الآلهة، بل يمكن أن يقال أفكاره في الله، كانت أصح وأرقى من أفكار

(١) ديوجين اللايرثي ك ١١ ب ٢ ص ٢٣١ طبعة ديدو.

(٢) ر. التحقيق الخاص لفكتور كوزان في الجزء الأول من القطع الفلسفية.

معاصريه . وهذا الكتاب الذي نترجمه يكفي وحده في إثبات هذه الدعوى، غير أن الشواهد على ذلك متواترة أكثرها جوهرية شاهد إكسينوفان نفسه . ولم تنخدع المسيحية في أمره فإن كليمان السكندري ”استروماتس ك ٥ ص ٦٠١) يثني على فيلسوف كولوفون بأنه نزه الله تعالى عن التجسد وبأنه قال:

«واحد قدير على كل شيء ملك الأشيدين قوة فالله لا يشبهنا لا بالعقل » « ولا بالجسم وإن الناس بتصويرهم الآلهة على صورتهم يسندون إليهم افكارهم » « وأصواتهم ووجوهم ».

ويروي كليمان السكندري فوق ذلك أبياتاً أخرى تكرر هذه الفكرة عينها في قالب آخر، وفيها يقول إكسينوفان:

«إذا كان للثيران والأسود أيد تصور كما يصور الناس لأعطيت الآلهة التي » « تصورها أجساماً أشبه بأجسامها، ولكانت الخيل تصورها بصور خيل والثيران » « تصورها بصورة ثيران ».

منذ إكسينوفان قلدت هذه الأبيات التي هي غاية في الحق ألف مرة. ولكيلا يصور الناس الله على صورتهم حين يحاولون تصويره اضطروا أن يكفوا على الإطلاق عن تمثيله كما يهدى إليه بعض الديانات المتشددة إلى الغاية.

بعد أبيات إكسينوفان يمكن الاستظهار بشهادة أرسطو في مؤلفاته الأخرى غير هذا الكتاب الذي نترجمه مثل ما في الخطابة: (ك ٢ ب ٢٣) حيث ينقل أنه على رأي إكسينوفان أن ”من الإلحاد الاعتقاد بولادة الآلهة وبموتهم لأنه على كل واحد من الوجهين تقع برهة لا يكون للآلهة وجود“. وفي موضع آخر بعد هذا بقليل يروي أرسطو جواب إكسينوفان على أهل إيليا الذين كانوا يسألونه: أيجب عليهم أن يقربوا قرباناً إلى ”لوقوتوا“ ويجأروا بالنواح عليها؟ فقال لهم: ”إذا صح في نظركم أنها آلهة فلا ينبغي أن تبكوها، فإن لم تكن إلا هالكة فلا ينبغي أن تقرب لها القرابين“. بسند بلوطرخس أيضاً إلى إكسينوفان فكرة مماثلة لهذه فيها أن المخاطبين هم المصريون عوضاً عن أهل ايليا، وأوزيريس عوضاً عن

عذراء لوقوتوا ص ٤٦٣ وأما طريوس ص ٩٣٣ طبعة فرمين ديدو "إيزيد وأوزيريد".

من هذه الأفكار السامية الحققة في حق الله تفهم علة حنق إكسينوفان على الشعراء الذين كانوا يحطون من الجلالة القدسية والذين هم كهوميروس وهيزيود لا يحجمون عن أن يسندوا إلى الآلهة كل ما يحط من الشرف في نظر الناس كالسرقة والزنا والكذب والغدر (سكستون امبيريكوس بيرون هيبوتيب . ك أب ٣٣ ص ٩٩ Adversus Mathem. Pysicos طبعة ١٨٤٣ ك ٩ ص ٦١٢ Grammati(os) ك ١ ص ١١٢ .

وفي موضع آخر تكلم أرسطو أيضاً على آراء إكسينوفان هذه. وفي كتابه "الشعر" ذكر أن الفيلسوف كان يطعن في المعاني التي يتصورها العامة في حق الآلهة (ر . الشعر ب ٢٥ ف ١١ ص ١٤٢ من ترجمتي)

وأخيراً ذكر أرسطو إكسينوفان أيضاً فيما بعد الطبيعة (ك ١ ب ٤ ص ١٤٦ ترجمة كوزان سنة ١٨٣٨).

وفي هذا الموضع الأخير لم يحفل أرسطو بنظريات إكسينوفان على الوحدة التي خلطها بالله فلم ير في هذه النظريات ما ينبغي من الضبط من حيث إن هذه الوحدة ليست عقلية كوحدة برمينيد ولا مادية كوحدة ميليسوس. بل يزيد على ذلك أيضاً أن أفكار إكسينوفان في هذه النقطة أفكار جافية كأفكار ميليسوس الذي لا يفرق بينه وبينه.

ها نحن أولاء قد أتينا على كل ما وجد في أرسطو تقريباً على إكسينوفان. ولكن تلك الفقرة المذكورة في "ما بعد الطبيعة" عظيمة الأهمية من حيث إنها ترى رأي أرسطو في أن مذاهب ميليسوس ليست بعيدة عن مذاهب إكسينوفان. وذلك يدلنا على حكمة الجمع بينهما في كتاب واحد إذا كان أرسطو هو مؤلف هذا الكتاب وإن لم يكن فكيف تسنى لمؤلف آخر أن يجمع بينهما دون أن يقرب بينهما قسراً. غير أنه كان يلزم مراعاة للترتيب الزمني أن يتكلم على ميليسوس بعد إكسينوفان. ولكن ربما كان هذا مجرد خطأ مادي في الوضع سببه إهمال نساخ. ولما أنه ليس بين الجزأين الخاصين بإكسينوفان وميليسوس ارتباط ضروري. فليس في التشويش مستنكر ولا مستعصى عن الفهم.

أما ميليسوس الذي نضعه في الصف الثاني سواء في الأهمية والترتيب الزمني فإنه رجل يسترعي الاهتمام وإن كان أقل رفعة من سابقه. قد ولد في ساموس كفيثاغورث وتبوأ فيها مركزاً عظيماً ودافع عن وطنه بمهارة وشجاعة عندما حاصره الآتيون قبل حرب بيلوبونيز بخمس عشرة سنة. ولقد نجح ميليسوس في كسر الحصار واتخذ لقومه منه مخرجاً قادهم به حتى أتلّف أعمال الحصار ووصل إلى أسطول الأعداء وخر به كله تقريباً. كل ذلك في غيبة بيريكليس الذي كان قد غادر الحصار لملاقاة السفن الفينيقية الآتية لنصرة مدينة ساموس. فأمكن المدينة أن تحصل على ما نقصها بالحصار من التموين وذلك بفضل النصر الذي أحرزه ميليسوس. ولكن الدائرة قد دارت على أهل ساموس حين رجع بيريكليس من غيبته فانهزم ميليسوس في حرب برية واضطرت المدينة إلى التسليم على شروط أقسى ما تكون. لم يذكر طوسيديد الذي روى هذه الوقائع (ك ١ ب ١١٦) ميليسوس، غير أن بلوطرخس ذكره في ترجمة بيريكليس (ب ٢٦ ف ٣ ص ١٩٩ من طبعة فيرمين ديدو) على صورة لا تحتمل الشك، لأنه يقول بالصرامة: إن ميليسوس بن ايتاجين كان فيلسوفاً. وزاد على ذلك بلوطرخس نقلاً عن أرسطو من غير أن يبين موضع النقل: إن ميليسوس كان قد هزم قبل ذلك بيريكليس في واقعة بحرية أخرى. وذلك إنما يعطي من مقدرة ميليسوس الحربية فكرة أسمى.

ومهما يكن من الأمر فإن من المحقق أن ميليسوس كان به تحت ثياب الفيلسوف وطني وسياسي وقائد بحري ورجل حرب. وذلك من الندر في تاريخ الفلسفة بحيث يجب علينا التنبيه إليه كما فعل بلوطرخس (باب ٣٢ ص ١٣٧٧ طبعة فيرمين ديدو Adversus coloten ولما أن ساموس قد سامها الآتيون صنوف القسوة فمن المظنون أن ميليسوس ذلك الوطني الغيور والذي كان له حظ عظيم في مقاومة الفاتحين لم يشأ أن يبقى تحت الحكم الآتيني وأنه هاجر في هذا الظرف العسير. وكان ذلك في الأولمبية الرابعة والثمانين أي السنة ٤٤١ قبل الميلاد. وهذا التاريخ مضبوط ومتفق تماماً مع شهادة أبللودور التي نقلها إلينا ديوجين اللايرثي (ك ٩ ب ٤ ص ٢٣٣ طبعة فيرمين ديدو).

كذلك لا يرى لماذا لم يمكن أن يكون ميليسوس تلميذاً لبرمينيد كما يقوله أيضاً ديوجين اللايرثي. فإن التواريخ لا تقف دون ذلك. ولما أن ميليسوس هو من أتباع مدرسة إيليا فيمكن بسهولة أن يكون تلقى مذهباً من خليفة إكسينوفان. ولقد قرن أرسطو مرات عديدة ذكر برمينيد بذكر ميليسوس في كتاب الطبيعة (ك ١ ب ٢ ف ١ و ٥ ص ٤٣٣ و ٤٣٦ من ترجمتي) ليفندهما جميعاً في نظرية وحدة الموجود ولا تحركه. كذلك فعل أفلاطون في كتابه "تييت" (ترجمة كوزان ص ١٤٤). وإن هذا على التأكيد لا يكفي لإثبات أنه كان بين الفيلسوفين علاقة أستاذ وتلميذ، غير أن هذه التقارب لا تنفي هذا الظن الكثير الاحتمال في شيء (ر. أيضاً الطبيعة ك ١ ب ٣ ف ٩ وب ٤ ف ١). وفي ما بعد الطبيعة في الفقرة التي استشهدنا بها آنفاً اسم ميليسوس مقترن باسم برمينيد. وكذلك في كتاب السماء (ك ٣ ب ١ ف ٢ ص ٢٢٣ من ترجمتي). ومن ذلك أستنتج أن دعوى ديوجين اللايرثي مهما كانت فريدة لا ترفض بهذا الازدراء الذي لاقت من بعض مؤرخي الفلسفة. فإن ميليسوس لما هاجر إلى إيليا في إغريقيا الكبرى يمكن جيداً أنه قد سمع دروس برمينيد الذي استمر يلقي دروس إكسينوفان.

وعلى جملة من القول لا يعرف شيء عن حياته، ولكن من العدل أن يفترض أن نهايتها كانت مطابقة لبدايتها.

كان كتاب ميليسوس موسوماً "في الوجود" بل ربما كان موسوماً "في الطبيعة" عنوان شائع جد الشيوع عند أكثر فلاسفة تلك الأزمان القديمة وإذ الطبيعة في مجموعها هي موضوع درسهم حتى يتهيأ لهم تحليل مفصل ما كان ليؤسس إلا على مشاهدات أكثر عدداً. نحن نعرف مؤلف ميليسوس هذا بالمختصر الموجود في هذا الكتاب الذي نترجمه وبالشواهد التي نقلها سمبليسيوس في شرحه على الطبيعة لأرسطو، إما لأنه كان بين يديه النسخة الأصلية لكتاب ميليسوس وإما، وهو الأرجح، لأنه لم يكن لديه إلا ملخصات تيوفراسط الذي يستشهد به. لا أريد أن أختصر أنا أيضاً تلك المختصرات المختلفة ولكني أفنع بأن أحيل على قطع ميليسوس التي سوف نذكرها بعد أخذاً عن

أسبلدنچ ومللاخ. وفيها يرى مذهب الفيلسوف السموسي، على ما وصل إلينا بالأقل. وزيادة على ذلك يرى لماذا كان كتابنا الصغير أميناً على المؤلف الذي يعرفه للناس في حين أنه ينقض مذهبه !.

بعد إكسينوفان وميليسوس لا أقول شيئاً عن زينون ما دام كتابنا لا يتكلم عنه وإن ذكره الوارد في عناوين بعض المخطوطات يجب أن يعتبر كسهو. فيبقى غريغاس الذي يجب أن يكون كلامنا عليه موجزاً جداً لأنه معروف أكثر ولأنه لا يكاد يكون إلا سفسطائياً^(١).

ولد غريغاس في ليونتيوم بصقلية نحو الواحدة والسبعين أولمبية وبلغ من الكبر مبلغاً عظيماً حتى لقد بلغ على ما يظهر الثامنة والتسعين أولمبية أعني أنه لم يمت إلا في سن الثامنة أو التاسعة بعد المائة كما يقول كل كتاب الزمن القديم بالإجماع. ولا يُعرف عن حياته العملية تفاصيل طويلة. أما عائلته فالظاهر أنها كانت، فيما يظهر، عائلة ممتازة وكان أخوه "هيروديكوس"، الذي لا ينبغي أن يلتبس بهيروديكوس السلمبري، طبيباً حاذقاً (ر. غريغاس لأفلاطون ص ١٨٥ و ٢٠٩ ترجمة كوزان). وهذا يدل فيما يظهر على أنه كان في سعة من العيش وعلى جانب عظيم من الثقافة العقلية. وأما غريغاس فإنه اجتهد على الأخص في الخطابة وكانت فناً مُخترعاً حديثاً وقتئذ حصل منه على اسم كبير في صقلية وأفاد من تعليمه إياه فوائد أكبر. ولا شك في أن قدرته الخطابية هي التي أكسبته ثقة مواطنيه إذ استنجدوا آتينا ضد سيراكوزة والمدائن الأخرى الدورية. فبعثوا غريغاس يطلب مساعدة الجمهورية ويظهر أن التاريخ المضبوط لسفارته هذه هو السنة الثانية للأولمبياد الثامنة والثمانين أي سنة ٤٢٧ قبل الميلاد. ويظهر أن سقراط الذي رآه بلا شك لم يكن ليستهين بفصاحته التي كثر اللغط بشأنها في آتينا وصارت مصدر ثروة لهذا المعلم الحسن البيان (ر. هيباس لأفلاطون ص ١٠٠ ترجمة كوزان). ولقد ظن أن أرسطوفان في روايته المضحكة عن الطيور كان يريد أن يستهزئ بغريغاس لأنه كان يرى أسلوبه منتفخاً وغير طبيعي.

(١) ر. التحقيق الخاص HE Hoss, Halts Saxonum, in 80,1828

منذ هذه السفارة المشهورة التي ربما أتبعها غرغياس بالعودة ثانية إلى آتينا بل بالإقامة فيها لم يعرف لحياته العملية أثر آخر. وكل ما يعلم عنه أنه في آخر حياته أقام في تساليا حيث استمع إليه " ايزوقراط " وأنه عاش زمنا طويلاً في لارسا أثرى مدن تلك الجهة بسبب نفوذ عائلة الاللوين. ولئن رجعنا إلى كلمة طيبة رواها أرسطو (السياسة ك ٣ ب ٩ ص ١٢٧ من ترجمتي طبعة ثانية) لوجدنا أن غرغياس لم يكن عظيم الاحترام لوطنية اللارسيين ولا يعلم أن هذه السفسطائي الشهير قد مات بين ظهراي هؤلاء. ومع أنه صار من الثروة على جانب عظيم ومن الزهو بحيث أنه وضع لنفسه تمثالاً من الذهب في معبد دلفوس فإنه كما يقال كان على بقية من قناعة تضرب بها الأمثال. ويقال: إن تقشفه المتناهي هو الذي أطال عمره إلى ذلك الحد. ويزعم لوسيان خبثاً منه بلا شك أن غرغياس لما ملّ الحياة ترك نفسه يموت جوعاً Macrobioi (ب ٢٣ ص ٦٤٣ طبعة فيرمين ديدو).

ولم يكن مشرفاً مركز غرغياس في المحاورة التي وضعها أفلاطون وسماها باسمه. ففيها يبين له سقراط أن فن الخطابة الذي يزعمه ليس فناً كما يزعم وضيق عليه في المناقشة حتى بهت بأن جعله يقع في التناقض المبين وألجأه إلى تبرير الظلم والقسوة. وساء دفاع غرغياس عن دعواه الخاسرة غير أنه كان يسبغ عليه من القصد وحسن الذوق ما لم يكن لبولوس وعلى الأخص قليقليس اللذين يسوقان المعاني التي لا يجيدان فهمها سوقاً إلى النهاية، وينصبان نفسيهما أشياعاً عمياً للقوة على الحق وللشر على الخير وللضلال على الهدى. ولقد يتعرف من دهاء غرغياس خلقه العام الذي يسند إليه بل ربما كان إلى هذا الدهاء أيضاً ينسب تأثير مركزه السياسي أيضاً فإنه لم يكن في بلده ويجب عليه أن يداري الآتينييين الذين كان ينتظر منهم نصرة وطنه، يداريهم حتى في المناقشات النظرية البحتة.

وأما كتاب غرغياس فكان عنوانه "فى اللاموجود أو فى الطبيعة"، ولا يعلم ماذا كان يحوي على العموم ولكنه يرى على قدر الكفاية من كتيبنا هذا ماذا كانت فكرته العامة. فى الواقع إنما هي لا أدريّة مطلقة. وفى هذه النقطة لا محل للتردد فى الحكم فإن سكستوس

أمبيريكوس الذي يظهر أنه كان بين يديه نسخة غريغاس نفسها قد نقل إلينا كما بيناه آنفًا تحليلًا مطابقًا تمام المطابقة لما سنجد هـنا (ك٧ ص ٢٨٥ - ٢٩٠ طبعة ١٨٤٢) *Adversus mathematicos, logicos*. وإنه ليضع غريغاس في صف الفلاسفة الذين يأبون على الإنسان أي ملكة للحكم على حقيقة الأشياء وينكرون إمكان الاهتداء لذلك. وما ذلك إلا مذهب فقير يحوي في نفسه كما في كل لا أدريّة مطلقة تناقضًا ليس منه محيص. ولما تزعزع الايمان بالمنطق تزعزع بالأخلاق على السواء فلا عجب أن يكون سقراط قد أقام حربًا عوانًا على السفسطائيين الذين يفسدون العقول والأخلاق.

يظهر أن كتاب غريغاس الذي في عنوانه وحده ازدراء بالذوق العام قد ألف أو ظهر في الأولمبية الرابعة والتسعين أعني سنة ٤٠٣ قبل الميلاد وكان ذلك في آخر حرب بيلوبونيز وكان الظرف سيئًا للتنازع في حقيقة الأشياء إذ كانت إغريقا كلها تعاني من الشرور ما لا شبهة فيه. ومتى يمكن أن تكون اللا أدريّة في وقت مناسب؟ لقد كان ذلك لأربع سنين قبل الحكم على سقراط إذ نشأت ضلالة أخرى كان يمكن للأدري أن يسخر منها كما يسخر من هزيمة آتينا في نزاعها مع هذا الحكيم جزاء له على ما كاله لها من صنوف التهكم. ومع ذلك فإن غريغاس في شيخوخته الطويلة قد عاش بعد سقراط وهجر أيضًا آتينا إلى بلاد أقل منها قرى فيها لم تكن أدريته لتعزيه بعض الشيء عن نفيه.

ولكي تقدر فكرة غريغاس تقديرًا تامًا قد أثبت قطعة سكستوس أمبيريكوس. فمن السهل مقارنتها بكتيبنا هذا الذي لها به ارتباط بيّن .

يجب أن يرى بناء على كل ما تقدم أن كتابنا الصغير مهما كان فيه من النقص والعيوب والغموض حتى بعد البحوث التي تناولته لا يزال على جانب من الأهمية. وحين كان النص مملوءًا بالأغلاط كان يمكن إهماله واعتباره غير معقول تقريبًا فأما منذ ملاح فقد أصبح هذا الازدراء لا محل له، وأنا من جهتي دون أن أكون مرتاحًا تمامًا لا أجد أن هذا الكتاب أكثر غموضًا من كثير من الكتب الأخرى في مؤلفات أرسطو. مع الإصلاحات التي تناولته والتي هي مقبولة جد القبول لأن أكثرها قام الدليل على صحته من المخطوطات

التي درست خير دراسة، مع هذه الاصلاحات يقف القارئ جيداً على ما أراده المؤلف وأن أسلوبه لمن البيان على قدر المطلوب. فإن لم تكن هذه الرسالة التي ليست بعد كل شيء إلا مجموع مذكرات إن لم تكن من قلم أرسطو فإنها ليست غير خليقة بأن تنسب إليه كما قد ظن ذلك زماناً طويلاً. وعلى الأخص فليست قليلة الفائدة من حيث تاريخ الفلسفة. وبهذا العنوان وعلى هذا الاعتبار يستوصي بها كل أصدقاء الفلسفة القديمة .

أما فيما يتعلق بموضوع المذاهب وبمركز مدرسة إيليا فقد قلت بعض كلمات في مقدمتي على هذا المجلد. وتصديت لأن أبين في هذا البحث أن الفلسفة الإغريقية جدتنا المحترمة كانت نشأت باجتماع ظروف سعيدة قبل الميلاد بستة قرون في المستعمرات التي أسست على شطوط آسيا الصغرى. وقد أعلنت هذا الحادث كواحد من أعظم تواريخ العقل البشري. وعينت الحوادث السياسية الكبرى التي في وسطها نتجت هذه النتيجة. واستخلصت من هذه اللوحة مهما كان موضعها من قلة الكمال نتائج قد تكون أوسع من إطارها. ألا إنما في تلك البيئة يجب أن نحل فلاسفتنا لفهمهم جد ألفهم ولنقدر حق قدرها تلك القيمة السامية لهؤلاء الأساتذة معلمي الحكمة القديمة والذين مهدوا لنا فلسفتنا الحالية والذين لا يزالون يشجعوننا حتى على هذا البعد الشاسع.

في ميليسوس وفي إكسينوفان وفي غرغياس

مزاها ب ميليسوس

الباب الأول

الموجود هو أزلي غير متناه واحد ولا متحرك- أركان الوحدة ونتاجها- الاختلاط
ظاهر الأشياء هو ضد الوحدة- الحذر الذي ينبغي أخذه من شهادة الحواس- ردود
على نظرية الوحدة وعلى اللا أدريّة- الآراء المضادة لهذا المذهب- شواهد من هيزبود
وبعض فلاسفة آخرين.

١- هو يقرر أنه إن يكن من شيء فذلك الشيء يجب أن يكون أزليًا ما دام أنه- على
رأيه- من المحال أبدًا أن يتولد شيء من لا شيء. وسواء أكان في الواقع أن الكل قد
خلق أم أن الكل لم يكن يخلق فيلزم على ذلك في الفرضين أن الأشياء التي خلقت تكون

ب ١ مذاهب ميليسوس- زدت هذا العنوان الذي ليس في الأصل الإغريقي. ر. ما سبق في التحقيق الذي أجريناه على هذا
العنوان وعلى نسبة المذاهب التي يشملها البابان الأولان إلى ميليسوس.

١- هو يقرر- حفظت عبارة النص على إيهامها. وقد كان يحسن أن يسمى الفيلسوف بالتصريح. ومع العدوان الذي سمحت
لنفسه بوضعه لهذا الباب يذهب الشك في الشخص المقصود. ولكنني لم أسمع لنفسه بأن أدخل هذه الزيادة على
النص نفسه في أول جملة وفي بدء هذه الرسالة. وأما في غضون الأبواب فقد زدت اسم ميليسوس مرات عدة كما فعلت
بالنسبة لإكسينوفان وغرغياس. وفيما يتعلق بالإسناد إلى ميليسوس ر. ما سيأتي ب ٤ ف ١. - أن يكن من شيء. - ر. ما
سوف يلي من قطع ميليسوس القطعة الأولى. - على رأيه زدت هذه العبارة لأؤدي قوة النص الإغريقي. - أم أن الكل لم
يكن يخلق- وأنه لم يكن إلا عدد ما من الأشياء كان قد خلق. - في الفرضين النص ليس على هذا القدر من الصراحة.
- التي تكونت على هذا النحو- والتي هي بالنتيجة ليست أزلية.

أخرجت من لا شيء ما دام أنه ما من واحد من جميع الأشياء التي تكونت على هذا النحو كان يوجد من قبل.

٢- وإنه إذا قيل أن من الأشياء ما كان موجودًا من قبل ومنها ما جاء بعد ذلك لينضم إليه نتج من ذلك أن الكل الذي هو واحد قد زاد بالعدد وبالكَم. وهذا نفسه الذي به يصير أكثر عددًا وأكبر يجب أن يأتي أولًا من لا شيء لأن الأكثر لا يمكن أن يكون في الأقل ولا الأكبر في الأصغر.

٣- ومتى كان الكل أزلّيًا يجب أن يكون بهذا عينه لا متناهياً لأنه لا يكون هناك مبدأ يأتي منه كما أنه لا يكون له آخر متى بلغه انتهي. وكل لا متناهٍ يجب ضرورة أن يكون واحداً لأنه إذا وجد عدة لا متناهيات بل لا متناهيات اثنتان حدد بعضها بعضاً على التكافؤ.

٤- ولما كان واحداً وجب أن يكون متشابهاً في جميع أجزائه لأنه إذا كان غير متشابه فبهذا وحده لا يكون بعد واحداً. ولما لم يكن واحداً كان كثرة. ولما كان الواحد أزلّيًا لا قابلاً لأن يقاس متشابهاً في جميع أجزائه وجب أن يكون غير متحرك لأنه لا يمكن أن يتحرك إلا في شيء ينطلق أمامه ولكن الانطلاق لا يمكن أن يكون إلا للذهاب في الملاء أو في الخلو. فمن جهة الملاء لا يمكن بعد أن يقبل شيئاً ومن جهة أخرى الخلو نفسه ليس شيئاً.

٥- لما كان الواحد هو ما قلنا آنفاً ينتج من ذلك أنه لا يمكن أن يلحقه تعب ولا ألم

-
- ٢- أن الكل الذي هو واحد- عبارة النص هي بالبساطة «الواحد» بالعدد وبالكَم- عبارة النص: «يصير متعددًا وأعظم».
- ٣- كان الكل أزلّيًا- ر. ما سوف يجيء في قطع ميليسوس القطعتين ٢ و ٣. بهذا عينه لا متناهياً- يكاد يكون ذلك تكراراً لأن الأزلّي ليس إلا اللامتناهي في المدة- حدد بعضها بعضاً على التكافؤ- تلك هي العبارات عينها التي ينقلها ميليسوس. ر. ما سوف يجيء من قطع ميليسوس القطعتين ٣ و ١٠.
- ٤- وجب أن يكون متشابهاً في جميع أجزائه- راجع قطع ميليسوس القطعة ٤. - وجب أن يكون غير متحرك- راجع القطعة ٤. في شيء ينطلق أمامه راجع القطعة ٥ من قطع ميليسوس- الخلو نفسه ليس شيئاً- راجع القطعة الآتية الذكر.
- ٥- لا يمكن أن يلحقه تعب ولا ألم- يمكن أو تحمل هذه العبارة على المادي أو على المعنوي على السواء ر. القطعة ٤ من قطع ميليسوس. - سلباً وبغير مرض- ربما كانت هذه المعاني أضيق مما ينبغي وفيها يعتبر الواحد كما لو كان جسداً إنسانياً ر. القطعة ١١. - هو المتولد- هذه هي عبارة النص الإغريقي بالضبط.

ويجب أن يكون سليماً وبغير مرض. كما أنه لا يمكن أن يغير وضعه ليتخذ أحسن منه ولا أن يتحول ليأخذ نوعاً آخر ولا أن يختلط بشيء آخر. وفي كل هذه الأوضاع الواحد يصير كثرة وإذن يكون اللاموجود هو المتولد. والموجود يكون هو الذي قد فسد بالضرورة.

٦- وكل هذا محال مطلقاً. وفي الحق إذا كان الواحد مقولاً على الخليط لأنه تألف من عدة أشياء فيلزم حينئذ أن يكون مسبوقاً بوجود عدة أشياء وأن هذه الأشياء تكون قد تحركت بعضها نحو الأخرى. وليس الاختلاط في الواقع إلا تركيب عدة أشياء في شيء واحد أو إنما هو كجمع بين الأشياء المختلطة عن طريق التصنيف. وعلى هذا النحو قد تختلط الأشياء لأنها تنفصل بعضها عن الأخرى. ولما أن هذا الجمع يحصل في سحق الأشياء فقد يجب أن يوجد جلياً كل واحد منها برفع الأشياء الأولى التي اختلطت باقترابها بعضها من بعض. وليس توجد واحدة من هاتين الحالتين.

٧- وهكذا على هذه الطريقة تكون الأشياء، على رأي ميليسوس، متكررة ولا تظهر لنا ألبة بوحدة، وبالنتيجة لما أنه ليس ممكناً أن يكون الحال هكذا على هذا الوجه وأنه لا يمكن أن تكون الأشياء متكررة فيلزم القول بأن هذا ليس إلا ظاهراً خداعاً كما أنه مع ذلك يوجد كثير من الأشياء تخدم حواسنا وتغرها ولكن العقل يؤكد لنا أن تلك الأشياء ليست موجودة، بل هو يؤكد لنا أن الموجود لا يمكن أن يكون كثرة وأنه واحد أزلي لا متناهٍ متشابه في جميع أجزائه.

٦- إذا كان الواحد مقولاً على الخليط - ر. على نظرية الاختلاط ما سبق في كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١٠. - التصنيف - يظهر أن الكلمة التي يستخدمها النص هذا كانت خاصة بلهجة الأيدريانيين . ر. تفسير سبليسيوس على كتاب السماء الورقة ١٥١. - لأنها تنفصل - أو يمكن أن تنفصل. ومن المحتمل أن يكون لفظ فصل ها هنا مأخوذاً على معنى تمييز - في سحق الأشياء - هذه هي عبارة النص وإن لم تكن مضبوطة تماماً.

٧- على رأي ميليسوس - زدت هذه العبارة لأحصل النص في كل قوته. - ليس إلا ظاهراً خداعاً - تلك هي لا أدري مدرسة إيليا التي بإبتائها العقل أكثر مما ينبغي لم يتبق للحواس ما يتناسب معها . فيما سوف يجيء شيئاً من هذه المعاني في القطعة ١٧ من قطع ميليسوس. - العقل يؤكد لنا - إذا طبق هذا في حق الله فالنظرية لا جدال فيها فوجدانيته بديهية في حكم العقل كلاً نهائيه وكامل قدرته. ولكن ذلك لا يمنع تكثر الكائنات بأشخاصها ويلزم العقل التسليم به من غير أن يستطيع مع ذلك أن يفسره.

٨- وحيثُ هل تكون عنايتنا الأولى بعدم قبول كل ظاهر وألا نثق منه إلا بما هو الأحق؟ ولكن إذا كان كل ما يظهر لنا أنه حق ليس صحيحاً ولا يستحق على ذلك تصديقنا فقد نحسن صنعاً بعدم قبول هذه الفائدة أيضاً: إنه لا شيء ألبتة يمكن أن يأتي من لا شيء، لأنه ربما كان هذا أيضاً واحداً من تلك الآراء القليلة الصدق والكثرة العدد التي نحن جميعاً قد تصورناها بواسطة إدراكات قليلة الصدق أو كثيرته.

٩- ولكن إذا كانت كل إدراكاتنا ليست فاسدة وإذا كان بعض آحادها صحيحاً فيلزم أن يختار إمّا الرأي الذي قام الدليل على صحته وإمّا الآراء التي تظهر أنها أحق. لأن هذه الأخيرة تكون دائماً أمتن من الآراء التي يجب أن يدل عليها من بعد بمساعدة تلك المبادئ الأولى.

١٠- فلنسلم، إذا شئت، بأن هذين الرأيين مضادان أحدهما للآخر كما يفترض ميليسوس: بادئ بدء أنه عند تأييد الكثرة يضطر إلى استخراجها من اللاموجود. ثم لما كان هذا محالاً وجب أن يستنتج من ذلك أن الموجودات ليست متكثرة والموجود بما هو موجود فقط هو لا متناهٍ وبما هو لا متناهٍ هو واحد.

٨- هل تكون عنايتنا- صيغة الإثبات هنا أولى فيما يظهر ولكني اضطرت إلى اتباع النص. وهذا الممر هو أتم ما تركه لنا الأقدمون على نمط مدرسة إيليا ومنطقها- كل ظاهر- أو كل ما يظهر لعقلنا لأن المراد هنا ليس هو الظاهر الحسي - ليس صحيحاً ولا يستطيع على ذلك تصديقنا- ليس النص على هذا القدر من السمة. - بعدم قبول هذه القاعدة أيضاً- الأمر على الضد من ذلك فإن مدرسة إيليا قد قبلت هذه القاعدة كل القبول واتخذتها أساساً لنظرياتها على الأزلية ووحدة الموجود. - قليلة الصدق- ليس النص على هذا القدر من التعيين، ولكنه على التحقيق يشمل هذا المعنى.

٩- كل إدراكاتنا ليست فاسدة- في هذا التحفظ شرف عظيم لمدرسة إيليا ويجب اعتباره والاعتداد به. فإن السفسطائيين وعلى الخصوص فروطاغوراس قد ذهبوا بعيداً في المعنى المضاد بأن قرروا أن الإنسان هو معيار الكل وقد جرمهم هذا الإفراط إلى لا أدريّة غرغياس المطلقة. ر. فيما يلي الباب الخامس والسادس من هذا الكتاب وتحليل مذهب غرغياس الذي قام به سكستوس أمبيريكوس. - أما الرأي الذي قام الدليل على صحته- مبدأ جميل قد كرره فيما بعد أفلاطون وديكارط بصورة أخرى ليست أشدّ جزءاً. - التي تظهر أنها أحق- والتي هي غير قابلة للإيضاح وصالحة، من ثم، لإيضاح سائر البقية. هذا هو المذهب العظيم لأرسطوطاليس في الأناطوطيقا الثانية. وهذا هو الأساس الذي إليه يستند كل برهان سواء أكان هذا الأساس مكتشفاً أو مخبأ. ر. ترجمتنا لأناطوطيقا الثانية. منطق أرسطو ج ٣ ك ١ ب ٢ ص ٩ - بمساعدة تلك المبادئ الأولى- التي هي في ذاتها غير قابلة للبرهان لأنها بديهية.

١٠- كما يفترض ميليسوس- عبارة النص هي فقط «كما يفترضه» ر. ما سبق في ١ والتحقيق. وهذه الجملة كلها قلقة في ترجمتنا كما هي كذلك في النص الإغريقي. - يضطر إلى استخراجها من اللاموجود- ر. ما سبق آنفاً في ١.

١١ - نزعم أن هذين الرأيين لا يثبتان لأحدهما ولا الآخر أن الموجود هو واحد وأنه كثيرة. ولكن إذا كان أحد الاثنين أحق وأمتن فتكون النتائج التي تستنتج منه هي أيضًا أجلى وضوحًا. فإن كان لنا هذان الاعتقادان معًا أن لا شيء يمكن أن يأتي من لا شيء وأن الموجودات هي متكررة ومتحركة فلما أن هذا الأخير يظهر لنا حقيقًا بالثقة فهو أولى من الآخر بتصديق الناس. وبالنتيجة إذا كان هذان الرأيان هما متضادين في الواقع وإذا كان من المحال أن شيئًا يأتي من لا شيء وأن الموجودات متعددة فإن هاتين النظريتين تتباطلان وتتفاسدان على التكافؤ.

١٢ - لكن لماذا إذن يكون رأي ميليسوس أحق! إنه يمكن أيضًا تأييد الرأي المضاد ما دام أن ميليسوس قد وضع استدلاله من غير أن يكون قد دلل على أن الرأي الذي يصدر عنه هو الحق، أو على الأقل أنه أمتن من الرأي الذي يقصد إلى أن يبرهن على فساده. وهذا من جانبه ليس إلا فرضًا محضًا أن يرى أن مجيء الأشياء من لا شيء أشبه بالحق من أن تكون متعددة.

١١ - نزعم - قد لا تكون عبارة النص على هذه الصراحة. - فتكون النتائج التي تستنتج - أو النتائج التي تستخرج منها. على أن من البين أن المبدأ الذي يسار منه بما أنه هو ذاته أمتن فالبرهان الذي ينتج منه هو أمتن أيضًا. - هذان الاعتقادان - العبارة الإغريقية تدل مباشرة على "فرضين وهميين". - لا شيء يمكن أن يأتي من لا شيء - هذا حق متى طبق على موجودات الطبيعة ولكنه ليس حقًا بهذا المقدار متى طبق في حق الله. وحينما يكون الأمر متعلقًا بالله فيلزم أن يوصل إلى خلق حقيقي. - الموجودات هي متكررة ومتحركة - كما تشهد لنا به حواسنا شهادة غير مجرحة. - هاتين النظريتين تتباطلان - وحينئذ يمكن أن شيئًا ما يأتي من العدم وأن الموجودات هي متحركة.

١٢ - رأي ميليسوس - عبارة النص غير معينة ولا تسمي ميليسوس ر. ما سبق ف ١. - ما دام أن ميليسوس - التنبيه السابق. - الذي يقصد إلى أن يبرهن على فساده - عبارة النص ببساطة "التي عليه يبرهن". - ليس إلا فرضًا محضًا. - الحد الذي يستعمله النص ها هنا هو بعينه من جهة الاشتقاق الذي في الفقرة السابقة. - أشبه بالحق - أو بعبارة أخرى أن الخلق من العدم أكثر احتمالاً من وحدانية الموجود. فإنه يمكن أن يفهم على وجه أحسن أن الأشياء أتت بها من لا شيء من أن يفهم أنها متعددة. والسبب في ذلك أن التعدد بديهي فيما يظهر في حين أن الخلقة تختفي في ظلمات الماضي والبداءة.

١٣- ولقد أصاب من قال على ضد ذلك هاهنا إن أشياء لم تكن قد كانت وأن كثيرًا من الأشياء أخرج من العدم. وليس هؤلاء الذين افتكروا هذه الأفكار من أناس كيفما اتفق. بل هم مشهورون بأنهم أعقل الناس. مثال ذلك قال هيزبود:

«كان العماء موجودًا قبل كل الأشياء

»ثم ظهرت الأرض ذات الصدر الفسيح

»وهي الأساس الأزلي لكل ما تحمل

.....»

فعلى رأي هيزبود سائر الأشياء تولد من هذا ولكن المبادئ الأول لم تتولد من شيء. ١٤- ومن الفلاسفة من يقولون بأن لا شيء يكون وأن الكل يصير، وهم يؤكدون كذلك أن كل الأشياء التي تصير تولد من أشياء غير موجودة. وبالنتيجة يمكن أن يقال إن عند بعض الفلاسفة الصيرورة يمكن أن تنتج حتى من اللاموجود.

١٣- قد كانت- هذه الجملة في المخطوطات واردة على صيغة النفي لا على صيغة الإثبات كما بينه إليه م. مللاخ. وقد اقترح أسبلدننج محوها. وإني أرى كما يرى م. مللاخ أنها ضرورية لتتابع المعاني- . من أناس كيفما اتفق- من العوام هيزبود راجع التيجوني البيت ١١٦ وما بعده ص ٣ من طبعة فيرمين ديدو. وأن هذه الأبيات التي لم يستشهد بها هاهنا بالنص موجودة في الطبيعة لأرسطو. ك ١ ب ٢ ف ٧ ص ١٤٢ من ترجمتنا وفي ما بعد الطبيعة ك ١ ب ٣ ص ١٣٨ من ترجمة كوزان. - لم تتولد من شيء - أولى بهذا أن يكون نتيجة مستخرجة من أفكار هيزبود لا فكرة من أفكاره الخاصة. ١٤- ومن الفلاسفة - كان من الحسن أن يسمى هؤلاء الفلاسفة الآخرين. - بأن لا شيء يكون أو يوجد. - وإن الكل يصير- قد يكون هذا هو رأي هيرقليطس إذ يظن أن كل الأشياء هي في مد أبدي- تولد من أشياء غير موجودة- النتيجة بينة بذاتها فيما يظهر وأن ما يصير لم يكن قبل أن يصير. الصيرورة يمكن أن تخرج حتى من اللاموجود- أو أن الأشياء التي تتولد تخرج من أشياء ليست موجودة.

الباب الثاني

تتمة تفنيد ميليسوس - ردود على مبدأ أنه ليس شيء يأتي من لا شيء - تولد الأشياء وكونها بعضها من بعض على التكافؤ - نظريات أمبيدقل وأنكساغوراس وديمقريطس وبرمينيد وزينون - شواهد من شعر أمبيدقل وهيزبود - الوجود ليس ضرورة واحدًا أزليًا ولا متناهيًا.

١ - نحن لا نشتغل ببحث ما إذا كان ما يقوله ممكنًا أو ممتنعًا. لكن هنا نقطة يجب علينا أن نعيدها بعض الالتفات وهي ما إذا كانت مثل تلك النتائج تنتج بل تخلف من فروضه أو إذا كانت الأشياء يمكن أن تكون ضد ما يعتقد، لأنه يمكن في الحق أن يكون الواقع مخالفًا تمام المخالفة.

٢ - فهو يقرر بادئ بدء أن ليس شيء يمكن أن يأتي مما هو ليس موجودًا. ولكن يرد عليه هذا السؤال: أمن الضروري إذن أن تكون جميع الأشياء بلا استثناء غير مخلوقة؟ أو ليس من الممكن أيضًا أن تأتي الأشياء بعضها من بعض وأن هذه السلسلة يمكن أن

١ - ما إذا كان ما يقوله - ميليسوس وقد حفظت النص على ما فيه من عدم التعيين الشخصي. - بعض الالتفات - وربما يمكن أن يقال «التفاتًا جدًّا». - من فروضه - أو «المبادئ التي يسلم بها».

٢ - فهو يقرر بادئ بدء - ليس النص على هذا القدر من الضبط وعبارته عامة وهي ما دام قد تقرر..... إلخ. - بلا استثناء.. زدت هذا القيد لأحصل كل قوة العبارة الإغريقية. - غير مخلوقة - ر. ما سبق في الفقرة الأولى حيث هذا التحفظ بعض الأشياء هي أزلية وغير مخلوقة والبعض الآخر ليس كذلك. - أن تأتي الأشياء بعضها من بعض - هذا ممكن بلا شك ولكن لا بد بادئ بدء من افتراض وجود بعض أشياء تكون أزلية بالنتيجة. وهذا الاعتراض لا يرد مباشرة على نظرية ميليسوس. - رجعي دائرية - هذا هو ما ذكر آنفًا بعبارة أخرى. ولكن الكون ليكون على التكافؤ يلزم ضرورة أن يكون مسبقًا بوجود ما قد لا يكون أزليًا وباقيًا. - يوجد دائمًا موجود ما - مؤقت ووسيط ولكن التعاقب مع ذلك هو أزلي إذ لم تكن الموجودات أزلية - أن الكل قد خلق - في التعاقب لا في البدء. - أنه كل وأنه يسمى كلا - وبعبارة أخرى اللامتناهي هو كل وهذا هو ما يسمى الكل.

تتمشى إلى ما لا نهاية؟ أو ليس من الممكن أيضًا أن تتكون رجعي دائرية بحيث أن الواحد يأتي من الآخر وأنه على ذلك يوجد دائمًا موجود ما وأن كل واحد قد أمكن أن يخرج على هذا النحو من جميع الآخر على التكافؤ في عدد غير متناهٍ من المرات؟ على هذا المعنى لا شيء يمنع أن الكل قد خلق وأصبر حتى مع التسليم بذلك الفرض أنه ليس شيء يمكن ألبة أن يأتي من لا شيء. وربما أن الموجودات على ذلك غير متناهية فيمكن إذن، كما يشاؤه، أن تسمى بجميع الأسماء التي لا تناسب إلا الوحدة لأنه يطبق هو أيضًا على اللامتناهي كيفية أنه كل وأنه يُسمى كلاً.

٣- حتى من غير أن يفرض أن عدد الموجودات غير متناهٍ يمكن أن يفهم أن كونها دائري. فإذا كان كل بصير وأن لا شيء يوجد كما يزعم بعضهم فكيف يوجد إذن أشياء أزلية؟ ولكن ميليسوس يتكلم عن الموجود كأنه كائن وكأنه مسلم به على الإطلاق. فإنه يقول: «إذا الموجود لم يصير وإذا هو يكون فيلزم أن يكون أزلياً». وهذا إنما هو تسليم بأن الوجود يتعلق بضرورة بالأشياء.

٤- وأكثر من ذلك أنه مع الافتراض، بقدر ما يراد من الافتراض بأن اللاموجود لا يمكن أن يصير وأن الموجود لا يمكن أن ينعدم ألبة فما الذي يمنع أيضًا أن من الأشياء

٣- كونها- بعضها بواسطة البعض الآخر. - دائري- وبالنسبة على التكافؤ فإن الثاني يكون الأول كما أن الأول قد كون الثاني. - كما يزعم بعضهم- هيرقليطس وفروطاغوراس مثلاً. - ولكن ميليسوس- عبارة النص: - ولكنه ر. ما سوف يجيء القطعة الأولى وما يليها من قطع ميليسوس. - فإنه يقول- هذه الصيغة تدل على أن القول المروي هو من كلام ميليسوس.

٤- بأن اللاموجود لا يمكن أن يصير- يعني أن ما لم يكن لا يمكن أن يكون أبدًا. - وأن الموجود لا يمكن أن ينعدم- وأنه أزلي. - من الأشياء- التي هي موجودة أو التي وجدت فيما سبق. - نظرية أمبيدل- لم يذكر أبيات أمبيدل بنصها ولكن المعنى قد حصل بالضبط. ر. قطع أمبيدل البيتين ١٠٢ و ١٠٣ طبعة فيرمين ديدو ص ٣. - وفقا لرأي ميليسوس- ليس الاسم في النص الإغريقي ولكنه يستنتج من العبارة نفسها التي استخدمها المؤلف. - ما دام أن الموجود يبقى دائمًا- هذا الشاهد بيت من أبيات أمبيدل روي بمعناه بالضبط دون لفظه. ر. البيت ١٠٤ في المرجع السابق. - كالنار والماء..... إلخ- الأربعة العناصر التي يسلم بها أمبيدل أيضًا. - إلا اختلاطاً وتحلاً- تلك هي عبارة أمبيدل بالنص. ر. قطع أمبيدل البيتين ١٠١ و ١٠٢ في المرجع السابق. وأن أرسطو يذكر أيضًا هذا البيت في كتاب الكون والفساد ك ٢ ب ٦ ف ٦. - عاميًا- عبارة النص عند الناس. - قطع أمبيدل البيت ١٠١.

ما تولد ومنها ما تكون أزلية؟ تلك إنما هي نظرية أمبيدقل نفسه. فإنه مع أنه مسلم وفقاً لرأي ميليسوس بأن من الممتنع أن أي شيء اتفق يخرج مما لم يكن وأنه لا سبيل مطلقاً لأن شيئاً وجد مرة يمكن أن ينعدم ألبتة "مادام أن الموجود يبقى دائماً حيث أمكن وضعه" مع كل هذا لا يزال هذا الفيلسوف يؤيد أن من الأشياء ما هو أزلي كالنار والماء والأرض والهواء، وأنه إنما من هذه الأشياء أتت وتأتي جميع الآخر. وعلى رأيه ليس للموجودات كون آخر غير هذا. وأن الكون ليس في الحقيقة إلا اختلاطاً وتحللاً. وهذا ما يسمى عامياً كون الأشياء وطبعها.

٥- ومع ذلك فإن أمبيدقل يزعم أن الصيرورة لا تنطبق على الأشياء الأزلية وأن ما هو موجود لا يصير. فتلك في نظره محالات واضحة إذ يقول: «كيف يمكن في الحق أن يقال: إن شيئاً يزيد الكل؟ ومن أين يأتي ذلك الشيء؟» «إنما هو من اختلاط النار وتركبها ومن جميع العناصر التي تصحبها أن خرج تكثر» «الأشياء. وبانفصال هذه العناصر وتباعد بعضها عن بعض تنعدم الأشياء من جديد. والتكثر يأتي من الاختلاط والتفرق ولو أنه بالطبع لا يوجد إلا أربعة عناصر بصرف النظر عن العلل بل عنصر واحد أحد».

٦- حتى مع افتراض أن العناصر لا متناهية منذ الأصل لتكون الأشياء بتركبها وتفسدها بافتراقها كما يدعى أحياناً أنه كذلك كان يفكر أنكساغوراس الذي كان يعتبر هذه العناصر الأزلية غير المتناهية كمصدر لجميع الأشياء التي تتكون. وقد لا ينتج من هذا أيضاً أن الكل هو أزلي بلا استثناء. بل يوجد دائماً بعض أشياء قد تأتي وتكون أتت من موجودات

٥- ومع ذلك فإن أمبيدقل - النص لا يسميها هنا أمبيدقل. ولكن كل ما يلي يثبت تماماً أن القول إنما هو بصدده. - الصيرورة - أو التولد. - كيف يمكن في الحق - ليست هذه تعابير أمبيدقل بالضبط ولكن المعنى هو معناه. ر. قطعة البيت ٩٤ و ٩٥ في المرجع السابق ذكره. ور. أيضاً الطبيعة لأرسطو ك ٨ ب ١ ص ٤٥٥ من ترجمتنا. - بصرف النظر عن العلل - عبارة النص: دون الملل، ومن المحتمل أن أمبيدقل يعني هنا بالعلل العشق والتنافر اللذين يجمعان أو يحلان الأشياء أن يكونا ويفسدا دوريا السفير وس. ر. الطبيعة لأرسطو ك ٣ ب ٤ ص ١٣ من ترجمتنا.

٦- بتركبها.... بافتراقها - على حسب نظريات أمبيدقل. - أنكساغوراس - ر. الطبيعة لأرسطو ك ٣ ب ٤ ص ٨ من ٩٠ من ترجمتنا. - بلا استثناء - أضفت هذه الكلمات. - في جواهر أخرى - هذا التعبير يكاد لا يكون أرسطو طاليا. وليس من عادته أن يستعمل لفظ الجوهر في مثل هذا المعنى.

متقدمة وتنفى في جواهر أخرى.

٧- بل يمكن أيضاً ألا يكون إلا صورة واحدة للكل كما كان يؤكده أنكسيمندروس وأنكسيمين إذ يؤيدان أحدهما أن الكل هو من الماء والآخر وهو أنكسيمين أن الكل إنما هو من الهواء.

٨- وإنما هذه هي أيضاً نظرية جميع من يفهمون على هذا النحو «الكل» كوحدة. وذلك إنما هو تبعاً لأن «الواحد» يتغير بالصور أو بعدد أكبر أو أصغر وتبعاً لأنه رقيق قليلاً أو كثيراً أو لأنه سميك أن الأشياء مهما كانت متعددة ولا متناهية تتوالد. وحينئذ «الواحد» مع بقائه هو هو يكون بقية الأشياء ويشكلها.

٩- أما ديمقريطس فإنه من ناحيته يقول على السواء إن الماء والهواء وكل واحد من الأشياء المختلفة هكذا هي متحدة وأنه لا فرق بينها إلا في المجرى والتماس والاتجاه. وما المانع أيضاً، في هذا الفرض، من أن الأشياء المتكثرة تتولد وتنعدم ما دام «الواحد» يتغير أبداً من الموجود إلى الموجود بالفروق التي ذكرت من غير أن «الكل» في مجموعه يصير بذلك أبداً لا أصغر ولا أكبر؟

٧- ألا يكون إلا صورة واحدة- هذه الجملة هي الترجمة المضبوطة للنص الإغريقي ولكن ما يلي يثبت أن المعنى بلفظ «الصورة» هو «العنصر» وأن آراء أنكسيمندروس وأنكسيمين هي معروفة حق المعرفة فإن أحدهما يريد أن يستخرج كل العالم من الماء كما كان يزعم طاليس والآخر يريد أن يستخرج العالم من الهواء.

٨- كوحدة- أو كواحد. ولقد حفظت أسلوب النص وربما كان أجلى من ذلك أن يتكلم على اتحاد المادة وحينئذ يرجع إلى مذهب الذوات كما سنبين فيما بعد بمناسبة ديمقريطس. - تبعاً لأن الواحد يتغير بالصور- الجملة طويلة بعض الشيء ولكنها كذلك أيضاً في النص الإغريقي فوجب علينا الاحتفاظ بأسلوبها. - يكون ويشكلها- ليس في النص إلا فعل واحد.

٩- ديمقريطس- هو في طريقته أيضاً نصير للوحدة لأن ذراته هي على الإطلاق متماثلة ولا تختلف إلا بالعدد وبالصورة وبالتماس والحركة. - الأشياء المختلفة هكذا- كان الأحسن أن يقول يظهر لنا أنها مختلفة بهذا القدر لأنها في الواقع هي بعينها على حسب ديمقريطس. - في المجرى والتماس والاتجاه- هذه الكلمات الثلاثة مستعارة من ديمقريطس والظاهر أنه واضعها أو على الأقل هو الذي في المجموعة نقلها من معناها العادي. على أنني لا أجد هذا الممر من هذا الكتاب موجوداً في قطع ديمقريطس الإغريقية لفيرمين ديدو. فإن المجرى والتماس والاتجاه متعلقة بالذرات إذ ترتكب في الخلو بعضها مع بعض. من الموجود إلى الموجود- دون أن شيئاً ما يمكن أن يتولد من العدم وذلك بأن الذرات متصورة أزلية ر. كتاب السماء ك٣ ب ٤ ف ٥ ص ٢٥٠ من ترجمتنا.

١٠ - وفوق هذا ماذا يمنع أن أجسامًا متعددة كما يشاء تتولد من أجسام آخر وتتحلل إلى أجسام آخر أيضًا بحيث تكون دائمًا على كمية متساوية في تحليلها وبحيث إنها تنعدم من جديد.

١١ - لكن حتى مع التسليم بهذا والتسليم بأنه يوجد شيء غير مخلوق فماذا يزيد هذا في إثبات أن الموجود هو لامتناهٍ؟ على رأي ميليسوس الموجود لا متناهٍ إذا هو يوجد وألا يكون قد ولد البتة. لأن الحدود على رأيه هي هنا بداية الكون ونهايته. غير أن الموجود مع أنه غير مخلوق ألا يمكن أن يكون له حدود أخرى غير المذكورة آنفًا؟ فإذا كان اللامتناهي قد خلق فلا بد من أن يكون له على رأي ميليسوس هذه البداية التي منها يخرج ليكون.

١٢ - فماذا يمنع إذا - حتى بدون أن يكون قد كون - أن يكون له بالأقل بداية؟ لا البداية التي منها أتى - إذا شئت - بل بداية أخرى، وأن الأشياء مع كونها أزلية يتحدد بعضها ببعض على طريق التكافؤ.

١٣ - بل ماذا يمنع أن «الكل» الذي يكون غير مخلوق أن يكون لا متناهياً وأن جميع الأشياء التي هي فيه تكون متناهية باعتبار أن لها بالبساطة بداية ونهاية في كونها.

١٠ - وفوق هذا - هذا يظهر أنه تبع للأفكار المنسوبة لها هنا إلى ديمقريطس وهذه الفقرة لا تكاد تكون إلا تكريراً لما سبق. - على كمية متساوية - الكمية والعدد الكلي للذرات لا ينقصان، وفقط المركبات التي تركيبها تلك الأجزاء التي لا تتجزأ هي التي تحتوى منها على عدد أكبر أو أصغر.

١١ - أن الموجود هو لا متناهٍ - ليس النص على هذه القدر من الضبط واللفظ الذي استعمله هو غير محدد. - على رأي ميليسوس - هذا يتعلق بميليسوس لا ديمقريطس ولكن النص قد وضع الفعل مطابقاً لضمير الغائب من غير أن يعين بالاسم الفيلسوف الذي يقصد تعيينه. - إذا هو يوجد - ر . ما سبق ف ١ . - وألا يكون قد ولد البتة - أن لا نهاية الموجود - تنتج، على رأي ميليسوس. من أزليته. بداية الكون - أو بعبارة أخرى "بداية تغير الموجود". لأن الموجود بما هو أزلي ممكن أن يصير غير ما هو ويتحول ولكنه لا يولد على الحقيقة. - حدود أخرى غير المذكورة آنفًا - يعني ابتداء التغيرات التي يمكن أن يعانيتها ونهايتها. - على رأي ميليسوس - أضفت هذه الكلمات التي تستنتج من سياق الكلام ومن التعبير الذي يستعمله المؤلف. فما سوف يلي القطعة ٢ من قطع ميليسوس.

١٢ - حتى بدء أن يكون قد كون - أعني مع بقائه أزلياً. - بل بداية أخرى - هذا لا ينطبق إلا على التغير الذي يصير الموجود غير ما هو ويحيله من غير أن ينزع شيئاً من أزليته. - يتحدد بعضها ببعض - بأن تتوالد على طريقة التكافؤ.

١٣ - متناهية - بالكم دون أن تكونه بالعدد وأن يكون بعضها بعضاً بتسلسل مؤبد. - بالبساطة - زدت هذه الكلمة التي تفهم من القرينة فيما يظهر لى.

١٤ - ألا يمكن أيضًا كما ينبغي برمينيد أن «الكل» مع أنه واحد وغير مخلوق يكون متناهيًا «بأن يكون من جميع الجهات متشابهًا لكتلة كرة مضبوطة الشكل وأن يكون متساوي الأبعاد من المركز من غير حاجة أصلاً إلى أن يكون في الجزء الفلاني أو الفلاني أكبر أو أجمد مما هو؟»

١٥ - ولما أن له وسطاً وأطرافاً فله حد مهما كان غير مخلوق ما دام أن «الكل» مع أنه واحد كما يعترف به ميليسوس نفسه فإنه، من حيث كونه جسمًا، كل أجزائه بلا استثناء متشابهة بعضها لبعض. ومن هذه الجهة إنما هو يقرر التشابه المطلق «الكل» ولا يقول كما يقول فلاسفة آخرون إن «الكل» مشابه لشيء آخر غير ذاته. تلك هي النظرية التي يبطلها أنكساغوراس بقوله: إذا كان اللا متناهي متشابهًا من جهة أن يكون مشابهًا لمغاير له فمن ثم هما اثنان بل أكثر. وحينئذ لا يوجد بعد لا «واحد» ولا لامتناهٍ.

١٦ - ولكن قد يمكن أن ميليسوس يعني هو أيضًا أن اللامتناهي مشابه إضافيًا لذاته أو يقول بعبارة أخرى إن «الكل» هو متشابه لأن أجزائه متشابهة بما أن هذا «الكل» هو مع ذلك من الماء أو من الأرض أو من شيء آخر.

١٤ - كما ينبغي برمينيد - يظهر على حسب هذه الفقرة أن رسالتنا الصغيرة هذه مع انطباقها على ميليسوس وإكسينوفان على وجه الخصوص قد تكون انتقادًا عامًا لمدرسة إيليا . ر . قطع برمينيد البيت ١٠٢ وما بعده في القطع الفلسفية الإغريقية لفيرمين ديدو ص ١٢٤ .

١٥ - ميليسوس نفسه - ليس في النص الاسم الظاهر بل هو استخدم ضمير الغائب كما هو الحال في كل موطن . - هو يقرر - أي ميليسوس ولكن هذا يمكن على سواء أيضًا أن ينطبق على مذهب برمينيد كما يرى في الآيات التي ذكرت آنفًا . - التي يبطلها أنكساغوراس - قد يمكن أن يفهم منه أيضًا كما فهم م . مللاخ " التي يؤيدها انكساغوراس " . وعلى ذلك يكون انكساغوراس من رأي ميليسوس وبرمينيد، عوضًا عن أنه يبطل رأي الفلاسفة الذين يقررون أن الكل هو مشابه لآخر غيره وهذا في الواقع شيء واحد . ر . قطع أنكساغوراس لشاوباخ ص ١٠١ . ولكن نظرية انكساغوراس يظهر أنها ترجع فقط إلى العقل لا إلى العالم . فإن العقل الأعلى لا يمكن في الحق أن يتغير فإنه دائمًا مشابه لذاته ولا يمكن أن يكون شبيهًا لأي ما كان .

١٦ - ميليسوس - التنبيه السابق . أي أن ميليسوس ليس مسمى ها هنا أيضًا - إضافيًا لذاته - النص أقل ضبطًا : "هل يعني الشبيه نسبيًا إليه" .

١٧- من البين أن ميليسوس مع تسليمه هكذا بالوحدة يرى أن كل جزء من الأجزاء هو نفسه جسم لا يمكن أن يكون لا متناهيًا. لأن «الكل» هو وحده لا متناهٍ. وبالنتيجة أن هذه الأجزاء التي ليست مخلوقة أيضًا يصلح بعضها حدودًا لبعض على التكافؤ.

١٨- ولكن إذا كان «الكل» أزليًا ولا متناهيًا فكيف يمكن أن يكون «واحدًا» مع كونه جسمًا؟ ثم إذا كان مركبًا من أجزاء متغايرة فإذن يعترف ميليسوس نفسه بأن «الكل» هو كثير ومتعدد. ومع التسليم بأنه من الماء أو من الأرض أو من أي عنصر آخر فحينئذ يكون للموجود عدة أجزاء كما أن زينون يحاول أيضًا أن يثبت أن «الكل» يجب أن يكون له أجزاء كثيرة إذا كان هو واحدًا على الوجه الذي يدعون.

١٩- ومتى كانت أجزاؤه متعددة لزم أن يكون بعضها أصغر وبعضها أكبر، أعني مختلفة جد الاختلاف حتى بدون أن يأتي التخالف من زيادة جسم ما أو فقد جسم ما. ولكن إذا كان «الكل» ليس له جسم ولا طول ولا عرض فكيف يكون لا متناهيًا؟ وما المانع إذن أن يكون بمجموعه كثرة وواحدًا بالعدد؟ بل ما المانع أن الأشياء مع كونها هكذا متكررة وأكثر من واحد أن تكون على عظم غير متناهٍ؟

٢٠- قد يزعم إكسينوفان أن عمق الأرض وعمق الهواء غير متناهٍ ولكن أمبيدقل يبطل هذه النظرية إذ يبين في انتقاده المحكم أنه إذا كانت الأشياء كما يزعمون فمن المحال

١٧- ميليسوس - كررت ها هنا أيضًا اسم ميليسوس كما فعلت فيما سبق ولو لم يكن مذكورًا في النص. - كل جزء من الأجزاء هو نفسه جسم - ر. ما سوف يلي من قطع ميليسوس القطعة ١٦. - هو وحده لا متناهٍ - زدت كلمة «وحده» لبيان الفكرة. - يصلح بعضها حدودًا لبعض على التكافؤ - ر. ما سبق ف ١٢

١٨- مع كونه جسمًا - أي أنه بالنتيجة ذو أجزاء مختلفة. - ميليسوس نفسه - اسم ميليسوس ليس مذكورًا في النص الذي ليس فيه دائمًا إلا ضمير غائب. - كما أن زينون يحاول أيضًا أن يثبت - أن ذكر زينون هذا يسمح لنا أن نقدر رسالتنا الصغيرة هذه كان ينبغي أن تعرض أيضًا لمذهبه على حدة. ر. التحقيق الذي سبق.

١٩- بعضها أصغر - حتى من غير اختلاف الامتدادات يكفي أن توحد عدة أجزاء لتكون متميزة ولو كانت مع ذلك متساوية تمام المساوي. - من زيادة جسم ما - لا يمكن أن تكون زيادة ولا نقص لأي ما دام أن المقصود هو «الكل». - متكررة وأكثر من واحد - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - على عظم غير متناهٍ - عبارة النص بالضبط «غير متناهية في العظم».

٢٠- قد يزعم إكسينوفان - رأي إكسينوفان هذا مذكور في كتاب السماء ك ٢ ب ١٣ ف ٧ ص ١٩٤ من ترجمتنا. في تلك الفقرة أيضًا يذكر أرسطو انتقاد أمبيدقل ويستشهد بالبيت عينه الذي استشهد به هنا.

مطلقاً أن تكون البتة.

«إن أسس الكرة والأثير غير الملموس التي كثيراً ما يكلموننا عنها ليست إلا كلمات فارغات يكررها لسان الحمقى بلا داع».

٢١- لكن العالم يمكن أن يكون واحداً من غير أن يكون هناك سخف في افتراض أنه ليس متشابهاً في جميع أجزائه. وفي الحق إذا كان العالم كله ماء أو كله ناراً أو أي عنصر آخر من هذا القبيل فيمكن جيداً أن يقال بوجود عدة أشياء ولو أن الموجود يبقى واحداً وأنه يلزم دائماً أن يكون الجزء الفلاني متخلخلاً والآخر كثيفاً إلا أن يوجد خلو في باطن المتخلخل. ولكن لا شيء يمنع أنه بالنسبة لبعض الأجزاء يوجد في المتخلخل خلو منفصل تماماً بحيث أن جزءاً بعينه من "الكل" يكون كثيفاً وآخر بعينه يكون متخلخلاً مع أن الكل مع ذلك باق هو ما هو. ولكن لما أن "الكل" مليء فـالمتخلخل حينئذ لا يكون أقل امتلاء من الكثيف.

٢٢- وإذا كان «الكل» غير مخلوق فكيف يمكن أن يستنتج من هذا وحده أنه لا متناهٍ وأنه لا يمكن أن يوجد أيضاً واحد بعينه أو آخر يكون متناهياً مثله؟ ولماذا يستلزم كونه غير مخلوق التسليم فوق ذلك بأنه واحد وأنه لا متناهٍ بهذا السبب وحده؟ وكيف حينئذ يكون اللامتناهي هو ذلك «الكل» الذي يتوهمونه؟.

٢١- أنه ليس متشابهاً في جميع أجزائه- أن تخالف الأجزاء لا يمنع الوحدة بل قد يكون شرطها - بوجود عدة أشياء- أو بعبارة أخرى أن الموجودات متكثرة بما هي موجودات خاصة، وأن هذا غير مانع وحدة المجموع. - لأنه لا يمكن- يقدر مللاخ أن هذه هي نظرية ميليسوس التي يبطلها المؤلف ولا شيء في النص يعزز أو يرفض هذا التقدير. - خلو في باطن المتخلخل- اضطرت لاستخدام هذه الصيغة لتحصيل كل قوة النص الإغريقي. - باق هو ما هو - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - لما أن "الكل" مليء- يمكن أن تقدر هنا هذه العبارة "على رأي ميليسوس" على حسب تقدير مللاخ. ر. القطعة ٥ من قطع ميليسوس.

٢٢- من هذا وحده- يظهر لي أن الرد واضح للغاية وما دام العالم واحداً فيظهر أن من الضروري أو يكون لا متناهياً. لأنه من المحال على عقلنا أن يفترض له حدوداً. -ولماذا يستلزم- هذا ليس في معظمه إلا تكريراً لما سبق. - يتوهمونه - صيغة النص صيغة جمع يمكن أن تعود على ميليسوس وإكسينوفان وبرمينيد وزينون.

٢٣- يقول ميليسوس إن الموجود لا متحرك إذا كان ليس ثم من خلو. لأن الأشياء لا تتحرك ألبتة إلا بأن تتغير بالآين. غير أنه بادئ بدء كثير من الناس من لا يوافقون على هذه النقطة ومع تسليمهم بوجود الخلو فإنهم لا يقبلون أن يكون جسمًا. يمكن أن يعني بالأشياء هنا نحو ما يعنيه بها هيزيود حين يقول في الخلقة: «إنما هو العماء الذي ظهر بادئ الأمر» مفترضًا بذلك أنه كان يلزم قبل كل شيء أن يوجد محل للموجودات، هذا هو ما يعني بالخلو الذي يعتبر كنوع آنية تكون خالية من وسطها.

٢٤- على أنه حتى مع عدم وجود خلو فإن العالم يمكن أن يتحرك أيضًا على السواء. وأن أنكساغوراس الذي اشتغل أيضًا بهذه المسألة لم يقنع بإثبات أنه لا يوجد خلو بل أثبت فوق ذلك أن الموجودات تتحرك على سواء من غير أن يكون الخلو ضروريًا.

٢٥- وفي هذا المعنى عينه قال أمبيدقل إن الأشياء متى تم تركيبها تحركت طوال الزمان من غير أن يوجد، على رأيه، ما لا يفيد في «الكل» ولا أن يوجد خلو كذلك. وفي الحق من أين يمكن أن يحدث الخلو؟ يقول أمبيدقل لأن الأشياء متى تركبت في صورة واحدة بطريقة أنها تؤلف الوحدة:

٢٣- يقول ميليسوس - . وهنا أيضًا ليس ميليسوس مذكورًا بالاسم. - بأن تتغير بالآين - تلك هي حركة النقلة. ولكن حركة الاستحالة يمكن أن تحصل من غير تفسير في الآين. هيزيود - ر. ما سبق. ب ١ ف ١٣ في الخلقة - وأحسن من هذا «في كون الأشياء» - . العماء الذي ظهر في بادئ الأمر - العماء لا يشبهه بالخلو. أنه، إذا شئت، عدم النظام ولكن الأشياء موجودة ما دام تدخل العقل ضروريًا لتنظيمها. - هذا هو ما يعني بالخلو - هذا متنازع فيه جدًا فإن العماء لم يكن ليفهم قط على هذا المعنى.

٢٤- فإن العالم يمكن أن يتحرك أيضًا على السواء - أو «أن ذلك لا يمنع حصول الحركة» - . أنكساغوراس الذي اشتغل أيضًا بهذه المسألة - وفي رواية بعض المخطوطات الذي اشتغل بهذه المسائل من قبله - . أنه لا يوجد خلو - ر. الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٨ ف ٣ ص ١٩٤ من ترجمتنا حيث لا يظهر على أرسطو أنه قدر تقديرًا حسنًا نظريات انكساغوراس على الخلو كما فعل هنا.

٢٥- متى تم تركيبها - بواسطة العشق على حسب أمبيدقل وتم افتراقها بعد ذلك بالتنافر. ر. الطبيعة لأرسطو ك ٨ ب ١ ف ٤ ص ٤٥٥ من ترجمتنا. - طول الزمان - ليس معنى ذلك أبدًا ولكن المقصود هنا هو مسافة من الزمان فيها السفيروس ينسبط أو يتقبض في ذاته (ر. تعليقات كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١ ف ١٠) - . يقول أمبيدقل - ر. قطع أمبيدقل البيتين ٩٤ و ١٦٦ من القطع الفلسفية الإغريقية طبعة فيرمين ديدو. - في صولة واحدة - هذه عبارة النص بعينها. - فلا شيء يكون خلواً البيت ليس مذكورًا بتمامه في النص. - وأن الكل يكون دائريًا - يظهر جلياً أن هذا هو رأى أمبيدقل فإن العشق والتنافر والتنافر بفعلهما على التناوب يؤلفان تمامًا شكل دائرة.

«فلا شيء يكون خلواً ولا شيء زائد»

أليس يمكن في الواقع أن الأشياء تتحرك بعضها في بعض وأن الكل يكون دائرياً ما دام أن الشيء يتغير إلى آخر وهذا الآخر إلى ثالث، وما دام أن شيئاً بعينه يتغير دائماً آخر الأمر إلى الأول؟.

٢٦- وفوق ذلك لا ينبغي نسيان تغير الصورة هذا الذي يغير الشيء ولو أنه يبقى في الحيز عينه، تغير يسميه فلاسفة آخرون وميليسوس نفسه الاستحالة وإذن لا شيء مما قال يدفع إلى هذا النوع من الحركة يوجد في الأشياء حينما تمر من الأبيض إلى الأسود أو من المر إلى الحلو لأنه ليكن الخلو غير موجود وليكن المليء لا يمكن أن يقبل شيئاً فذلك لا يمنع الاستحالة أن تكون ممكنة.

٢٧- وبالتالي فلا ضرورة لأن كلاً يكون أزلياً وأن كلاً يكون واحداً أو لأن «الكل» يكون لامتناهياً. ولا ضرورة أيضاً لأن يوجد عدة لا متناهيات ولا وحدة متماثلة في كل مكان ولا وحدة غير متحركة سواء مع ذلك وجدت الوحدة أو الكثرة.

٢٨- ومتى سلم هذا لا يرى شيء في نظريات ميليسوس يدفع أن الموجودات تتغير

٢٦- وميليسوس نفسه- وليس اسم ميليسوس مذكوراً في هذه الفقرة أيضاً. ر. ما سبق ب ١ ف ١. الاستحالة- ر. في الطبيعة ما يختص بحركة الاستحالة ك ٣ ب ١ ف ٨ ص ٧١ من ترجمتنا وكذلك الكون والفساد ك ١ ب ٤-. الاستحالة أن تكون ممكنة- حركة الاستحالة بما أنها تقع في الشيء ذاته لا حاجة لها بحيز جديد كحركة النقلة بل ولا كحركة النمو ذاتها.

٢٧- وبالتالي- يظهر أن هذا هو ملخص الاعتراضات السابقة كلها ولكن النتيجة لا يظهر أنها لازمة- كلا يكون أزلياً- كما يزعم ميليسوس. وهذه الجملة التي هي محرفة في أكثر المخطوطات هي كما أؤيدها الآن في مخطوطة ليبزج وكذلك في ترجمة فيليسيانو كما نبه إليه ملاح.

٢٨- في نظريات ميليسوس- بدلاً من الاسم الظاهر ليس في النص إلا ضمير غير معين والظاهر أنه يكفي قبول حركة الاستحالة لينهزم دفعة واحدة مذهب ميليسوس في وحدة الموجود ولا تحركه. ترتيباً وكيفاً- عبارة النص بالضبط (أن تكون الموجودات مرتبة على وجه آخر ولا تكون مستحيلة).- بالأكثر وبالأقل- مثال ذلك أن تكون أكثر أو أقل بياضاً، أكثر أو أقل سواداً لأن الكلام هنا هو بصدد استحالة بسيطة وليس مقصوداً غيرها حتى ولا النمو- فبدون أن يكون هذا الشيء جسماً- الواقع أن في الاستحالة ليست هنا إضافة ما من أي نوع كان. فإن الاستحالة تقع بحركة للموجود داخلية بحتة. أن تمتزج بعضها ببعض- كما يمكن الكيف أن تختلط وأن تنفصل على التكافؤ في موجود واحد أحد بعينه.

ترتيبًا وكيفًا ما دامت الحركة هي هكذا في الوحدة التي تختلف حينئذ بالأكثر وبالأقل والتي تستحيل بطرائق شتى بدون أن ينضم إليها شيء أو إذا انضم إليها شيء فبدون أن يكون هذا الشيء جسمًا وإذا كانت عدة أشياء هي التي تنضم فبدون ألا تزيد على أن تمتزج بعضها ببعض وتنفصل على التكافؤ.

٢٩- ولكن الاختلاط ليس فيما يظهر هو الجمع أو التركيب اللذين يتكلم عنهما ميليسوس واللذين بدونهما ربما تنعزل الأشياء في الحال بل بدونها لا تظهر الأشياء باستغلالها التام إلا بعد أن يباعد بين بعضها وبين البعض الآخر إذ هي تحتاج، في حين أنه يلزم لوجود اختلاط حقيقي أن كل أجزاء الشيء المختلط تكون بحيث لا يمكن حل تركيبها بعد. لكن بشرط أن كل واحد من الأجزاء المخلوطة يكون على وفاق تام مع مجموع الخليط لأنه بما أنه لا يوجد جواهر فردة فينتج من ذلك أن كل جزء هو مختلط مع كل جزء كيفما اتفق مشابه مطلقًا للكل.

٢٩- اللذين يتكلم عنهما ميليسوس - الملاحظة ها هنا كالملاحظة السابقة فيما يتعلق بذكر اسم ميليسوس الذي لم يذكر اسمه هنا أيضًا. والظاهر أن العبارتين المذكورتين في هذا الممر هي من خصائص لغة ميليسوس الفلسفية. - بدونهما - جملة النص فيها من التحير والتردد ما في الترجمة وهاك شرًا يمكن أن يثير الفكرة: «لا يفهم ميليسوس حق الفهم ما هو الاختلاط إذ يسميه جمعًا وتركيبًا. وهو يظن أنه في الخليط يمكن عند الإرادة عزل الأشياء من جديد في الحال أو على الأقل عزلها تمامًا بعد تنقية بها يظهر كل واحد منها على الحالة الخاصة به. وليس الاختلاط هو ذلك أيضًا. ولأجل أن يكون حقيقيًا يلزم أن تكون الأجزاء فيه مركبة تمامًا بحيث لا يمكن حل ذلك التركيب وأن كل جزء يكون مشابهًا مطلقًا للكل الذي هو منه. لا يوجد جواهر فردة ومن ثم كل جزء من الخليط هو بالضرورة مشابه للكل الذي هو منه جزء كيفًا اتفق». - لوجود اختلاط حقيقي - ر. على نظرية الاختلاط ما سبق في كتاب الكون والفساد ك ١ ب ١٠. - بما أنه لا يوجد جواهر فردة - قد أبطل دائمًا أرسطو مذهب الجزء الذي لا يتجزأ لديمقريطس. ر. الطبيعة المرجع المذكور قبلًا.

مذاهب إكسينوفان

الباب الثالث

نظرية إكسينوفان في حق الله - الأزلية - القدرة - أحدية الله - يجب أن يتصور كأنه فلك - الله منزّه عن الحركة والسكون ومنزّه عن أن يكون متناهيًا ولا لامتناهيًا.

١ - هو يقول إن يوجد من شيء فمحال أن هذا الشيء كان مخلوقًا، مطبقًا هذا في حق الله ما دام أنه يلزم بالضرورة أن كل ما هو كائن يتكون من الشبيه أو من اللاشبيه. وكلا الأمرين غير ممكن، فإنه بادئ بدء ليس تولد الشبيه من الشبيه أولى من أن يلد الشبيه نفسه لأن هذا يخالف التضاييف المتكافئ الذي بين المتساوين والأشباه. وثانيًا ليس من الممكن أن غير الشبيه يخرج من غير الشبيه. فإذا كان، في الحق، الأقوى يخرج من الأضعف وإذا كان الأكبر يأتي من الأصغر والأحسن من الأقبح أو بالعكس الأقبح من الأحسن فيكون حينئذ الموجود يأتي من اللاموجود وهذا محال قطعًا.

ب٣ مذاهب إكسينوفان - لا ريب في صحة هذا العنوان فإن أربعة المخطوطات مخطوطة سان مارك ومخطوطة الفاتيكان ومخطوطة أوربين ومخطوطة باريس تذكره بغاية الوضوح - وبعض مخطوطات أخرى فيها هذا العنوان الخطأ: "في زينون". وإن بحث النظريات مثبت قطعًا أن الكلام إنما هو بصدد إكسينوفان ر. ما سبق في "التحقيق".

١ - هو يقول ليس إكسينوفان مذكورًا بالاسم هنا كما كان الأمر في ميليسوس ر. ما سبق ب ١ ف ١. ولم أشأ أن أذكر اسمه في الجملة الأولى من هذه الرسالة ولكني سأفعل فيما بعد حتى تكون الفكرة أشد جلاء. - أن يوجد من شيء - هذا الشك، فيما يرى "برنديس" مضاد لآراء إكسينوفان (Commentationes Elladieac) ص ٢٧ ف ١ فهو يرى خطأ أن بداية هذا الباب تكرير لبداية الباب الأول على ميليسوس. مطبقًا هذا في حق الله - لا على العالم كما يفعل ميليسوس فيما يظهر. - تولد يلد - هذا التكرير هو في النص. - بين المتساوين - بالكم - والأشباه. - بالكيف - وثانيًا - أضفت هذه الكلمة لزيادة البيان.

٢- إذن يلزم أن يستنتج من كل هذا أن الله أزلي. إذا كان الله هو سيد الموجودات فيلزم، على رأى إكسينوفان، أن يكون أيضًا أحدًا لأنه لو كان فيه اثنان أو عدة فمن ثم لا يكون إذن سيد جميع الموجودات ولا أكبرها مادام من ثم أن كل واحد من هذه الموجودات المتكثرة قد يكون مطلقًا متشابهًا له تمامًا. إن ما يحقق الله في الواقع والقدرة الإلهية إنما هو أن يتسلط على وجه السيادة ولا يكون مسلطًا عليه. أن يكون سيد الجميع وأقدرهم. وبالنتيجة ما دام أنه ليس الأقدر فإنه يفقد بنسبة ذلك شيئًا من ألوهيته. وإن كانوا عدة وكان بعضهم أعلى أو أدنى من الآخرين من بعض الوجوه فأولئك ليسوا آلهة بعد. لأن ماهية الإله ألا يعلمو عليه أحد. وإن كانوا عدة متساوين فمن ثم ليس هذا بعد طبع الإله الذي أن يكون الأحسن؛ لأن المساوي ليس بالبداهة أقبح ولا أحسن من مساويه.

٣- ولما كان الله هو حينئذ كما ذكر آنفًا لزم ضرورة أن يكون واحدًا وإلا لا يمكن أن ينفذ كل ما يشاء. لا يمكنه ذلك ما دام فيه آلهة أخر فيلزم حينئذ أن يكون أحدًا.

٤- ولأنه أحد فهو مشابه لذاته على الإطلاق. يرى من كل جهة ويسمع من كل جهة وعنده جميع الجهات على مقياس واحد. وإلا لزم أن بعض أجزاء الإله تكون حاکمة ومحكومة على التناوب. وهذا ممتنع بين الامتناع.

٢- أن الله أزلي - أن اسم الأزلي هو الاسم الخاص لله في كثير من الأحوال فإن الله هو الوجود بذاته والذي كان موجودا دائمًا كما أنه يوجد دائمًا. جاء في التوراة «أنا الموجود». وإن فكرة إكسينوفان هي ها هنا تلك الفكرة بعينها. - على رأي إكسينوفان - لم يذكر النص اسم إكسينوفان وليس هنا إلا اسم إشارة غير معين. ر. ما سبق ف ١. - أكبرها - عبارة النص بالضبط «أحسنها». ويلزم أن يلاحظ أن تدليل إكسينوفان هذا متين متانة وجلي جلاء. وقد تقدم بنحو قرن مذاهب سقراط وأفلاطون ويجب الاعتقاد بأنه رشح لتلك المذاهب. وكثيرًا ما اتهم إكسينوفان بالشرك ولكن هذا الشرك لا أثر له ها هنا. إذا كان الله مدمجًا في العالم فلا محل للقول بأنه المولى والقادر على كل شيء. - لأن ماهية الإله - كما يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها.

٣- لزم ضرورة أن يكون واحدًا - الأدلة اللاحقة ليست أقل في قوتها من السابقة. فإن قدرة الله الكاملة تستتبع وحدانيته. وإن الذي حصل هنا هو فكرة إكسينوفان دون عبارته. وقد حاول مللاخ أن يقوم الأبيات في هذا الموطن وقد قوم ثلاث منها ولم يذكرها طبعًا في قطع إكسينوفان.

٤- يرى من كل جهة - كان يمكن المؤلف أن يذكر بيت إكسينوفان بنصه الذي حفظه لنا أيضًا «سكتسوس أمبيريكوس». **Adversus mathenoticos Physicos** ك ٩ ف ١١٤ ص ٥٩٦ طبعة ١٨٤٢ ينتقد سكتسوس أمبيريكوس وصف الإله هذا ويرى أنه لا ينبغي أن يسند إليه إلا حاسة واحدة البصر مثلاً.

٥- ولما كان الله مشابهاً لذاته مطلقاً ومن كل وجه لزم أن يكون فلكياً لأنه ليس كذلك في جزء بعينه دون أن يكونه في أي جزء آخر لكنه كذلك في جميع الأجزاء بلا استثناء.

٦- وما دام الله أزلياً أحداً فلكياً فينتج منه أنه لا يمكن أن يكون لا متناهياً ولا أن يكون متناهياً. فإنما اللاموجود هو اللامتناهي ما دام ليس له أول ولا وسط ولا آخر ولا أي جزء آخر. وهذا هو اللامتناهي. ولكن الموجود ليس كاللاموجود والموجودات ما دامت متكررة فإنها يحد بعضها بعضاً على التبادل. فالأحد لا يمكن أن يشبه لا باللاموجود ولا بالموجودات المتكررة ما دام الأحد لا يحده شيء.

٧- الأحد- الذي إكسينوفان يسميه الله- لما كان كذلك لا يمكن أن يتحرك ولا أن يكون لا متحركاً. فإن اللاموجود هو في الحق لا متحرك لأنه لا موجود يأتي فيه ولا هو

٥- أن يكون فلكياً- تلك هي استعارة جاء بها إكسينوفان بعد أن عاب هو نفسه الصورة الباطلة التي بها يحاول الضعف الإنساني أن يتمثل بها الله. الله هو الفلك الذي مركزه هو كل مكان والذي محيطه ليس في أي مكان ر. أفكار باسكال طبعة م. ي. هافست ص ٣ سنة ١٨٥٢. - بلا استثناء - قد أضفت هذا القيد. ويذكر مللاخ بحق فقرة مشابهة لهذه تماماً في كتاب السماء ك ١ ب ١ ف ٥ ص ٥ من ترجمتنا.

٦- لا متناهياً..... متناهياً- يظهر على الضد أن معنى اللانهاية يتمشى تماماً مع معنى الله فإن الأزلي معناه غير المتناهي في الزمان. والقدير معناه غير المتناهي في القدرة إلخ. فإنما اللاموجود هو اللامتناهي - إنما يكون بمجرد سوء الاستعمال للألفاظ أن يخلط بين اللاموجود واللامتناهي فإن اللاموجود ليس إلا اللامتعين. وفي اللغة اليونانية المعنيان مندمجان في كلمة واحدة. - ولا أي جزء آخر- كل هذا هو من البداهة بمكان ما دام أن اللاموجود غير موجود. - يجد بعضها بعضاً على التبادل- أو «هي متناهية بعضها بالنسبة للبعض الآخر». الأحد لا يمكن أن يشبه- إلا بنفسه. أنه الموجود ما دام أنه الكل وليس هو في الكثرة ما دام أنه الوحدة عينها.

٧- الذي إكسينوفان يسميه الله- ليس إكسينوفان مذكوراً هنا كما أنه ليس مذكوراً في الفقرة الأولى. وقد يكون هذا الرأي هو سبب اتهام إكسينوفان بالشرك. لكن الله يمكن أن يكون أحداً مع تميزه عن العالم. - أن يتحرك ولا أن يكون لا متحركاً في الواقع أن من العسير تصور أن الله لا متحرك كما هو من العسير أن يتصور في حركة، أما عند أرسطو فإنه المحرك غير المتحرك الذي يعطي الحركة للطبيعة بأسرها التي يجذبها إليه وهو باق هو نفسه في سكون أبدي غير متجزئ؛ ليس له أجزاء لا جسماني إلخ ر. ك ٨ من الطبيعة الباب الأخير وما بعد الطبيعة ك ١٢ ب ٥ وراجع أيضاً قطع إكسينوفان المقطوعة الرابعة التي حفظها «سمبليسيوس» و «تفسير الطبيعة لأرسطو» الورقة ٦ Fragments a philosophorum grecorum طبعة فيرمين ديدو ص ١٠١. - فإن اللا موجود هو في الحق لا متحرك- هذا هو تابع لنظريات إكسينوفان كما يدل عليه صوغ الجملة الإغريقية. - لأنه لا موجود يأتي فيه- ما دام أن اللاموجود هو غير موجود. - ولا حركة- عبارة النص ليست على هذا القدر من الضبط. - لأن من الضروري للحركة- أضفت هذه الكلمات إذ ظهر لي أنها ضرورية في اللاموجود - عبارة النص بالضبط «نحو اللاموجود». وهو ما يظهر لي قليل الضبط.

يمكن أن يذهب في موجود آخر. ولا حركة إلا متى كانت الموجودات أكثر من واحد لأن من الضروري للحركة أن واحدًا يتحرك في الآخر. ولا يمكن أن يتحرك شيء في اللاموجود ما دام أن اللاموجود لا يوجد مطلقاً في أي جهة، وإذا كانت الأشياء تتغير بعضها إلى بعض فحينئذ يكون الموجود أكثر من واحد.

٨- فانظر كيف يزعم إكسينوفان أنه يلزم شيئان على الأقل أو أكثر من واحد لكي توجد الحركة، وأن اللاشيء هو في سكون ولا متحرك، وأن الأحد على ضد ذلك لا يمكن أن يكون في سكون ولا أن يكون في حركة لأنه لا يشبه اللاموجود ولا الموجودات المتكثرة.

٩- ومن كل هذه الوجوه فهذا- على رأي إكسينوفان- هو الله أزلي أحد متشابه من كل جهة وفلكي لا لامتناهٍ ولا متناهٍ، لا هو في سكون ولا هو في حركة.

٨- فانظر كيف يزعم إكسينوفان- عبارة النص غير معينة وليس هنا اسم إشارة ولكن صوغ الجملة بصيغة الحال يستتبع أن العبارة هي تحصيل فكرة إكسينوفان.- على الأقل- أضفت هاتين الكلمتين- اللا شيء- هذا هو لفظ النص بعينه.- لأنه لا يشبه....- قد يكون الدليل غير قوى فيما يظهر بل يمكن أن يعلو الموجودات إلى اللانهاية من غير أن يشبهها بوجه ما.

٩- على رأي إكسينوفان- الملاحظة عينها التي أبدت في الفقرة السابقة، فإن إكسينوفان لم يسم هنا أيضاً ولكن لا شك في أن الأمر بصده.

الباب الرابع

إبطال نظريات إكسينوفان - استشهاد من ميليسوس - كيف يلزم أن يعني بقدرة الله - الله ليس فلكيًا - إنه لا متناهٍ - وحدانية الله ليست منافية لكونه متناهيًا - في نفي الحركة عن الله في الحركة التي يمكن أن تصورها في حق الله استشهاد من زينون.

١ - ننبه تنبيهًا أولًا، وهو أن إكسينوفان كميليسوس يفترض أن كل ما يولد ويصير يتولد من الموجود ومع ذلك فماذا يمنع من أن ما يولد لا يولد لا من الشبيه ولا من اللاشبيه بل يولد من اللاموجود؟ ولكن الله ليس لا مخلوقًا أكثر من الباقي إذا كانت كل الأشياء آتية من الشبيه أو من اللاشبيه. ذلك هو ما لا يمكن. وبالنتيجة إما أنه لا شيء خارج عن الله وإما أن يكون سائر الأشياء هي أيضًا أزلية.

٢ - ولكن إكسينوفان يقبل فوق ذلك أن الله هو المولى. يريد بذلك أن يقول إنه الأقدر والأحسن. ليس هذا ما يعتقده العامة وإنهم ليقبلون أن الآلهة في كثير من الأشياء أعلى

١ - كميليسوس - ها هنا ميليسوس مذكور بالاسم وهذا دليل آخر على أن الجزء الأول من هذه الرسالة خاص به ر. ما سبق ب ١ ف ١ والتحقيق. - يفترض - عبارة النص هي على هذا المقدار من القوة. يولد ويصير - ليس في النص إلا كلمة واحدة. - ولا من اللاشبيه - هذه الكلمات التي ليست في المخطوطات قد وضعها مللاخ تبعًا لترجمة فيليسانو. - ولكن الله ليس لا مخلوقًا - يظهر أن هذا هو رد من أرسطو على مذهب إكسينوفان. ولكن من الجائز أيضًا أن يكون ردا من إكسينوفان موجهًا للنظريات المضادة لنظرياته. - لا شيء خارج عن الله - هذا الرأي هو من الآراء التي يمكن أنها سببت اتهام إكسينوفان بالشرك. "خارج عن الله" هي رواية مخطوطة ليبزج وقد كانت موجودة في ترجمة فيليسانو كما نبه إليه مللاخ بحق.

٢ - إكسينوفان يقبل - كذلك ليس هنا اسم إكسينوفان أيضًا. ما يعتقده العامة - أو "ما يجب أن يكون معتقدًا طبقًا للقانون". أعلى بعضها من بعض - كذلك الإله "مارس" هو أشد الآلهة حربًا وأشجعهم و"زهرة" أجمل الآلهات و"منرفة" أحكمهم و"أبللون" أعلمهم. إلخ - لم يستمر إكسينوفان - لم يذكر هنا أيضًا اسم إكسينوفان ولكن هذا مدح جميل لمذهبه وملحمته. فإنه كان ضد الآراء الشائعة في زمانه. - بالنسبة لواحد آخر - كل هذا التدليل غاية في التعمق ويعطي فكرة سامية عن عبقرية إكسينوفان. - التي ليس لها من شبيه - أضفت هذه الكلمات. - فله أيضًا كمال القدرة الكاملة - ليس النص على هذا القدر دون الضبط. - فإن عبارته فيها ما فيها من الاتهام، ولكن المعنى لا ريب فيه.

بعضها من بعض. على ذلك لم يستعر إكسينوفان هذا الرأي الجريء من إجماع العامة. ولكن متى قيل إن الله هو القادر على كل شيء فليس معناه أن هذا هو طبع الله بالنسبة لواحد آخر بل هذا هو شأنه الخاص بالنسبة لذاته. أما في علاقته مع الغير فمن الجائز تمامًا أن الله لا يقدر عليه بعلوه وقوته التي ليس لها من شبيه بل بضعف الأغيار. وأنه لا أحد يعني على هذا الوجه قدرة الله بل يفهم الناس أن الله له بذاته كل ما يوجد من الأحسن وأنه منزّه عن النقص أيًا كان، وأن له كل ما هو طيب وجميل. وبهذه الكمالات كلها فله أيضًا كمال القدرة الكاملة.

٣- حقًا إنه قد يمكن أيضًا التسليم بوجود آلهة متعددة موصوفة بالصفات عينها جامعة بين أكبر الكمالات الممكنة ما دام أنها أكبر قدرة من سائر الموجودات دون أن يكون بعضها أقوى من البعض الآخر ولكنه يوجد أيضًا على ما يظهر موجودات أخرى غيره.

٤- في الحق هو بزعم أن الله هو القدير، ويلزم ضرورة أن يكون أقدر من بعض الموجودات. ولكن بهذا السبب هو أن الله هو الأحد لا يليق أن يقال إنه يبصر من كل ناحية ويسمع من كل ناحية لأنه ليس لأنه قد لا يبصر من الجزء الفلاني أو الفلاني أنه لا يحسن البصر بل فقط أنه لا يبصر من ذلك الجزء بعينه. بل ربما أيضًا حيثما يقرر أن الله يحس من كل جهة كان معنى ذلك بالبساطة أنه بهذه الطريق يكون أيضًا أكمل ما دام أنه متشابه في جميع أجزائه.

٣- حقًا أنه قد يمكن أيضًا التسليم - هذه هي بالتقريب كل ملحمة هوميروس ولو أن آلهة ذلك الشاعر بينها بعض التبعية فإن المشتري هو الأكبر والأقوى بينهم جميعًا - موجودات أخرى غيره - أو "موجودات أخرى غيرهم" وقد أثرت تلقاء تردد النص أن أرحم الضمير إلى الله عوضا عن الآلهة.

٤- هو يزعم - حافظت على صبغة النص عوضًا عن أن أكرر اسم إكسينوفان. - من بعض الموجودات - هذا هو إصلاح من عند ملأخ وهذا الإصلاح ضروري. فيما يظهر، ولو أنه لا تجيزه أي مخطوطات. ولكن فيليسيانو في ترجمته كان لديه رواية من هذا القبيل فيما يظهر. أن الله هو الأحد - كما يدعي إكسينوفان. - من الجزء الفلاني أو الفلاني - ليس النص على هذا القدر من الضبط. - متشابه في جميع أجزائه - لا شك في أن إكسينوفان يريد أن يقول بالبساطة إن الله شاهد في كل مكان.

٥- إذا كان الأمر كما قرر آنفاً فلماذا يعطى صورة فلك؟ لماذا لا يكون أولى به شكل آخر ما دام أنه يسمع من كل جهة ويرى من كل جهة؟ لأنه كما أننا حين نقول إن الأسبيداج أبيض في كل نواحيه لا نريد أن نعني شيئاً آخر ألا أن يكون البياض منتشرًا في جميع أجزائه، كذلك ما الذي يمنع حينما يقال إن الله يرى ويسمع ويتسلط من كل مكان أن يفهم أن أي جزء من الله كيفما اتفق، له دائماً هذه الصفات؟ ولا يلزم لذلك بعد أن يكون الله فلكياً كما لا يلزم أن يكونه الأسبيداج.

٦- وفوق ذلك كيف يمكن أن الله من حيث هو جسم ومن حيث إن له عظمًا لا يكون متناهيًا ولا لامتناهيًا ما دام اللامتناهي إنما يقع على ما ليس له حد مع قابليته لأن يكون له حد؟ فإن الحد يجب أن يقع على العظم وعلى العدد وعلى كل كمية.... أيًا كانت بحيث أن عظمًا لأحد له هو يسمى لامتناهيًا.

٧- ومتى جعل الله فلكياً فمن الضروري أن يكون له حد لأن له نهايات ما دام أن له مركزاً على أبعد مسافة ممكنة من الحد. وإذن لا بد له من مركز ما دام فلكياً، إذ إنه يعني

٥- كما قرر آنفاً - على حسب نظرية إكسينوفان. - صورة فلك - هذا في الحق مذهب مضاد لآراء الفيلسوف الذي يعيب الصفات والصور التي يسندنها العامي إلى الآلهة. ذلك هو أيضاً قليل الشبه بالمعقول كمذهب المشبهة المعروف. - يسمع من كل جهة - الفلك هو الوحدة وهذا التصوير لا يتفق ومعنى أن الله لا متناه. - أن الأسبيداج أبيض في كل نواحيه - هذا التشبيه بالأسبيداج ليس متقارداً ويظهر عليه نوع من الشطط. - أي جزء من الله كيفما اتفق - هذه النظريات ينبغي أن تظهر أشد ارتقاء عن الزمان الذي كان يقررها فيه إكسينوفان. ولا يمكن الشك في أنها نظرياته مع الشهادات التي نقلها لنا الزمن القديم أجمع. - أن يكونه الأسبيداج - راجع ملاحظتنا على التشبيه بالأسبيداج. ومع ذلك فإن الفكرة صحيحة في موضوعها ولو كان في شكلها شيء من الشذوذ.

٦- وفوق ذلك - رد جديد من المؤلف على نظريات إكسينوفان. - متناهيًا ولا لامتناهيًا - في الحق من المحال على عقلنا أن يفهم الله إلا على جهة اللامتناهي. - ما ليس له حد - هذا حق ولكن ما سيلي ليس كذلك حقًا، فإن ما هو قابل لأن يكون له حدود لا يمكن أن يكون أبداً لا متناهيًا حتى ولو لم يكن له حدود. وهذا ليس إلا اللامحدد واللامعين. - عظمًا لا حد له هو يسمى لا متناهيًا - ربما كان الأولى أن يقال "كما" وحينئذ يكون التعبير أعم.

٧- ومتى جعل الله فلكياً - ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - فمن الضروري أن يكون له حد - هذا يناقض فكرة لا نهاية الله، والرد شديد القوة. - إذ أنه يعني بفلكي - هذا في الواقع هو تعريف الفلك كما هو تعريف الدائرة على السواء بفارق واحد هو ما بين الجسم وبين السطح. - حدا نهايات - هذا التماثل موجود في اللغة الفرنسية كما هو في اللغة الإغريقية لأنه في الذهن دون أن يكون في اللفظ فقط.

بفلكي ما له مركز على مسافة متساوية من النهايات. ولا فرق بين أن يقال إن للجسم حدًا وأن له نهايات.

٨- إذا كان الوجود لا متناهياً فلم لا يكون الوجود لا متناهياً كذلك؟ ما المانع أن يكون للوجود وللوجود بعض كيوف مشتركة ومتماثلة؟ فإنه لا يمكن فعلاً أن يحس الوجود. وكيف يحس ما ليس موجوداً. وكذلك يمكن تماماً ألا يحس فعلاً ما هو موجود. يمكن قول الاثنين معاً ونصورهما معاً الوجود ليس أبيض ولكن هل ينتج من ذلك وجوب القول بأن كل الموجودات بيض حتى لا يسند شيء واحد إلى الموجود وإلى الوجود؟ أو لا يمكن أن يوجد بين الموجودات واحد لا يكون أبيض؟ وإذا كان الأمر هكذا على نقيض القاعدة العتيقة أن الموجود لا ينحصر في أن يكون له أكثر منه في ألا يكون له فاللامتناهي قد يقبل أيضاً سلباً ثانياً. وبالنتيجة فالوجود أيضاً يمكن أن يكون لا متناهياً أو أن يكون له حد.

٨- إذا كان الوجود لا متناهياً- هذه الرواية هي التي كانت عند فيليسيانو كما تدل عليه ترجمته وهي الوحيدة التي يمكن قبولها بالنظر إلى سياق النص وإن كانت لا توجد في المخطوطات. - بعض كيوف- "أو حالات" عبارة النص غير محررة. - يحس ما ليس موجوداً- ظننت واجباً عليّ أن أضيف هذه الجملة. فإن هذا التكرير ليس في النص. - الاثنين- اللذين ينطبقان على السواء على الموجود وعلى الوجود. وفي الحق أن ما لا يحس وما لا يدرك بوجه ما هو بالنسبة لنا كأنه لا موجود ولو كان موجوداً أنه بالنسبة لنا هو الوجود ولو لم يكنه في الواقع. - وجوب القول- ليس النص على هذا القدر من السعة.

- لا يكون أبيض- كما أن الوجود لا يكونه كذلك. - سلباً ثانياً- ليس المعنى بين الظهور لأن اللامتناهي ليس هو ذاته سلباً. فإنه لا سلب إلا في الوجود والمحدد. وقد يمكن التدليل من جهات نظر شتى على أن اللامتناهي أقوى وجوداً من المتناهي أو بالأولى هو الموجود الحقيقي الوحيد. من هذا ترى كيف أن الله هو لا متناهٍ من أي ناحية يعتبره عقلنا الضعيف سواء في الزمان وفي المكان وفي القدرة وفي العدل وفي الرحمة... إلخ- القاعدة العتيقة- لا أعرف مؤلفاً آخر قد ذكر هذه القاعدة. وربما كان لهذا الممر معنى آخر غير المعنى الذي اخترته وقد يعني به بالبساطة «على ضد ما ذكر آنفاً». وكنت أختار هذا المعنى إذا كانت هذه العبارة كررت ولو بجزئها فيما تقدم. ولكني لا أراها جلية فيه. - وبالنتيجة فالوجود أيضاً يمكن أن يكون لا متناهياً- لا يظهر أن هذه النتيجة لازمة ولكن الفكرة صادقة. فإنما الموجود في الواقع هو اللامتناهي في حين أن الوجود لا يمكن أن يسمى بهذا الاسم إلا بالنسبة للموجود الذي هو سلب له.

٩- ولكن ربما يكون من غير المعقول أن تلزق اللانهاية باللاموجود، فإنه لا يمكن أن يقال على كل شيء إنه لامتناهٍ لا لشيء إلا لأنه ليس له حد، كما أنه لا يقال مثلاً على اللاموجود إنه غير متساوٍ.

١٠- ولكن بما أن الله واحد فلماذا لا يكون له حد؟ لا شك في ذلك ولكن لا يمكن أن يكون له حد تلقاء إله آخر. إذا كان الله واحداً كله فيلزم أن تكون جميع أجزاء الله لا تكون أيضاً إلا وحدة محضة. لأنه لا يفهم، إذا كانت الأشياء المتكثرة يحد بعضها بعضاً بالتبادل، أنه يلزم على ذلك أن يكون الأحد يكون لا حد له، لأن الكثرة والوحدة لهما عدة محمولات متشابهة تماماً والموجود مشترك بين إحداهما وبين الأخرى. فقد يكون من الغريب أن يذهب إلى إنكار وجود الله، ما دام وجود الكثرة أمراً مسلماً حتى لا يشبه الله الأشياء في هذا المعنى.

١١- لماذا الله مع كونه واحداً لا يكون متناهيًا ولا يكون له حدود كما يقوله برميند وهو يعترف لله بالوحدانية حين يشبهه «بالفلك المستدير تماماً والمتساوي في جميع النقط ابتداء من المركز....»

٩- أن تلزق- يظهر لي أن هذا النوع من الابتذال موجود أيضاً في النص.- اللانهاية- والأحسن: «معنى اللانهاية».- لا لشيء إلا لأنه ليس له حد- بين أن الفرق كبير جداً بين اللامتناهي واللامحدود.- مثلاً- أضفت هذه الكلمة.

١٠- لا شك في ذلك ولكن لا يمكن أن يكون له حد.- ليست عبارة النص على هذا المقدار من البيان ولكن الفكرة بينة فيما يظهر ولو أن المخطوطات ليست متفقة الرواية.- تلقاء له آخر - عبارة النص «تلقاء إله» ومع ذلك فإن كل هذا المواطن قد أصلح تبعاً لما ارتأى «برانديز» وتبرره ترجمة فيليسيانو.- وحدة محضة - في هذا ما في الملاحظة السابقة.- الأحد يكون لا حد له - ليس هاهنا رواية أخرى ولكن الفكرة ليست جلية البيان ولو أن العبارة ذاتها جلية فإن الموجود مفهومًا على جهة الوحدة التي تشمل الكل هو بالضرورة لا متناه.- الكثرة والوحدة - ر. ما سبق ب ٨ حيث الموجود واللاموجود مقارنان أيضاً في هذا المعنى.- وجود الله ... وجود الكثرة - هذا التكرار هو في النص.- في هذا المعنى - عبارة النص هي كذلك مبهمة. والتناقض المشار إليه هاهنا قد تكرر في نظريات الإسكندرانيين وقد ذهبوا فيه إلى حد إنكار الوجود على الأحد كما كانوا يتصورونه مع إثباتهم الوجود للأشياء الجزئية.

١١- كما يقوله برميند- هذا البيت قد ذكره أرسطو بجزئه في الطبيعة ك ٣ ب ٩ ف ٤ ص ١٢٦ من ترجمتنا ر. أيضاً مقطوعات برميند البيتين ١٠٣ و ١٠٤ طبعة فيرمين ديدو.- ابتداء من المركز- أو «من مركزه» هذا هو تعريف الفلك كما تعطيه الهندسة- من غير أن يكون ذلك بالإضافة إلى شيء ما- الظاهر على ضد ذلك أن معنى الحد يستتبع ضرورة معنى الإضافة.- حد إضافي- أو بالإضافة إلى شيء ما. وملازمة شيء ما- هذا هو معنى المتناهي بعينه.- وليست كذلك بالإضافة إلى شيء ما- كان ينبغي أن يذكر المؤلف هذه الأشياء على نحو أضبط من هذا.

فى الواقع إن شئاً يمكن أن يكون له بالضرورة حد من غير أن يكون ذلك بالإضافة إلى شيء ما. كما أنه ليس من الضروري أن ما له حد يكون له حد إضافي كالمتناهي بالنسبة لغير المتناهي الذي يليه. أن يكون متناهياً إنما هو أن يكون له نهايات، ولكن ما له نهايات ليست له بالضرورة بالنسبة إلى شيء ما. بل يوجد بعض أشياء تكون معاً متناهية وملامسة شيئاً ما، ولكن من الأشياء أيضاً ما هي متناهية وليست كذلك بالإضافة إلى شيء ما.

١٢ - ومن جهة نظر أخرى القول بأن الوجود والأحد ليسا لا متحركين ولا يتحركان مع ذلك بحجة أن الوجود لا يتحرك إنما هو قول من الغرابة بمكان ما سبقه على الأقل. إنه لا تماثل قطعاً، كما قد يمكن أن يظن، بين أن يقال إن شيئاً لا يتحرك وبين أن يقال إنه لا متحرك. فمن جهة إنما هذا هو سلب للحركة على جهة ما يقال على شيء إنه لا يكون مساوياً وهذا يمكن أن يصدق حتى على الوجود، في حين أنه من جهة أخرى يقال على شيء إنه لا متحرك لأنه فعلاً على حال ما، كما أنه يقال على شيء أنه لا مساوٍ، فهنا السكون هو ضد الحركة كما أن على العموم جميع السلوب المكونة من همزة الإزالة تنطبق على أضداد. حتى أن يقال على الوجود أنه لا يتحرك ولكنه ليس حقاً أن يقال على الوجود أنه في سكون. كما أنه لا ينبغي أن يقال إنه لا متحرك وهذا ما له المدلول بعينه. ولكن إكسينوفان يستعمل في حق الوجود لفظ السكون ويقول إن الوجود هو في سكون لأنه لا نقلة له.

١٢ - ليسا لا متحركين ولا يتحركان مع ذلك - ر. ما سبق ب ٣ ف ٧ وربما كان يلزم وضع صيغة المفرد موضع صيغة المثلي فإن الوجود والواحد متحدان كلاهما. - أن شيئاً لا يتحرك وبين أن يقال إنه لا متحرك - في اللغة العادية لا فرق بين هذين التعبيرين. ولكنه يمكن أيضاً تمييزهما كما قد كان ها هنا. فمتى يقال على شيء إنه لا يتحرك فذلك بأن في طبيعته إمكان التحرك ومتى يقال على ضد ذلك: أنه لا متحرك فذلك بما أنه ممتنع الحركة على الإطلاق. - وهذا يمكن أن يصدق حتى على الوجود - ولو أن الوجود بكونه لا شيئاً يمكن أن يوصف بكل كيف أو أن يسلب كل كيف على السواء. - لأنه فعلاً على حال ما - العبارة مبهمة ولم أشأ أن أحررها. - كما أن على العموم جميع السلوب المكونة - ربما لم يكن هذا إلا تذييلاً أضافه بعض المفسرين. - أنه لا يتحرك - يعني أنه دائماً ينبغي أن يتكلم على الوجود بالصيغة السلبية. ومتى يقال على الضد من ذلك «وجود ساكن» «وجود لا متحرك» فتلكم إجابات لا يحتملها الوجود. وكل ذلك غمض دقيق. وهذا ما له المدلول بعينه - باعتبار أن لا فرق إلا في شكل العبارة بعض الشيء. - إكسينوفان - عبارة النص هي "هذا" ر. ب ٣ ف ١ و ب ١ ف ١.

١٣- وكما قلنا آنفاً قد يكون من الخطأ الجزم- لا لشيء سوى أن محمولاً يصلح حمله على المعدوم- بأن هذا القول لا يكون صالحاً بعد للحمل على الموجود خصوصاً إذا كانت الكلمة التي تستعمل لذلك ليست إلا سلباً نحو قولهم: لا يتحرك ولا ينتقل، فإنني أكرر أن كثيراً من المحمولات ما يجوز حمله أيضاً على الموجودات لأنه يوجد أشياء كثيرة لا يصدق عليه القول بأنها ليست آحاداً بحجة أن المعدوم ليس واحداً. ثم أنه يوجد أشياء فيها السلوب بعينها تنتج الأضداد فيما يظهر. فمثلاً من الضروري أن يوجد إما مساواة وإما لا مساواة ما دام هناك كم، وأنه كذلك يوجد إما زوج وإما فرد ما دام هناك عدد. وكذلك أيضاً يلزم أن يوجد إما حركة وإما سكون ما دام هناك جسم.

١٤- غير أنه إذا قيل إن الله والأحد لا يتحرك ألبتة لأن الأشياء المتحركة تتحرك بعضها نحو البعض الآخر، فما الذي يمنع أيضاً أن الله يتحرك بأن يسعى نحو شيء آخر؟ هذا قطعاً ليس لأنه ليس إلا الله بل لأنه لا واحد أحد إلا الله. وإذا لم يتحرك هو ذاته فما المانع أن أجزاء الله بتحركها بعضها نحو بعض أن يكون الله هو أيضاً له حركة دائرية؟

١٣- وكما قلنا آنفاً- ر. ما سبق ف ٨ وف ١٢- ليست إلا سلباً- سلباً له بالنتيجة علاقة بالاموجود أكثر منها بالموجود- أكرر- ر. ما سبق ف ٨٧- أيضاً على الموجودات التي يمكن حملها على اللاموجود- ليست آحاداً- أي لا تكون وحدة. وكل الأشياء الشخصية هي في هذه الحالة. تنتج الأضداد فيما يظهر- قد كان ينبغي أن يقال ”الأضداد أعيانها“ كما يظهر أن ذلك ينتج من الأمثلة المضروبة- إما حركة وإما سكون- هذه النتيجة ليست أقل ضرورة من الاثنين الآخرين. غير أن المقابلة الصريحة لا توجد إلا في المثل الأول حيث المساواة واللامساواة معبر عنهما بكلمتين أصلهما واحد ولا تختلفان إلا بالسلب وفي المثل الثاني والثالث والكلمات مختلفة ولها جميعاً صورة الإيجاب ولم أستطع في لغتنا ”الفرنسية“ أن أحصل هذه الفروق مع شدة رغبتني فيها.

١٤- لا يتحرك البتة- قد حفظت صيغة المفرد لأن الله والأحد متحدان- بأن يسعى نحو شيء آخر- قد حافظت على تردد النص ولكن الفكرة ليست صحيحة لأن الله بأنه في كل مكان لا يمكن أن يتحرك كالموجدات الجزئية نحو مكان لم يكن فيه. ليس إلا الله- الفكرة تبقى غامضة كالعبارة خصوصاً متى أذكر أن إكسينوفان فيما سبق قد جعل الله على كل شيء قديرًا. «أجزاء الله- هذا فيما يظهر إدماج الله والعالم كما قد اتهم به إكسينوفان- له حركة دائرية- باعتبار أن الحركة الدائرية هي وحدها التي يمكن أن تكون لا متناهية وأزلية. ر. الطبيعة ك ٨ ب ١٢ ص ٥٢٩ من ترجمتنا.

١٥- لكن على هذا لا يكون بعد واحدًا كما يعني زينون إنما هو متعدد كما قد نبه إليه، لأن زينون يقرر أن الله جسم سواء جعله هو الكل الذي نرى أو سماه باسم آخر. وإذا كان الله لا جسمانيًا فكيف يكون في الواقع فلكيًا؟ ويلزم أن يكون لا جسمانيًا، أعني لم يكن أصلًا لكي لا يكون له حركة ولا سكون. وإذا كان جسمًا فما المانع أن يتحرك كما قد قيل؟

١٥- زينون- أن ذكر زينون بالصراحة يجيز الاعتقاد، فيما يظهر، بأن هذه الرسالة يجب أن يكون لها جزء رابع فيه الكلام على زينون كما أن الكلام في الثلاثة الآخر على ميليسوس وإكسينوفان و غرياس ر. ما سبق في التحقيق- إنما هو متعدد- الترجمة الحرفية للنص هي «كثير من الأشياء»- الذي نرى- ليس النص على هذا القدر من الضبط يكون في الواقع فلكيًا- كما فيما سبق ف ١١ في بيت برمينيد.- أن يكون لا جسمانيًا- هذا هو بالضبط ما يؤيده أرسطو في الباب الأخير من الطبيعة ف ٢٦ ص ٥٦٩ من ترجمتنا كما قد قيل- أو «كما قد قلت آنفا».

مذاهب غرغياس

الباب الخامس

النظريات الثلاث الأصلية لغرغياس: على الوجود وعلى امتناع العلم وعلى نقل العلم - على النظرية الأولى يجمع غرغياس بين الآراء السابقة - ميليسوس وزينون - بسط مذهب غرغياس في امتناع الوجود والمعدوم على السواء.

١ - هو يقرر أن لا شيء بموجود حقيقة، وأنه إن يوجد من شيء فهذا الشيء يبقى مجهولاً عندنا، وأنه إن يوجد شيء ويمكن لمرئ العلم به فإنه لا يمكن التعبير عنه للأغيار.

٢ - فيما يتعلق بهذا القول الأول الذي هو أن لا شيء بموجود حقيقة يؤلف غرغياس بين نظريات فلاسفة آخرين، إذ يقررون أفكاراً متناقضة في أمر الحقيقة كما تظهر لنا. اعتقدوا: هؤلاء أنه لا شيء إلا الوحدة وأن الكثرة ممتنعة، وأولئك، على ضد ذلك، أن الكثرة وحدها هي الحقيقة وأن الوحدة ليست حقيقية. ذلك بأن بعضهم يرون الأشياء غير مخلوقة والآخرين يرونها مخلوقة.

١ - هو يقرر - ر. ما سبق ب ١ ف ٣ و ب ٣ ف ١. غرغياس ليس مذكوراً هنا وشأنه في ذلك شأن ميليسوس وإكسينوفان. ولكن بمخطوطة ليزج عنوان هذا الجزء من الكتاب: «في أرسطو طاليس على غرغياس» ولا يمكن أن يكون ها هنا أقل شك في أمر الفيلسوف الذي يخصه هذا التحليل ر. لا شيء بموجود حقيقة - ر. فيما سبق ب ١ ما يتعلق بميليسوس وفما بعد تحليل سكستوس أمبيريكوس لمذهب غرغياس.

٢ - غرغياس - في هذه الفقرة أيضاً لم يسم غرغياس وليس بها إلا فعل مسند إلى ضمير الغائب. - كما تظهر لنا - أو «كما تظهر لهم». يرونها مخلوقة - ر. كتاب السماء ك ١ ب ١٠ ص ٨٣ من ترجمتنا.

٣- يؤلف غريغاس بين هذين الرأيين ليدلّل هكذا، «يقول إنه يلزم ضرورة إن كان شيء موجوداً أن يكون هذا الشيء لا واحداً ولا كثرة، وأن تكون الأشياء لا غير مخلوقة ولا مخلوقة. وحيث لا شيء بوجود. وإذا كان في الواقع شيء فيلزم أن يكون إما أحدهما وإما الآخر». فأما أنه لا وحدة ولا كثرة وأن الأشياء ليست لا مخلوقة ولا غير مخلوقة فإنه يحاول إيضاح ذلك إما كميليسوس وإما كزينون بعد برهانه الخاص به، إذ ثبت على طريقته أن الموجود واللاموجود لا يوجدان لا أحدهما ولا الآخر.

٤- فعنده أنه إذا كان ممكناً أن اللاموجود يكون اللاموجود فيكون اللاموجود ليس بأقل وجوداً من الموجود. لأن هذا اللاموجود يكون اللاموجود، كما أن الموجود يكون الموجود، بحيث إنه لا يمكن أن يقال على الأشياء أنها تكون بأقوى من أن يقال عليها إنها لا تكون.

٥- يقول غريغاس: "إذا كان اللاموجود موجوداً فمن ثم لا يكون الموجود بعد مقابلة لأنه إذا اللاموجود يكون فيلزم أن الموجود لا يكون. وبالنتيجة أنه لا شيء بوجود، إلا أن يكون الموجود واللاموجود شيئاً واحداً بعينه. ولكن إنما هما في الواقع شيء واحد ومن ثم لا يوجد شيء لأن اللاموجود ليس يكون، فالموجود ليس يكون كذلك ما دام أنه مماثل للاموجود". هذا هو تدليل غريغاس حرفاً بحرف.

٣- يؤلف غريغاس - كذلك هنال لم يسم غريغاس. - يقول لا واحداً ولا كثرة - ر. ما سيلي. تحليل سكتسوس أمبيريكوس في أوله. - أن يكون إما أحدهما وإما الآخر قد حفظت عبارة النص في تردها كله. وبعبارة أخرى "يلزم أن يكون ما كان إما واحداً أو كثرة. ويلزم أن يكون إما مخلوقاً وإما لا مخلوقاً". - إما كميليسوس وإما كزينون- من هذه الفقرة التي قد ذكر فيها ميليسوس وزينون بالاسم يمكن استنتاج هاتين النتيجةين: أولاً أن الجزء الأول من هذا الكتاب يتعلق تماماً بميليسوس. وثانياً أن هذه الكتاب ناقص منه جزء كان فيه تحليل آراء زينون كما حللت آراء ميليسوس وإكسينوفان وغريغاس ر. التحقيق. أن الموجود واللاموجود- عبارة النص حرفياً هي "أن الموجود واللاموجود لا يكونان".

٤- أن اللاموجود يكون اللاموجود- كل السفسطة تعتمد على فعل «الكون» مسنداً إلى اللاموجود. وما دام أنه يقال على اللاموجود أنه كائن فيمكن أن يستنتج منه أنه هو والموجود سبان. وتلك هي دقائق غير جدية. وقد أحسن أفلاطون وسقراط في أنهما سخرا بهذه السفسطة. - أن يقال على - ليس النص على هذا القدر من الصراحة.

٥- يقول غريغاس - ليس في النص إلا أن الفعل مسند إلى ضمير الغائب ولم يسم غريغاس ولكن اضطررت لإظهاره لبيان الفكرة في الترجمة. مقابلة- لفظ المقابلة أعم من التضاد - ر- المقولات ب ١٠ ص ١٠٩ من ترجمتنا، شيئاً واحداً بعينه، ويظن غريغاس أنه قد برهن على أنهما متمثلان. - ومن ثم لا يوجد شيء - قد يمكن أيضاً أن يستنتج منه أن الكل موجود الموجود واللاموجود على السواء. وتكون هذه النتيجة صحيحة كالأخرى. - حرفاً بحرف - أضفت هذا القيد لأحصل قوة النص الإغريقي.

الباب السادس

نقض نظرية غرغياس الأولى - شاهد من ميليسوس وزينون - الموجود واللاموجود لا يشتبهان، والحركة هي ممكنة - شاهد من مقالات لوكيس - نقض نظرية غرغياس الثانية على امتناع العلم، ونقض النظرية الثالثة على امتناع نقل العلم بعد كسبه - إيدان بأن نظريات الفلاسفة القدماء ستدرس بعد دراسة خاصة.

١ - لا ينتج ألبة من أدلة غرغياس أن لا شيء يوجد. لأنك ترى كيف يدل على الأشياء التي يحاول إثباتها. إذا كان اللاموجود يوجد أو بعبارة أعم لو أن اللاشيء يوجد فالموجود هو كذلك اللاموجود على السواء.

٢ - ولكن لا يظهر ألبة أن الأمر هكذا ولا أن هناك أدنى ضرورة لأن يوجد اللاموجود. كما يكون الحال في شيئين أحدهما يكون حقيقة والآخر لا يزيد على أن يظهر. فيلزم بالضرورة أن يكون أحدهما حقًا والآخر ليس كذلك. كذلك من أن اللاموجود لا يوجد

١ - أدلة غرغياس - هنا أيضًا ليس غرغياس مسمى. وليس في النص كما قد سبق إلا فعل مسند إلى ضمير الغائب. - يحاول إثباتها - عبارة النص بالضبط: «التي يبرهن عليها». وقد ظهر لي أن أسلوب عبارتي أفضل. - لو أن اللاشيء يوجد - هذه عبارة النص نفسها وربما كان الأحسن أن يقال «إذا لم يوجد شيء». - فالموجود هو كذلك اللاموجود على السواء - يعني أن الموجود هو اللاموجود كما هو الموجود على السواء.

٢ - أدنى ضرورة - أدنى ضرورة للبرهان الذي يلجئ إلى الاستنتاج الموجه لجهة أو لأخرى. - لا يزيد على أن يظهر - عبارة النص هي فقط «يظهر». - من أن اللاموجود لا يوجد - عبارة النص ليست على هذا القدر من الصراحة. - يقول غرغياس - اسم غرغياس ليس مذكورًا. - إذا كان «ليس يكون» هو أيضًا شيئًا ما - التناقض بين بيانًا حتى في الألفاظ ولكن السفسطائي ما كان لينظر في الأمر عن كذب هكذا. - لا يقال ألبة لا أحد إلا السفسطائيين كغرغياس والآخرين يعني ألبة بأن يؤتى اللاموجود أقل حقيقة ولا أدنى وجود. - في حالة اللاموجود - إنما يدور الإبهام على صيغة المصدر ما دام أن اللاموجود هو اللاموجود فإنه موجود في الحقيقة كالوجود سواء بسواء. - على النحو الذي يكون عليه الموجود الجواب ليس قاطعًا.

لا ينتج أن الاثنين أو أحدهما يجب أن يكونا أو لا يكونا. يقول غريغاس: لأن الوجود ليس بأقل وجوداً من الوجود إذا كان «ليس يكون» هو أيضاً شيئاً ما. لذلك لا يقال ألّبتة أن الوجود يكون ألّبتة بأى وجه كان فإذا كان الوجود هو في حالة الوجود فحينئذ لا يكون الوجود على النحو الذي يكون عليه الوجود لأنه ليس إلا في حالة الوجود بخلاف الوجود فإنه موجود فعلاً.

٣- إذا كان حقاً أن الوجود قد وجد بطريقة مطلقة فيكون على الأقل عجباً أن يقال إن الوجود موجود. ولكن إذا كان هذا هكذا بالمصادفة فكيف إذن يكون الحال أبداً بالنسبة للأشياء التي يرجع في أمرها أن تكون على ألا تكون؟ لأنه يظهر أن النقيض نفسه قد يمكن أن يكون حقيقياً أيضاً.

٤- إذا كان الوجود يكون وكان الوجود يكون أيضاً، إذن فالكل موجود ما دام أن كل ما هو موجود وكل ما ليس بموجود كلاهما كائن من غير فرق، وأنه ليس من الضروري ألّبتة إذا كان الموجود كائناً أن يكون الموجود غير كائن. عبثاً يقال إن الوجود يكون والموجود لا يكون فإن ذلك لم يؤثر شيئاً في أن جميع الأشياء موجودة ما دام أننا لو صدقنا ذلك القول لأصبحت الأشياء التي لا تكون كائنة.

٣- قد وجد بطريقة مطلقة- أي على حد سواء هو والموجود ذاته.- عجباً - ربما كان في الأسلوب الإغريقي نوع من التهكم يناسب في الواقع كل المناسبة الرد على هذه الدقائق في أمرها أن تكون على ألا تكون- هذا بين بذاته ولكن غريغاس إذا ينال الظفر وقد استنتج منه أن لا شيء بموجود. فالدليل حينئذ مزدوج الغاية فإنه يمكن أن يستنتج منه الوجود كما يستنتج منه الوجود سواء بسواء.- النقيض نفسه- يعني «نقيض ما يقال هو أيضاً حقيقي كالذي يقال».

٤- الوجود يكون- كما يزعم غريغاس.- كلاهما كائن- احتفظت بعبارة النص إن لم تكن قطعية فإن الوجود حقيقة كالموجود فإن السلب صادق كالإيجاب سواء بسواء.- من غير فوق- أضفت هذه العبارة التي تؤخذ من أسلوب النص. ليس من الضروري ألّبتة- من حيث أن في نظريات غريغاس، المتناقضات صادقة على سواء وأن الأمر وضده يمكن إقامة الدليل عليهما أحدهما كالآخر.- لو صدقنا ذلك القول عبارة النص هي «على حسب تدليل هذا» يعني غريغاس.

٥- ولكن إذا كان «يكون ولا يكون» شيئاً واحداً فمن ثم لا يمكن أن يقال بعد على شيء أنه يكون كما لا يمكن كذلك أن يقال عليه أنه لا يكون لأنه كما أن غريغاس يقرر أنه إذا كان اللاموجود والموجود هما شيئاً واحداً، فالموجود ليس يكون بأشد وجوداً من اللاموجود بحيث ينتج أن لا شيء بموجود. كذلك يمكن أن يؤيد العكس أن الكل موجود لأنه لما أن اللاموجود هو كالموجود تماماً فيستنتج منه أن الكل موجود بالحقيقة.

٦- بعد هذا الدليل هو يقيم دليلاً آخر يقول: إن يوجد من شيء فإما أن يكون هذا الشيء لا مخلوقاً وإما أن يكون مخلوقاً. فإذا كان لا مخلوقاً فهو لا متناه، على ما يفترض غريغاس بحسب مبادئ ميليسوس ولكن اللامتناهي ليس في مكان ما، ما دام أنه ليس في نفسه ولا في غيره وحينئذ يكون إذن لا متناهيان أو عدة لا متناهيات هذا الذي في الآخر وذاك الذي الآخر فيه. ولما لم يكن في مكان ما فهو لا شيء، على حسب أدلة زينون على حيز الموجودات. وبهذه الأدلة يستنتج غريغاس أن الموجود لا مخلوق.

٧- ولكن الموجود لا يمكن كذلك أن يكون قد خلق. فإنه لا يمكن في الواقع أن

٥- شيئاً واحداً- يعني في النظرية التي يعنى المؤلف بإبطالها. - أن يقال بعد- ليس النص على هذا القدر من الصراحة. - كما أن غريغاس يقرر- عبارة النص هي «هذا» إذا كان اللاموجود والموجود هما شيئاً واحداً بعينه- هذا هو أساس سفسطة غريغاس. - أن لا شيء. بموجود- وبعبارة أخرى أن لا شيء موجود لا صادقاً ولا كاذباً. - العكس - أو بعبارة أخرى «بعكس القضية» - أن الكل موجود بالحقيقة- النص ليس على هذا القدر من السعة. ر. ما سيلبي في تحليل سكستوس أمبيريكوس.

٦- على ما يفترض غريغاس - كذلك ها هنا ليس غريغاس مذكوراً بالاسم. - ميليسوس - ميليسوس مذكور بالاسم صراحة ر. ما سبق ب ٥ ف ٣ والتحقيق السابق. - ولكن اللامتناهي ليس في محل ما- وبما هو ليس في مكان فيستنتج منه أنه ليس موجوداً البتة كما سيذكر فيما سيلبي. زينون - ر. ما سبق ب ٥ ف ٣. - على حيز الموجودات- زدت المضاف إليه الأخير. راجع فيما يتعلق بنظرية زينون الطبيعة لأرسطو ك ٤ ب ٣ ف ٦ ص ١٤٦ من ترجمتنا ب ٥ ف ١٠ ص ١٦١. - يستنتج غريغاس - ليس غريغاس مذكوراً بالاسم والنص ليس على هذا القدر من البيان ر.. ما سيلبي تحليل سكستوس أمبيريكوس حيث هذا التدليل على بسطة من البيان.

٧- لا يمكن كذلك أن يكون قد خلق- أو «أنه قد صار» هذا هو الجزء الثاني من تدليل غريغاس - فإنه لا يمكن في الواقع- على حسب تدليل غريغاس. - يسقط- هذه هي عبارة النص بعينها، فإن الموجود ليصير يجب أن يفقد كرامة الوجود ويتبدى في ألا يكون بعد ليصير شيئاً ما. - اللاموجود لا يكون بعد اللاموجود- ولكن يظهر هنا أن اللاموجود عوضاً عن أن يسقط فهو يسمو بوجه ما ليصير شيئاً ما. وتلك دقائق لفظية. أيًا كان يتولد من لا شيء- هذا هو مبدأ ميليسوس ر. ب ١ ف ١- بالمصادفة - أضفت هذه الكلمة.

يكون قد خرج من الوجود ولا من المعدوم. لأنه إذا كان الوجود يسقط وهو مخلوق فلم يكن إذن الوجود، كما أن الوجود لا يكون بعد الوجود من وقت أن يصير شيئاً ما. ومن جهة أخرى الوجود لا يمكن أيضاً أن يأتي من الوجود، لأنه إذا كان الوجود لا يكون فممتنع من ثم أن أيّاً كان يتولد من لا شيء. وإذا كان بالمصادفة الوجود يوجد فإن الأسباب التي تجعل الوجود لا يأتي من الوجود هي عينها تجعله لا يأتي أيضاً من الوجود الذي هو كائن.

٨- فإذا كان حينئذ من الضروري، ما دام أن شيئاً ما موجود، هذا الشيء يكون لا مخلوقاً أو مخلوقاً وأن كلا الأمرين ممتنع، فينتج منه أنه ممتنع أيضاً أن يوجد أي شيء ما.

٩- يقول غريغاس: زد على هذا أنه إذا شيء يوجد فيلزم أن يكون هذا الشيء واحداً أو كثرة. فإذا لم يكن لا واحداً ولا كثرة فينتج منه ألا يوجد شيء. ذلك الشيء لا يمكن أن يكون واحداً، لأن «الواحد» يجب أن يكن لا جسمانياً واللاجسماني هو لا شيء، كما يقول غريغاس متبعاً في ذلك رأياً يقرب كثيراً من رأي زينون. وبما أن الوجود لا واحداً؛ فإنه ليس أيضاً كثرة من باب أولى. ولكن الوجود بما هو لا واحد ولا كثرة فهو غير موجود البتة. وبالنتيجة يقول غريغاس أيضاً: إذا كان كذلك فما هو إلا لا شيء. وفي الواقع إذا لم يكن لا واحداً ولا كثرة فإنما هو ليس أيّاً كان.

١٠- يزيد على ذلك: لكن لا شيء ليس في حركة، لأنه إذا كان الوجود في حركة فلا

٨- لا مخلوقاً أو مخلوقاً- ر. ما سبق ف ٦ وقد اضطررت إلى استعمال لا مخلوق ومخلوق لأنني لم أجد خيراً منهما في لغتنا (الفرنسية) ولكنهما لا تحصلان بالضبط معنى الكلمات اليونانية. فإن شيئاً إذا صار فذلك بأنه ليس أزلياً وبالأقل من جهة أن يصير وأن يتغير بالنتيجة. فإذا كان على الضد أزلياً فما كان ليصير بل يبقى هو ما هو. - ممتنع.... ممتنع- هذا التكرير هو في النص ر. فيما سيلي هذا التدليل مبسوطاً بأكثر من ذلك في تحليل سكستوس أمبيريكوس.

٩- يقول غريغاس- النص لا يذكر غريغاس بالاسم وليس به إلا فعل مسند إلى ضمير الغائب ر. فيما يتعلق بهذا الدليل الجديد تحليل سكستوس أمبيريكوس. - يقول غريغاس- ليس في النص اسم غريغاس. رأي زينون- ر. ما سبق آنفاً ف ٦ وب ٥ ف ٣- يقول غريغاس أيضاً- لم يسم هنا أيضاً.

١٠- لا شيء ليس في حركة- هذا الجزء من تدليل غريغاس ليس موجوداً في تحليل سكستوس أمبيريكوس. وربما كانت هذه الأدلة ضد الحركة متعلقة بزينون أكثر من تعلقها بغريغاس. ولكن لا شيء في النص يدل على أنه يلزم نسبتها=

يكون بعد هو ما هو. وحينئذ الموجود لا يكون بعد واللاموجود يصير شيئاً. وفوق ذلك بما أن الموجود يتحرك وينقطع عن أن يكون متصلاً بانتقاله فعلى هذا المعنى هو لا يكون بعد. وبالنتيجة إذا كان متحركاً في جميع أجزائه فهو منقسم في جميعها على الإطلاق، وإذا كان هكذا فليس موجوداً البتة. وفي هذا الصدد يقول غريغاس: إن الموجود هو ناقص من جهة ما هو منقسم - وهو يتكلم على التجربة عوضاً عن أن يتكلم على الحلو كما كتبه لوكيس فيما يسمى بمقالاته.

١١ - يظن غريغاس أنه في هذا وقد وفي البيان حقه. يقول: إذا ثبت حينئذ أن لا شيء فالكل حينئذ يعزب عن علمنا. فلم يبق بعد من ثم إلا ما يتصور. واللاموجود ما دام أنه غير كائن فلا يمكن ألبتة تصوره. ومتى كان هذا كان من المحال، على رأي غريغاس، ألا يكون هناك شيء باطل بل لا يكون خطأ أن يقال مثلاً: إن «العربات تدرج على أمواج البحر» لأن كل هذا حق كما أن نقيضه حق.

١٢ - ولكن كيف توجد الأشياء التي ترى أو التي تسمع بهذا السبب وحده وهو أن

=هنا إلى زينون. - فلا يكون بعد هو ما هو- لأن الحركة تقتضي دائماً تغيراً. - وحينئذ الموجود لا يكون بعد- إذا كان الموجود لا يعدم بكه في الأقل يفقد منه جزء ويكون هو الذي يصير غير ما كان. - وينقطع عن أن يكون متصلاً- لا يرى لأي شيء يمكن أن يكون هذا لازماً فإن الموجود يمكن ألا يفقد شيئاً من اتصاله ببقته. - في جميع أجزائه- عبارة النص ليست بيّنة جد البيان. - يقول غريغاس- ليس في النص هنا أيضاً اسم غريغاس. - لوكيس فيما يسمى بمقالاته- يظهر أن المؤلف، كما نبه إليه مللاخ، ليس هنا واثقاً من كتاب لوكيس ر. قطع ديمقريطس لملاخ ص ٣٧٤، يقول ديوجين اللايرثي ب ٩ ف ٤٦ طبعة فيرمين ديدو ص ٢٣٨ أن تيوفراسط كان ينسب إلى لوكيس كتاباً معنوناً «نظام العالم الكبير» الذي كان المعتقد دائماً أنه لديمقريطس ر. أيضاً فيما سبق آراء لوكيس على الخلو في كتاب الكون والفساد ك ١ ب ٨ ف ٥ ص ٨٩ وقد يظهر جلياً على حسب هذه الفقرة الأخيرة أن لوكيس كان قد كتب بعض مؤلفات يظهر أن المؤلف قد استخلص منها ما يقوله.

١١ - غريغاس- ليس غريغاس مذكوراً هنا أيضاً بالاسم. - فالكل حينئذ يعزب عن علمنا- هذه هي النظرية الثانية لغريغاس ر. ما سبق ب ٥ ف ١ وتحليل سكستوس أمبيريكوس. - فلم يبق من بعد من ثم- ليس النص على هذا القدر من البيان. - فلا يمكن البتة تصوره- وغريغاس مع ذلك يتصور اللاموجود ما دام أنه يتكلم عنه. وكل هذا مبسوط في تحليل سكستوس أمبيريكوس. - على رأي غريغاس- كذلك لم يسم هنا. - العربات تدرج على أمواج البحر ر. فيما سيلي تحليل سكستوس أمبيريكوس حيث هذا المثل مذكور ومضاف إلى مثل غيره.

١٢ - ولكن كيف- قد احتفظت بصيغة النص. ولكن من البين أن الجملة هنا غاية في الإيجاز وأن الفكرة ليست مبسطة البسط الكافي. وتحليل سكستوس أفضل في هذا الموطن. - لا توجد من أجل ذلك أيضاً- لأننا نبصرها وفي هذه=

يتصور كل واحد منها! فإذا لم يكن ذلك هو السبب الذي يجعلها تكون، وإذا كانت الأشياء التي نتصورها لا توجد من أجل ذلك أيضًا، فهل للأشياء التي نشاهدها وجود أدخل في باب الحقيقة والفعل من الأشياء التي نتصورها؟

١٣- في الواقع، كما أنه ممكن جدًا أن كثيرًا من الناس يشاهد الأشياء فكذلك من جهة أخرى كثير من الناس يتصورها أيضًا. فالأشياء الذهنية هي إذن على الإطلاق مثل الأشياء الخارجية. ولكنه لا يدري أي الفريقين هو الحقيقي. وبالنتيجة أن يوجد من شيء فمن المحال أن تكون الأشياء معلومة لنا.

١٤- يقول غريغاس: حتى مع التسليم بأنها معلومة لنا فهل يمكننا أن ننقل التعبير عنها إلى الغير؟ كيف يمكن الإنسان أن يعلم غيره بطريق الكلام ما قد شاهده هو بالنظر؟ وكيف يمكن الإنسان لمجرد سماعه شيئًا أن يفهمه جليًا إذا لم يكن قد رآه؟ وفي الواقع كما أن النظر لا يدرك الأصوات كذلك السمع إلا يسمع الألوان ولا يسمع إلا الأصوات فالذي يتكلم يتكلم كلامًا ولا يتكلم لونا ولا أي شيء آخر أيًا كان.

١٥- لكن كيف يمكن أن يلتمس المرء في كلام الغير شيئًا لم يكن هو نفسه قد تصوره؟ هل يتفق بالمصادفة أن توجد دلالة أخرى، تعطيك فكرة الشيء إن لم يكن لونه =مجازة باللاأدرية إلى مدى بعيد. ولكن تلك كانت هي عادة السفسطائيين إذ يلزم لهم أن يقتحموا الذوق العام.

١٣- هي إذن على الإطلاق مثل الأشياء الخارجية- ليس النص على هذا القدر من الصراحة. والتعبير الإغريقي أعم ولكن المعنى بين الجلاء- ولكنه لا يدري- تلك سفسطة محضة لأنه في هذا الخصوص، اللاأدري لا يتردد أكثر من العامي ويعتقد حقيقة إدراكاته. وبالنتيجة- النتيجة ليست لازمة. وفي تحليل سكستوس هذا الدليل أقوى وأمتن دون أن يكون بالغًا حد القوة.

١٤- حتى مع التسليم- مناقشة النقطة الثالثة ر. ما سبق ب ٥ ف ١، وتحليل سكستوس أميريكوس. - يقول غريغاس- ليس في النص إلا فعل مسند إلى ضمير الغائب. - لا يدرك الأصوات- قد كان الأحسن أن يقال: "لا يرى الأصوات" ولكن اتبعت النص الذي يتخذ تعبيرًا عامًا كالذي اتخذته. - فالذي يتكلم يتكلم كلامًا- هذا التكرير في النص.

١٥- أن يلتمس- هذه هي عبارة النص بعينها. - بالمصادفة- أضفت هذه الكلمة لبيان الفكرة- دلالة أخرى- ليس النص على هذا القدر من الضبط. - على رأي غريغاس ليس غريغاس مذكورًا بالاسم هنا. وأن المعنى الذي اختاره في ترجمتي هو الأحسن فيما يظهر لي. ولكن يمكن أن تفهم هذه النقطة على وجه آخر: "الذي يتكلم لا يتكلم إلا الصوت ولا اللون إنه لا يتكلم إلا الكلام" "ولا يكون هذا إلا تكريرًا لما قيل آنفًا. وهذا هو الذي حملني على اتخاذ المعنى الذي اخترته.

حينما يرى وصوته حينما يسمع؟ لأن المبدأ هاهنا على رأي غريغاس ليس هو لا الصوت ولا اللون بل هو مجرد الكلام. فلا يفتكر الإنسان لوئاً بل يراه ولا يفتكر صوتاً بل يسمعه.

١٦- لنفترض، إذا شئت، أن ذلك ممكن وأن الذي يتكلم يعلم الشيء وعند الحاجة يمكنه أن يعرفه كيف أن الذي يسمع الكلام يكون موقناً بأنه يفهم الشيء بعينه على هذا النحو؟ لأنه ليس ممكناً أن يكون الشيء بعينه في آن واحد في كائنات عدة وفي كائنات منفصلة لأنه حينئذ يكون الشيء الواحد عدة. يقول غريغاس: ولكن شيئاً واحداً ولو كان في آن واحد في عدة أذهان وكان فيها هو بعينه فلا شيء يمنع أنه يظهر متماثلاً عند جميع الأشخاص الذين هم أنفسهم ليسوا متمثلين في الظاهر والذين هم ليسوا على استعداد واحد بعينه.

١٧- لنسلم أيضاً أنهم في استعداد واحد أفلا يكونون إذن اثنين بالأقل أو عدة؟ ولكن الشخص بعينه ليس له في الوقت الواحد إحساسات متشابهة، فإن سمعه وبصره يعطيانه إحساسات مختلفة، والإحساسات التي به في الحال هي مغايرة لإحساسات سابقة. فباطل إذن أن تظن أن غيرك يمكن أن يكون له إدراكات شبيهة بإدراكاتك في أي شيء كان.

١٨- على هذا لا يمكن العلم بشيء ما مع التسليم بوجود شيء ما. خصوصاً أنه لا يمكن ألبة للإنسان أن يعلم غيره ما يعلم هو، لأن الأشياء ليست أقوالاً وأنه لا شخص يمكنه ألبة أن يفهم بالضبط ما يفهمه شخص آخر.

١٦- وعند الحاجة- أضفت هذه العبارة- أن يعرفه - "أن يقرأه" متى كان مكتوباً- يكون موقناً- عبارة النص "يفهمه".- أن يكون الشيء بعينه في آن واحد- هذا يقتضي أن يكون الشيء حقيقياً في الذهن كما هو في الخارج وهذا ما قد ذكر فيما سبق وعلى حسب هذه النظرية يمكن أن يقال على الشيء أنه محال لا لشيء إلا لأنه معاً في عدة أحياء أو موجودات. ومع ذلك ففي الفكرة شطط. الشيء الواحد- عبارة النص "الواحد"- يقول غريغاس- لم يذكر في النص اسمه.- في الظاهر- زدت هذه العبارة.- على استعداد واحد بعينه- عبارة النص غير محددة.

١٧- أفلا يكونون إذن اثنين- ليس المعنى بيئاً وقد حاولت أن أبينه بإضافة كلمة «بالأقل». ومع ذلك يظهر لي أنه يمكن قبول سلسلة هذه المعاني التي هي مؤلفة النتائج بعضها مع بعض.- في الوقت الواحد- عبارة النص هي كالعبارة المذكورة في الفقرة السابقة ولكنه يكملها بأن أضاف إليها كلمة الوقت التي ربما يلزم أن تكون مقدرة في الفقرة السابقة.

١٨- على هذا لا يمكن العلم بشيء ما- ملخص نظرية غريغاس ر. ما سبق ب ٥ ٦ - مع التسليم بوجود شيء ما - النقطة الأولى التي كان ينكرها غريغاس الذي هو من التبصر واللاأدرية بمكان.

١٩ - كل هذه المسائل المحيرة قد أثارها فلاسفة آخرون أقدم عهداً . وسندرس هذه النظريات عند البحث الذي سنعقده لمذاهبهم المختلفة.

١٩ - أقدم عهداً- من غريغاس . وربما عني هيرقليدس الأفيزوسي .- الذي سنعقده ليس النص على هذا القدر من الصراحة ولكن يظهر أنه يعد بكتاب آخر بعد هذا.

قطم من ميليسوس

١

قال سمبليسيوس في شرحه كتاب الطبيعة لأرسطو (الورقة ٢٢): فلننظر إذن إلى أدلة ميليسوس وهو الأول الذي أنحى عليه أرسطو. إن ميليسوس معتمداً على مبادئ الطبيعيين^(١) في كون الأشياء وفسادها: يبدأ كتابه بالعبارات الآتية:

«إن لم يوجد شيء كيف يمكن بأي حال اعتبار هذا اللاشيء كأنه شيء ما؟ «إن كان يوجد شيء ما فهذا الشيء إما مولود وإما أزلي. فإن كان مولوداً وكان قد كون فهو لا يمكن أن يأتي إلا من الموجود أو من اللاموجود ولكن ليس ممكناً أن ما ليس شيئاً، وبالأولى ما هو موجود على الإطلاق، يمكن أثبتة أن يأتي مما ليس موجوداً. كما لا يمكن أيضاً أن يأتي مما هو موجود لأن الموجود حينئذ يكون قد وجد ولم يكن به من حاجة إلى أن يصير وأن يوجد. إذن الموجود لا يمكن أن يصير وإذن فهو أزلي. ومن جهة أخرى الموجود لا يمكن أن يفسد، لأنه ليس ممكناً أن الموجود يتغير إلى لا موجود. وتلك هي نقطة يوافق عليها الطبيعيون. ليس ممكناً أيضاً أن الموجود يتغير إلى اللاموجود لأنه بهذه الطريقة أيضاً الموجود يبقى ولا يفسد. على ذلك فالموجود ما كان ليتمكن أن يولد وأنه لن ينعدم، فقد كان وسيكون أبداً».

(١) الطبيعيون. هم فلاسفة مدرسة يونيا. ر. الطبيعة لأرسطو ك ١ ب ٢ ف ٩ ص ٤٣٣ من ترجمتنا.

سمبليسيوس . المرجع السابق

«لكن إذا كان ما قد ولد له أول فالذي لم يولد ليس له أول. فإذا كان الموجود ليس مولوداً فلا يمكن أن يكون له أول كذلك. ويمكن أن يزداد على ذلك أن ما قد فسد له آخر، ولكن إذا كان شيء غير قابل للفساد فليس له آخر ممكن. إذن فالموجود بما هو غير قابل للفساد ليس له من آخر. وما ليس له لا أول ولا آخر هو بهذا عينه لا متناهٍ. وإذا فالموجود لا متناهٍ».

سمبليسيوس . المرجع السابق

«إذا كان الموجود لا متناهياً فهو واحد. لأنه إذا كان موجودان فلا يمكن أن يكونا لا متناهيين ما دام أنهما يحدان بعضهما بعضاً. وبما أن الموجود هو لا متناهٍ فالموجودات لا يمكن أن تكون كثرة. وإذن فالموجود هو واحد».

سمبليسيوس . المرجع السابق

«إذا كان الموجود واحداً فهو بالتبع لا متحرك. لأن الموجود بما هو واحد هو على الدوام مثبته لذاته. الموجود بما هو باق على الدوام شبيهاً لذاته لا يمكن أن ينعدم ولا أن ينمو ولا أن يتغير ولا أن يتأثر ولا أن يضمحل. فإذا كان يعاني أدنى واحد من تلك التأثيرات فلا يكون بعد واحداً. لأن موجوداً يعاني حركة من أي جنس كان يتغير من حالة ما إلى أخرى. والموجود لا يمكن أن يكون شيئاً إلا الموجود. وبالنتيجة الموجود لا يمكن أن يكون له حركة».

سمبليسيوس. المرجع السابق

«ومن جهة أخرى لا شيء من الموجود يمكن أن يكون خلواً لأن الخلو ليس شيئاً. واللاشيء لا يمكن أن يكون. وإذن فالموجود لا يتحرك. لأنه ما دام أنه لا خلو فلا مكان فيه يمكنه أن يتحيز. ولكن ليس ممكناً أن يدخل الموجود في ذاته ما دام أنه يلزم على ذلك إذا أن يكون أكثر تخلصاً أو أكثر كثافة مما هو. وهذا ممتنع لأن التخلخل لا يمكن أن يكون مليئاً بالكثيف وما هو متخلخل هو أشد خلواً مما يمكن الكثيف أن يكونه. إذن الخلو لا يوجد. للحكم على الموجود أهو مليء أم لا فذلك يمكن معرفته بأن ينظر هل هو يمكنه أو لا يمكنه أن يقبل في ذاته شيئاً ما. فإن لم يقبل فذلك بأنه مليء. وإن يقبل فذلك بأنه ليس مليئاً. لكن إذا لم يكن خلواً فمن ثم كل شيء مليء. وإذا كان الكل مليئاً فلا حركة بعد. لأنه ليس ممكناً أن تقع الحركة في الملاء كما نقوله حين نتكلم على الأجسام. وأخيراً فالموجود الذي هو الكل لا يمكن أن يتحرك في الموجود ما دام أنه لا شيء خارج عنه، ولا في اللاموجود ما دام اللاموجود ليس موجوداً».

سمبليسيوس. الورقة ٣٤

«لإثبات أن الموجود لا يمكن أن يكون قد خلق يعتمد ميليسوس على هذه القاعدة العامة: ما قد كان قد كان دائماً ويكون دائماً. لأنه إذا كان قد ولد في لحظة ما، فيلزم أنه لم يكن شيئاً قبل أن يولد. فإذا لم يكن شيئاً حينئذ فقد كان من «المتع أن شيئاً يولد من لا شيء».

«قد وجه نقد إلى ميليسوس هو أن لفظ البداية متعدد المعاني. فعوضاً عن أن يأخذ البداية بالإضافة إلى الزمان الخاص بالموجود الكائن أخذ البداية بالإضافة إلى الشيء، تلك البداية التي لا يمكن أن تنطبق على الأشياء التي تتغير دفعة واحدة. فلقد رأى ميليسوس، حتى قبل أرسطو طالس، أن كل جسم متناهٍ مع أنه أزلي ليس له إلا قوة متناهية وأن هذا الجسم معتبراً في ذاته فهو دائماً على حد الزمان»..... بحيث إنه بما أن له من جهة العظم بداية ونهاية يجب أن تكونا كِلتاهما له على السواء بالإضافة إلى الزمان. وعلى التكافؤ: ما له بداية ونهاية بالإضافة إلى الزمان لا يمكن معاً أن يكون الكل. ومن أجل ذلك يسند ميليسوس برهانه إلى البداية والنهاية مطبقتين فقط على الزمان. ولا يسمى بلا بداية وبلا نهاية ما ليس الكل. يعني ما ليس معاً العالم أجمع. وهذا لا ينطبق إلا على الأشياء التي لا أجزاء لها وغير المتناهية في وجودها، وينطبق على الخصوص على الموجود المطلق ما دام الموجود المطلق هو بالضبط الكل. وهاك مع ذلك أقوال ميليسوس أعيانها:

«على ذلك ما لم يكن قد كون فهو كائن دائماً وقد كان دائماً وسيكون دائماً، فليس له أول ولا آخر، ولكنه لا متناهٍ. فإذا كان قد كون فيكون له أول لأنه يكون قد بدأ يصير في حين ما، ويكون له أيضاً آخر لأنه يكون قد انقطع أيضاً عن أن يصير. فإذا لم يكن قد بدأ قط وإذا لم يكن قد انتهى قط فذلك بأنه قد كان دائماً ويكون دائماً بما أنه ليس له لا أول ولا آخر لأن ما ليس الكل لا يمكن أن يصل إلى أن يكونه».

كما أن الموجود أزلي كذلك يلزم أن يكون عظمة أبدياً لا متناهياً.

٩

سمبليسيوس. المرجع السابق

« ما له أول وآخر لا يمكن ألبة أن يكون أزلياً ولا لا متناهياً ».

١٠

سمبليسيوس. المرجع السابق

« إذا لم يكن هو أحد فهو يحد آخر »

١١

سمبليسيوس. الورقة ٢٤

إن لغة ميليسوس نفسه يمكن أن تكون قديمة ولكنها ليست غامضة. وقد يمكننا أن نضع تحت الأنظار هذه المؤلفات العتيقة حتى يتهيأ للذين يقرءونها أن يكونوا قضاة يحسنون الحكم في إيضاحات أضبط وأوفى. وهاك إذن ما يقول ميليسوس ملخصاً ما قد بسطه في الماضي ومتابعاً نظريته على الحركة:

«على هذا إذن فالعالم، الكل، هو أزلي لا متناهٍ واحد ومتشابه. إنه لا يمكن أن يفنى ولا يمكن أن ينمو ولا يمكن أن تتغير صورته ولا يمكن أن يقبل ولا يمكن أن يضمحل. فإذا هو عانى شيئاً من ذلك فلا يكون واحداً. وفي الحق إنه إذا صار الموجود غيراً فيلزم ضرورة ألا يكون متشابهاً وأن الموجود الأول يفنى وأن اللاموجود يصير. ولو اقتضى الكل ثلاثين ألف عام ليصير غيراً لانتهي بأن يفنى في كل ما يلي من الزمان».

سمبليسيوس. المرجع السابق

«ولكن لا يمكن أن تتغير صورته، لأن النظام المتقدم للعالم لا ينعدم والنظام الذي لم يكن بعد لا يتكون. ولكن ما دام أنه لا شيء يولد من جديد وما دام أنه لا شيء ينعدم وما دام أنه لا شيء يتغير كيف يمكن أن أي موجود اتفق يمكن أن تتغير صورته؟ إنه يكون قد تحول من قبل إذا كان يمكن أن يصير غير ما هو».

سمبليسيوس. المرجع السابق

«أنه لا ينفعل لأن الكل لا يمكن أن ينفعل ما دام أنه لا يمكن أن شيئاً قابلاً يكون أزلياً. ومن ثم لن يكون له بعد قوة شيء يكون في كمال الصحة. وكذلك هو لا يكون متشابهاً إذا كان ينفعل. إنه لا يمكن أن ينفعل إلا إذا فقد أو كسب شيئاً. وبهذا وحده ينقطع عن أن يكون متشابهاً. كذلك ليس من الممكن أن شيئاً صحيحاً ينفعل بأي ما كان لأنه حينئذ الموجود وهذا الصحيح ينعدم واللاموجود يكون. والدليل عينه الذي ينطبق على الانفعال ينطبق أيضاً على أي اضمحلال ما للموجود».

سمبليسيوس. القطعة ٩، ١٧، ٢٤

«لا شيء من الخلو بموجود، لأن الخلو ليس شيئاً. وبما هو لا شيء لا يمكن أن يكون. الموجود لا يتحرك لأنه لا محل يمكنه أن يستقر فيه ولكن الكل هو ملء. إذا كان خلو فالموجود يتحيز في الخلو. ولكن ما دام أنه لا خلو فلا محل يستقر فيه. ما دام الكل ملئاً فلا حركة. كذلك لا يكون لا كثيفاً ولا متخلخلاً لأنه ليس ممكناً أن يكون المتخلخل

مليئًا كالكتيف سواء بسواء. والمتخلخل هو أخلى من الكتيف. إليك كيف يلزم الحكم في الملء والخلو.

وإذا كان شيء يتحيز أو يقبل شيئًا ما فذلك بأنه ليس مليئًا. فإذا لم يتحيز أو إذا لم يقبل فذلك بأنه مليء. إذن ليس إلا الملء إذا لم يكن خلوا. إذا كان إذن الكل هو ملئًا فلا حركة ممكنة.

١٥

سمبليسيوس . المرجع السابق الورقة ٢٤

« إذا تجزأ الموجود تحرك، ولكن حينئذ لا يتحرك كله معًا ».

١٦

سمبليسيوس . ما سبق الورقة ١٩

« وإذا كان الموجود يوجد فيلزم أن يكون واحدًا. وبما هو واحد يلزم في آن واحد ألا يكون جسمًا، لأنه إذا كان له سمك كان له أيضًا أجزاء ولا يكون بعد واحدًا ».

١٧

سمبليسيوس . شرح كتاب السماء . الورقة ١٧٣

« أو سيب وهو يستشهد أرسطوقلس (Preparation Evangélique XV) هذا هو إذا الدليل الأقوى على إثبات وحدة الموجود. ولكن هناك من جهة أخرى أدلة تثبتها أيضًا. إن كان موجودات متكررة فيلزم أن يكون كل واحد منها كالموجود الذي أثبت وحدته. إذا كان الأرض والنار، وإذا كان الهواء والحديد، والذهب والنار إذا كان الحي والميت، إذا كان الأبيض والأسود وسائر الأشياء التي يعتبرها الناس حقائق، هي موجودة

في الواقع كما يقال، فيلزم أن يكون كل شيء على الحقيقة هو ما قد ظهر لنا بادئ الأمر، وأنه لا يتغير حاله، وأنه لا يصير غيراً بل يبقى دائماً هو ما هو. ولكننا نعتقد في حالة الأشياء الراهنة أننا نحسن رؤيتها ونحسن استماعها ونحسن إدراكها. فالحر يظهر لنا أنه يصير بارداً والبارد يصير حاراً والصلب يصير ليناً واللين يصير صلباً والحي يظهر لنا أنه يموت ويتولد ثانياً مما ليس حياً بعد، فالكل بلا استثناء يظهر لنا أنه يصير غيراً. ولا شيء يظهر بأنه يبقى في الحالة بعينها التي كان فيها والتي هو فيها. الحديد نفسه مهما كان صلباً ينبري بملامسة الإصبع. والذهب والحجر وأي جسم آخر مما يظهر لنا صلباً هكذا تأتي من الماء كما يأتي منه الأرض والحجر. وبالنتيجة يمكن أن يقال إننا لا نرى ولا نعرف الموجودات في حقائقها. على ذلك فكل ذلك أبعد من أن يتطابق. إننا نقول حقاً على بعض الأشياء أنها أزلية ومع ذلك نرى صورها كلها وخواصها كلها تتغير تحت أعيننا وتنقطع عن أن تكون على ما قد كنا رأيناها عليه في كل حالة خاصة. إذن يلزم التسليم بأننا لا نحسن رؤية الأشياء وأن ظهور الأشياء لنا متكررة إنما هو خطأ. لأنها لو كانت حقيقية ما تغيرت ولكنها تكون على ما يظهر لنا كل واحد منها أنه موجود، ما دام أنه لا شيء فوق الموجود الحقيقي. ففي التغير قد هلك الموجود، وهذا الذي يتكون هو اللاموجود. حينئذ مرة ثانية إذا كانت الأشياء متكررة كما يقال فيلزم أنها كانت على الإطلاق كما يكون الموجود الأحد.

تحليل نظرية غريغياس

لسكستوس أمبيريكوس

Adversus mathemadicos logicos

ك ٧، ص ٣٨٥، طبعة ١٨٤٢

قال سكستوس بعد أن أثنى على فروطاغوراس واوتيديم وريونيسودور الذين لم يعترفوا بالموجود وبالحقيقة إلا في الإضافي:

«غريغياس الليونتيومي قد تبوأ مكاناً أيضاً في طائفة الفلاسفة الذين أنكروا ملكة الحكم. ولكنه لم يتخذ في هجماته الطريقة التي اتخذها فروطاغوراس. فإنه في كتابه المعنون «في اللاموجود أو في الطبيعة» يقرر النقط الثلاث الآتية: أولاً أنه لا شيء بموجود. وثانياً أنه إذا كان شيء موجوداً فذلك الشيء هو غير قابل لأن يدركه الإنسان. وأخيراً وثالثاً أن هذا الشيء لو كان قابلاً لإدراكنا لما أمكن التعبير عنه ولا تفهيمه الغير.

«واليك كيف يثبت النقطة الأولى وهي أن لا شيء بموجود. إذا كان شيء موجوداً فإنما هو الموجود أو اللاموجود أو الموجود واللاموجود معاً. ولكن الموجود ليس موجوداً كما سييسطه. واللاموجود كذلك ليس موجوداً كما سييبينه. وأخيراً ما هو معاً موجود ولا موجود لا يوجد كما سييبينه. إذن لا شيء بموجود. بديهي أن اللاموجود غير موجود. لأنه إذا كان اللاموجود موجوداً فينتج منه أنه يوجد ولا يوجد معاً. لأنه من جهة أنه متصور لا موجوداً فلن يوجد، ومن جهة أنه اللاموجود فهو سيوجد من جديد وعلى العكس. ولكن

من السخف أن شيئاً يكون ولا يكون معاً. إذن اللاموجود غير موجود البتة. أضف إلى ذلك أنه من جهة نظر أخرى إذا كان اللاموجود موجوداً فالموجود حينئذ لا يوجد لأنهما على التكافؤ ضدان أحدهما للآخر، وإذا كان الموجود يصل إلى اللاموجود فاللاموجود يصل إلى الموجود.

ولكن ما دام الموجود ليس موجوداً فاللاموجود ليس موجوداً من باب أولى. على هذا أقول: إن الموجود ليس موجوداً. لأنه إذا كان الموجود موجوداً فإما أن يكون أزلياً وإما أن يكون مخلوقاً وإما أن يكون معاً أزلياً ومخلوقاً. ولكن، كما سنبرهنه، الموجود ليس لا أزلياً ولا مخلوقاً ولا كليهما معاً. أقول: إذن إن الموجود لا يكون، لأنه إذا كان الموجود أزلياً، ما دام أنه يجب الابتداء بذلك، فليس له أول وكل ما يولد له أول. والأزلي بما هو لم يخلق لا يمكن أن يكون له أول ما. وبما هو ليس له أول فهو لا متناهٍ. وبما هو لا متناهٍ فليس في أي مكان ما. وفي الحق أنه إذا كان في مكان ما فيلزم أنه كان موجود آخر غيره وفيه يوجد. وإذا كان الموجود محوياً هكذا في شيء ما فلا يكون بعد لا متناهياً ما دام أن الحاوي هو أكبر من المحوي. ولا يمكن أن يكون شيء أكبر من اللامتناهي. إذن اللامتناهي ليس في حيز ما.

ولكن اللامتناهي لا يمكن أن يكون كذلك محوياً في ذاته لأنه إذن يكون المحل والحال يشبهان ويصير الموجود اثنين: المحل أولاً ثم الجسم، فإن ما فيه الجسم هو الحيز وما في الحيز هو الجسم. ولكن هذا سخف. وبالنتيجة فالموجود ليس كذلك حالاً في ذاته. وبالنتيجة أيضاً إذا كان الموجود أزلياً فهو لا متناهٍ. وبما هو لا متناهٍ فهو ليس في أي حيز. وبما هو ليس في حيز فهو غير موجود. إذا كان إذن الموجود أزلياً فلا يمكن أن يكون له كذلك أول.

ومن جهة أخرى الموجود لا يمكن كذلك أن يكون قد خلق. فإذا كان بالمصادفة قد ولد فيجب أن يكون قد أتى من الموجود أو من اللاموجود ولكنه لا يمكن أن يكون قد أتى من الموجود لأنه إذا كان الموجود موجوداً فذلك بأنه لم يكن قد ولد وأنه موجود من

قبل. ولا من اللاموجود مادام اللاموجود لا يمكن أن يكون شيئاً ما أيّاً كان ما دام أن ما هو قادر على أن يكون شيئاً يجب بالضرورة أن يكون قد شارك في الوجود. إذن فالوجود لا يمكن أن يكون قد خلق.

وقد يثبت بالأدلة عينها أن الموجود لا يمكن أن يكون الاثنين معاً، أعني أزليّاً ومخلوقاً معاً. وفي الحق إن هذين المعنيين يتفاسدان. وإذا كان الموجود أزليّاً فهو لم يولد. وإذا ولد فليس أزليّاً. حينئذ مرة أخرى، الموجود بما هو لا أزلي ولا مخلوق ولا الاثنين معاً فذلك بأنه لا يوجد ألبتة.

دليل آخر: إذا كان الموجود يوجد فهو واحد أو كثرة. ولكن الموجود ليس واحداً ولا متكثرًا كما سنرى ذلك. ومن ثم فالموجود ليس البتة. فإذا افترض واحدًا فهو إما كم وإما متصل وإما عظم ما وإما جسم. ولكن ما هو في أي ما من هذه الأحوال ليس بعد واحدًا. وفي الحق أنه إذا كان الموجود كمًا فيكون منقسمًا. وإذا كان متصلًا فيمكن فصله. وإذا افترض له في الذهن عظم فلا يكون بعد غير منقسم. وإذا ذهب إلى حد أن يجعل جسمًا فإذن يكون له الأبعاد الثلاثة، وبعبارة أخرى يكون له طول وعرض وعمق. ويكون مما لا يستطاع تأييده أن يدعى أن الموجود ليس على الإطلاق شيئاً من ذلك كله. وإذن فالموجود ليس واحدًا.

أقول: إن الموجود ليس كذلك متكثرًا لأنه ما دام ليس واحدًا لا يمكن بعد أن يكون كثرة. وفي الحق إن كثرة لا تتألف إلا من تركيب الوحدات، ومتى نفيت الوحدة انتفت الكثرة حتمًا.

حينئذ على ما تقدم كله يرى جليّاً أن الموجود ليس أكثر وجودًا من اللاموجود. ويمكن أن يستنتج منه أن الموجود ليس كذلك الموجود واللاموجود معاً. إذا كان الموجود، في الحق، هو ما يوجد وما لا يوجد فحينئذ اللاموجود يتحد مع الموجود في أمر الوجود. ومن ثم لا يوجد لا أحدهما ولا الآخر. فأما أن اللاموجود لا يوجد فهذا موضع اتفاق جميع الناس. ولكن قد قرر آنفًا أن الموجود يتماثل مع اللاموجود. فالموجود إذن ليس

يوجد كذلك. ولكن إذا كان الموجود مماثلاً للاموجود فلا يمكن أن يكون الاثنين معاً. فإذا كان الاثنين معاً فلا يكون مماثلاً، وإذا كان مماثلاً فلا يكون الاثنين. وينتج منه أن الموجود هو لا شيء. لأنه إذا لم يكن لا الموجود ولا اللاموجود ولا كليهما، ولا شيء وراء ذلك، فذلك بأن الموجود ليس شيئاً.

الآن يلزمنا أن نوضح أنه إن كان من شيء فذلك الشيء غير معروف للإنسان وأن عقله لا يمكن أن يفهمه. يقول غريغاس: إذا كانت تصورات عقلنا ليست موجودات فالموجود لا يمكن أن يتصور. وذلك بسيط كل البساطة. وفي الحق، كما أنه إذا كانت الأشياء التي نتصورها بيضاء هي في الحقيقة متصورة بيضاء فذلك الأشياء المتصورة ليست موجودات، فينتج منه بالضرورة الحتمية أنه لا يمكن أن تتصور موجودات حقيقية. وهذا دليل صحيح تام الصحة ومنتج جد الإنتاج. فإذا كانت الأشياء المتصورة ليست موجودات فالموجود لا يمكن أن يتصور الأشياء المتصورة ليست موجودات كما سنقره. وذلك فرض أول ينبغي التسليم به. إذن الموجود ليس متصوراً. فأما أن الأشياء المتصورة ليست موجودات فذلك ما هو بين بذاته. لأنه إذا كانت التصورات هي الحقائق فحينئذ كل ما يتصور يوجد وعلى الوجه الذي تصور به أيّاً كان هذا الوجه. وهذا هو سخيّف بالبدهة وافتراضه غير معقول بالمرّة. مثال ذلك: إذا شاء المرء أن يفترض إنساناً يطير في الأجواء وعربات تدرج على الأمواج، فلا ينتج من ذلك وحده أن الإنسان يستطيع أن يطير والعربات تدرج على أمواج البحر. على هذا فالتصورات التي تتصور ليست حقائق.

يلزم أن يزداد على هذا أنه إذا كانت الأشياء المتصورة موجودات فينتج منه أن الأشياء التي ليست موجودة لا يمكن أن تتصور. لأن الخواص المتضادة تتعلق بالأضداد. واللاموجود هو نقيض الموجود. فإذا كان إذن الموجود يمكن أن يتصور كما قد يعتقد فينتج منه أن اللاموجود لا يمكن أن يتصور. وهذا سخيّف. لأن الإنسان يتصور "سعلاً" و"الشيّير" وأشياء شتى أخرى ليس لها وجود ما. إذن الموجود ليس متصوراً. وكما أن

الأشياء المرئية هي بذلك يقال عليها إنها قابلة لأن ترى وأن الأشياء المسموعة يمكن أن يقال عليها إنها قابلة لأن تسمع لأن الإنسان يسمعها وأن المرء لا ينكر الأشياء المرئية لأنه لا يسمعها كما أنه لا ينكر الأشياء القابلة لأن تسمع بحجة أنه لا يراها فإن كل واحد من هذه الأشياء يجب أن يحكم عليه بحاسته الخاصة لا بحاسة أجنبية، كذلك الأمر في الأشياء المتصورة لأنه لا يمكن أن ترى بالنظر ولا أن تسمع بالسمع ما دام أنها مدركة بالحاسة الخاصة بها. وبالتالي إذا كان امرؤ يتصور العربات تدرج على المياه ولا يراها فلا يلزم منه إنكار أن العربات تدرج على الماء. ولكن هذا سخف. وإذا فالموجود ليس متصورًا ولا يمكن أن يفهم.

ولكن بافتراض أنه يفهم فلا يمكن نقله إلى الغير. وفي الحق إن الموجودات التي يمكن للمرء أن يراها ويسمعها وعلى وجه العموم أن يحسها هي مفروضة خارجة عنا ومن بينها المرئيات مدركة بالنظر وما يمكن سمعها مدركة بالسمع دون أن يكون ألبتة عكس ممكن، فكيف يمكن حينئذ التعبير عنها للغير. وفي الواقع إن طريقة الإيضاح التي عندنا هي الكلام. والكلام ليس هو الأشياء نفسها ولا الموجودات. إذن ليست الموجودات هي التي نعبر عنها للغير بل هو الكلام وحده الذي هو على الإطلاق خلاف الحقائق أعينها. وإذن فكما أن المرئي لا يمكن أن يصير قابلاً لأن يسمع وعلى التكافؤ، فكذلك الموجود المفروض أنه خارج عنا لا يمكن أن يصير هو كلامنا. وبما أن الكلام ليس موجوداً فليس من الممكن التعبير عن شيء ما للغير. وفي الواقع إن المقالة - كما يقول غرغياس - لا تتألف إلا من أشياء خارجية تأتي فتقع في ذهننا، أعني أشياء تدركها حواسنا. وعلى هذا فعلى أثر تسلط ذوق ما في الأشياء المدوقة يتكون عندنا الكلام الذي نعبر به عن هذا الكيف الخالص. وتبعاً لتدخل اللون يتكون الكلام الذي نعبر به عنه. فإذا كان هذا هكذا فليس الكلام هو الذي يمثل ما هو في الخارج بل هو الشيء الخارجي الذي يعين الكلام. لا يمكن أن يقال: إن الكلام هو على الوجه الذي عليه الأشياء المرئية أو المسموعة بحيث إن الكلام بافتراضه يمكن أن يستدل به على الموجودات

والموضوعات الخارجية. يقول غرغياس: لأنه إذا كان الكلام هو أيضًا موضوعًا فهو يختلف بالأقل عن جميع الموضوعات الأخرى. ومثال ذلك أي مسافة لا تكون بين الأشياء المرئية وبين الكلمات التي تعبر عنها؟ وفي الحق أنه إنما يختلف العضو الذي تدرك به الأشياء المرئية والذي يدرك به الكلام الذي يعبر عنها. وعلى ذلك فالكلام لا يمكن أن يبين الجزء الأعظم للأشياء الخارجية بذواتها، كما أن أكثر الأشياء لا يمكن على التبادل أن يبين بعضها طبع بعضها الآخر.

تلك هي أدلة غرغياس التي هي على قدر قيمتها تفسد كل مقياس للحق، لأنه ليس بعد من مقياس ما دام أن الوجود ليس موجودًا، وأنه لا يمكن أن يعلم وأنه ليس قابلاً لأن ينقل علمه إلى الغير.

راجع أيضاً Hypotyposes Pyrrhoniennes ك٢ ب٦ ف٥٧، ٥٩، ٦٤ - ص ١٣٤

و ١٣٦ من طبعة سنة ١٨٤٢.

الفهرس

مقدمة المترجم: بارتلمي سانتيلير

٥

أصول الفلسفة الإغريقية

هذان الكتابان اللذان جُمع بينهما في هذا السُّفر هما حملة على مدرسة إيليا التي هي من أقدم مدارس الفلسفة اليونانية - مهد الفلسفة هو في مستعمرات شواطئ آسيا الصغرى: طاليس وفيثاغورث وإكسينوفان..... إلخ وسابقوهم الحقيقون بالإعجاب هوميروس وسافو.... إلخ - علم الفلك والرياضيات والتاريخ والطب.... إلخ - الانتحادات الثلاثة: الأيوليون في الشمال، واليونان في الوسط، والدوريون في الجنوب - جملة الحوادث الكبرى التي تدخل في أمرها الفلاسفة من طاليس إلى ميليسوس من السنة ٦٢٠ إلى السنة ٤٣٠ قبل الميلاد - حرب يونيا مع ليديا ومع مملكة الفرس - الوسائل المادية التي كانت عند الأقدمين لكتابة المؤلفات - الكتب من طاليس إلى زمن أرسطو طاليس - شهادات هيرودوت وطوكوديدس وأكسينوفون وأفلاطون وأرسطو - الاستعمال العام لورق البردي المصري - صنع الورق على قول بلاين - رسائل شيشرون - إيضاح هذه الحوادث - ورق البردي المحفوظ في دور الآثار عندنا (فرنسا) - محاجر وأقلام الكتبة التي يرجع تاريخها على الأقل إلى نحو خمسة وعشرين قرناً - أولية الفلسفة اليونانية - كونها لا تدبش بشيء للشرق - المقارنة بينها وبين الفلسفة الهندية - خلاصة القول على مدرسة "إيليا" - المعنى الحقيقي لنظرية الوحدة.

الكتاب الأول

الباب الأول - الموضوع العام لهذا الكتاب - تمحيص المذاهب السابقة - آراء مختلفة - تمحيص نظريات أنكساغوراس ولوكيس وديمقريطس - نقض خاص لمذهب

أمبيدقل - الاستشهاد ببعض أبياته - المعاني المختلفة التي يحمل عليها كون الأشياء تبعًا لما يسلم به من الوحدة أو التعدد للعناصر الأولية.

١٠٧

الباب الثاني - عدم كفاية نظرية أفلاطون - عود على نظرية ديمقريطس ولوكيس - نظرية جديدة على كون الأشياء وفسادها - النمط المتبع - أهمية مسألة الذرات - رأى ديمقريطس ولوكيس - رأى أفلاطون في كتابة طيماوس - خطأ هؤلاء وهؤلاء - وجوب الأخذ بملاحظة الأحداث على الأخص - فضل ديمقريطس من هذه الجهة - أفكار في قابلية الأشياء المقسمة - يمكن افتراض القسمة لا متناهية - صعوبات هذه النظرية - صعوبات ليست أقل خطرًا من نظرية الذرات - نقض هذه النظرية - المعنى العام الذي يحمل عليه كون الأشياء.

١١٥

الباب الثالث - في الكون المطلق وفي فساد الأشياء - صعوبة هذه المسألة - الكون والفساد الإضافيان - النمط الذي يتخذ في هذا البحث - شواهد من كتاب الحركة - أبدية الكائنات وتعاقبها المستمر - تبادل الكون والفساد - تمييز لفظي مهم - استشهاد برمينيد - الفرق بين الكون المطلق والكون الإضافي - فروق الفساد باعتبار هذين الوصفين - الرأي العامي في هذا الموضوع في أن شهاد الحواس تعطى أكثر مما تستحق - توضيحات مختلفة - طريقة فهم أبدية الظواهر.

١٢٧

الباب الرابع - فصول الكون والاستحالة - تمييز الموضوع ومحمول - الموضوع حد الاستحالة - أمثلة مختلفة - حد الكون المطلق وأمثلة متنوعة - آخر المقارنة بين الكون والاستحالة.

١٣٩

الباب الخامس - نظرية النمو - الفروق بينه وبين الكون والاستحالة سواء في موضوع النمو أو في الكيفية التي يحصل بها النمو - نقلة الشيء النامي غير المحسوسة - صعوبة إدراك من أين يأتي النمو في الجسم - كل أجزاء الجسم تنمو دفعة واحدة - الشروط الأصلية للنمو هي ثلاثة - المقارنة بين النمو والاستحالة - نظرية جديدة للنمو - تمييز ما بالفعل من ما بالقوة - يلزم أن ما بالقوة يتعلق حتى يوجد النمو - علاقة العنصر الجديد الذي يحدث نمو الجسم بالجسم النامي.

١٤٣

الباب السادس - الفعل المتكافئ للعناصر بعضها في بعض - في اختلاطها - رأى ديوجين الأبلوني - لأجل إدراك أن العناصر تفعل أو تنفعل بعضها ببعض يلزم توضيح ما يعني بتماسها - المعاني المختلفة لهذه الكلمة - الفرق بين الحركة والفعل - المحرك

غير المتحرك لا حاجة به ضرورة إلى مس الشيء الذي يحركه - الشيء المحرك يمكن
ألا يمس شيئاً هو أيضاً في تقويته - آخر نظرية التماس

١٥٧

الباب السابع - نظرية الفعل والانفعال - أراء الفلاسفة - ديمقريطس هو الذي أجاد فهم
هذا الموضوع - سبب خطأ الفلاسفة - الشبيه لا يمكن أن يقبل أي فعل من الشبيه -
العلاقة الضرورية بين الفاعل والمنفعل - الشبه والفرق بينهما - توفيق رأيين متعارضين
في تمييز لفظي - المشابهة بين الحركة وبين ظاهرتي الفعل والانفعال - المحرك الأول
يمكن أن يكون غير متحرك - الفاعل الأول يمكن أن يكون كذلك لا منفعلاً - ختام نظرية
الفعل والانفعال.

١٦٣

الباب الثامن - نقض النظرية التي تفرض أن الفعل والانفعال يحدثان في الجواهر
المادية بالمسام - رأي الفلاسفة القدماء - استشهاد من أمبيدقل - لوكيس وديمقريطس
هما أقرب إلى الحق - وحدة الوجود محال وكذلك ثباته - غرائب ضلالات الفلاسفة
القدماء - عرض نظرية لوكيس - عرض نظرية أمبيدقل - مواطن الاتفاق والاختلاف بينها
وبين نظرية لوكيس - استشهاد من طيماوس أفلاطون - مقارنة بين أفلاطون ولوكيس
- اعتراضات على نظرية أفلاطون وعلى نظرية الوحدة ونظرية الذرات - استحالة قبول
وجود الذرات وفهم من أين جاءت الحركة - الرؤية من خلال الأوساط تصير غير قابلة
للإيضاح - خاتمة نقض النظرية التي تفسر بواسطة المسام الفعل والانفعال في الأشياء.

١٧١

الباب التاسع - تفاصيل جديدة على نظرية كون الأشياء وعلى خواصها الفاعلة والقابلة
- الأفعال التي تحصل عند التماس وعلى بعد - توضيح ديمقريطس غير الكافي - تحول
أشكال الأجسام إذ تتغير بالحال دون أن تتغير بالمكان - خاتمة نظرية الفعل والانفعال.

١٨٣

الباب العاشر - نظرية الاختلاط - من الفلاسفة من أنكر أن الأشياء أمكنها أن تختلط
فيما بينها - إبطال هذه النظرية - المعنى العام لشروط الاختلاط - الطبع المختلف
للأجسام المختلطة - الفرق بين الاجتماع وبين الاختلاط الحق - لكي يوجد اختلاط
بين الأشياء يلزم أن يوجد بينها تجانس بل شيء من التناسب - النقطة من النيذ في كمية
من الماء - سهولة الاختلاط أو صعوبته تبعاً للتخالف في طبع الأشياء وصورتها - خاتمة
نظرية الاختلاط.

١٨٧

٣٢٧

الكتاب الثاني

- الباب الأول** - نظرية عناصر الأجسام - عددها - شاهد من أمبيدقل - المادة ليست منفصلة عن الأجسام كما هو في طيماوس أفلاطون فيما يظهر - نقض هذه النظرية - أنها حقة بجزئها باطلة بالجزء الآخر - شاهد من المؤلفات المختلفة السابقة - نظرية جديدة على المبادئ العنصرية للأجسام - طبعها وعددها. ١٩٥
- الباب الثاني** - حد الجسم كما تعرفه لنا حاسة اللمس - تعدد الأضداد الأصلية التي يعرضها الجسم المحسوس باللمس - فصول هذه الأضداد - الفعل المتباين للبارد والحر والجاف والسائل - علاقة جميع الفصول الأخرى بهذه الفصول الأربعة الأصلية. ١٩٩
- الباب الثالث** - تراكيب العناصر بين بعضها والبعض - ليس منها إلا أربعة لأن الأضداد خارجة عنها - نظريات سابقة على عدد العناصر - برمينيد - أفلاطون - أمبيدقل - طبع العناصر المختلفة - الأمكنة المختلفة التي يشغلها في الآن. ٢٠٣
- الباب الرابع** - نظرية تبدل العناصر بعضها ببعض - فصول العناصر فيما بينها يمكن أن تكون أكثر أو أقل عددا - سهولة التبدل وصعوبته - أمثلة مختلفة بحسب تجاوز العناصر أو البعد بينها في النظام الذي هي مرتبة بعد وبحسب تماثل كفيات العناصر أو تقابلها - خاتمة الجزء الأول لنظرية التبدل المتكافئ بين العناصر. ٢٠٧
- الباب الخامس** - بقية نظرية تبدل العناصر - من المحال ألا يوجد إلا عنصر واحد منه تأتي كل العناصر الأخرى - في هذا الافتراض قد تحصل استحالة العنصر الوحيد ولكن لا يحصل ألبة كون حقيقي للعناصر المختلفة - شاهد من طيماوس أفلاطون - عرض جديد للطريقة التي بها تتغير العناصر بعضها إلى بعض - يحصل التبدل بسرعة متناسبة مع وجود كيف مشترك - نسبة العناصر الأطراف بعضها إلى بعض ونسبة العناصر الأوساط - الحدود الضرورية لهذا التحول - لا يمكن التمشي إلى اللانهاية في أي واحدة من الجهتين - البيان الحرفي لهذا المبدأ. ٢١٣
- الباب السادس** - إبطال نظرية أمبيدقل على مقارنة العناصر بينها سواء بالنسبة إلى الكم أم بالنسبة إلى الأثر والتناسب - في مذهب أمبيدقل نمو الأشياء يرجع إلى مجرد جمع -

إنه لا يفسر أيضاً كون الأشياء، بل أخضعه لسلطان المصادفة، ولا علة الحركة الأصلية ولا طبع الناس الحقيقي - شواهد مختلفة من شعر أمبيدقل.

٢١٩

الباب السابع - بقية إبطال مذهب أمبيدقل - متى أنكر أن العناصر يمكن أن تتغير بعضها إلى بعض فلا يمكن توضيح تكون الجواهر العضوية المختلفة - شاهد من أمبيدقل - صعوبة توضيح تكون الجواهر المختلفة ليست أقل عظماً متى سلم بأحقية المادة - تعيين نظرية جديدة فيها تكون الأضداد هي التي يفعلها المتكافئ تكون جميع جواهر الطبيعة.

٢٢٥

الباب الثامن - التركيب العام للأجسام المختلفة - يوجد في كلها من الأرض ومن الماء الذين هما عنصران ضروريان - وفيها أيضاً من الهواء ومن النار وهما ضدا العنصرين الأولين - ظاهرة التغذية التي يستشهد بها سنداً لهذا النظرية - كيف أن النار هي العنصر الوحيد، من العناصر البسيطة، الذي يغذي نفسه.

٢٢٩

الباب التاسع - الهيولى والصورة - المبادئ الأول للأشياء - ضرورة مبدأ ثالث وهو العلة المحركة - إبطال نظرية المثل على نحو ما عرضها أفلاطون في الفيدون - إن المثل لا يمكن أن تفسر كون الأشياء - إنها لا تكون - يرى أن طائفة من الأشياء تتكون تحت أعيننا بلعل أخرى - إبطال النظرية التي تفسر كون الأشياء بحركة المادة - المادة قابلة لا فاعلة - أمثلة مختلفة مستخرجة من طرائق الفن.

٢٣٣

الباب العاشر - كون الأشياء وفسادها هما متصلان كالحركة ويتعلقان بالنقلة الدائرية للعالم - ضرورة حركتين - النقطة الدائرية المائلة تسد هذه الضرورة - انتظام الكون والفساد الطبيعيين - المدة الدورية للكائنات - فعل الله - القوانين الثابتة التي وضعها في أبدية الأشياء - النظام العجيب للعالم - تغير الأجسام إنما هو الذي يحفظ مدتها - المحرك الأول غير المتحرك هو المبدأ الوحيد للحركة العالمية - اتصال الحركة يتعلق باتصال المتحرك.

٢٣٩

الباب الحادي عشر - نظرية تعاقب الأشياء الأبدي المنتظم - على أي مقدار يكون تدخل الوجوب - الأشياء الواجبة والأشياء الممكنة - الوجوب المطلق - الوجوب الإضافي - علاقة الواجب والأزلي - كون الأشياء لا يمكن أن يكون أبدياً إلا إذا كان دائرياً - ترتيب الأشياء العجيب - الحركة الدائرية للفلك الأعلى تنظم كل الحركات السفلى، حركة الشمس، وحركة الفصول وكل الحركات الأخرى - أبدية الأنواع - فناء الأشخاص المتعاقب - أزلية بعض الجواهر - خاتمة الكتاب.

٢٤٥

٣٢٩

في ميليسوس وفي إكسينوفان وفي غريغياس

مذاهب ميليسوس

الباب الأول - الموجود هو أزلي غير متناه واحد ولا متحرك - أركان الوحدة ونتائجها - الاختلاط ظاهراً للأشياء هو ضد الوحدة - الحذر الذي ينبغي أخذه من شهادة الحواس - ردود على نظرية الوحدة وعلى اللا أدريّة - الآراء المضادة لهذا المذهب - شواهد من هيزبود وبعض فلاسفة آخرين.

٢٧١

الباب الثاني - تنمة تفنيد ميليسوس - ردود على مبدأ أنه ليس شيء يأتي من لا شيء - تولد الأشياء وكونها بعضها من بعض على التكافؤ - نظريات أمبيدقل وأنكساغوراس وديمقريطس وبرمينيد وزيونون - شواهد من شعر أمبيدقل وهيزبود - الوجود ليس ضرورة واحداً أزلياً ولا متناهياً.

٢٧٧

مذاهب إكسينوفان

الباب الثالث - نظرية إكسينوفان في حق الله - الأزلية - القدرة - أحدية الله - يجب أن يتصور كأنه فلك - الله منزّه عن الحركة والسكون ومنزه عن أن يكون متناهياً ولا لا متناهياً.

٢٨٩

الباب الرابع - إبطال نظريات إكسينوفان - استشهاد من ميليسوس - كيف يلزم أن يعني بقدرة الله - الله ليس فلكياً - إنه لا متناهٍ - وحدانية الله ليست منافية لكونه متناهياً - في نفي الحركة عن الله في الحركة التي يمكن أن تصورها في حق الله استشهاد من زيونون.

٢٩٣

مذاهب غرغياس

- الباب الخامس - النظريات الثلاث الأصلية لغرغياس: على الوجود وعلى امتناع العلم
وعلى نقل العلم - على النظرية الأولى يجمع غرغياس بين الآراء السابقة- ميليسوس
وزينون- بسط مذهب غرغياس في امتناع الوجود والمعدوم على السواء. ٣٠١
- الباب السادس - نقض نظرية غرغياس الأولى - شاهد من ميليسوس وزينون- الوجود
واللاموجود لا يشتبهان، والحركة هي ممكنة- شاهد من مقالات لوكيس- نقض نظرية
غرغياس الثانية على امتناع العلم، ونقض النظرية الثالثة على امتناع نقل العلم بعد كسبه-
إيدان بأن نظريات الفلاسفة القدماء ستدرس بعد دراسة خاصة. ٣٠٣
- قطع من ميليسوس ٣١١
- تحليل نظرية غرغياس لسكستوس أمبيريكوس ٣١٩